البستان الجامع لكل نوع حسن وفن مستحسن
في عد مآثر السلطان مولانا الحسن

تأليف:

محمد بن إبراهيم السباعي المراكشي
(المتوفى سنة 1332هـ / 1914م)

صورة حقيقية

للسلطان الحسن الأول رحمه الله



ت 1311هـ - 1894م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وصلى الله على سيدنا مُحَّد وآله وصحبه

نكتفي في مقدمة هذا الكتاب بمقال أوردته مجلة دعوة الحق في عددها 286 صفر-ربيع 1-ربيع 2/ شتنبر-أكتوبر-نونبر 1991م بقلم الأستاذ عبد القادر زمامة تحت عنوان "**مع المؤرخ السباعي في مخطوطه البستان الجامع**" وهذا نصه الكامل:

كانت نهضة الشعور الوطني في المغرب الأقصى أواخر القرن الثالث عشر الهجري وأوائل القرن الذي بعده، نهضة بادية للعالم والأعلام، تستمد قوتها وفعاليتها من الأحداث التي كانت تمر بالبلاد، والمواقف الصعبة التي أملتها ظروف داخلية وخارجية، أيقظت المشاعر، وحركت السواكن... !

لهذا يجد الباحث المتعمق نفسه – عند التتبع والاستقراء – أمام أنماط وأصناف وأساليب متنوعة من الكتب والرسائل والاتجاهات والمشارب والاهتمامات، تبدو للمتأمل وكأنها انعكاسات على مرآة الحياة العاملة بالمغرب، يشع مها ما كان يشغل بال العدد الكبير من رجال المعرفة والثقافة والسياسة والرأي، وهو يواجهون ما يهدد البلاد، ويقلق راحتها، ويشككها في مقوماتها الحضارية والسياسية والاقتصادية والتاريخية، بأساليب شتى، ومن جهات شتى... !

ولنتصور أنفسنا أما مواهب وأقلام مغربية، وشخصيات استوعبت معارف عصرها، وثقافة بيئتها، وتراكم في أذهانها ذلك الرصيد الحضاري، ترفعه رافعة...وتخفضه خافضة.

ولنتصور ما دب إلى البلاد من تطلعات ومكايد، وتدخلات ومضايقات، كلها تذكي الشعور الوطني على مختلف المستويات، وتوجه عناصر التفكير وأساليب التعبير لربط حلقات التاريخ: ماضيا وحاضرا ومستقبلا حتى لا يسدل الظلام ستائره على الماضي الذي سيتجدد...وينبعث...لا محالة...

ولقد سبق لهذا القلم أن درس هذه الحقبة من تاريخ نهضة الشعور الوطني في المغرب الأقصى أواخر القرن الثالث عشر الهجري، وأوائل القرن الذي بعده...من خلال مخطوطتين تاريخيتين هما:

* الحلل البهية: للمؤرخ مُحَّد المشرفي المتوفى سنة 1334هـ/1915م.

* والمفاخر العلية: للمؤرخ عبد السلام العمراني المتوفى سنة 1332هـ/1914م.

واليوم يأتي دور مخطوطة ثالثة من المؤلفات في هذا الموضوع التاريخي، وهي مخطوطة:

* البستان الجامع لكل نوع حسن: للمؤرخ مُحَّد بن إبراهيم السباعي المراكشي المتوفى سنة 1332 هـ/1914م. فهؤلاء المؤلفون الثلاثة: المشرفي والعمراني والسباعي، وهذه المخطوطات الثلاث: (الحلل البهية) و (المفاخر العلية)، و(البستان الجامع)، إنما هي حلقات من سلسلة طويلة من المؤلفين والمؤلفات، رسمت بأساليب وأنماط متنوعة ممن التفكير والتعبير، لوحات من الشعور الوطني لمغربي، والبلاد على أبواب نهضة شاملة على عهد السلطان الحسن الأول رحمه الله...

وحديثنا عن مخطوطة: (البستان الجامع) يتناول جانبين أساسيين:

- جانب المؤلف السباعي...

- وجانب مُحَمَّد بن إبراهيم السباعي المراكشي علم هير من أعلام عصره، وثقافته العلمية، وميزته الخلقية، ومكانته الاجتماعية في الأوساط العلمية وغيرها لمدة طويلة... !

ولقد لفت أنظار معاصريه بمحاضراته ودروسه وفتاويه الفقهية ولسانه الحاد، وقلمه السيال، وصراحته المثالية في نقد الانحرافات في السلوك والعلم والتدبير، وانتهاك الحرمات: والتهاون في حقوق المستضعفين من جهة بعض الولاة والموظفين، كما لفت أنظار طلبة العلوم المختلفة لتبحره واتساع دائرة معارفه، فلازموه أينما حل وارتحل، حضرا وسفرا. ولا سيما في مراكش وفاس، وكان من المعتاد والطبيعي أن تجر عليه صراحته وحدته كثيرا من الانتقادات والمتاعب والمكايد، وأن يصل ذلك إلى علم رجال السلطة والنفوذ مع تجسيم يبعثهم على إيقاف نشاطه، والانتقام منه بوسائل معروفة... ! منها الحبس... ! ومنها الإبعاد... ! ومنها تلفيق التهم... !

ومن حسن حظ هذا العالم الجليل أن التدابير التي تكرر اتخاذها في حقه من جهة بعض الولاة والموظفين من أجل انتقاد تصرفاتهم. لم تكن لتصرفه عن خطته، أو لتنال من قيمته العلمية ومكانته الاجتماعية عند خاصة الناس وعامتهم... ! بل إنها على العكس من ذلك زادته تقديرا وتكريما، وسعة في الشهرة والجاه... !

كما أن من حسن حظه أن يكون من من دروسه العلمية، وراقبوا سيرته الذاتية، وربطوا سند معلوماتهم ومعارفهم به، عالمان كبيران ومؤلفان شهيران هما:

- العباس بن إبراهيم، المراكشي.
- وعبد الحفيظ الفاسي.

فالقاضي العباس بن إبراهيم، استفاد منه كثيرا، وكتب له ترجمة حالفة بشيوخه في مراكش وفاس، ومعارفه الواسعة، وشخصيته القوية، وتقاليده ورسائله وفتاويه ومؤلفاته التي من جملتها: (كشف الستور في حقيقة كفر أصحاب باسبور)، وقد شغلت هذه الترجمة عدة صفحات من كتابه التاريخي: (الإعلام بم حل مراكش وأغمات من الأعلام). ([1])

والقاضي عبد الحفيظ الفاسي كان أيام دراسته واشتغاله بعلوم الرواية حريصا كل الحرص على الاجتماع بالشيخ مُحَمَّد بن إبراهيم السباعي في كل من فاس ومراكش، والاستفادة من معارفه ورواياته وأسانيده وإفاداته وإملاءاته.. ولقد استجازه فأجازه على الطريقة المعهودة في ذلك العصر، واعتز بهذه الإجازة...!

كل ذلك تحدث به عبد الحفيظ الفاسي أثناء الترجمة المفيدة التي كتبها الشيخ السباعي، والتي أخذت صفحات من كتابه المفيد: (معجم الشيوخ المسمى رياض الجنة)... !([2])

---

1 - انظر الجزء السابع ص: 190، وانظر تقريظ السباعي لكتاب "إظهار الكمال" في "الإعلام" ج1 ص: 56

2 - انظر الجزء الأول ص: 55

وهكذا تتجلى لنا شخصية الشيخ السباعي المراكشي شخصية ذات أبعاد في العلم والرواية، والشهرة والأخلاق، والتأثير الاجتماعي في الحياة المغربية، وتحمل المتاعب والمضايقات من أجل الجهر بالحق، وانتقاد الانحرافات المتنوعة... !

ولعل هذا كان كافيا ليحظى بمنزلة سامية عند السلطان المولى الحسن الأول...

ويتجلى ذلك واضحا في قصة رواها تلميذه المؤرخ العباسي بن إبراهيم أثناء الترجمة التي كتبها له في كتاب: "الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام" والتي أشرنا إليها سابقا.

كما أن هذه الحظوة التي جعلت السلطان المذكور – كما يقول المراكشي في كتاب: "الإعلام" – يامره على يد الوزير الشهير أبي الحسن علي المسفيوي بكتابة التاريخ المسمى: (البستان الجامع لكل نوع حسن...)، الذي تتحدث عن مضامينه ومادته التاريخية، التي جمعها الشيخ السباعي ونسقها بأسلوبه الخاص، بعد أن تحدثنا عن بعض الملامح من ترجمته التي احتفظ بها كل من صاحب: "الإعلام وصاحب: "رياض الجنة".

تقع مخطوطة: "البستان الجامع لكل نوع حسن وفن مستحسن في عد بعض مآثر السلطان "مولانا الحسن" فيما يقرب من ستين ومائة ورقة من الحجم المتوسط، وتوجد منها عدة نسخ، منها نسخة الخزانة الحسنية رقم 12432 بالرباط، والتي بها خط المؤلف السباعي... !

ومن أجل أن نعرف سبب التأليف، ينبغي أن نطلع على ما جاء في هذه المخطوطة من رسالة مؤرخة بتاسع جمادى الثانية سنة 1306 هـ بعثها الوزير علي المسفيوي إلى المؤلف، يامره فيها بقوله مخاطبا إياه:

"أن تشرع في تأليف مصنف يكون محتويات على جميع سيرته، وتتبع فيها الوقائع الصادرة في ظعنه وإقامته من أول خلافته، ولا تتعرض فيه، لوضع أحد ولا لتنقيصه بما ليس فيه. وتقتصر على ما هو الأليق بالمقام، وتجتنب ما كان خارجا على سياق الانسجام... !"

ونحن نعلم مسبقا أن المؤرخ عبد السلام العمراني الجائي كان قد ألف كتابه: "المفاخر العلية" سنة 1305هـ ورفعه إلى مقام السلطان المولى الحسن الأول، وهو كتاب تاريخي، بفصوله الأخيرة معلومات متسعة عن دولة هذا السلطان، وما تم فيها من منجزات، وما قام به من أعمال شرق ذكرها وغرب، مع اهتمام بالحياة العلمية والثقافية وذكر أعمالها بالحياة العلمية والثقافية وذكر أعلامها ومعالمها، مما يفيد المؤرخ الباحث كثيرا...

فكتاب السباعي جاء بعد كتاب العمراني كما لا يخفى، والمؤلف جعل تصميما لكتابه، وقسمه إلى أربعة أقسام، سمى كل قسم كتابا... !

فالكتابان الأولان، خصصهما المؤلف للعهد الذي كان فيه الحسن الأول وليا للعهد، يقوم بمسؤوليات جسيمة في الأقاليم المغربية الجنوبية وأحوازها، وينوب عن والده في فض النزاعات، وحل المعضلات، والمحافظة على النظام، ونشر الطمأنينة، وربط الصلة بين القبائل والسلطة المركزية، وقد قام بذلك أحسن قيام.

ومن الطريف أن المؤلف السباعي يعبر عن هذا العهد باسم الخلافة الصغرى، ويستعمل تعبيره هذا في القسمين الأولين من كتابه هذا، ويقصد بذلك ولاية العهد... !

كما أنه يعبر عن العهد الثاني الذي تربع فيه على عرش المغرب باسم الخلافة العظمى، ويستعمل تعبيره هذا في القسمين الأخيرين من كتابه هذا، ويقصد بذلك العهد الذي تحمل فيه أعباء الملك، ومسؤولية الحكم... !

ونلاحظ في القسمين الأولين من المخطوطة أن بهما معلومات تاريخية جغرافية واجتماعية، كان السباعي على صلة بها، لكونه يعرف المناطق المغربية الجنوبية معرفة واسعة، ويعرف تركيبها البشري والطبيعي والاجتماعي، وما هي في حاجة إليه، كما نلاحظ أن بهما أشياء تتعلق بأعمال السلطان سيدي مُحَّمد بن عبد الرحمان، وسيرته، ومعالم سياسته، وما جابهه من قضايا وأحداث، ذكر المؤلف الشيء الكثير منها...

وابتدءا من القسم الثالث، نجد السباعي يدخل في تسجيل الأحداث بطريقة جزئية، متتبعا الترتيبات الزمانية والمكانية، والمعالم والشخصيات، مع نفس متميز في العرض والتعليق والتعقيب... !

ونقف قليلا عند ما سجله من أحداث وغمرات تتعلق بواقعة (بني مجيلد)، وما وصل في شأنها من كتاب سلطاني إلى قاضيي مراكش: الحاج على الرجراجي ([3]) والسيد أبي بكر بناني ([4])، شارحا البدايات والنهايات، والوسائل والغايات.

فالمؤلف أطلع على هذا الكتاب، وعلق على مضمونه تعليقا بدل علة أنه كان يتابع أحداث عصره، ويعرف أبعادها ومراميها بحماس وشهور وطني... !

وأفادنا المؤلف السباعي بعد تعليقه على الواقعة، وما جادت به قرائح الشعراء في شأنها، - وكان من ضمنهم المؤلف السباعي - أنه كتب بنفسه "تقريرا" في الموضوع، ورفعه إلى مقام السلطان فاستحسنه وأقر أن تكتب منه عدة نسخ، وتزخرف بالذهب، وأمر وزيره المسفيوي أن يكاتب المؤلف ليشرع في كتابة هذا التاريخ، وقد أشرنا إلى ذلك كم قبل... !

كما نقف قليلا عند ما سجله من أحداث وقضايا تتعلق بحادثة الأمين (بنيس)، والفتنة التي قام بها بعض المحترفين بفاس المعروفة، وبفتنة الدباغة، والتي دامت عدة شهور... !

وقد كتب عن هذه الحادثة عدد من المؤرخين ممن عاصروها وعرفوا أسبابها ونتائجها...! إلا أن المؤرخ السباعي في مخطوطته هاته أفادنا بتفصيلات وتدقيقات غريبة ومفيدة، كما أنه ذكر بصراحة شخصيات كانت تؤيد العاملين على إثارة هذه الفتنة، وما تعرضوا له بعد طي صفحتها من مؤاخذات، الشيء الذي مر عليه المؤرخون مر الكرام... !

والحقيقة، أن القسمين الآخيرين من هذه المخطوطة سجل حافل بالأحداث والوقائع والحركات في جهات متعددة من المغرب، مع اهتمام واضح بالأعلام الجغرافية والقبلية والبشرية، والمسالك والطرق والأنهار، وما إلى ذلك.

كما أنها سجل حافل بما قام به السلطان المرحوم المولى الحسن الأول من أعمال جليلة في جل جهات المغرب... ! منذ ولايته للعهد إلى أن ودع هذه الحياة سنة 1311 هـ

ويأتي بعد ذلك الجانب الاجتماعي والعمراني الذي يتخلل هذين القسمين.

---

3 - انظر ترجمته في "الإعلام" ج9 ص:265

4 - المصدر السابق ج: 1 ص222

فالمؤلف على دراية تامة بالعادات والتقاليد التي كانت سائدة بين القبائل، والحساسيات، والتدابير السياسية والاجتماعية التي كانت تعالج بها سرا وعلنا... !

كما أنه على دراية تامة بما يسود المدن المغربية من أنظمة، وترتيبات حضارية، تشمل الاستقبالات والأفراح، والحفلات، والمواسم والأعياد، والتكافل الاجتماعي، والارتباط بالمشاعر الدينية والوطنية والعائلية، والحياة العلمية والثقافية... !

وفي المجال العمراني، يسجل المؤرخ السباعي منشآت السلطان الحسن الأول رحمه الله في طول البلاد وعرضها، ويشمل ذلك المنشآت العسكرية والدينية والعلمية والإحسانية، كل ذلك مع استيعاب وتحقيق، وتفهم للمقاصد النيلة، والمرامي الحسنة... !

لعل مؤرخنا هذا كان يستمد معلوماته المدققة أو بعضها من شخصيات مخزنية سامية كانت ترافق الركب السلطاني في تنقلاته عبر المغرب، زيادة على معلوماته الشخصية التي ينميها باستمرار سماعا ومشاهدة واطلاعا...

كل هذا نتحدث به عن مضامين المخطوطة، والمادة التاريخية المتنوعة المفيدة التي تقدمنا لنا...

أما من ناحية الشكل والأسلوب فالمؤرخ السباعي يملك ناحية اللغة، كما أنه يحفظ من الأشعار والأمثال والقصص والنكت البيانية الشيء الكثير، ويأبى إلا أن يستعمل ذلك مع أسلوب فيه خصائص الصنعة والتصنيع.

ويفرط أحيانا في الزخرفة اللفظية التي كانت – في نظره – ميزة فحول الأدباء ونوابغ الكتاب... !

وهذا ما يجعلنا أحيانا أمام غموض فيما يقصده المؤرخ، والتواء في أسلوبه المثقل بالتصنيع والمحسنات البديعية... !

ومع ذلك، فإن هذه المخطوطة التي عرضنا بعض مضامينها، لوحة معبرة عن جوانب من نهضة الشعور الوطني في المغرب أوائل القرن الرابع عشر الهجري، وأواخر القرن التاسع عشر الميلادي.

ترجمة المؤلف مُحَمَّد بن إبراهيم السباعي منقولة من كتاب الإعلام للطعارجي ج7 ص190

مُحَمَّد بن إبراهيم بن مُحَمَّد بن الحفيد السباعي ثم الحاجي المراكشي، شيخ الجماعة بها من فخذ يعرفون بالعبيدات من أولاد أبي السباع جد سيدي المختار السباعي صاحب الضريح في طريق الصويرة لمراكش، وأبو السباع هو عيسى بن إبراهيم بن هلال بن مُحَمَّد بن يوسف بن أبي زيد بن عبد الرحمان بن سلام بن عبد العزيز بن عبد المومن بن زيد بن رحمون بن زكرياء بن مُحَمَّد بن عبد المجيد بن علي بن عبد الله بن عبد الله بن عبد الله بن أحمد بن إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء بنت مولانا رسال الله ﷺ ورضي عنهم، هكذا ساق أحمد بن المهدي الغزال نسب أبي السباع، وسيأتي خلافه. فالمترجم رحمه الله شيخنا الإمام سواه الله من طينة الشرف والحسب، وغرس دوحته الطيبة بمعدن العلم الزكي المحتد والنسب، الفقيه العلامة الذي تمشي تحت علم فتياه العلماء الأعلام، وتخضع لفصاحته وبلاغته صيارفة النثر والنظام من حملة الأقلام، الدراكة الفهامة الذي ساجله علماء عصره ليدركوا في مجال الإدراك شأوه فرجعوا منكوسى الأعلام، حامل لواء الفتيا، ومالك أزمة المنقول والمعقول من غير شرط ولا ثنيا، من زُرع حَب حُبه في القلوب فاستوى على سوقه، وكاد كل قلب من تلامذته وغيرهم يذوب من حر موته وشوقه، الذي تزينت بدروسه المساجد والمدارس، واحتاج إلى منطوقه و مفهومه كل مذاكر ومدارس، وجمع شمل العلوم ونسق نظامها، ورفع منار الإفادة ونشر أعلامها، مفرد زمانه إلا أنه قام مقام الجمع، المستغرق لأوقاته في الإفادة والتصنيف لما يشنف السمع، الساعي في ذلك أشرف المساعي، إلى أن دعاه مولاه لدار كرامته فلبي دعوة الداعي، قدس الله روحه، و برد ضريحه، وأسكنه من أعلا الجنان فسيحه، بمنه وفضله وكرمه وإحسانه، وجوده وامتنانه.

ولد رحمه الله في أواسط العشرة الخامسة من القرن الثالث عشر، أخذ العلم رحمه الله عن شيوخ وقته بمراكش وفاس وغيرهما، وأجازه منهم أعلام، منهم الشريف الجليل العلامة الحافظ مولاي الصادق العلوي دفين روضة مولاي علي الشريف بمراكش، وشيخ الجماعة العلامة المشارك البركة سيدي أحمد المرنيسي المتوفى عام سبعة وسبعين ومئتين وألف 1277 والشيخ الفقيه العلامة ذو القريحة الوقادة، سيدي الحاج مُحَمَّد بن المدني كنون، أخذ عنه صحيح البخاري عن آخره درسا، والشفا، وممن أخذ عنه جميع البخاري سرداً العلامة سيدي الحاج عمر ابن سودة، وممن أخذ عنهم الفقيه العالم العامل بعمله سيدي سعيد بولواح الدمسيري، ثم بعده شيخ شيوخ الجماعة كلها بعصره، فذ الزمان في دهره، أعجوبته في صناعة التدريس وتحقيقه وتحريره ، سيدي مُحَمَّد بن عبد الرحمان الفيلالي المتوفى عام خمسة وسبعين ومئتين وألف 1275 ، ومعاصره البركة طيب الأخلاق أحمد المرنيسي المتقدم، ثم الفصيح اللافظ الحاج عمر بن سودة، ثم الحافظ اللافظ، قاضي الجماعة الشريف مولاي مُحَمَّد بن عبد الرحمان العلوي والفقيه الحافظ السيد مُحَمَّد المكناسي المتوفى بعد قفوله من الحج بالينبع سنة 1283 المترجم في (اللؤلؤ المكنون، في اختصار ابن عيشون)، والفقيه الحاج مُحَمَّد كنون، وهؤلاء هم العمدة الكبرى المذكورون في إجازته العامة في كل ما له بتاريخ عام عشرين وثلاثمئة 1320 المذكورة مع ما يتعلق بها وبترجمته في (إظهار الكمال) في نحو ثلاث عشرة ورقة من القالب الرباعي. فلتراجع هناك .

وأخبرني الشيخ رحمه الله أنه قرأ التفسير من قوله تعالى (لا خير في كثير) إلى سورة الرعد علي سيدي أحمد المرنيسي، وأنه قرأ علم العروض على الشريف العلامة مولاي عبد المالك الضرير العلوي، وأن شيخه المذكور أقرأه بهذه الحضرة سابقا، كما أخبرني أنه أقرأ بفاس جميع صحيح البخاري من ثاني عشر جمادى الثانية إلى ليلة السابع والعشرين من رمضان، وكان يجلس في كل مجلس نحو أربع ساعات، وأن شيخه العلامة سيدي المهدي ابن الحاج كان يستشهد على الصور الفقهية بالأحاديث النبوية، حضر عنده في فصل السهو من المختصر، وذلك أنه إذا كان في الصحيحين والموطأ حديث في المعنى الذي يقرره يأتي به، قال وهذا من علو الهمة، وأن شيخه الفقيه ابن عبد الرحمان كان شيخه سيدي عبد السلام الأزمي يأمر الطلبة بالقراءة عليه وملازمته دون غيره، وأنه أنجب منه، ولا يدرس في وقته في القرويين في الثاني أحد ما عدى الفقيه سيدي مُحَمَّد المكناسي المتوفى بالمشرق، وأن الفقيه المرنيسي كان يقرئهم عشرين بيتا أو خمسة وعشرين من الألفية في المجلس، وأن سبب الحبسة التي كانت في لسان الفقيه ابن عبد الرحمان من عطش في سفر مع أولاد مولانا سليمان وآثرهم بالماء فعاتبهم أبوهم على ذلك ، وقال لهم: أمثل الفقيه يؤثر الإنسان نفسه عليه؟، وأهدى له مرة لباسه لما وجده بجامع القرويين حيث لم يجد معه غير اللباس.

كان الشيخ المترجم السباعي إماماً مطلعاً نقادا متبحرا نظارا حامل لواء المذهب المالكي، قرأ بمراكش وبدمسيرة على شيخه سيدي سعيد بولواح المتقدم في حدود الستين ومائتين وألف، ثم رحل بعد السبعين بموحدة لفاس بقصد تتميم دروسه بها، فبقي نحو خمس سنين، ثم انتقل إلى مراكش فاتخذها قراراً ووطنا، ومازال بها إلى أن توفاه الله تعالى.
كان صدراً شهيرا حافظا نقادا موفور الحظ في الحديث والتفسير والأصلين والعربية والتاريخ، متقدما في الفقه حافظاً له، مستحضرا لقواعده، مستشهدا لها من الكتاب والسنة والإجماع، يقتس الأشباه والنظائر، ويستخرج من النصوص الفوائد، يهجم بالمعقول على المنقول، ويعارض ويرجح ويرد ويزيف، ويقول: (نحن رجال وهم رجال). وانتهت إليه رئاسة قلم الفتوى في مراكش مع كثرة من كان بها من الشيوخ إذذاك، بل كانت ترد عليه الأسئلة من كافة أنحاء المغرب فيجيب عنها بما يبهر العقول من غير تسويد لكثرة تحصيله واستحضاره، ولا يبقي عنده منها نسخة، ولو جمعت فتاويه لأربت على نوازل (المعيار)، وكان رحمه الله دؤوباً على التدريس صيفاً وشتاء، ليلا ونهارا، وكان في دروس الفقه يمكث نحو الثلاث ساعات، ويحضره نقاد الطلبة، وكان يباحثهم ويسائلهم ويستخرج ما عندهم ويحرك هممهم ويحضهم على العلم والأخذ في تعلمه بجد واجتهاد، وكثيرا ما ينشد في دروسه:

قالت مسائل سحنون لقارئها   بالدرس يدرك مني كل ما استترا
لا يدرك العلم بطال ولا كسل   ولا ملول ولا من يألف البشرا

وكان متبحراً في أيام العرب ومعرفة وقائعهم، حافظا لما كانوا يوردونه من أمثالهم وحكمهم مع أشعارهم وأشعار المولدين وتاريخ دول الإسلام، والقضايا الواقعة قديماً وحديثاً، وكان له رحمه الله لسان حاد، وقلم كالسيف لا يبقي ولا يذر على المبتدعين والمخالفين للشرع المطهر، فإذا رفعت إليه فتوى لبعض معاصريه ووجد فيها تحريفا، أو تساهلا بالغ في فضيحة صاحبها نصرة للحق، ويقول كان ابن عباس يقول: كذب عدو الله.

ويأتي بحديث: (إلا أن تنتهك حرمات الله فلا يقوم لغضبه شيء)، ولم يقتصر في الإنكار على العلماء والمفتين، بل تصدى للإنكار على المخزن في وقته، وبيان أحوال الوزراء والكتاب الملتفين حول السلطان وما هم عليه من سوء السيرة ونهب أموال الرعية، منبها على سوء أفعالهم ونصحهم مخافة أن تتخرب الدولة بأعمالهم، فكانت تقع له الإذاية بسبب ذلك، وتعصبوا عليه، وسجن مراراً لأسباب اختلقوها، ومع ذلك لم يرتدع لحظة واحدة عن تغيير المنكر والمجاهرة بالحق، فلم تأخذه في ذلك لومة لائم، ولم يخش سطوة جائر ومع هذا كان مسموع الكلمة مقبول الشفاعة، توجه الى السلطان مولاي الحسن يوماً متشفعاً في بعض أقاربه الذين كانوا بسجنه، فلما حضر بالباب كتب رقعة بيده إليه، وكان من جملة فصولها أن قال: إن الله تعالى لم يُقَدِّر أن يكون في وقتك ابن أبي زيد القيرواني، وفلان، وعدد جماعة من العلماء، وإنما خلق في وقتك مثل مُحَمَّد بن إبراهيم السباعي، ومن العار أن يسمع الناس أنك ترد شفاعة علماء وقتك، وقد جئتك متشفعا في فلان الفلاني، فلما اطلع عليها السلطان قبل شفاعته، وأجزل صلته، وكان ذا دين متين، وسنن مستقيم معظماً محترماً، مرموق الجناب، عظيم النزاهة، رفيع الهمة، كريم النفس، زكي الأخلاق، متباعدا عن الرياء والسمعة، كثير الحاشية، واسع الناد، رفيع العماد، مسعود الحظ، ميمون النقيبة، صاحب ثروة عظيمة، ونعمة جسيمة، من نقد وربا ع، ونعم وكراع، وبالجملة لم يكن في وقته من يشابهه في كل أموره، ولم يخلف بعده مثله رحمه الله.

أما محنته بالسجن فلأسباب وأمور كانت تنقل عنه إلى المخزن، أعظمها شدة شكيمته وكثرة أفكاره، وكانت الدائرة المخزنية إذ ذاك من وزراء وكتاب وعمال يجسمون ذلك ويكبرونه انتقاما منه لكونه كان مُشهراً ومنكراً لأحوالهم وما هم عليه من سوء السيرة ونهب أموال الرعية، وقد رُحِّل مرة إلى فاس بسبب ذلك، إلا أن كل ذلك لم يفلَّ من غربه، ولم يوهن من صرامته ولا حده، بل بقي على صدعه بالحق لا يهاب في ذلك كبيرا ولا صغيرا إلى أن لقي ربه، وذلك من أعظم الأدلة على إخلاص قصدة وحسن نيته، وقد ألف تأليفاً بين فيه الأسباب الموجبة لامتحانه، معتذرا عن نفسه وعن السلطان بكونه كانت لا تبلغه الأشياء على حقيقتها، بل كانت دائرته تلبس عليه ليتوصلوا إلى أغراضهم والانتقام منه، سماه (سيف النصر لدفع الإيهام، وذكر موجب محبة ذرية مولانا هشام) .

ونص إجازته لصهرنا وصديقنا الراوية المسند المؤرخ سيدي عبد الحفيظ الفاسي:

أحمدك اللهم يا مجيز من استجاز كرمك وفضلك، وعلى قدر محبتك وبفضل سرعة إجازتك لهم على الصراط، وصلى الله وسلم على سيدنا مُحَمَّد عبدك ونبيك ورسولك وحبيبك الذي جعلته مفتاح كل سعادة أبرزتها قدرتك، وجعلت إنسان عين السعادة العلم الذي تحصل به معرفتك، وتتم به عبادتك، التي ما خلقت الإنس والجن إلا لها، وثمرتها وقلبها خشيتك.

هذا وقد استجاز العبدَ الضعيفَ قصير الباع، قليل الاطلاع الشابُّ الحيي الحبيب، الأديب النسيب، سيدي عبد الحفيظ نجل الفقيه سيدي طاهر، نجل البركة سيدي الكبير الفاسي، الطود الراسي رحمه الله. ولما تعينت مساعدته لصلاح قصده وحسن نيته، وان لم أكن أهلا لذلك، قلت: أجزتك أيها الأخ فيما تريد، وفي جميع ما حصلت من العلم كما أجازني أشياخي بالكتابة، فمنهم الشريف البركة العالم المحرر العلامة الحافظ مولاي الصادق العلوي دفين روضة مولاي علي الشريف بمراكش، أجاز لي في متون الحديث بسنده إلى البخاري، ومنهم الفقيه المسن البركة سيدي أحمد المرنيسي كذلك بسنده إلى البخاري، وعندي سنده في الفقه إلى الشيخ خليل، ومنهم شيخ الجماعة الذي لم ينل أحد شأوه في التحرير وحسن الصناعة، سيدي مُحَمَّد بن عبد الرحمان الفيلالي السجلماسي، ومن بعد هؤلاء ممن يطول تعدادهم، فمنهم ذو القريحة الوقادة، وقوة التوجه للعلم استفادة وإفادة، سيدي مُحَمَّد بن المدني كنون.

وأوصي المستجيز بأخذ العلم بزمامه، وخطامه ولجامه، الذي هو التقوى وحفظ اللسان، وسلامة الصدر والتسليم، وعدم الرضى عن النفس، إذ لا تحصل ثمرة العلم إلا بذلك، وأوصيه وأياي بما أوصى به الله الأولين "والآخرين، قال سبحانه: (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله، واتقوا الله ويعلمكم الله) فالله يوفقنا جميعاً لما يحبه ويرضاه، بمحض فضله وكرمه آمين، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وآله وصحابته أجمعين.

و كتبه مُحَمَّد بن إبراهيم السباعي وفقه الله، وذلك عام 1320

ولنورد هنا فصوص نصوص إجازات أشياخه له فنقول: هذا مطلع استدعاء المترجم الإجازة من شيخه مولاي الصادق المتقدم

باسم الله الرحمان الرحيم

وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وآله وصحبه.

حمدت مجيز من أحب بسرعة — صراطاً له كالبرق ثم برتبة

وأثنى على مفتاح أخذ النجائح — مُحَمَّد المبعوث خير البرية

فمن فرعه أرجو نسيم اقتفائه — ومن بحره أبغي الشراب بغرفة

فأجابه الشيخ بما نص المقصود منه :

فلله ربي الحمد ما دام فضله — مجيزاً للاستدعاء أكمل منيتي

وصل وسلم ثم بارك على الذي — لموصول دينه استناد البرية

وآله والصحب الكرام ومقتف — لآثارهم صدقاً بحسن الطوية

ثم قال :

ولكن أجزتكم لصالح قصدكم | جميع درایاتي وكل روايتي
صحيح البخاري ثم جامع مسلم | موطأ الإمام والشفاء لعلة
شمائل خير الخلق ثم أجزتكم | بكل سماع من جميع مشيختي
أبي رحمات الله تنعم روحه | بروح وريحان بأرفع جنة

ثم قال :

كذاك الذي سمعته وأجازني | به غيره حقاً شيوخ أجلة

ثم قال: و به كتب راجيا جميل عفو مولانا وستره، عبيد ربه: مُحَمَّد الصادق بن مُحَمَّد الهاشمي بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن الحسني بن الحفيد بن أبي القاسم بن الحسن بن يوسف بن علي الشريف الحسني، والإجازة أعلاه للمستدعي المذكور، وهو سيدي مُحَمَّد بن إبراهيم السباعي أسعده الله بسلامة الدنيا وكرامة الآخرة، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير.
انتهى من خط المجيز رحمه الله.

ونص المقصود من إجازة سيدي عمر ابن سودة المؤرخة آخر ربيع النبوي سنة ست وسبعين ومائتين وألف (1276):
وإن ممن حضر معنا ولازم مجالس درسنا وأقرائنا في العلوم الشرعية المعقودة للمذاكرة المطلوبة، الفقيه الأسعد، والشريف الأمجد، الغطريف الألمعي سيدي مُحَمَّد السباعي، نور الله بصيرته، وطهر سريرته، طلب منا الإجازة الجارية بين ذوي العلوم فيما حضره وسمعه وفي غيره، فها نحن ساعفناه على ذلك وساعدناه، تشبُّها بأهل الفضل من الشيوخ، الذين ثبت لهم القدم في العلم والرسوخ، ثم قال: قد أجزت الفقيه المذكور في جميع مسموعاتي ومقروءاتي ومروياتي، وسندنا في البخاري ما في طي كتابي، بيد أن الواسطة من أبي العباس - يعني سيدي أحمد ابن الشيخ التاودي - أشخاص كلهم يروونه عنه، منهم العالم الجليل الذي كان لا يرى إلا تالياً أو ذكرا، سيدي عبد القادر الكوهن، ومنهم آخر حفاظ المغرب، سيدي التهامي المكناسي، ومنهم سيدي العربي الدمناتي، ومنهم مستحق التقديم على الإطلاق، الجامع بين بحري الشريعة والحقيقة، الشريف العلمي سيدي مُحَمَّد الحراق، ومنهم ولد أبي العباس المذكور القاضي سيدي العباس رحمهم الله، أجازة بالعموم متصفة، وبالشمول معترفة.

ونص المقصود من أجازة سيدي أحمد المرنيسي له: هذا وممن أخذ في طلب العلم بالحظ الأوفر، والنصيب الأكبر، وذاق من صهباء تلك الكؤوس، ما تهواه وتحبه النفوس، الفقيه الأنجد، الشريف الأمجد، السيد مُحَمَّد السباعي، فقد طالما زاحم بالركب أهل المجالس، وبارز منهم الراجل والفارس، ولقد طلب مني أن أجيزه فيما أخذ عني من العلوم العقلية والنقلية الشرعية، وفي سند صحيح الإمام العالم العلامة الأوحد، الفهامة الأمجد، سيدي مُحَمَّد بن إسماعيل بن إبراهيم الفارسي البخاري، فلم يسعني إلا الجواب، قائلا والله الموفق للصواب: قد أجزتك أيها الولد إجازة تامة فيما أخذت عني من

العلوم بشرط الإتقان، وأن تقول فيما لا تدري لا أدري، ثم قال: وأما سنده في صحيح الإمام البخاري فقد أجزته فيه أيضا، وهو الذي أخذته ورويته عن القاضي الأرضى، الخير المرتضى، الفقيه الأمجد، العلامة الأرشد، سيدي أحمد ابن الفقيه العالم العلامة الدراكة الفهامة الجامع بين الشريعة والحقيقة، سيدي التاودي ابن سودة المري، ثم ساق السند إلى تمامه. وقد نظمته في رجز مع تراجم رجاله قلت في أوله بعد الافتتاح:

وبعد ذا عباس الفقير يذكر ما أسنده الشهير
شيخه إذ أتحفه به لدى أجازة شريفة نجم اهتدا
ذاك الشريف العالم المحقق نجل أبي سالم المدقق

إلى أن قلت:

لازمته في الدرس أعواماً زكت عشراً فيالها سنين شرفت
في الفقه والحديث ثم النحو صبحاً وظهرا وعشاء نروي

راجعها في (إظهار الكمال)، وهي نحو مائتي بيت.

ومن السباعيين الشيخ عبد الله ابن ساسي البوسبَعي، بفتح الباء، وهي اللغة المنحرفة في السبع بضمها الآتية ترجمته في حرف العين. ومنهم: الولي الصالح سيدي غانم بن سعد السباعي تلميذ سيدي عبد الله ابن ساسي المذكور الآتية ترجمته أيضا. ومنهم الأستاذ الرحلة المحقق المشارك الراوية المسنِد إبراهيم بن علي بن مُحَمَّد بن أحمد الدرعي المتوفى سنة 1138 تلميذ شيخه ومربيه الإمام مُحَمَّد ابن ناصر، ومجيز حفيده الفقيه السيد موسى بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد ابن ناصر وولديه الفقيه السيد جعفر، والسيد مُحَمَّد المكي مؤلف (الدرر المرصعة) ومن سيولد لهم، بالإجازة العامة بتاريخ 1132 المذكورة فهرسته في تأليف الأخير المسمى (فتح الملك الناصر، في إجازات مرويات بني ناصر) في أربعة كراريس من القالب الرباعي، ومنهم الإمام العلامة أحمد بن إبراهيم السباعي تلميذ والده مجيزه والقطب أحمد ابن ناصر ومجيز سيدي مُحَمَّد المكي المذكور بالإجازة العامة في عام واحد وأربعين ومائة وألف، المختوم به كتاب (فتح الملك) المتقدم، وهو ووالده مترجمان في (الدرر المرصعة). ومنهم الشيخ العلامة الأستاذ الورع الزاهد الشريف سيدي الجيلاني السباعي، ذكره بهذه التحلية سيدي الطالب ابن الحاج في ذكر أبيات كتبها له أبوه سيدي حمدون في مصرف الزكاة من حاشيته على شرح ميارة الصغير، وتقدمت ترجمة السيد الجيلاني المذكور في المحمدين، ومنهم الإمام الفهامة، الهمام العلامة، الذي به من الفضائل والفواضل ما لم ير بغيره، ولي الله السباعي الدكالي الفرجي ناصية الناس، أحمد بن عمر بن مُحَمَّد (فتحا) بن ميمون شيخ أفضل تلامذته سيدي مُحَمَّد بن دَحُّ، وتلميذ الإمام أحمد ابن الشيخ التاودي المذكور في أجلى مسانيد العلي الرحمان. ومنهم العلامة مفتي الديار المغربية في أوانه ودهره، سيدي عبد السلام ابن أبي زيد، بن الطيب الأزمي الحسني الإدريسي السباعي، ومن مجاذيبهم سيدي مُحَمَّد السباعي المتوفى عام اثنين وثلاثمائة وألف (1302) المذكور في (السلوة)، ومنهم

الولي الصالح المجذوب السائح الملامتي سيدي العربي السباعي المتوفى عام تسعين ومئتين وألف (1290) المذكور في (السلوة) أيضا.

ونص المقصود من إجازة الفقيه كنون: وبعد فإني أجزت الفقيه أعلاه بمثل ما أجازه به المجيز أعلاه حرفاً حرفا، كتبها في أسفل إجازة المرنيسي.

ونص المقصود من إجازة سيدي مُحَمَّد بن حمادي المكناسي المكتوبة أسفل إجازة الحاج عمر ابن سودة: وكان ممن استعمل في طلبه عوامل الأفكار وجاب في تحصيله الفيافي والقفار، وكابد غصص الحر والقر، وتجرع الفقار وساجل في فهم معانيه أرباب القوافي من النثار والنظام، وغاص في لجج بديع المعاني فالتقط درر الغواص وجوهر النظام، الشريف الأسعد، الفقيه الأنجد، المحافظ على ديانته المراعي، سيدي مُحَمَّد بن إبراهيم السباعي، أفاض الله علينا وعليه من بحور آلائه، وكان لنا وله بما كان لأوليائه، وقد طلب منا إتحافه باجازة شاملة تكون تامة عامة، لأعين العدا ساملة، فأجبناه إسعافاً لما اقترح، ومنبأ عما اغترفه من بحور العلم وانتزح، فأقول، وعلى الله الكمال المأمول، قد أجزت الفقيه المذكور أعلاه، في كل ما قرأنا أو روينا أو سمعنا من أشياخنا تغمدهم الله برحماه، إجازة شاملة مطلقة، على شرط التثبت والتحري.
كتبت ذلك من خطوطهم رحمهم الله، وقد ناولينها الشيخ رحمه الله في حياته، وهي تخرج في نحو ست أوراق، ولولا مخافة الطول لأوردتها كلها، ولكن قد حصل المقصود بما جلبناه منها.
ثم في عشية يوم الأربعاء ثالث رمضان عام واحد وثلاثين وثلاثمائة وألف 1331 صحبة العلامة المحدث السيد عبد الحي الكتاني حضرنا جميعاً بمنزل شيخنا المذكور بحومة القصور من مراكش وناولنا ورقة في كناش، نصها:

الحمد لله،

صبراً عسى فرج يأتي به الله	من حيث لم تحتسب أسرار مبناه
فكم لربك من لطف يرى علناً	ومن خفي يدق عنك معناه
فلا تبت شاغلا للفكر ذا أرق	فلم يكن ألا ما قد شاءه الله

ولتصل ركعتين الأولى بالكافرون بعد الفاتحة، والثانية بسورة الإخلاص، وقل في السجود (قالت من أنباك) إلى (الخبير)، وبعد السلام تدعو بدعاء الاستخارة النبوية، ثم اضطجع مستقبل القبلة قليل الأكل في محل وحدك، وافتح بيا عليم يا خبير حتى يستغرقك النوم، فإنك ترى علامة الإذن في إعطاء الورد ماء أو خضرا، فقد أذنا لك في اعطاء الورد المختاري بالشرط المذكور من الاستخارة، ولا تنسنا من صالح الدعاء.
وكتب بيده الفانية الراجي لعفو ربه ومغفرته عبيد ربه تعالى: مُحَمَّد بن أحمد بن دَحُّ لطف الله بالجميع بجاه النبي الشفيع.

ومن خطه: الحمد لله.

وبعد، فإن ما فوقه خط شيخنا ووسيلتنا وعنايتنا ومفيدنا القدوة، سيدي مُحَمَّد بن دح قدس الله روحه في أعلا الجنان، لما شكوت عليه من بعض الكرب وسألته الإذن في أعطاء الوسيلة، وكانت شكايتي نظماً، فأجاب بما فوقه من خط يمينه.

مُحَمَّد بن إبراهيم.

وقد أجازنا بذلك خصوصاً قائلا: وافقته على هذا لحسن نيته: مُحَمَّد السباعي

انتهى من خطه.

وفيه سمعنا من لفظه أحاديث من أول الصحيح الجامع للبخاري وحديثاً من آخره وناولناه، ثم سمعنا أول كتاب الشفا وآخرها، قراءة عليه بلفظ السيد عبد الحي، ثم قرأنا عليه أول حديث من موطأ الامام مالك، وحديث جبريل من صحيح مسلم، وأول حديث من الشمائل، وتلفظ الشيخ المسمع في الساعة المذكورة إليَّ بالاجازة، وله فيما ذكر وغيره مما يصح له أن يرويه أو يحدث به أو يجيز اجازة عامة تشمل كل مؤلف وعلم، وأشرك معنا في الإجازة المذكورة أولاد السيد عبد الحي: مُحَمَّد عبد الواحد، ومُحَمَّد عبد الرؤوف زين العابدين، ومُحَمَّد أبو بكر، ولمن سيوجد بعد له ولهم من الأولاد والأحفاد، وكذا أجاز للإمام العلامة الشيخ مُحَمَّد المكي بن عزوز التونسي نزيل الأستانة، وكذا للعلامة سيدي عبد العزيز بن مُحَمَّد بناني الفاسي، وأولاد الشيخ مُحَمَّد بن عبد الكبير الكتاني وهم مُحَمَّد المهدي ومُحَمَّد الباقر، ومُحَمَّد علي الرضا، وعبد العلي، ولاخوته أحمد، ومُحَمَّد الماحي ، كل ذلك بطلب السيد عبد الحي المذكور في المجلس المذكور.

وللمترجم رحمه الله تآليف عديدة، وتقاييد مفيدة، وأجوبة في الفقه محبرة بليغة محررة، ونظم، فمن تأليفه شرح الأربعين النووية في مجلدين لطيفين ، سمعناه عليه الا مواضع عنه أقرأه ليلا بجامع المواسين، وهو عجيب قد جمع فيه فأوعى، ومنها تاريخه المسمى (البستان الجامع لكل نوع حسن، وخبر مستحسن، في بعض مآثر السلطان مولانا الحسن)، ألفه بعد أن أصدر له أمره الشريف به على يد وزيره السيد علي المسفيوي، وهو في مجلد، مشتمل على كثير من الامثال والحكم نظما ونثراً، طالعته، وهو دال على استبحاره في معرفة أيام العرب ووقائعهم وما كانوا يوردونه من أمثالهم الشائقة، وحكم أشعار المولدين والقضايا التاريخية الواقعة في دول الإسلام.

ومنها: تأليفه الذي ألفه فيما يتعلق بالحماية وهو عندي سماه (كشف الستور عن حقيقة كفر أهل بسبُّور) ([5]) ألفه في حدود التسعين، وهو يدل على ما له من الإحاطة بالقواعد الفقهية، وما ينبني على الأصول من الفروع، ومنها رسالة في

---

5 - يريد بأهل بسبور المغاربة الذين كانوا يذهبون إلى بعض البلدان الأوربية والأمريكية ويقيمون فيها بعض الوقت ريثما يحصلون على شهادات تجنس بجنسية البلد الذي يقيمون فيه ثم يعودون إلى المغرب بلدهم الأصلي، حاملين تلك الشهادات زاعمين أنهم أجانب لا تطبق عليهم أحكامه ولا يخضعون لسلطة ولاته، وكانت شهادات التجنيس تعرف ببسبور أو بصبور يومئذ، لأن أصحابها كانوا يحملون جواز سفر (بسبور) أجنبياً. انظر عن قضية المحميين والمتجنسين مقدمة الجزء الرابع من مجموعات الوثائق.

مدح القلم والحض على الكتب الخطية والاعتناء بها، لكونها فيها البركة وعليها الاعتماد، والتحذير من الكتب المطبوعة، وبيان أنها سبب في تقليل الهمم وعدم حفظ العلم ونسيانه، طالعته، ومنها (سيف النصر لدفع الإيهام، وذكر موجب محبة ذرية مولانا هشام (طالعته وهو عندي بخطه، ضمنه حكماً وفوائد وغررا ترتاح لها النفوس، وتبتهج بها الطروس، بناه على ثلاثة تراجم، الأولى ترجمة مولانا عبد الرحمان، والثانية ترجمة شبله السيد مُحَّد، والثالثة ترجمة المولى الحسن، وأنشد:

فأكرم فخراً ان فخرت وعنصر   هم الغرة الزهراء في فرع هاشم

ثم أنشد :

قوم أبوهم هشام حين تنسبهم   طابوا وطاب من الأفلاذ ما ولدوا

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم   قوم بفضلهم أو مجدهم قعدوا

ولا بأس أن ننقل منه ما يتعلق بترجمته منه، ذكر في الترجمة الأولى أنه لو لم يكن على هذا الفقير من سوابغ نعمه إلا كونه نشأ وشب تحت ظل دولته، وقرأ كتاب الله وما قدر له من العلم تحت أطناب أمنه ويمنه، والكل من أسرار بركته، لكان ذلك كافياً في وجوب شكره، وقد تواصلت علينا زمن قراءة العلم صلاته المباركة، كما تيسر الفتح لأهل العلم أكثر في دولته، ثم ذكر في الترجمة الثانية، أنه لم يزل يترفل في سابغ ثوب نعمهم، قرأ في دولتهم وأقرأ حتى لم يبق والحمد لله بمراكش اليوم (عام 1309 هـ) إلا وهو آخذ عنه سوى نحو الثلاثة. وكذلك بعض ممن يدرس اليوم بفاس تلك السنين الخمس التي أقام بها في حدود التسعين بعد المائتين وألف، وذلك كله في صحائف هؤلاء الملوك. ثم ذكر في باب عقده بعد الترجمة الثالثة أن هؤلاء الملوك الكرام قد الحقوه بالصالحين وليس منهم، وبالعلماء الذين كتب الله امتحانهم على أيدي الملوك بأن سجنوه ثلاث مرات، الأولى على يد السلطان سيدي مُحَّد، واثنتان على يد ولده المولى الحسن، الأولى شهد من تعرض لإذايته بأن بعض العمال وضع عنده وعند الفقيه ابن المدني ماله، وأكرم الشهود ولده المسجون إذ ذاك، ورغبوه أن ينسب ذلك إلي وها هو حي، والثانية لم يبين له سببها إلى الآن، وقد طال تحير ذهنه في سببها، لكن كثر لهج الناس بأن سببها تردده على مولانا علي بن مولانا عبد الرحمان، وقد خالف في ذلك عادته من الانقباض عن أمثاله. الثالثة التي هي سبب هذا التقييد كان يطلب التوصل بحق وجب له شرعاً، وتعرض له عليه بعض الولاة تعدياً، ولم يزل متعرضاً له عليه من نحو عشر سنين، حتى أفرغ جهده في اذايته، والحق واجب له باجماع، وكان أفتى على سببه بكتاب شريف، وحكم له بالحق القاضي الذي كتب إليه الكتاب، وحكم له به أيضا الخليفة مولانا عثمان، فلم يفد ذلك شيئاً مع المتعرض، ثم إنه في تلك السجنات التي سجنوه فيها يصب عليه الخير فيها صباً ببركتهم وصلاح نياتهم، ففي المرة الأولى لم يكن عنده إلا الكتب وحرم الدويرة، وكم من ليلة يبيت في الظلمة بدون مطالعة نصاب القراءة لعدم ما يسرج به، ثم إنه خرج منه غنياً، والثانية قد أقبلت المسغبة ولو أدركته بمراكش لباع الدويرة والكتب، فسجن، ونقل لفاس بدون زاد، وفيه نال من الدنيا ما لم ينله قط، حتى رجع بأمتين وبغلتين ودراهم، وأما وجه الثانية فحاصل اتصاله بمولاي علي

المتقدم الذي كان يخالطه كثيراً الفقيه كنسوس، وكان يبسط صدره وآماله بأشعار ونحو ذلك، فلما انقطع عنه بفقد بصره وتقعده، صار يبحث عن عوضه، فكأنه أشير له بالمترجم، فصار يبعث إليه ويحضره ويقدمه في الجلوس معه على الطعام، ويؤخر من سبقه إليه من أهل العلم وفيهم أشياخه الذين هم أكبر منه سنا وسبقوه للعلم، كمولاي أحمد بوغربال، والسيد أحمد بن مبارك معلم الشرفاء ثم جمعتهم وليمة ذات ليلة، وكان الشريف المذكور إلى جنبه الفقيه القاضي ابن المدني السرغيني ، وأكثر الشريف معه التناجي جدا فسأله عن ذلك بعد، فأجابه بقوله: بكثرة ذلك الذي رأيت أستخرج جميع ما استبطن الناس في مكنون ضمائرهم، فخاف من ذلك، فصار يرغب المترجم عن مخالطته، وبذلك اشتدت رغبته في جانبه ظناً منه أن عنده حكمة، أو له بعض الأسماء يتلا لمثل ذلك، فصار يبعث إليه رسله، ويختفي منهم، ثم يصطادونه ليلا بالمسجد، وما يرميه الناس به ما ظهر له منه رائحة، وهو بعيد كل البعد من التشوف لذلك، لأنه كان فيه من الجبن ما ليس في النساء والصبيان، بحيث كان لا يقدر أن يتحرك في الحديقة التي بها سكناه وحده نهاراً، وأبوابها موجفة محكمة، ويصرح أنه لا يقدر أن يخرج من البيت ليلا ولو للمستراح، فكيف يتشوف لمقام لا يغشاه إلا الأسود.

ثم قال: وسبب حسد أهل الجنس أني أنعم الله علي بفراغ اليد من شواغل الدنيا، فلا أتعاطاها بتجارة ولا غيرها مما يخل بالديانة، فانقطعت للتعليم، ومال المتعلمون كلهم لي عن غيري غالباً لأمرين: عدم الاشتغال عنهم بلا بطالة، ويأتون بظن حسن، ونية خالصة، فيفتح الله عليهم في قريب، الخلوص نيتهم لا غير، فاشتد الحسد ممن ليس لهم هم إلا في سعاية أو شكاية، أو حكاية أو نكاية

خير المقال مقال الصدق فاصغ   عكس الصواب مع التبديل والسقم

فرغ من تقييده في عاشر ربيع النبوي، عام تسعة وثلاثمائة وألف.

ومنها (أي من تأليفه) شرح خطبة الإمام سيدي مُحَمَّد بن سيدي مُحَمَّد بن علي الخرشي بكسر الخاء نسبة إلى خراشة على غير قياس، قرية من قرى الصعيد لمختصر الشيخ خليل، وهو في نحو خمسة كراريس من القالب الرباعي، عندي بخطه، ذكر فيه أنه جمعه على ضرب من العجلة حيث ابتدأه مقارناً لبدأ قراءة المختصر، وكان يتكلف كل يوم كتب النصاب الذي يقرىء به في اليوم الذي بعده مع توزع الفكرة وكثرة الأشغال المانعة من مراجعته وتنقيحه، أتمه في 22 من جمادى الأولى عام 1311هـ وكان الشروع فيه في 21 من ربيع الثاني عام 1311هـ. ومنها تقييد في أسباب خلع المولى عبد العزيز بناه على ست مراتب الأولى في الإمامة الثانية في بيان الأمور التي تسبب عنها خلعه، وبيان استحقاق بدله، الثالثة في بيان وجوه المصلحة التي رعاها الناس في ذلك، الرابعة في معارضة ما عسى أن يستدل به المنكر، الخامسة في بيان بطانة السوء الملتفة حول الأول، السادسة في تحصيل ما تقدم، وله تقييد في ختمة المختصر يوم الاثنين رابع أو خامس صفر الخير عام 1291 وهو عندي أيضاً.

ولما ختم درس الشفا ليلة الخميس تاسع عشر شعبان عام 1299هـ قال في ذلك قصيدة طويلة، منها:

هذا الشفاء الذي أبدى خصائص ساد الأنام والأنبياء والرسلا
بالرسل أم مع الأملاك حيث سرى وصار يخدمه جبريل حيث علا
أبدى خصائص سر الكون رحمته والكل من نوره الأعلا وما نزلا

وهي طويلة فيها ثمانية وأربعون بيتاً.

ولما ختم صحيح الامام البخاري عام ثمانية وثلاثمئة وألف 1308هـ بحضرة السلطان، قال قصيدة مطلعها:

هذا البخاري بحمد الله قد كملا ونشر أسراره بعونه سهلا

ولما ختمه يوم الاثنين رابع ربيع الثاني عام أربعة وعشرين وثلاثمائة وألف، قال قصيدة اشتملت على أربعة وثمانين بيتا مطلعها:

صحيح البخاري هذا صح له الاقرا وتم وعون الله قد أوجب الشكرا

ثم قال :

فلله در ذا البخاري وصنعه وشرط صنيعه به اكتسب الفخرا
فطوق جيد العلم عقداً منضدا وزاد حلا الحديث حسنا كما يدرى
صنيع تولى الله تشييد مجده وأودعه السر المصون الذي أجرى
فسر به الاسلام قدماً وحادثا وأتحفه بذا محاسن لا ترى
وحاز به الثناء عنها ومشكرا وبين أسراراً لهم لم تكن تدرى
وجاء بما يستعظم الناس أمره ولو بالغ المثني فلا يبلغ القدرا
له الفضل والتقديم في كل مشهد وأجلى ظلام الجهل عن كل من يقرا
له في الحديث رتبة لا ينالها سواه وكتب في فضائله تقرا
فمَن مثله دنياً وعلماً وحفظه ومن مثله قد زاد شرعتنا طهرا
فمن كالبخاري في العلوم جميعها ومن كالبخاري زان في وضعها نشرا؟
فصان أحاديث الرسول بنشرها وزان الصنيع في حلاوتها ذكرا
أقام بها من فطرة الدين سنة فجدد رسمها وأوضحها خبرا
يذكرنا في كل حكم نبينا حبيب الإلاه سيد الرسل لا فخرا
بايضاح حكمه وسيرته التي أمرنا بها فرضاً ونفلا وما أحرا

ومنها :

هو الشمس بث في البسيطة نوره   فمن قال نور الله محضاً فما أطرا

وقلت في هذا الختم تائية من الطويل ذكرتها في (اظهار الكمال) مطلعها:

أحق الأمور باعتناء ورغبة   دراس الحديث لاقتفاء الشريعة

وأملى ختمته في نحو أربع ساعات.

وللمترجم رحمه الله رائية من الطويل، في ختم مختصر الشيخ خليل، ورى فيها بتراجمه، وضمنها نصيحة المتعلم والعالم، وهي مشهورة.

وقد ختم (مختصر خليل) مرات، وقرأه مرة مسروداً بشرح الخرشي من أوله إلى أخره في ثلاثة عواشر من الشروق إلى الزوال ، يقرأ كراساً في اليوم منه، ومرة به، وبشرح الزرقاني وحاشية البناني والرهوني، وكان معتنياً بشرح الحطاب والمواق.

حدثني المترجم رحمه الله أنه قرأ العلم بفاس نحو خمسة أعوام وشهرين، وهي من أوائل العشرة الثامنة من القرن الثالث عشر، كما أقرأه به حين ترحيله في أواخر العشرة الأخيرة منه مثل المدة المذكورة، وقال له القائد مُحَمَّد بن سعيد حين اجتماعه به في سلا لما رجع: إن المولى ادريس ﷺ، قال لك العلم الذي أخذته ببلدي اجلس فيه حتى تؤديه، كما أنه درس العلم بمراكش نحو نصف قرن.

وفاة المؤلف رحمه الله

كانت وفاة المترجم رحمه الله في الساعة الواحدة من ليلة يوم الاثنين سادس رجب الفرد الحرام عام اثنين وثلاثمئة وألف 1332هـ عن نحو سبعة وثمانين سنة، ودفن بضريح الشيخ الغزواني داخل قبته على يمين الداخل لها قريبا من الشيخ عند رجليه. وكانت له جنازة حافلة بعد العهد بمثلها في مراكش، حضرها كافة الناس حتى الخليفة السلطاني، وعظم مصاب الناس بموته لما له من العلم والدين المتين رحمه الله.

وأصبنا أيضاً في هذه السنة بفقد والدنا روحا وجسما الحنين الشفوق، الطيب الأخلاق والأعراق، الذي بلغنا بمحبته ورضاه كل أرب، وكانت همته متوجهة لنا مشهداً وغيباً، ويؤثر حبنا على ما يحبه، سيدنا مُحَمَّد ابن الفقيه مُحَمَّد ابن الامام الاستاذ ابراهيم المراكشي الدار والقرار، في أول الساعة الثالثة من يوم الجمعة حادي عشر شوال 1332هـ شهيدا مبطونا، فذهب مأسوفاً عليه، تغمده الله برحمته، وأسكنه فسيح جنته بمنه وفضله ومنته، فانا لله وانا إليه راجعون.

وقلت أرثي المترجم:

صرف الدهر أكثرها شرور ووقع النائبات به مبير
وأيام السرور به قصار وأوقات العزاء به كثير
سهام الموت فينا صائبات ففي الأقات نعي مستطير
فتختار الأفاضل تجتنيهم فتذهب بالمعالي اذ تبور
فشيخ العصر محمود المزايا وركن العلم راسخه المدير
أمام المعضلات وغوث لاج لفك المشكلات إذا تثور
ممجدنا وسيدنا المرجى مُحَمَّد السباعي المستنير
مضى لسبيله فانقض بدر وأظلم عصرنا اذ غاب نور
فدرس العلم حل به الرزايا محققه به سعدت قبور
وأقلام الفتاو مكسرات فلا تحقيق إلا ما يدير
شريف ماجد جم المعالي مآثره شوارق لا تغور
فكم بث العلوم بكل ناد ووضح مشكلا لا يستنير
وصنف في العلوم مصنفات بها التحقيق يدركه الأثير
وكم عبد الالاه ونال ذخراً وأرضاه المبشر والبشير
شمائله الشريفة لا تضاهي وأخلاق مطهرة تنير
ونفس لا تجيب الى خسيس وخلق لا تغيره الدهور
زعيم الفقه أضحى في البرايا وسمت العلم فهو له ظهير
بغير العلم ليس له اهتمام بغير الفضل ليس له حبور
عفيف زاهد ورع تقي نقي لذيل طاهره وقور
همام مصقع ليث غيور وغوث الملتجي عون نصيبر
به مراكش رزئت فتاها فجربها جهينتها الخبير
فعلم الفقه حل بقبر حبر وطم الجهل واستعلى الغرور
فيا بحر المنية فزت منه ببحر العلم اذ ذهب البصير
فلهفي للامام فقيد علم رداه دهاه يحمله سرير

أغرب الدمع سح ببدر غرب		به غرب السميدع والمجير
ألا من للفتاوي والقضايا		ومن يهدي اذا ضل الحيور
أعزي النفس عنه بالتأسي		وان بالعصر عز له النظير
وللفقها بنيه الصبر يجدي		وتتبعه من المولى الأجور
فصبرا يا بنيه اليوم عنه		فأجر الصبر يمنحه الصبور
فليس لنا بفجعته شبيه		وما لفقيهنا أبداً نظير
به مراكش الحمراء تباهى		نصيف القرن وهو لها المشير
بها حيا وميتاً في القصور		عليه رحمة ورضا كبير
فياركن العلاء حميد سعي		ويالت الوغى أسد هصور
ذهبت مُحَمَّداً بلسان صدق		يشيعك الثناء المستطير
ويا علم الهداة وكنز علم		يساعدك النظيم أو النثير
يكنتك في الضلوع حنين وجد		فيتبعه شهيق أو زفير
ويا بدر السناء شرقت غرباً		فعم بك الضياء المستنير
فيارب العباد أنله عفواً		وقدسه فأنت له الشكور
بمشهده أورى إذا أورخ		عماد العلم مرتعه القصور
يلاوني عليه سلام ربي		تعانقه بعليين حور

وفي ليلة موته رحمه الله، وجه على مقيده عفا الله عنه للوداع فمن سوء الحظ لم يتلاق مع رسوله، فلما رجع وأعلمه اغرورقت عيناه بالدموع وتأسف غاية.

واعلم أن معتمدي في الفقه من علماء مراكش اثنان: المرحوم العلامة الولي الصالح الناسك سيدي الحاج مَحمد (فتحا) أزنيط المتوفى عام 1317هـ رحمه الله المتقدمة ترجمته، وهذا على جلالة قدره كان يقول: اللهم ارزقنا فهم كلام الأئمة، ونحن لا نشق لهم غبارا، ولا لنا بالمباحثة معهم يد، والثاني هو المترجم هنا العلامة النقاد المتبحر سيدي مُحَمَّد السباعي، وهذا كان يقول: نحن رجال وهم رجال، بعد ما يكثر من البحث حين الدرس والمناقشة، ووقع لي معهما ما وقع للشيخ ميارة مع الامامين المقري وابن عاشر، جدد الله تعالى على الجميع الرحمات.

فائدة وتنبيه: وقد قدمنا أن المترجم رحمه الله من فخذ يعرفون بالعبيدات من أولاد أبي السباع، قال الإمام المحدث النسابة مُحَمَّد بن عبد السلام الناصري رحمه الله في رحلته حين ذكر توزر: وكذا زرنا بتوزر الجديدة سيدي ميمون، وابن غلاب، وسيدي عبيد بن خيضر من أولاد سيدي عبد الشارف المقبور ببلدة تعرف بالجامع بمظهر النمامشة قرب خنقة سيدي ناجي، وله ولذيته بهذه البلاد الإفريقية صيت، وذريته كثيرة الآن تبلغ آلافاً، محترمين عند الأمراء، وهم من أولاد أبي السبع سكان سوس الأقصى، ومن صلحائهم القبورين بتوزر الجديدة سيدي عبيد بن الذئب وسيدي عبد العاطي، وسيدي علي الكموني، وسيدي أحمد بن عثمان بن أبي القاسم بن الشويط، وسيدي عبيد بن عبد المالك، زرنا الجميع بالنية.

انتهى من النسخة التي قوبلت على المؤلف، وعليها خطه رحمه الله وقال في كتاب الأنساب المنسوب للامام أحمد بن مُحَمَّد بن عبد الله بن جزي الكلبي ما نصه: وشرفاء أولاد ابن السبع خرجوا من شجرة الزيتون وافترقت في الساقية الحمراء، وفي ونشريس، وفي وادي شلف، وفي ناحية الجزائر في سواد، وفي خمليشة، وفي قمقولة من سوس. وجدهم حيثما كانوا هو سيدي ومولاي الحاج السبع عبد الله بن عبد الخالق بن عبد الرحمان بن عبد الوهاب ابن ملحة ابن الشريف الحسني، وقال العشماوي: ومنهم فرقة في الساقية الحمراء أولاد أبي السباع، وهو عامر الهامل في الساقية الحمراء، وهم أعراب يرحلون وينزلون.

وقال في ص 168 من الجزء الثاني من (الدرر البهية): وأما الشرفاء أهل دويرة السبع فمن بني ولي الله سيدي مُحَمَّد المدعو السبع، فكل سبعي صح نسبه فلهذا الجد.

وقال في تأليف (أشراف غريس) ما نصه: وهؤلاء الأشراف السباعيون لهم صيت بالمغرب الاقصى، وقفرهم قريب من سوس، وكانت بينهم وبين أولاد سيدي عمر مزاورة ومواصلة في القديم، يعترف كل منهم للآخر بالقرابة والاتصال، حسبما أخبرني بمضمنه من أثق به من علمائهم، ومن علمائهم المشهورين بالعلم والولاية سيدي ابن يامنة ابي دوخة، قال ابن عمنا الأمير عبد القادر أيده الله: فإنه كان سيبويه زمانه، أصبحي عصره وأوانه، وكانت الرئاسه فيهم قديما وحديثاً في بيت أولاد أبي دوخة، وفي بيت أولاد سيدي البشير، وأولاد سيدي محمود، وفيهم الآن الفضلاء والعلماء.

والله ولي التوفيق.

النص المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

البستان الجامع لكل نوع حسن وفن مستحسن
في عد مآثر السلطان مولانا الحسن

تأليف:

محمد بن إبراهيم السباعي المراكشي
(المتوفى سنة 1332هـ / 1914م)

الحمد لله الذي طبع من أحب على أحسن سيرة، وألبس من اصطفى ظِهارة (1) تدل على طهارة الظاهر منه والسريرة، وهو سبحانه إذا أراد بعبد خيرا أحسن عمله في الناس، ما وأهَّله للخيرات جعله منهم بمنزلة العين من الرأس، وصلى الله على سيدنا محمد الذي بعثه متمما لمكارم الأخلاق، ونشر فضله في كل الآفاق، وانزل عليه قرآنا عظيما بالقصص الغريبة، وأخبار الإنسان والملوك الماضيين العجيبة، مع تبين الأحكام الشرعية، والسير النبوية، والقضايا الملوكية، وجعله لكل من اهتدى، أعظم مقتدى، وسلاما //3 دائمين متلازمين، نجد بركتهما في الدارين، ما طاب عرقه، وكرمت أخلاقه، وهو القائل لوفود وهوازن: وأحب الحديث إلى أصدقه، وعلى أهله وأصحابه الذين عزروه ونصروه، وما جاء به بنوه ونشروه، ولم تزل أبناؤهم وقصصهم تقرأ وتتلى، وسيرتهم الحسنة على أحسن وجه تستقرا وتجلى، وما دامت يتحين لها في كل حين أحسن وصف، وأبدع رصف، وتفرغ في قالب الجمال، بأفسح مقال، وأبدع براعة استهلال، وما طلعت شمس واستهل هلال، وما دونت مناقب التابعين، ومفاخر الملوك الماضين، واستجلبوا بذلك الثناء الجميل، من جيل بعد جيل، واستوجبوا الدعاء لهم من المؤمنين الصالحين.

أما بعد فقد أمرني من تجب طاعته، ولا تجوز في الظاهر والباطن مخالفته، بوضع تقييد مختصر موجز محرر، ومع الإيجاز يكون اقتطاف زهره ونظم جرائده سهلا جدا، وليس تحصيل فوائده عسيرا إن عُدَّت عَدًّا، ولا يمنعه الإيجاز والاختصار، من شمول جل مفاخر من ذُكِرت //4 فيه مآثره ومهم صنائعه بحيث يعم نفعه عند المطالعة والتذكار، ولعذوبة سردها مما لا يمل مع كثرة التكرار. وموضوع ذلك التقييد سيرة بحر المؤمِّل، وبدر المتأمِّل، مَن سُور محاسنه تتلى بكل لسان، ومآثره شيدت بكل ناحية ومكان، ولا يمشي إلا في الطريق الأسد، وهيبته أشد من وطأة الأسد، مع ما خص به من الخصال الكريمة، السيرة المرضية المستقيمة، حتى ساد بذلك في وقته جميع ملوك الأرض، بما نشر فيها من المآثر على سعة المسافة طولها والعرض، منذ عمت طلعته التي هي كالبدر في الإضاءة والإشراق، غير أنها لا يعتريها بحول الله أفول ولا محاق، فهي بسناها مغنية عن الشمس في الإمساء والإصباح، وفي الدجى كافيته عن القمر والمصباح، مولانا أمير المؤمنين المنصور بالله المتوكل على رب العالمين الإمام الشريف الهمام، عالم العلماء الأعلام، حامل راية الراسخي الأقدام، من لا يضاهى عند الكر والإقدام، الذي هو وأسلافه الأكابر، ورثوا الخلافة كابرا عن كابر، //5 ولبسوا من فضفاضها أسبغ لباس، بنقل صحيح لا يعتريه الالتباس، السلطان ابن السلطان ابن السلطان سيدنا ومولانا الحسن، ابن مولانا وسيدنا محمد، ابن سيدنا ومولانا عبد الرحمن، ابن مولانا هشام، ابن سيدنا محمد، ابن سيدنا ومولانا عبد الله ابن مولانا إسماعيل، فقد نبغ هذا الملك من أرومة (2) فاقت الملوك في كرمها ومجدها واعتلائها، وكبرت عن أن يقاس بمقدار باذخُ علائها، نادرة زمانه، حجه الله على الخلق بعلمه وعرفانه، مطلع أقدار العناية والتوفيق، جامع أسرار الملك على التحقيق، من نشأ

---

1 الظِّهَارَةُ من الثَّوب: ما يظهر للعين منه ولا يلي الجسدَ ؛ وهو خلاف البِطانة.

2 هُوَ طَيِّبُ الأُرُومَةِ: شَرِيفُ الأُروَمَةِ مِنْ حَسَبٍ وَنَسَبٍ، وَأَصْلٍ شَرِيفٍ.

وطالعه في سعد معالي الأمور يبدي ويعيد، ومشهود له بسير التجديد، إذ على رأس كل قرن أو مائة مجدد للدين، باتفاق الموقنين، هو الذي يدرك بنصره وبالمؤمنين، ولكم في رسول الله أسوة حسنة، والأسوة شيء معروف، والوارث موصوف، وغير الصراط المستقيم مَخوف، فالله يؤيده تأييدا يأمن في ظله المؤمنون، ويسلم في سفينة نجاته المسلمون، ويصحبه //6 دائما النصر المؤزر، حتى يقتبس له ولمعينه (أنتما ومن اتبعكما الغالبون) ويعلي كلمته، ويرفع دائما قدره، ويبقي على الأيام فخره، ويمده بالتأييد والتمكين، والنصر والفتح المبين، حتى تزهى على سائر الأيام أيامه، ويرقص بالنصر والسعد لواؤه وأعلامه، ويديم تمكينه في البلاد شرقا وغربا، ويطأطئ له رقاب الأعادي سلما وحربا، ويزيد في الفتح على يديه الفتح المبين، ويجعل الخلافة قائمة في عقبه إلى يوم الدين، فإنه زان الخلافة وأحيى أثرها، وزاد تجديدها وإظهارها، ورفع منارها وأجلى أنوارها، ولا يزال النصر مقرونا براياته، وقلوب العباد مجتمعة على طاعته ومحبته، آمين، بجاه سيد المرسلين عليه صلوات رب العالمين.

هذا ولما تعين علي في ذلك التأليفُ، ووجب في حقي منه التصنيف، ونويت في خلدي تبويبه وتفصيله، ومهدت في عزمي تأسيسه وتأصيله، اخترت له مسمى يطابق به الاسم المسمى، فسميته "**البستان الجامع لكل نوع حسن //7 فن مستحسن، في عد مآثر السلطان مولانا الحسن**"، نويت بعون الله أن أسرد نظم جواهرها (1) سردا ألذ في المسامع من الغزل، وأسير بتأليفها سير الحكم وضرب المثل، حتى تكون أقرب للرائي والسامع من اصطحاب النعم، واصطخاب (2) النغم، تزري بنغمات الحادي، ولأجل التوشيح بالأمثال والفوائد والحكم، يفوق تأليفها -ببركة من هي خصاله- نزهة الحادي، وليس ذلك أني أتطاول شأوه، أو أطمع أن أخطو خطوه، بل بيننا بون بعيد، وتباين شديد، فإن مسافة الخلف بيننا، قدر ما بين سنيننا، ما كان أصح علم من تقدما. وإنما وجه التقدم ملؤنا الطِّرْزَ بالأمثال الشعرية والنثرية وغير ذلك، وإن كان لا يستغرب التقدم في قدرة الله وموهبته، فمن استغربه يخشى عليه الجنوح لتعجيز قدرته، فقد يدخر الله للمتأخر ما لم ينله المتقدم كما لا يخفى على الفهوم، وقول الإمام ابن مالك: "وإذا كانت العلوم منحا إلهية، ومواهب اختصاصية، فغير مستغرب ..الخ، مُقرَّرٌ معلوم.

//8 وأقرب شاهد لذلك، وأوضح دليل لما هنالك، ادخار الله للمتأخر ما لم ينله المتقدم، مولانا الإمام صاحب الترجمة، ففيه نصره الله مطابقة الحديث للترجمة، فالبراهين على ذلك مشاهدة قائمة، لا تحتاج إقامة حجتها لحسن عبارةِ لسانٍ ولا لأقلامٍ معربةٍ عنها أو مترجمة، فقد ادخر الله له ما تم به محاسن جميع من قبله، فإن ما اجتمع فيه مما تفرق في غيره، بعضٌ منه دون كُلٍّ يفوقُ الفتى به أقرانَه ويسود، ولاسيما وهو مع ذلك لا تطأ وطأته الأسود، وما أحقه بقول المعري :

وإني وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لا تستطيع الأوائل

1 الضمير عائد على المآثر.

2 اِصْطَخَبَتِ الحَيواناتُ: اِخْتَلَطَتْ أَصْواتُها.

ويشهد لي أيضا قول القائل (1):

صـــــنفت للمتــــأدبين سميتــه بكتــاب كشــف
سبق الأوائـل مـع تأخـر كــم آخــرٍ أزرى بفضــل
قيـدت فيـه كـل مـا قـد لــيس المقيــد كــالكلام

وقد قال بلغاء الحكماء: لا يهتضم المصيب بالحدثان، ولا يفضل القائل بقدم العهد وتقادم الزمان، ولم يقصر الله //9 البلاغة والعلم على زمن دون زمان، ولا خص بذلك قوما دون قوم، بل جعل ذلك مشتركا بين خلقه، مقسوما بين عباده، في كل مدة ودهر، وأوان وعصر، وفضلُ كلامِ الإنسان بالموهبة المخصوصة والوحي كفضلِهم على سائر الخلق، لِكُل أُمَّةٍ حِكمةٌ، وكُلُّ قديمٍ كان حديثا في عصره، قال الشاعر:

إن هذا القديم كان حديثا ويعود الحديث بعد قديما

وفي كل وقتٍ مَن قرَعَ الباب يوشك أن يُفتَح له، ومن لج ولج، ومن استقبل السيل بجده انتهج، والزمان يدور، وبشرٌ من أظهرته البسيطة وأضمرته القبور، وقد ورد عن النبي ﷺ في صحيح الآثار، أن الزمان قد استدار، فلا يمتنع أن يكون في هذا الزمان الخالف، من يمشي على آثار السالِف، فالزمان وَلود، والعقل موجود، ويقال إنه كلما بقيت أصول المصنوعات تحدقت فروعها، وسُدد إلى صوب التكميل شروعها، وإني أرجو من الله الإعانة على توشيح مآثر مولانا الباهرة، بالحكم والأمثال السائرة، وأرصع نظمها //10 بجواهر الأدب، المثير اهتزازَ الطرب، وأكسو تأليفها جهدي من البلاغة والإيجاز، راكبا فيها متن الحقيقة دون المجاز،

واركـب على أدب تصـل في العسر واليسر المثمون
واصدق تر عجبا وخذ له فالنفس بالنفس والعينان
فابـذل إذا شئت صـرف تحمل فعالك يوم الفوز

وأضم لذلك نبزا مما سنح لي من المعارف، واجعلها في سمط ما أنظمه من اللطائف، مما يفوق ويروق ويوجب على من سمعه أن لا يقابله بالعقوق، ومن النكت الطيبة والنفحات الغيبية مما يشوق ويسوق، وإليه النفوس الزكية تتوق، وأسرده بأنمُلة اليراعة، وإن كنت قليل البضاعة، قصير الباعة، ومع ذلك رجوت بحول الله وقوته أن يفوق تقيدي هذا الأساس

---

1 هو علي بن سليمان الملقب "حيدة اليمني" (ت 599هـ) صنف كتبا منها كتاب في النحو سماه "كشف المشكل" في مجلدين. الوافي بالوفيات ج17 ص103

والمبنى، تأليف من تقدمه في هذا المعنى، حتى يكون يحصل لمن رآه في فنون شتى غاية الإفادة، ولا يمل عند مطالعته من التكرار والإعادة، ولا أذهب //11 في هذا الاختيار، إلى مطولات الأخبار، لأن الكلام الموجز أجزل لفظا، وأسهل حفظا، ولا ريب أن الخصال التي وجه عنان القلم لها اشتهرت شهرة الشمس رأي الضحى، كاشتهار عطية أبي طلحة بيرحا، (1) حتى قال ﷺ بخ بخ ذلك مال رابح، وهذا من الأمر الشهير الواضح، وذلك كاشتهارها في نفسها، وانتشارها بما تقدم من تأليفها، فهي من باب قولهم شعاع الشمس لا يخفى، ونور الحق لا يطفى، فلا يعتريها بعدم السبك اهتضام، وإنما يزيدها حسنا إفراغها في قالب الانتظام،

فالدر يزداد حسنا وهو منتظم   وليس ينقص قدرا غير منتظم

قيل: إن "الكلام المهذب، كالسيف المجرب، والجواد المدرب"، وقال الحكماء: "الكلام الحسن يستعطف القلوب النافرة، ويجمع الأهواء المتنافرة"، وقالوا: "الكلام الحسن من مصائد القلوب"، وقال الصاحب بن عباد: "كتاب الرجل عنوان عقله، ولسان فضله"، ووقع يحيى بن خالد //12 البرمكي على رقعه رجل مليح الخط رديء الكلام فقال: الخط جسم روحه البلاغة ولا ينتفع بجسم لا روح فيه، ولذا قالوا: لفظ الفتى يعرب عن عقله، وفعله ينبئ عن أصله، وإنما أطلت في هذه المقدمة، والتطويل خلاف ما أشرت إليه من أن القصد والاختيار، هو الإيجاز والاختصار، لما روي من أن الحكمة في تقديم الصلصلة الشبيهة بصوت الجرس والشبيه صوتها بصوت سلسلة عظيمة تسقط من السماء على صفوان حالة كونها مقدمة لمجيء جبريل، هو أن الكلام العظيم له مقدمات تؤذن بتعظيمه للاستماع له.

تنبيه: قال العلماء ينبغي لكل مؤلف كتابا في فن قد سُبق إليه أن لا يخلو كتابه من خمس فوائد:
استنباط شيء كان معطلا، أو جمعه إن كان متفرقا، أو شرحه إن كان غامضا، أو حسن نظم وتأليف، وإسقاط حشو وتطويل. ومعظم قصدي من الخمس ما عطله غيري ممن سبقني، وجمع ما فرق، وجمع جواهره بدون حشو في سلك أحسن من ذلك النسق، ويتضح ذلك عند استقرائه واستقرابه وسبر //13 فصوله وأبوابه شاهده ما تراه العينان، وليس الخبر كالعيان، وقد انتقيت أيضا من المبادئ العشرة الاسمَ وحكمَ الشارع والفضيلة، أما الاسم الشامل للموضوع فمعلوم أنه من السير والمناقب، وقد سلك المؤلفون قديما وحادثا قبلنا فيها كل المذاهب، وأما حكم الشارع والفضيلة فيها زواهر النصوص، وجواهر الفصوص، الدافعة لكل نزاع من الكتاب والسنة والإجماع التي بها يعلم أن من أقدم على ذلك، قد علم الحكم فيما هنالك، قال تعالى (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرءان وإن كنت من قبله لمن

---

1 بيرحاء: بستان. وكانت بساتين المدينة تدعى بالآبار التي فيها، أي البستان الذي فيه بيرحاء، أضيف البير إلى حاء. وقيل: هو حائط يُسمّى بهذا الاسم، وليس اسم بئر. انظر نخبة الأفكار في تنقيح مباني الأخبار في شرح معاني الآثار للعيني 16 / 204.

الغافلين) وقال (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين) قال (ولقد أرسلنا من قبلك رسلا منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) وأشباه هذه الآي، فقد قص الله على نبيه ﷺ أخبار الأنبياء والأولياء أحياء لذكرهم، وإشادة لفخرهم، وإبقاء لآثارهم، //14 وناهيك بقوله تعالى (وءاتاه الله الملك والحكمة) وبقوله (إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا) وقوله (إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء) وقال سليمان عليه السلام (وأوتينا من كل شيء) أي يؤتاه الأنبياء والملوك، وقال (إن هذا لهو الفضل المبين) وقيل في حق داوود (وشددنا ملكه وءاتيناه الحكمة) وقال (يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض)، إلى غير ذلك مما أحيا الله به ذكرهم، ونشر فخرهم، ليكون المحسن منهم في إبقائه ذكره مثبتا تعجيل جزاء في الدنيا، ثم ليبقى ذكره وآثاره الحسنة إلى قيام الساعة، كما رغب نبي الله سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام في إبقاء الثناء الحسن والذكر الجميل فقال (واجعل لي لسان صدق في الآخرين) كذا قرره حذاق المفسرين كالثعالبي، وفيه أعظم قدوة للمقتدين. وقص على النبي ﷺ قصص الأنبياء قبله ليكون له أسوة وقدوة بمكارم الأخلاق الرسل والأنبياء المتقدمين ،كاقتداء الأولياء الصالحين فيما أخبر الله به عنهم //15 وأثني عليهم، فتمم الله له بالاقتداء بهم معالي الأخلاق، فلما امتثل أمر الله تعالى في قوله (فبهداهم اقتده) واستعمل آداب الأنبياء أثنى عليه فقال (وإنك لعلى خلق عظيم) ومن السر والحكمة في ذلك التنبيه له بما وفقهم الله إليه من حسن سيرهم، وإعلامه بشرفه وشرف أمته وعلو أقدارهم، ومن ذلك التأديب والتهذيب لأمته، ففيها التحذير من صنع غير الموفق الذي صنعه لا يرتضى، والحث على في كل فعل مرتضى، فقال (لقد كان لكم في يوسف وإخوته ءايات للسائلين) وقال (لقد كان في قصصهم عبره لأولي الألباب) وقال (وهدى وموعظة للمتقين) هذا وجه الدليل لحكم الشارع والفضيلة من الكتاب، ووجه أخذه من السنة لما قال ﷺ كما في صحيح البخاري مكررا "خرج ثلاثة يمشون فأصابهم المطر فدخلوا في غار في جبل فانحطت عليهم صخرة فقال بعضهم لبعض ادعوا الله بأفضل عمل عملتموه .." إلى آخر الحديث الذي ساقه ﷺ //16 مساق المدح والثناء على فاعله. قال بعض المحققين ممن تكلم عليه: أخذ من الحديث إثبات كرامات الأولياء، ولا يخفى أن إثبات كرامات الملوك المستخلفين في الأرض الذين صرح الكتاب العزيز بفضلهم، وقرب طاعة الله بطاعتهم، الذين يتجلى فيهم ما أراد الله بعباده وتدوين سيرهم الحسنة هو من هذا الحيز، يعلم ذلك كل عاقل بَيْنَ الحي واللي (1) يميز، لما في ذلك من الفوائد التي لا تنكر، لكونها من شمس الظهيرة أشهر وأظهر، وأما دليل الإجماع فهذه شمائل النبي ﷺ يستسقى بها، وهذه معجزاته وجميع سيرته مدونة، ﷺ، وشرف وكرم، وعزز وعظم، ولنا في رسول الله أسوة حسنة، وهذه محاسن الصحابة من بعده والتابعين، والتعريف بالأئمة المقتدى بهم من بعدهم وتخليد مزاياهم في بطون الكتب والأولياء الصالحين، وأخبار الملوك المتقدمين،

---

1 ثعلب عن ابن الأعرابي: الحَيُّ الحقُّ، واللَّيُّ الباطِلُ. ومنه قولهم: هو لا يَعرِف الحَيَّ من اللَّي. وكذلك الحوُّ من اللَّو في المعنيين. قال: وأخبرني المنذريّ عن ابن حَمُّويَةَ، قال: سمعت شمِراً يقول في قول العرب: فلان لا يعرف الحَوَّ من اللَّو: الحَوُّ نَعَمْ واللَّوُّ لو

وهلم جرا. فقد انتهج الناس قديما وحديثا بخصالهم النهج القويم، فمن اقتفى آثارهم فقد هدي إلى صراط مستقيم، 17// وحسن أولئك رفيقا، وطوبى لمن أجرى الله على يديه ما يطلق ألسنة الخلق، التي هي أقلام الحق، بالثناء عليه مِنَّة منه وتوفيقا. وأما الفضيلة فلعموم النفع للملوك ولغيرهم في تدوين مزاياهم في آخرتهم ودنياهم، فلا يرتاب في ذلك من له فهم يفهم به سر ما هنالك، إذ كل من أيد بنور التوفيق علم ذلك على التحقيق، فمن جملة النفع عاجلا أن المرء من حيث هو مأمور بأن يحاسب نفسه على الأنفاس، ويزن أفعاله وخاطره بالقسطاس، لاسيما من إقامة الله لمصالح الناس، فما وقف عليه من حسن سيرته أكسبه الحمد والفرح، واتسع لذلك صدره وانشرح، ويتجلى ذلك من الملوك في العباد، وقد يترتب عليه صلاح البلاد، ومهما نظر الملك من حسن صنعة ما غبر، وما جرى على يديه من الفضائل وانتشر، حمد الله وشكر، وبشكر النعم يزداد من التوفيق للخيرات فوق ما أصدر، وله في الفرح بما أكرمه الله به من الكرامات، وما فتح له به من الخيرات، أسوة بالنبي ﷺ، فكان وجهه الشريف يتهلل فرحا 18// وسرورا، ونشاطا وحبورا، بكل حادث دل على كماله وتصديقه وإرساله، وذلك مشهور لا يخفى كما في عده قضايا في صحيح البخاري والشفاء. من ذلك قضية جابر بن عبد الله لما قتل أبوه يوم أحد فاشتد الغرماء في صفوفهم، وكان أصحابه وثمره لا يفي بحقوقهم، فبرَّك فيه رسول الله ﷺ فقضاهم جابر وفضل التمر، فأخبر النبي بالمعجزة فقال رسول الله ﷺ لعمر: اسمع، وهو جالس، يا عمر، فقال عمر: ألا نكون قد علمنا أنك رسول الله، والله إنك لرسول الله. وفي طريق: فضحك عليه السلام وقال له: إيت أبا بكر وعمر فأخبرهما، فأخبرهما فقالا: لقد علمنا إذا صنع رسول الله ﷺ ما صنع أن سيكون ذلك. وهذا مشرب متسع جدا تصدى له الأئمة وعَدُّوه عَدًّا والغرض الإشارة به إلى ارتياح أهل الفضل للثناء، سيما وقد قال الحكماء قولا يرتاح له كل عاقل وكل أديب أريب، وهو قولهم: من لم يرتح للثناء فليس له في المروءة نصيب، والفرح بذلك فرح شكر على النعم، إن الله إذا أنعم على عبد أحب أن يظهر 19// أثر نعمته عليه. ولا خلاف بين المسلمين في حمد فرحٍ مِن شُكر، وإنما المذموم فرح البطر، والفرق بين هذا المشرب وقوله ﷺ: "ويلك قطعت عنق صاحبك" وقوله لما سمع رجلا يثني على رجل ويطريه في مدحه فقال: أهلكتم أو قطعتم ظهر الرجل ..الخ ظاهر لا يخفى، يعرفه من يفرق بين التمر والجمر، بل للإنسان عند الوثوق من نفسه أن يعد خصاله الحميدة بنفسه، وكفى برسول الله ﷺ أسوة. انظر إلى قوله عليه السلام كما في صحيح البخاري حين مقفله من حنين فعلقت الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى سمرة فخطفت رداءه، فوقف ﷺ فقال: " أعطوني رِدائي، فلو كانَ عَدَدُ هذه العِضاهِ ([1]) نَعَمًا لَقَسَمتُهُ، ثم لا تَجِدوني بَخيلًا، ولا كَذَّابًا، ولا جَبانًا.

" قال أئمتنا: وفي الحديث تعريف الإنسان نفسه بما فيه من أوصاف الخير عند الحاجة لذلك. وفي التنزيل (قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم) فاتضح بهذا ومثله مستندنا في إيضاح مزايا السلطان المنصور بالله 20// أطال الله مدته، وأدام نعمته، فمن أراد الله له خيرا أجرى الخيرات على يديه، وأطلق ألسنة الخلق بالثناء عليه، فخصال الملوك تصيرهم بمدرجة الدعاء لهم، وبسبيل الثناء عليهم جيلا بعد جيل، فلا يستطيع رادٌّ رد الدعاء لهم والثناء عليهم، ومن

1 العِضاه: كلُّ شجر يعظم وله شوك.

كرم الله أنه لا يضيع دعاءهم ولا ثناءهم، انظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم: "من أثنيتم عليه خيرا..." الحديث، وقوله "وجبت وجبت"، وإلى قوله كما في البخاري شهادة القوم المؤمنين شهداء في الأرض. فإذاً ينتفعون وينتفع الناس بالثناء عليهم والدعاء لهم، وهناك منفعة أخرى، وهي أن من جاء بعدهم ورأى الناس دونوا صنعهم يجهَد جهده في صُنعه مثل صُنعهم تأسيا بهم، كل على حسب مقدوره، فيأتى من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، وناهيك بها فضيلة، زيادة على تخليد الذكر الحسن والتحدث به، ولله در ابن دريد حيث قال:

وإنما المرء حديث بعده　　　فكن حديثا حسنا لمن وعى

//21 وهذا أمر أشهر من أن يقرر، لأنه عند العام والخاص مقرر، ولولا أن الغرض بذكره نصيحة ناصح، وما كان منها فلا بأس فيه بزيادة إيضاح الواضح، وفي طيه أن يعلم المبتدي والمنتهي أن من اعتنى بتأليف سير الملوك وتبين مفاخرهم وعد مآثرهم لا يقال فيه: بأي شيء اقتدى؟، إذ له فيما ذكر من الكتاب والسنة والاجماع أعظم مقتدى، ومن عرف حكم ما استقبل فقد اهتدى.

عجيبة غريبة يتوسع بها في معرفة باهر قدرة مالك الملوك.

قد علم من الكتاب العزيز ضخامة ملك سليمان الذي جمع له الإنس والجن والطير والوحش، وقد خافته بلقيس مع كثرة جنودها قبل أن تراه، وقالت لمن يشجعها من أهل مشهورتها (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها واجعلوا أعزة أهلها أذلة). قيل كان أهل مشهورتها ثلاثمائة رئيس وثلاثة عشر رئيسا تحت كل رئيس منهم عشرة آلاف، فإذا كان هؤلاء أصحاب المشورة، فكم فوقها! وهذا كله قال في الجمان ذكروا أن سليمان عليه السلام نزل في بعض أسفاره بالبسيطة على //22 ساحل البحر وطلب علف دوابه فلم يجده، فاتته نملة كالفيل وفتحت له مخزنا قام بجميع جنوده، فسألها: من أين لك هذا؟ فقالت: نزل هنا ذو القرنين وارتحل فجمعته من مخابئ دوابهم.اهـ. فالملك لله الواحد القهار.

تنبيه: تقدم الوعد بأن العزم إن شاء الله توشيح هذا التأليف بالحكم والأمثال وجواهر الأدب مع الإيجاز والبلاغة، ولا بأس ببعض البيان لمعانيها. أما الحكمة في عرف العلماء استكمال النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية، واكتساب الملكة التامة على الأفعال الفاضلة على قدر طاقتها، وتطلق على العلم وعلى الديانة وعلى الإصابة في القول. ومما قيل في المثل: أما المثل فكل شيء شبهت به شيئا وحاكيته به، ويطلق على معان، والمثل المحرك بالقول السائر الذي شبه موضع ضربه بمحل وروده. قال المسناوي في التوفيق على مهمات التعاريف: المثل عبارة عن قول فيه شيء يشبه قولا في شيء بينهما مشابهة ليبين أحدهما //23 الآخر ويصوره اهـ وقال ابن السكيت: المثل لفظ يخالف لفظ المضروب ويوافق معناه معنى ذلك اللفظ، شبهوه بالمثال الذي يعمل على غيره. وقال ابن ابراهيم النظام: يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام، إيجاز اللفظ، وإصابه المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية، فهو نهاية البلاغة. وأول مثل نطقت به

العرب قولهم: "المرأَةُ مِنَ المرْءِ، وكلُّ أَدْماءَ مِنْ آدَمَ" 1. ومن أضح ما قيل في حقيقة المثل: هو الاتيان باللفظ الوجيز على وجه التعجيز، إذ المراد به غير ما يدل عليه صريح لفظه، ولذلك نفى الله علمهما عن غير العالمين بها فقال (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) حتى قيل إن فهمها وتحقيقها على ما وضعت له من أنواع الإلهام.

وأما الأدب فأدبان، علمي وطبعي، فالأول فن من العلم مشهور، وأما الثاني فواجب شرعا، إذ هو أدب الشريعة، وأقرب ما قيل في حقيقته أنه الوقوف مع المستحسنات، وقيل: الاتصاف بمكارم الأخلاق //24 ومعنى الأدب لغة ربما يشمل العلمي والشرعي، إذ هو حسن التناول. وأما الإيجاز فأخصر وأقرب ما قيل فيه أن تقول ولا تبطئ، وتجيد ولا تخطئ. وأما البلاغة فكل واحد من فرسانها عبر عنها بما استحسن، ورأيت أن أطلق في جل عباراتهم الرسن فأقول: حَدَّها الفخر الرازي بقوله: هي بلوغ الرجل بعبارته كنه ما يقول بقلبه مع الاحتراز عن الإيجاز المخل والإطناب الممل اهـ وحَدَّها علي بن عيسى الرماني بقوله: أبلغ الكلام ما حسن إيجازه وقل مجازه وتناسب صدره وأعجازه وكثرت عجائبه وإعجازه.اهـ وقال غيره: هي أداء المعنى بكماله في أحسن صورة من اللفظ اهـ وقال آخر: البلاغة تَقَرُّرُ المعنى في الأفهام من أقرب وجوه الكلام اهـ وقيل: أبلغ الكلام ما سابق معناه لفظه اهـ وقيل: البلاغة أن يَظهر المعنى صريحا واللفظُ فصيحا اهـ وقيل: البلاغة إيجاز من غير عَجز وإطناب في غير خَطل اهـ وقيل للفارسي ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل. وقيل //25 لليوناني: ما البلاغة؟ فقال: تصحيح الأقسام واختيار أحلى الكلام. وقيل البلاغة أن تخاطبَ كل إنسان بما يفهم، وتكاتبَه بما يعلم اهـ والفرق بين الفصاحة والبلاغة أن البلاغة مقصورة على وصف الألفاظ، والبلاغة لا تكون إلا وصفا للألفاظ مع المعاني، لا يقال في الكلمة الواحده بليغة وإن قيل فيها فصيحة، وكل كلام بليغ فصيح، وليس كل كلام فصيح بليغا. والبليغ من يحرك الكلام على حسب الاماني ويخبط الالفاظ على قدر المعاني. وقيل: البليغ في اللغة من يبلغ بعبارته كنه مراده، زاد بعضهم: مع إيجاز بلا خلل أو إطالة بلا ملل، وفي العرف: من له ملكة يقتدر بها على إنشاء كلام حسن اللفظ صحيح المعنى. اهـ والكلام البليغ كل ما كان لفظه فحلا ومعناه بكرا اهـ

ولما آن سير سفينة الفكر في بحر مزاياه وخصاله، وإرخاء العنان في ترتيب من انفرد به مما أنتجه حسن سيرته من بديع صنائعه وفضائله، ترتيبَ المنازل الفلكية وتوالي المسائل الفقهية ومراعاة المناسبة //26 كالنسب في التغزلات الأدبية، وفصوص النصوص في الدلائل العقلية، رتبت تبويبها بحسب الترقي في ذلك، وفصلت فصولها سالكا بها في تدريج الوقائع والقضايا أحسن المسالك، فبنيت جملة الكتاب على كتب أربعة، عدد الخلفاء الأربعة، وجعلت خلال تلك الكتب أبوابا ثمانية، على عدد أواب الجنة الثمانية، وتحت ذلك فصولا وتنبيهات نويت بذلك بحول الله التعريف حتى تكون قطوف جنته دانية، وبالله التوفيق والإعانة في السر والعلانية، فأقول:

أما أول نشأته وعنفوان شبيبته الذي هو ميدان لركض خيل الصبا، فقد كفى في ذلك ما أخبرني به العلماء الأجلة الفضلاء من هذه الأمة الذين لازموه بدوا وحضرا لتعليمه العلم، من أنه من أول نشأته هو الذي يقال فيه صدقا شاب

---

1 - في المخطوط "المرأَةُ مِنَ المرْءِ، وكلُّ آدَمي مِنْ آدَمَ" والتصحيح من مجمع الأمثال للميداني ج2 ص319

نشأ في عبادة الله وطاعته، وتقريب كنه ما بلغني واختصاره أنه كالمطبوع على كلمات ثلاث، الأولى حديث جده صلى الله عليه وسلم، والثانية أثر (1) مروي عن جده علي كرم الله وجهه، والثالثة من حكم الشعر، 27// وكأنه لم يسبق إلى قلبه سواها، وقد انتقش في باله وخالص لبه معناها، حتى صارت أفعاله مبنية عليها مبتدأها ومنتهاها.

أول الكلمات قول النبي ﷺ: "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه".

والثانية قول علي كرم الله وجهه: "الشريف كل الشريف من شرفه علمه، والسؤدد كل السؤدد من اتقى الله ربه، والكريم من أكرم عن ذل النار وجهه".

الثالثة قول امرئ القيس (2) وما أحسنه:

لَسنا وَإِن أَحسابُنا كَرُمَت ... مِمَّن عَلى الأَحسابِ يَتَّكِلُ

نَبني كَما كانَت أَوائِلُنا ... تَبني وَنَفعَلُ مِثلَ ما فَعَلوا

فاختصار ما انتهج من أول نشأته هذا المنهجُ، وكان بعيد مرمي الهمة، وصِدقُ ذلك ظاهر على التحقيق، لا ينازع فيه عدو ولا صديق، ولذا طوينا طول هذا في عرضه، كأن نشره ليس بمراد للمشير ولا في غرضه.

الكتاب الأول في ذكر خلافته الأولى باستخلاف والده إياه بفراسة صادقة فيها بنور الله، فرأى أنه أكفؤ كفء لها، وأنها لا تصلح إلا له ولا يصلح أن 28// يكلفها سواه.

وبلغني أن جده الزاهد العابد سلطان السلاطين إن عُدُّوا عدا، عُلُوَّ هِمَّة وعدلا وجدا، ذا الفراسة الصادقة، والمكاشفة الواضحة الناطقة، أبا زيد مولانا عبد الرحمن بن هشام، كان يحبه حبا شديدا في صغره، يلمح فيه مآل أمره، وفيه فصول:

الفصل الاول في ذكر مقدمه لها ارتباط بالفن تشتمل على فوائد.

وفصل فيما كان عليه إذ ذاك من حسن السيرة والتأني في الأمور غاية، ارتكابا لمحسنات الأمور، وابتغاءً لما يُرضِي الله ويرضي والده الذي هو لسيرته مشكور.

وفصل في إصابة الرأي ونور الفراسة، وكون ما حمله من مهمات الأمور لم يشغله شيء منه عن الانكباب على ازدياد العلم، وتلقي أصوله وفروعه بتمام الفهم، وذلك كله بحاضرة مراكش.

الكتاب الثاني في ذكر ما عقد له من الرايات في تلك الخلافة، وفيه فصول:

الفصل الأول في عقد الراية الأولى لهنتيفة وما دونها وحولها من القبائل.

---

1 في المخطوط "اثار".

2 - القائل هو المتوكل الليثي وليس الفرزدق. انظر شرح الحماسة للمرزوقي ص 1256 طبعة دار الكتب العلمية.

الفصل ثاني في عقد الراية الثانية لسوس الأقصى وما أوقع فيه من التمهيد، وفيه 29// التعرض لوصف الفرح المرتب على البشائر براحة السلطان سيدي مُحَمَّد وحصول عافيته من سقم هائل كان اعتراه.

الفصل الثالث في ذكر عقد الراية الثالثة لتادلة وما انبرم فيها من الأمور على يديه.

الفصل الرابع في تحرير نصب راية أخرى لتادلة أيضا وإلى بربر زعير، وذكر ما تعلق بالبال مما ترتب عليهما وعند انتهائها التعرض بحادثة هائلة حدثت لأهل مراكش.

الفصل الخامس نصب الراية الخامسة التي هي خاتمة رايات الخلافة الصغرى وابتداء الخلافة العظمى التي توجه جيوشها وأعلامها لحاحا.

الكتاب الثالث لذكر ابتداء الخلافة العظمى واختصار ما حضر مؤلفه محققا لديه لم يتسلط عليه فيه نسيان أو عدم اطلاع، وذلك من مهمات الوقائع والقضايا وإلا فكثير منها اعتراه النسيان لطول العهد، وكثير منها لم يكن بصدد الاطلاع عليه، وتحته الأبواب الثمانية، منها باب ذكر راية النصر الأولى التي أقدم فيها على المدلهمات السود، ولا تطأ وطأته فيها الملوك ولا الأسود، لما يأتي بيانه 30// ومنها الباب الثاني الذي سرى به الرعب في جميع الآفاق، ورجع الطغاة من البرابر ونحوها عما كانوا أضمروا من الشقاق، فيما تعلق بقضية فاس وفيه فصول.

الباب الثالث في ذكر الراية العظمى التي هي ابتداء الفتوحات العظام، وما لقي هذا الملك بين عينيه من العزم ولم يبال لمخاطراته الجسام، وهي التي دوخ بها جميع قبائل الريف ومن عداها مما بين فاس ووجدة،حتى طأطأت له النصارى الرؤوس وقدمت عليه بالهدايا العظام، وفيه فصول.

الباب الرابع في قضية وطأته على آيت اعتاب، بما استوجبوه من النكال والعتاب، وما تلاه بإثره من فتح بلاد بربر بني مطير وفيه فصول.

الباب الخامس في إقدامه على سوس الأقصى، بنية الفتح لجميعه وقهر من عصى، ولما رأى ما رأى من حال أهله من تأثرهم بها، رق لحالهم وتركهم ووضع الندى موضع السيف، كما سيأتي بيانه وفيه فصول.

السادس في ذكر الرجوع لسوس الأقصى بعد انتعاشه، بل ورجوعه لما كان عليه من القوة ورجوع قوة أوباش أهله، وحينئذ تصدى لتدويخه 31// كله وفتحه، ففتحه، وفيه فصول.

الباب السابع في ذكر الفتح الأكبر الذي هو من هذه الفتوحات كلها أعظم وأشهر، لما طال من الإحجام عنه للملوك المتقدمين، وصناديدهم الماضيين، وهو فتح بربر بني مكيلد ومن لهم به عصبية أو حمية، وفيه تنبيهات وفصول.

الباب الثامن، هو الجيش الثماني الذي تجزأ منه جيوش سبعة، الذي هو ذو فتح الرباني، المتيمن فيه بالسبع المثاني، الذي كملت به سعة وإمرة الملك واتسعت، وصار مأوى أسلافه الذي هو مركز الأشراف، وينبوع سرهم الفضفاض الذي هو القصر الفيلالي، نقطه دائرة الملك من كل جهاته كما يأتي بيانه في محله إن شاء الله، وفيه فصول.

ثم الكتاب الرابع الذي هو للكتاب كله كالجامع والتذييل، والذيل طويل، بأن يكون جامعا لأشتات ما بقي من غرائب فتوحاته، وعجائب مخترعاته، وآثاره العجيبة، وبدائع مصنوعاته الغريبة، التي انتشرت في جل الأقطار، وسائر الأمصار، ولذلك أخرته ليكون جامعا لكثير من الفوائد، وشاملا لأشتات الفرائد، ويُذكَر فيه ما توفر في هذه الدولة السعيدة.
//32 من مهرة العلماء وأعيانهم في أمصارها، من حاملي رايات التدريس والإفتاء ووجوه نشر العلم، من أعيان أشرفها وأدبائها، إلى غير ذلك مما يجمعه هذا الكتاب الذي هو خاتمه تلك الكتب والأبواب مما تتشرف به الدول قديما وحادثا، فإنها تزداد شرفا بتوفر علمائها وأشرافها وأدبائها كما هو معلوم.

تنبيه: ليعلم ذوو الألباب، وفرسان فنون الأداب، ممن يقف على هذا البستان الرفيع الجنان، أن ما عساه يعثر عليه من لفظ حسن ومعنى مستحسن، أو شعر ليس لمقيده وإنما سيق لمحل يناسبه، وقد سُبق بذلك كاتبه، أنَّ لِواضِعِه موضعَه هُنا مقتدًى صحيحا، ومستندا واضحا صريحا، وهو ما علم بالسند الصحيح أن النبي ﷺ دخل على عائشة أم المؤمنين ﵂ وأسارير وجهه تبرق، أي يلمع منها شبه البرق، فأنشأت تقول:

وإذا نظرت الى أسرة وجهه   برقت كبرق العارض المتهلل

والبيت أصله لأبي بكر الهذلي في ربيبه (1)، وقالت عائشه للنبي ﷺ: أنت أحق به. قال القاضي أبو بكر ابن العربي في سراج المردين عند ذكر القضيه: وهذا أصل في قلب //33 المعنى الحسن وأخذه من غير حقه ووضعه في مستحقه. قلت ومثل هذا كثير منه:

وإذا المطي بنا بلغن مُحَمَّدا   فظهورهن على الرجال حرام

قاله أبو نواس في الأمين مُحَمَّد بن هارون الرشيد، ونقل إلى مستحقه الذي هو الجناب المصطفى كما في الشفاء للقاضي عياض، ومنه قول القائل:

تعود بسط الكف حتى لو أنه   دعاها لقبض لم تجبه أنامله
تراه اذا ما جئته متهللا   كأنك تعطيه الذي أنت سائله
فإن لم يكن في كفه غير نفسه   لجاد بها فليتق اللهَ سائله

هذا مما نقل لمستحقه كالجناب النبوي. وقد نقل تلك القضية أيضا أبو علي اليوسي في المحاضرات ونسبها للإحياء للغزالي، وزاد أنه عليه السلام لما قالت عائشة ذلك طرح ﷺ ما في يده وقبلها بين عينيها وقال: "يا عائشة ما سررت

1 - هو تأبط شرا، فقد تزوج أبو كبير الهذلي أمه.

بشيء كسروري بك". وفي هذا أيضا شاهد صحيح، ودليل واضح صريح، لما أسلفته من الاستدلال على فرح الإنسان بالثناء من غير بطر //34 ولا إعجاب. وتقدم قولهم من لم يرتح للثناء فليس له من المروءة نصيب.

الكتاب الاول

في ذكر خلافته الأولى باستخلاف والده إياه على ما وصف في طالعة الكتاب

وقد سنح لي مقدمة لها ارتباط بالمقام، يحسن ذكرها معه بَعدُ أو أمام، إذ ما اشتملت عليه من التنبيهات من لوازم الملك كأنه شرط والتزام، ومن شأن التأليف أن يكون له بغرر الفوائد بعض إلمام.

فصل في ذكر تلك المقدمة

فأقول ومن الله استمد العون على نيل المأمول وعلى حسن التمام، قد تقدم أن اسم هذا الكتاب المؤلف في التاريخ "**البستان الجامع لكل فن حسن ونوع مستحسن**" ولا يخفى أن تلك التسمية حاكمة على مؤلفه بتوشيحه بالفوائد والنكت الحسنة، والأمثال والحكم المستحسنة، مما يحمل ذووي القريحة، وسالمي الملكة الصحيحة، على مطالعته للجمع بين الفائدتين، استفادةِ العلم بسيرة السلطان أمير المؤمنين السائر في رعيته بإرادة رب العالمين //35 واستفادةِ ما جَرَّتْهُ سيرتُه من سَوق الفوائد والحكم، وتلك المقدمة هي هذه:

مقدمة تشتمل على تنبيهات

الأول منها: ينبغي أن يُعلم أن فن علم التاريخ من أنفس العلوم، التي يتنافس فيها ذوو الهمم والفهوم، إذ هو بالفوائد المهمة كفيل ومحيط، فلا ينكر ذلك إلا جهول جهله مركب لا بسيط، قال أبو شامة: جاهل التاريخ يركب متن عمياء، ويخبط خبط عشواء، ينسب خبر من تقدم لمن تأخر ويعكس. وقال الولي العراقي: في القرآن استدلال بالتاريخ في قوله تعالى: (يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده) فأبطل دعوى اليهود أو النصارى بقوله (وما أنزلت التوراة) الخ.

ومن فوائده قضية الكتاب الذي استظهر به اليهود فيه اسقاط الجزية عنهم التي ذكر الجلال السيوطي. وقد أغنانا عن تتبع فضائله وتبيان فوائده ما دونه الأولون والآخرون ممن تصدى لذلك، ولا بأس باقتباس القليل من الاستدلال على فضيلته. قال بعض الأولين من أئمتنا: ومن أركان الأدب //36 علم التواريخ والنسب وأخبار الأمم، فإن كتاب الله هو أول مسطور، وآخر مأثور، كنز العارفين وعلم الأولين والآخرين، متعلق كل سواد في بياض، ومتحمل كل إفصاح وإغماض، وتصريح وإيماض، فهو البحر المحيط الذي لا ساحل له ولا منتهى لطرفه، فهو كفيل بعلوم الشرائع ومعرفة الله وقصص الأنبياء وأخبار الملوك الماضين والأمم السالفة وحدود الأحكام، ووعظ الأنام، والرجاء والتشديد، والوعد

والوعيد، وبكل علم تاريخ وحساب، وطب وأنساب، وغير ذلك. قال تعالى (ما فرطنا في الكتاب من شيء)، (ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء).

فأما الحساب فانظر إلى الفرائض المنزلة التي لا يتوصل لها إلا به، واعتبر تقديره عز وجل مبيت الشمس والقمر ومنازلهما، إنما يتوصل لذلك بالحساب، قال تعالى (وجعلنا الليل والنهار ءايتين فمحونا ءاية الليل وجعلنا ءاية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب).

وأما الطب فناهيك بقوله تعالى (كلوا واشربوا ولا تسرفوا)، وبُيِّنَ بما رُوِي أن الحمية رأس 37// الدواء، وبما روي "ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه" الخ. وروى أبو العباس بن يزيد بسنده إلى رسول الله ﷺ أنه قال: "إذا استرذل الله عبدا حظر عليه العلم" أي منعه إياه وآل في العلم للاستخراق (1).

وقد أوصى لقمان الحكيم ابنه أن لا يجهل شيئا من العلم قائلا له: "ومن جهل شيئا عاداه، وأنا لا أحب أن يكون لك شيء من العلم عدوا". قالوا: ومبدأ العلم وتمامه، وفرعه وأصله، وافتتاحه ومآله، كتاب الله عز وجل، فهو أول محفوظ، وأخر معلوم، وإنما علمه الأولون وهُجم به عليهم سابقا لأنه المراد والمقصَد، والغرض الذي يُقصد، فكان هذا كما قيل:

رأى الأمر يمضي إلى آخره فصَيَّر آخرَه أوَّلا

ويكفي في بيان فضيلته، والاعتناء بشأنه، أن ممن ألف فيه، أي في التاريخ، الإمام البخاري وناهيك به، فهو الرجل الذي لا تَعدِل به أحدا. كذلك الواقدي والطبري وابن الكلبي وابن اسحاق 38// وسيف بن عمر والذهبي والمسعودي، هؤلاء على سبيل العموم، أما على الخصوص في الدول، أي ما يخص كل دولة معينة، فذلك شهير جدا، كثيرا إن عُدَّ عَدًّا. قال الصفدي: قد يفيد التاريخ موعظة وعلما، وهمة تهب فهما، وبيانا يزيل وهما، ويزيد حزما وعزما، (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك). لكن قال التاج السبكي في مفيد النعم: المؤرخون على شفا جرف هار لتسلطهم على الأعراض بالأغراض... إلى آخر كلامه. ولعل هذا هو الذي راعى مولانا الإمامُ الموضوعُ في سيرته هذا البستانُ، مولانا الحسن، حيث نهى تأكيدا أن لا يتعرض لمثل ذلك. وفي هذه الإشارة ما يغني عن إرخاء القلم فيما في ذلك من عبارة.

التنبيه الثاني في ذكر ما ينبغي ارتكابه لأرباب الآداب، من المؤلفين فيه وحذاق الكتاب، من انتقاء الألفاظ فرادا وتركيبا، وجمعا وترتيبا، وهل الأحسن التوغل في انتقائها وتحرير كلها، أو الأفضل تارة وتارة بحيث يقصر ذلك على بعضها أو جلها، ليقع مستحسن الارتفاع والانحطاط، ولكن مع مراعاة حسن 39// الارتباط، وهل الأحسن ارتكاب السجع ومراعاة الفِقَر على الدوام، أو أن يكون ذلك في التأليف كالملح في الطعام، وبسبب ذكر ذلك ينجر الكلام إلى ذكر

---

1 -كذا تبدو في المخطوط، وربما كانت "الاستغراق"، لكنها مستبعدة لعدم مناسبتها للسياق، فإن كانت كما أثبتناها فهي من الخَرَق، والأخرق: الأحمق أو من لا يحسن عمله.

ولفظة آل هي في المخطوط "أل" بهمزة.

شرف الأقلام، ثم إلى ما ينبغي لفرسان القلم من الكتاب، الذين هم أحق الناس برعاية وجوه الآداب، وذلك فيما يتعين ارتكابه في الكتابة وما هو المستحسن المحمود في أوصافهم، ثم إلى تنبيه آخر فيما يختص بالوزراء، لأن الحديث شجون، وقد يجر إلى فنون، لاسيما وأعظم أمور قوام الملك القلمُ والسيف والعدل.

أما التاليف، فمن أئمة هذا الشأن، ومنهم الأصمعي، من يرى ويختار أن لا يكون الكلام كله منتقى منتخبا لبابا، وقد يتكلم الفحول من أئمة هذا الشأن على هذا وعلى ما يجب على الكاتب البليغ، والمرسيل (كذا) الحفيل والمنشئ الناقد الماهر، وهناك قال أبو عثمان: الكلام المرسل عن السجع هو الأصل لبعده عن التكلف وتَنَزُّهِه عن التصنع، والكلام المتكلف مذموم مرسلا كان أو مقيدا بالأسجاع. وقالوا التكلف أخو العِي //40 والتشدق هو الحصر، والتعمق أشد من هجنة اللحن، لأن خطأ اللحن مفهوم بأول خاطر، مجبور بأيسر محاولة، معدّل بأقرب لفظة، والتنطع يخفى غالبا على الفهم اللبيب، ويصعب إلا بعد تنقير وتنقيب، وهذا هو الكلام الذي يبغضه الله ورسوله، هذا الكلام أصحابه هم المتشدقون والمتفيهقون. والتزيُّد مذموم وقد نفى الله التكلف عن رسوله بأمره له أن يقول (وما أنا من المتكلفين). وكان الأصمعي يقول للحطيئة: عبد الشعر، وعاب شعرَه حين وجده كله متخيرا مستويا، وذلك لمكان الصنعة والتكلف. وقالوا: إن الكلام المنثور والقصائد إذا كان ذلك كله أمثالا لم يسر في القلوب ولم يجر مجرى النوادر، ومتى لم يخرج السامع من شيء إلى شيء لم يكن لذلك الكلام عنده موقع. وكان بعض الشيوخ يستحسن لأبي الطيب المتنبي ارتفاعه وانحطاطه، وهذا إنما هو بحسب طباع العالَم اهـ.

قال مقيد هذا التاريخ غفر الله له: إذا تأمل الإنسان مبنى ما لأهل هذه الطريقة ومحصِّله، وجد //41 العلة عندهم في ذلك التكلف الذي وصفوه بأنه أخو العي، وأنه التشدق الذي هو صنو الحصر، والتعمق الذي هو أقبح من هُجنة اللحن، وأما إذا خلى من ذلك يعيبونه ولا ينكرونه على فاعله، بل يستحسنونه ويوافقون غيرهم عليه، فيكون الخلاف بينهم خلافا في حال، ولا فرق في هذا المعنى الذي هو تعاطي الألفاظ الجارية في ذلك الميدان، بين ما يجري منها في ميدان فحول الكتاب الراكضة في أشواط البلغاء، المرسلين الحفلاء، والمنشئين من كل ناقد ماهر، وبين ما يجري منها في طريق المؤلفين من كل ناظم وناثر، فذاك كله إن سَلِم من تلك العلة فالاتفاق على استحسانه في كل نوع، كتابة أو ترسيلا أو إنشاء أو تأليفا، فقد قالوا: "حسن البيان يُري الظلماء كالنور"، وقالوا: "الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعتَ الله عز وجل يذكره ويمدحه". قال سهيل بن هارون: "العقل رائد الروح والعلم رائد العقل والبيان ترجمان العلم". وقال غيره: ومن عدل الطباع ارتياحها إلى البيان والكلام الحسن في الوصف //42 الكريم والمعنى الشريف، فما كان من ذلك شعرا فهو داخل تحت قول الشارع ﷺ "إن من الشعر لحكمة"، وما كان نثرا داخل تحت قوله تعالى (خلق الإنسان علمه البيان) وقوله ﷺ "إن من البيان لسحرا"، إنما شبه ﷺ البيانَ والكلامَ الفصيحَ بالسحر لأن السحر يقلب الأعيان فترى الحق في صورة الباطل والباطلَ في صورة الحق. ومنهم من اختار الانتخاب والسجع في الكلام كله قائلا: إن الكلام البليغ إذا أُفرغ في قالب السجع فإنه يرجع إلى مقابلة ومعادلة كالوزن. وقيل لعبد الصمد بن الفضل الرقاشي: لِم تؤثر السجع على المنثور وتلزم نفسك القوافي؟ فقال: إن الكلام لو كنت لا أقصد فيه إلا إسماع

الشاهد قَلَّ خلافي عليك واجتلابي، ولكني أريد الغائبَ والحاضر، والزائرَ والعابر، فالحفظ إليه أسرع والآذان لسماعه أنشط، وهو أحق بالتقييد وبقلة التفلت. ولذا قيل:

يكاد من عذوبة الألفاظ تشربه مسامع الحفاظ

قالوا: وإذا كانت الأسجاع تحفظ بقيودها من الازدواج الجاري //43 على منهاج، فأحرى [أن] تنحفظ أبيات الشعر المحدودة بالأوزان، وهذه عله ثبوت الأشعار المدونة والقصائد المجموعة والآثار المخلدة. وقد قيل لابنة زهير وقد رآها القبائل فقيرة، قيل تتكفف الناس، أين ما كان يعطي هرم لأبيك جزاء على مدائحه إياه وثوابا؟ قالت: أعطاه أموالا فنيت، وأثوابا بليت، وأعطاه أبي ثناء يبقى، وذكرا لا يبلى.

قال بعض أئمة هذا الشأن: إن الكلام المجموع المطبوع تستلذه الأسماع وتألفه الطباع، فإن النفوس باعتدالها الذي ركب فيها تأنس باعتدال الألفاظ وموازنة الكلام، فإن الحكمة كامنة في قلوب العقلاء، فإذا سمعتها ألفت وأنست بها

إذا ما الفكر ولد حسن لفظ وأسلمه الوجود إلى العيان
ووشاه فنمنمه بيان فصيح في المقال بلا لسان (1)

وقد قال تعالى (الذي خلقك فسواك فعدلك) فذلك التعديل يطلب ما يناسبه، ويرتاح إلى ما يجاذبه. ومن هنا أطربت الألحان بالنسبة المزاجية. والسجع إذا لم يُتكلف فهو حَلْيٌ يُزَيِّن على //44 التخصيص والتعميم، ويروي غمره النعيم. وإنما سميت الفِقَر فِقَراً لاشتراكها مع الفِقَر في اللفظ والتناسب وهي العظام المطَّرِدة في الظهر، والفقر الشذور من الذهب (2) والشذر الدر، لاسيما والسجع موجود في نظم القرآن في أكثر السور، وسمي سجع القرآن فواصل (3) تأدبا، ولكراهته ﷺ، ولم يكره منه ﷺ نفس السجع وإنما كره تعاطي النطق بمغيبات الأمور وخلاف الحق (4) ومعارضة الوحي، وتنطع الكلام تزيدا وتحكما، وإقداما على ما في علم غد وتقدما، وبظهور النبوة بطلت الكهانة. وانظر النظم المقابل في القرآن العزيز تجده موجودا في كثير من السور، بل يأتي في بعض الآي على صورة لزوم ما لا يلزم، كقوله تعالى (والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو الا وحي يوحى علمه شديد القوى). وكذلك

---

1 - البيتان لأبي إسحاق الكاتب، وهو إبراهيم بن العباس بن مُحَّد بن صول، مولى يزيد بن المهلب، كنيته أبو إسحاق مات في شعبان سنة ثلاث وأربعين ومائتين بسامراً.

2 - كذا في المخطوط، ولم نعثر في المعاجم على ما يدل عليه.

3 - على هامش المخطوط مانصه: "تنبيه، الفواصل جمع فاصلة وهي الكلمة الأخيرة من الفقرة ونحوها، قالوا: ولايقال فيه سجع وأنما يقال فواصل لقوله تعالى (فصلت آياته) اهـ كذا قرره الشهاب في شرح الشفا". انتهى

4 - في المخطوط "الحي" ولعله تصحيف.

هو في سورة القمر وسورة الرحمن وكهيعص وفي غير ذلك كثير. والسجع موجود في حديث رسول الله ﷺ كقوله: "يقول ابن إدم مالي مالي، وليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست //45 فأبليت، أو وهبت فأمضيت". وقال عليه السلام لمعاوية: "اللهم علمه الكتاب والحساب وقه العذاب". ويروى أن أول ما سمع عبد الله بن سلام الإسرائيلي من كلام النبي ﷺ "أيها الناس، أفشو السلام، وأطعموا الطعام، وصِلوا الأرحام، وصَلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام". وقوله ﷺ "أنفق بلالا، ولا تخش من ذي العرش إقلالا" قوله عليه السلام "يا عمير ما فعل النغير". وقوله عليه السلام للأنصار "إنكم لتكثرون عند الفزع، وتقلون عند الطمع" وقوله عليه السلام في الخيل "ظهورها عز، وبطونها كنز". وقال عليه السلام في الغنم "سمنها معاش، وصوفها رياش" وقال عليه السلام في النخل "الراسيات في الوحل، المطعمات في المحل". وقال عليه السلام "الجار ثم الدار والرفيق قبل الطريق". وقال عليه السلام "لا يكون المؤمن طعانا ولا لعانا". وقال عليه السلام "ما قل وكفى، خير مما كثر وألهى". وهو كثير في الخبر الصادق المشهور والحديث الماثور. وإلى هذا ذهب مَن قولُه حجة من أئمة الدين والفقهاء في الشرع، على منهاج ذلك خطباء العرب وفصحاؤهم الذين بُعث //46 ﷺ بلسانهم وسطا فيهم فأعجزهم في شأنهم. فبان بكل دليل قاطع، وبرهان ساطع، أن انتقاء الكلام وانتخابه يستحسنه كل سليم الطبع، وأنه حسن في نفسه، وقول من قال: الأصل هو الكلام المرسل، يقال له: سلمناه، ولا يلزم من كونه أصلا أن لا يكون غيره أحسن منه. نعم المذموم إنما هو التكلف والتعمق كما تقدم، وإلا فقد قال رئيس الأدباء المؤلفين في هذا الفن الشيخ مُحَمَّد بن إبراهيم الإشبيلي في ريحان الألباب وريعان الشباب، فيما يرجع للتأليف وينبغي أن تدخل فيه كتابة الكتاب، الممتطين ذروة فنون الآداب، أهل الإنشاء والترسيل، من كل كاتب مَكاتِيبَ الملوك مجد نبيل، ما نصه: ومن اختيار الكلام أن تجد له حلاوة وطلاوة تشف على غيره لأمر يعرض في التأليف ويقع في المزاج، فإنك إذا انتقيت اللفظة المؤدية حقيقة ما تؤدي عبارته، فتضع معها ما يوافق شكلها ولا يهجن جنسها، ولا يشين نفسها، ولا ينفر أنسها، وتسطفيها بحسب اتساع المواد، جارية على المراد، مطهرة عن السقوط، ملخصة من الاشتراك، خفيفة البنية //47 المعتادة، والصيغة المألوفة، لها في القلوب والأسماع منزلة وتأثير، يستلذها الظاهر والضمير، وفطنت لهذه الدقيقة الجليلة، التي إليها مسار الفضيلة، ظفرت بسر الصناعة، واستاثرت بغوامض البراعة، فإن التأليف إذا اطردت فيه الكلمات الرطبة المختارة العذبة زادت طلاوته، ونمت بهجته، كما أن اللفظة الحسنة إذا وضعت معها لفظة ليست من شكلها كان ذلك أظهر لعيبها وأبين لقبحها.اه

ومما ينبغي للمؤلف وهو آكد في حق الكتاب مراعاته والمحافظة عليه الاهتبال بمراعاة أقسام البلاغة العشرة التي هي: الإيجاز والتشبيه والاستعارة والتلازم والفواصل والتجانس والتصريف والتضمين والمبالغة وحسن البيان اهـ.

وقد تقدم أن ما في نظم القرآن من حسن المقاطع يسمى فواصل، والفواصل حروف متشاكلة في المقاطع، وهي مواقع الكلم.

هذا وليعلم أن الفرق بين الفصاحة والبلاغة أن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ، والبلاغة لا تكون إلا //48 وصفا للألفاظ مع المعاني، لا يقال في الكلمة الواحدة بليغة وإن قيل فيها فصيحة، وكل كلام بليغ فصيح وليس كل كلام فصيح بليغا. اهـ.

فتحصل من مجموع ما تقدم اختيار السجع والقوافي مع ارتباط الكلم بعضها مع بعض وتناسبها وتشاكلها، وإنما عِيبَ التكلفُ والتنطع والتعقيد.

قال مقيده غفر الله له: ولكن ينبغي أن لا يُرتكَب ذلك في الكلام مع طوله، بل ينبغي أن يكون ذلك في الكلام بمنزله الملح من الطعام، وينبغي أن يكون تارة هكذا وتارة هكذا بحيث يقع منه الارتفاع والانحطاط، ليظهر في الكلام الغير المرسل حسن الارتباط، ولا يتم بهاء الشيء وعذوبته إلا إذا كان مع غيره في ميدان الاختلاط، أما إذا كان على مجرى واحد لا انحطاط ولا ارتفاع ذهبت حلاوته طلاوته ولم يكن له كبير موقع في النفوس، فلا أقل أن يعتبر الإنسان في نسبة السجع للكلام المرسل نسبة فواصل القرآن الحكيم، إذا كان الكلام كذلك ربما أظهر منه كلُّ نوع حسن مقابلَه، على أن حِكَم الحكماء سجعُها كذلك، فالتزام القوافي فيها كثير، وكذلك المرسل منها عن السجع كثير شهير اهـ.

//49 **<u>تنبيه آخر</u>** بخصوص فرسان اليراعة، من الكتاب ذوي البراعة، الذين أظهر مكنونَ فضلهم القلمُ، لاسيما وبأقلامهم تنتشر مآثر الملك في العالم، فإن المطلوب في حقهم وإن دخل فيما يجب في حق التأليف كما تقدم، لكن الاهتمام بشأنهم آكد، لأن بلاغة أقلامهم ورشاقة ألفاظهم يزداد بها الملكُ استفاءَ فضلِه، وإظهار رونق نظم شمله بعد توفر أصله، ولذلك أنثنى عنان القلم لما يختص بأقلامهم وألفاظهم وهيئاتهم، ومناسبة ذكرهم للموضوع لا تخفى.

ولنبدأ بنزر مما قيل في مدح القلم وناهيك بقسم الله به في كتابه، وبأمر الله له أن يكتب في اللوح المحفوظ فانشق هيبة من خطاب الحق له. وأول من كتب به من البشر نبي الله سيدنا إدريس على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام. وقال الحكماء في القلم: إن صورة خطه في الأبصار سواد وفي البصائر البياض. ولله در ابن الخطيب إذ يقول:

تفاخر السيف فيما قيل والقلم ... والفخر بينهما لا شك منقسم

//50 كلاهما شرف لله درهما ... هذا له الحُكم والثاني له الحِكم

وقال آخر:

فلا تغترر أن قد دعوه يراعة ... فإن صريرا منه يستهزم الجندا

وألغز فيه بعضهم قائلا:

وأرقش مرهوف الشباة مهفهف ... يشتت شمل الخطب وهو جميع

تدين له الآفاق شرقاً ومغرباً ... وتعنو له ملاكها وتطيع

حمى الملك مفطوماً كما كان تحتمي به الأسد في الآجام وهو رضيع

وعنى بفطامه قطعه من أصله، وبرضاعه كونه ناشئا في أصله يرضع من الماء قوى الأرض. وهذا المعنى فيه كثير، وفيه ألغاز جيده غير هذا.

ثم نشير لبعض ما يستحسن من حميد الصفات المشترطة في كُتاب الدول، إذ لا ينتظم شمل الإسلام إلا بهم، وهم يعلمون أن حلي الرجال ما يحسنونه، وحلي النساء ما يلبسونه. وقيل حلي الرجال الأدب، وحلي النساء الذهب. وقال في ريحان الألباب وريعان الشباب: كُتاب الملوك عيونهم المصونة، وآذانهم الواعية، وألسنتهم الناطقة اهـ. وأنشد بعضهم:

//51 ومن الملائكة الذين هم هم خير الورى جيل من الكتاب

قال فخر الأدباء الإشبيلي: قال أبو عثمان: ما رأيت يوما أفضل طريقة في الأدب من هؤلاء الكتاب، فإنهم يلتمسون من الألفاظ ما لم يكن متوعرا وَحشِيًّا، ولا ساقطا سوقيا. وعاتب أبو جعفر المنصور على قوم من الكتاب فأمر سجنهم، فرفعوا إليه رقعة ليس فيها إلا هذا البيت:

فنحن الكاتبون وقد أسأنا فهبنا للكرام الكاتبين

فعفا عنهم وأمر بتخلية سبيلهم، وعُد هذا البيت الوافر من وافر حلمه. اهـ

تنبيه: لا يخفى على منصف أيا كان ما بين حلم أبي جعفر هنا وحلم صاحب هذا البستان، فبينهما في الحلم بون بعيد، وتباين شديد، فأبو جعفر عاتب وأمر بالسجن، وأبو علي صاحب هذا البستان لم يعاتب ولا أمر بالسجن، بل أعرض وتغافل لشدة حلمه، وما له من اللذة في عفوه، فمنهم -أي من الكتاب- من يتجرء على فتح مكاتبه ويزيد وينقص فيها ويفشي الأسرار الملوكية، على أن الملوك كل شيء يتحملون صبره سوى ثلاثة منها إفشاء السر، //52 ومنهم من يزور عليه المكاتب ويزور طابعه عليها، وكل ذلك يكظم غيظه فيه ويعفو استلذاذا بالعفو، فما رأينا من يشاكل ويضاهي حلمه وعفوه إلا ما نقل عن المأمون أنه يقوله من قوله: لو يعلم الناس ما لنا من اللذة في العفو لتقربوا إلينا بالجرائم أو قال بالذنوب. وهذا من صاحب هذا البستان شيء معروف، وعند كل أحد به موصوف، ولو شرحته ببيان أهل الجرائم وعفوه عنهم وأطلته لطال ونشر الأذيال، لكن حيث عفا وستر، تعين عليَّ أن لا أعين ولا أكشف عما ستر. قال أرباب هذا الفن وأهل هذا الشأن: إن من فضل منازع الكاتب أن يكون افتتاح كتابه دالا على معنى خطابه، وأول مسطوره رائدا لما في ضميره، ولا يطيلن صدر كتابه، ولا معتاد دعائه، إطالة تخرجه عن حده، ولا يقصر به عن حقه، لما قيل: "صمتٌ كافٍ خير من كلام غير واف"، فإنهم كرهوا في الجملة أن يزيد صدر الكتاب على سطرين أو ثلاثة، ولا يجوز أن يأتي الكاتب في رسائله باللفظ المشترك والمعنى الملتبس، فإنه إن ذهب بكتاب على معنى قوله عز وجل (وسل القرية التي

كنا فيها)، وقوله سبحانه 53// (بل مكر الليل والنهار) ومثل هذا في القرآن كثير من الحذف والاختصار، ومخاطبة الخاص بالعام والعام بالخاص، لم يفهم عنه، فإن الله عز وجل إنما خاطب بالقرآن قوما فصحاء على سجاياهم، وفهموا عنه جل ثناؤه أمره ونهيه ومراده، والرسائل يخاطب بها بعكس ذلك. وقد عابوا على الكاتب كثرة الشكل والنقط لأنهم قالوا: من أكثر من ذلك فقد استجهل المخاطَب، فلذا كرهوه، ولكل طبقة من الناس كلام يُخَصون به ودعاء يُقصَر عليهم، مثل أبقاك الله، يُعلم أنه لا فرق بينه وبين أطال الله بقاءك، إلا أن هذا للكبراء وذلك لمن دونهم بالعرف المعتاد. وأول من قال "أطال الله بقاءك" سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ، قالها لعلي كرم الله وجهه، وكذلك "قواك الله" هو معنى قولك "أيدك الله"، إلا أن الأخير للملوك وأهل الرئاسة والشرف. قال الله تعالى في حق نبينا ﷺ (هو الذي أيدك بنصره) فمن هنالك أُخذ. قال بشر بن المعتمر: خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرا وأشرف حسبا 54// وأحسن في الأسماع وأحلى في الصدور، وإياك والتوعر فإنه يسلمك إلى التعقيد، وهو الذي يستهلك معانيك ويشين ألفاظك، ومن أراد معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما، إلى أن قال: وكن في إحدى ثلاث منازل، فأول الثلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا، وفخما سهلا، ويكون معناه ظاهرا مكشوفا، وقريبا معروفا، إما عند الخاص إن كنت الخاصةَ قصدتَ، وإما عند العامة إن كنتَ العامةَ أردت، وإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك ولطف مداخلك ،ن تُفهم العامة معاني الخاصة، وتكسوها الألفاظ المبسوط، فتلك البراعة حقا، والبلاغة صدقا. اهـ المراد. فالبلاغة معرفة رتق الكلام وفتقه، وشر القول ما ناقض بعضه بعضا، وخير القول ما قل ودل، ولم يَطُل ولم يُمل، وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره، معناه في ظاهر لفظه، وكأنَّ الله ألبسه من الجلالة وغشَّاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه وتقوى قائله، فإذا كان المعنى شريفا، واللفظ بليغا، وكان صحيح الطبع بعيدا من الاستكراه، منزها عن الاختلال، مصونا عن 55// التكلف، بعيدا عن التعجرف، صنع في القلوب صنيعة الغيث في التربة الكريمة، وقولهم خير الكلام ما قل ودل ..الخ. فكما أنهم قالوا فيما يرجع للإنسان: قد يكون القِصر في القد والطول في الهمة والقلب، كذلك يقال في كلامه: قد يكون قصيرا اللفظ طويل المعنى. وقال بعض أهل الهند: جماع البلاغة التماس حسن الموقع، والمعرفة بساعات القول، وقله الخرق فيما التبس من المعاني أو غمض، وفيما شرد عليك من اللفظ أو تعذر. وقال الوافدون على يحيى ابن خالد من حكماء الهند: أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون رابط الجأش ساكن الجوارح متخير الألفاظ، ولا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوقة، ويكون لِقِواه فضل التصرف في كل طبقة، ولا يدقق المعاني كل التدقيق، ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح، ولا يهذبها كل التهذيب اهـ كلامهم.

قال مقيده عفا الله عنه: قولهم ولا يدقق ولا ينقح ولا يهذب الخ، إنما هو نهي عن تكلف ذلك، لما تقدم من ذم التكلف، ليوافق ما مر اهـ

<u>**تنبيه آخر**</u> لذكر ما شُرط من حلية كاتب الأمير 56// قالوا: ينبغي أن يكون معتدل القامة، متوسط الهامة، كث اللحية، صادق الحس، لطيف المذهب، حلو الشمائل، حسن الإشارة، طلق العبارة، حتى إن بعض المهالبة قال لولده: تزيوا بزي

الكتاب فإن فيهم أدب الملوك وتواضع السوقة. ومن كمالات آلات الكاتب أن يكون بهي الملبس، نظيف المجلس، ظاهر المروءة، عاطر الرائحة، رقيق الذهن، حسن البيان، رقيق حواشي اللسان، لطيف المسالك، مستقر المركب، ولا يكون مع ذلك فضفاض الجثة، متفاوت الأجزاء، طويل اللحية، عظيم الهامة، فإنهم زعموا أن هذه الصفة لا يليق بصاحبها الذكاء والفطنة. انتهى

ومما شرطوا في حلية الوزير بالخصوص أن يكون جيدا الفهم، كثير العلم، سريع القصد لكل ما يقال، ذاكرا يقظان فطنا متغافلا مستمعا، ذكيا مجتمعا، إذا رأى على الأمر أقل دليل فطن له على الجهة التي قُصِد به. ولذا قال سهل بن هارون: العقل رائد الروح، والعلم رائد العقل، والبيان ترجمان العلم. قالوا: ذو الهمة يزداد كل يوم علما، وبعقله يجتنب المحظور، ويستعمل المأمور.

//57 واستحسنوا في جانب الوزير أكثر ممن سواه أمورا منها: جميل الوجه، حسن الفعال، غير صالف ولا وقح. ومنها أن يكون حسن العبارة، يواتيه لسانه على ما في قلبه وضميره بأوجز الألفاظ. ومنها أن يكون حسن الملبس نظيفَه، وأن يكون نافذا في كل علم، لاسيما علم الحساب، فهو العلم البرهاني، وعلى من تحصَّلَ من هذه المقدمات والأدوات ما تأصَّل، أن يعلم ما به يتجمل. ومنها أن يكون صادق القول محبا له، مُجانبا للكذب، حَسَن المقابلة، سمحَ الخلق، لين الجانب، سهل اللقاء. ومنها أن يكون غير شره للأكل والشرب والنكاح، مجتنب اللذات والمزاح. ومنها أن يكون الدنانير والدراهم وسائر أعراض الدنيا هينة عليه، ولا يكون همه إلا فيما يقيم به جاه رئيسه وسلطانه وأميره، ويحببه إلى الناس. ومنها أن يكون محبا للعدل وأهله، مبغضا للجور والظلم، يعطي النصفة لأهلها، ويرثي لمن حل به الجور ويمنع منه، ولا يمنعه من ذلك مساعدة أحد من خلقِ //58 الله. ومنها أن يكون فوق العزيمة على الشيء الذي ينبغي أن يفعل، جسورا غير خائف ولا ضعيف النفس، ثابت القلب، رابط الجأش. ومنها أن يكون كاتبا محسنا، خطاطا أديبا، حافظا للتواريخ وأيام الناس وسير الملوك. ومنها أن يكون عالما بوجوه الجبايات كلها، لا يخفى عليه وجه من وجوه المصالح تتشكَّى عليها الرعية إلا علم وجه تشكِّيها ومداواتها، وإذا علم الخَدَمة أن الوزير عالم بهذه الوجوه لم يقدموا على إدخال داخلة عليه. ومنها أن لا يكون كثير الكلام مهذارا، كثير المزاح والتعريض بالناس والاستخفاف بهم. انتهى.

هذا وغاية ما يقول من وقف على هذا من قائل: أنَّى يجتمع هذا كله في فرد؟، فيقال له: ما لا يُدرك كُله لا يُترك كله، ويعلم ذلك الإنسان كم بقي عليه مما هو متعين في حقه. والخلق قسمان: جِبِلِّي ومكتسب، فما لم يطبع عليه ذو الهمة اكتسبه. اهـ

تنبيه عام فيما يجب على من يصحب الملوك، قال قال الشعبي: قال لي عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: قال لي العباس، يعني أباه سيدنا العباس، //59 يا بني، إني أرى هذا الرجل، يعني عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، يقدمك على كثير من أصحاب رسول الله ﷺ، وإني أوصيك بكلمات أربع: لا تفشين لهم سرا، ولا تحدثنهم كذبا: ولا تُطرين عندهم نصيحة: ولا تغتابن لديهم أحدا. قال الشعبي، فقلت لابن عباس: كل واحدة منهن خير من ألف. قال إي والله

ومن عشرة آلاف. اه قالوا إذا زادك السلطان أكراما فزده إعظاما، وإذا جعلك ولدا فاجعله سيدا، وإذا جعلك أخا فاجعل والدا، ولا تديمن النظر إليه، ولا تكثرن من الدعاء إليه بحضرته، ولا تتغير منه إذا سخط، ولا تغتر إذا رضي، ولا تلح في مسالته، وقد قيل في المعنى:

قرب الملوك يا أخا البدر السَّنِي　　　حَظٌّ جزيل بين شِدقَي ضَيغَم

قال الفضل ابن الربيع: مَن كَلَّم الملوك في حاجة في غير وقتها جهل مقامه، وأضاع كلامه، وما أشتبه ذلك إلا بأوقات الصلاة التي لا تقبل إلا في وقتها. قال خالد بن صفوان: من صحب السلطان بالنصيحة والأمانة كان أكبرَ عَدُوٍّ له أو أكثرَ زهدا //60 فيه ممن صحبه بعكس ذلك، لأنه يجتمع على الناصح عدو السلطان وصديقه بالعداوة والحسد، فعدو السلطان يبغضه لنصيحته وصديقه ينافسه في مرتبته. وسئل عن الرجل العاقل فقال: من اجتمعت فيه خصال الأدب، ولا يقهره الغضب، لأن العقل أصله التثبث في الأمور، وثمرته السلامة، ولا يصلح للصدر، إلا من كان واسع الصدر. وقال أفلاطون: من لم يعتبر بالتجارب أوقعته في المهالك، وكفى بالتجارب تأديبا، وبتقلب الأيام عظة.

تنبيه: سئل الحرث بن أسد البصري، الزاهد المشهور الجامع بين علمي الظاهر والباطن، والمعاصر لأحمد بن حنبل وللجنيد، عن العقل ما هو؟ فقال: نور الغريزة مع التجارب يزيد ويقوى بالعلم والحلم.

ألم تر أن العقل زين لأهله　　　ولكن تمام العقل طول التجارب

وقالوا: ما تاه إلا وضيع، ولا فاخر إلا لقيط، والكريم يلين إذا استعطف، واللئيم يقسو إذا لوطف. اه المراد من هذه المقدمة التي لا فضول في تقديمها على الشروع في المقصود، وبالله التوفيق، //61 لا موفق سواه، ولا معين إلا إياه، ومن كرمه أستمد الإعانة على حصول الأمول، ومن محض فضله ألتمس القبول، لا رب سواه، ولا معبود بالحق إلا هو الرحيم الكريم.

باستخلاف والده إياه بفراسة صادقة نظر فيها بنور الله، حيث رأى بها أنه أكفؤ كفء لها وأنها لا تصلح إلا له ولا يصلح إذ ذاك أن يكفلها سواه.

وتقدم أن جده السلطان العابد، رئيس الأولياء الزاهد، سلطان السلاطين إن عدوا عدا، نصيحةً وكِبَرَ هِمَّةٍ وجِدًّا، مولانا عبد الرحمن تلمح فيه ذلك وبه نطق، ولم يتخلف ما تلمحه فيه بل صدق، وفي المثل "صَدَقني سِنَّ بِكرِهِ" (1).

تنبيه: فليعلم كل من وقف على هذا التاريخ أن مقيده معترف بقصر الباع، وعدم الاطلاع، لاسيما عن الركض في هذا الميدان، بحيث لا يراهن فيه ولا يسابق الرَّجْلَ (2) فضلا عن الفرسان. إذ لا يتعرض للكلام في تاريخ الملوك وعَدِّ سيرهم وتعداد مزاياهم إلا من تضلع بفنون الآداب، وكان حافظا لافظا واعيا واسع //62 الجراب، محيطا بحفظ قضاياهم الجليلة، قادرا على التعبير عنها بما يناسبها من الألفاظ البليغة، ومع بلاغاتها تكون واسعة لا قصيرة كليلة، لكن ما لا يُدرك كُله لا يُترك كُله. وفي المثل السائر "يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق" اهـ وأصله قال ابن الحكم لعقيل: يا عقيل والله إنك لتقول فتقصر، فقال له عقيل: يكفيك من القلادة...الخ أي يكفيك عنوان القول المعنوي عن بعض المراد وإن قصر. وفي المثل "إنْ لا أكُنْ صِنْعاً فَإِنّي أعْتَتِمُ" ومعناه إن لم أكن حاذقا ماهرا في هذا الأمر، إني أعمل بقدر معرفتي وطاقتي. قال الحكماء: لا ينبغي لأحد أن يصغر عن أن يقول، ولا أن يكبر عن أن يقال له. هذا وإني كما قيل:

لكن طاقة مثلي غير خافية والذَّر يُعذَر في القَدْر الذي حَمَلا

وعليه، فبالله أقول، ومنه أستمد العون على نيل المأمول، فابتداء خلافة سيدنا ومولانا الحسن، ابن مولانا وسيدنا مُحَمَّد، ابن سيدنا ومولانا عبد الرحمن، ابن سيدنا ومولانا هشام، ابن مولانا وسيدنا مُحَمَّد، ابن سيدنا ومولانا عبد الله، ابن سيدنا //63 ومولانا إسماعيل، أعني باستخلاف والده إياه لَما ألقت الإمامة العظمى رسنها لوالده سيدي مُحَمَّد بتقديس والده مولانا عبد الرحمن تغمدهما الله برحمته، وأسكنهما بحبوحة جنته بعزته، كان إذ ذاك شبله مولانا الحسن رابطا عنان وجهته بحلقة باب العلم مقصورَ النظر على طلب فنونه، معتكفا على ذلك، لا تشوف له إلى شيء غير البحث عن فهمه وتفهمه. وممن عرفت من العلماء المُعَيَّنِينَ لإعانته عليه، المستعين بهم على ذلك، المنقطعين لذلك في ذلك الوقت لديه،

---

1 يضرب مثلا في الصدق. والبَكْرُ: الفَتِيُّ من الإبل، ويقال: صَدَقْتُهُ الحديثَ، وفي الحديث. وأصله أن رجلا ساوَمَ رجلا في بَكْرٍ فقال: ما سنُّه؟ فقال صاحبه: هِدَعْ هِدَعْ، وهذه لفظة يُسَكَّن بها الصِّغار من الإبل، فلما سمع المشتري هذه الكلمة قال"صدقني سِنَّ بكره" ونصب سن على معنى عَرَّفَني سنَّ، ويجوز أن يقال: أراد صدقني خبر سن، ثم حذف المضَاف ويروى "صَدَقَنِي سِنُّ"بالرفع، جعل الصدق للسن توسعاً. انظر مجمع الأمثال للميداني ج1 ص392.

2 جمع راجل، ضد الفارس.

الفقيه العلامة المدرس المفتي النحرير المتفنن، الذي كان قبل الانقطاع بحضرته العلية انتفع بتدريسه عدد وافر من العلماء بجامع ابن يوسف بمراكش، وهو الفقيه أبو الحسن السيد علي المسفيوي، وكان إذ ذاك يحرر التدريس كما يحرر الإفتاء، ويقتصر في إفتائه على النصوص، التي هي في غير القضايا كنظم الجواهر والفصوص، وهو إذ ذاك مستمر على ما كان عليه من صغره من الثبات والرزانة وحسن السمت والزهد والورع، فلم يزل //64 كذلك إلى أن انجر به الأمر لأن صار من أعظم وزراء الملك بعدما صار قبله من وزراء الخلافة. ومنهم النحوي اللغوي التصريفي أبو عبد الله السيد مُحَمَّد بن عزوز الرباط منشأ ونُجارا، (1) المراكشي دارا وقرارا ، ولم يزل أيضا من أعيان علماء الديوان حال الخلافة وحال الإمامة إلى أن توفي رحمه الله في أثناء زمن الشروع في هذا التقييد. وذاكَرَه علماءُ آخرون ما أدركتُ مذاكرتهم معه، ذُكِر لي منهم النحويُّ حال شبابه، المؤرخُ المؤلفُ حال كبره، البركةُ المسنُّ الآن، أبو العباس السيد أحمد بن الحاج، من حفدة الشيخ العلامة أديب زمانه، فذ أقرانه في وقته وأوانه، السيد حمدون بن الحاج الفاسي. ولم يزل مولانا الحسن منقطعا لأخذ العلم وتعاطي فنونه حتى استوجب ما أنشد فيه الزمان:

تمت محاسنه واللهُ كمله   فقدره من الورى في غاية العظم

ولما أفضت الإمامة العظمى لوالده السلطان سيدي مُحَمَّد ابن مولانا عبد الرحمن بتقديس مولانا عبد الرحمن يوم الإثنين بَعدَ //65 صلاة العصر ثامن وعشرين (2) محرم الحرام عام ستة وسبعين ومائتين وألف بمكناسة الزيتون، وفي يوم الثلاثاء الموالي له أو يوم الأربعاء، اجتمع أهل الحل والعقد من أعيان الموجودين من الناس علماء وتجار وولاة بجامع أبي الجنود (3)، فعقدوا بيعته به، وكنت إذ ذاك حاضرا لأبي حينئذ بفاس برسم القراءة، والقاضي على فاس في ذلك الوقت الشريف النزيه العلامة الحافظ اللافظ مولانا عمر بن عبد الرحمن العلوي صدرا من قضائه بها، والعامل عليها الطالب مُحَمَّد بن الطالب النتيفي، والعامل بفاس العليا وصيف الدار العالية بالله القائد فرجي، والعامل بمراكش الطالب السيد أحمد بوستة، والقاضي بها الفقيه العلامة السيد مُحَمَّد بن المدني السراغني والفقيه السيد قاسم الدكالي. وكان سيدي مُحَمَّد رحمه الله نهض بجيوشه من حضرة مراكش للغرب لما بلغه اشتداد مرض والده، فلما وصل بلد السراغنة بلغه نعيه رحمه الله.

ولما عقد أهل فاس تلك البيعة، عقدها أهل مراكش وتبعهما جميع الأمصار، واستخلف سيدي مُحَمَّد على مراكش أخاه الشريف //66 مولاي علي ابن مولانا عبد الرحمن، وكان لذلك الشريف في مبلغ علمنا حظ وافر من الكرم، كرم بيت النبوة، كريم المائدة، وله محبه في العلم وأهله، لا يمل من مذاكرتهم لولا أنه خانته العربية وغفل عن قول العلماء: النحو

---

1 النُّجَارُ : الأَصَلُ والحَسَبُ.

2 ذكر الناصري في الاستقصا أنه يوم الاثنين التاسع والعشرون من محرم سنة 1276 هـ انظر ج3 ص77 طبعة دار الكتاب الدار البيضاء.

3 لفظ "أبي الجنود" هو ما يحرفه العوام حاليا ويطلقون عليه "بوجلود".

حلي الكلام، كالملح في الطعام، بخلاف أخيه مولانا الحسن صاحب هذا التاريخ، أول ما تضلع فيه من العلوم علم العربية لأنها مفتاح كل علم. نقل العلماء والأدباء ما نصه: كان ممن يؤثر عقله من الخلفاء يعاقب على اللحن وينفر من خطأ القول ولا يحب أن يخاطب به. قال الناقل: وكان الخلفاء والأمراء الشرفاء يكرمون صاحب العلم في أي باب برع وفي أي علم مهر، قاله الاشبيلي، إلى أن قال: ويحكى أن الكسائي تلقاه هارون الرشيد في بعض طرقه فوقف عليه وتحفى بسؤاله عن حاله فقال له الكسائي: أنا بخير يا أمير المؤمنين، ولو لم أَجْنِ من ثمرة الأدب إلا ما وهب الله من وقوف أمير المؤمنين علي لكان كافيا محسنا اه ولِعَمِّ سيدنا مولاي علي اعتناء بجمع كتب فنون العلم، فجمع منها كثيرا، وله أخلاق تدل بالوفاق على 67// ذلك البيت الأعظم، شنشنة أعرفها من أخزم، فأوصافه عليها حلة بيت النبوة حقا، لأنه من بيت فضل قد علت طبقاته. بيد أن قدرة الله ما أهلته لتلك الخلافة التي أَسند له أخوه سيدي مُحَّد، ولم تلقَّه فيها سعادة، ولا تلقته بالوفاق والمساعدة، فلم تسمح له بالانقياد، كأنها منتظرة غيره لتلقي إليه ذلك القياد، فمنذ وليها وأمر الرعية بحوز مراكش لم ينجح، وبعدم نجاحه لحق الضرر الكثير حاضرةَ مراكش، فلم تظهر مزية كبيرة لخلافته، والسلطان سيدي مُحَّد في تلك المدة في شغل عن شأن حوز مراكش برتق ما فتقت قضية جنس الإسبانيول بتطوان لما توفي مولانا عبد الرحمن، ولم يزل أمر حوز أهل مراكش على عدم الاستقامة والنجاح، من ثوران الفتن وعدم الصلاح، نحو الستين سنة، حتى غشيهم قدوم السلطان سيدي مُحَّد لمراكش بعد فراغه من تدبير أمر الغرب وإصلاح شؤونه عام ثمانية وسبعين ومائتين وألف في أول ذي الحجة، ولما استقر على كرسي ملكه بحاضرة مراكش أرسل رائدَ طرفِه، ونَظرَ سَالم فِكرِهِ

ص 68 إلى من كان صدر منهم ذلك الطيش، حتى أيقن كل منهم أنه كان بحث عن حتفه بظلفه، فمد يد العقوبة لبعضهم بالسجن، وغُرم المغصوبُ من أموال الناس، ومع ذلك لم تنفك عقوبته عن حلمه، فما لبث أن صار جميع ما كان كأنه لم يكن.

إذا صرصر البازي فلا ديك يصرخ   ولا فاخت في أيكها تترنم

ومما علم أن عقول الملوك ملوك العقول بلا ريب ولا لبس، ونور فراستهم يغنيهم عن المشاهدة بنور الشمس، وأنهم يتيمنون باليُمن على من مِنه ظهر، بخلاف العكس وذلك فيمن عليه لم يظهر، وحيث مهد أمر الرعية في أقرب مدة، وجه نور فراسته يستضيء به على من يصلح لخلافته ومن تصلح له، ممن يكون مبارك الناصية ميمون الغرة، تتيمن الخلافة والرعية بيمنه، فأضاء له نور فراسته، على أسد خادر، وليث ثائر، قد تحفز للوثبة كما في المثل السائر، وهو صاحب هذا البستان، ولده مولاي الحسن ذو السجايا الحسان، الجامع لكل خلق حسن. ففي المثل لحظ يدل على ضمير. فدله أول لحظ وجه له على يمنه وأمنه، وأن فيه 69// بلوغ أمله، فقال له لسان الحال، الذي هو أبلغ من لسان المقال، متمثلا بما سار من قديم المثل "عين الجواد فراره" أي يغنيك منظره عن اختبار سنه، فوجده على ما قيل فيه:

له صحائف أخلاق مهذبة   من الحجا والعلا والظرف تنتسج

إذ الأمر على ما قال الحكماء: "من ترقى في درجات الهمم، عظم في أعين الأمم"، وعلى قولهم: "دم على المجاهدة، تحظ بالسعادة والمساعدة".

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه فكن طالبا للنفس أعلى المراتب

الكتاب الثاني

في ذكر من انعقد له من الرايات

ولما ظهر له اجتماع هذا كله بعدما وجه لمزيد اختباره ضميرا يقضانا ما به وسن، ناجاه ضميره فأمره أن يقول الحمد لله الذي وهب لي على الكبر ولدي سيدي حسن، وأمره أن يخلع عليه حلتها، ويلقي إليه أزمتها، وأن يقول له:

فأربح بها من صفقة لمبايع　　　　وأسعد بها وأسعد بها ثَم تسعد

وجرى عليه المثل السائر "استكرمت فاربط" (1) أي ظفرت بنفيس فشد يدك عليه، فتَوَّجَهُ السعادةَ في الحين بتاجها، ثم تشوَّفَ والدُه //70 لرؤية مصداق فراسته من سيره في منهاجها، وترقيه في أدراجها.

فصل في أول راية عقدها له والده

فعقد بإثر ذلك راية الاختبار، ليبدو لصادق الفراسة الإنار (2)، ويطمئن القلب بالمشاهدة لا الظن الغالب والأخبار، وذلك عام ثمانية وسبعين ومائتين وألف، فأنشده لسان الحال:

إذا اصطفاك لأمر هيئتك له　　　　يد العناية حتى تبلغ الأربا

فتوجه بتلك الراية بجيش ومعه من اصطفى له من أعيان الدولة والعلماء الملازمين لمذاكرته العلم، لأن مدة خلافته كلها لم تشغله أمورها كلها جَلَّت أو قَلَّت، ظَعَناً وإقامةً عن تعاطي العلم وطلب التوسع في الفهم، وكان الطعن بتلك الراية إلى قبائل الجبال من بربر نتيفة وجيرانهم، وكذلك جيرانهم من الغرب أهل السهل، كالسراغنة وبني مسكين، لما كان حصل من الثلم والخلل في نظامهم بسبب ما قدمنا من شأن أهل الحوز مما أثاروه في غيبة السلطان وشغله عنهم بما تقدم، ولما حل ببلدهم أسرعت السعادة بالظهور، فتسابق إليه إصلاح الشؤون وتمهيد الأمور، فعما قريب أصلح شؤونهم، ومهد أمورهم، واستقام انتظام //71 وظائفهم، فشعشع فيه لوالده نور الفراسة، مع غاية التثبت ونهاية حسن السمت والتؤدة.وهو إذ ذاك يسحب مطارق الشباب، في رغد العيش اللباب، في سن يقتضي عادة استبعاد دخوله من ذلك الباب، ومع ذلك لم يزل مقبلا على استفادة غرر الفوائد، واقتناء درر الفرائد، ريان من الفضائل، ظعانا عن الرذائل، فاستحق حقا، واستوجب صدقا، أن ينشد فيه بيتا البحتري:

---

1 في المخطوط "فارتبط" وهو خطأ. انظر لسان العرب.

2 كذا في المخطوط ص70

أدركت ما نال الكهول من الحجا   في عنفوان شبابك المستقبل
لو أن مجدك لم يكن متقادما   أغناك آخر سؤدد عن أول

وهذه أول راة انعقدت إليه، والكهول فيها من العلماء ورؤساء الدولة من خلفه وبين يديه، والأمور تصدر عنه وتسند إليه. ومما يقرب أن يضاهي قضيته هذه في طرفة اتفاقها، ومُلحة مساقها، ما حكى المسعودي في شرح المقامات أن المهدي لما دخل البصرة رأى إياس بن معاوية وهو صبي وخلفه أربعمائة من العلماء وأصحاب الطيالسة، وإياس يقدمهم، فقال المهدي: أما كان فيهم شيخ يتقدم غير هذا الحدث؟، ثم إن المهدي //72 التفت إليه وقال له: كم سنك يا فتى؟ فقال سني أطال الله بقاء الأمير سن أسامة بن زيد لما ولاه رسول الله ﷺ جيشا فيهم أبو بكر وعمر، فقال له المهدي: تقدم بارك الله فيك. ولولا أن صاحب هذا البستان يراعي ويلاحظ جانب والده أشد المراعاة، طاعة له وخوفا من مبادرة الإنكار عليه، لأبدأ وأعاد في تلك السفرة من أمور السياسات هنالك، لحدة الذهن وشدة الذكاء والفطنة على قياس ما رُئي منه بعد ذلك، وذلك بحسب ما تقتضيه سيرته المرئية، وآثاره بعد ذلك المتواترة المروية، الناشئ ذلك كله على مقتضى همته العلية،

رأيت العقل لم يكن انتهابا   ولم يقسم على عدد السنينا
فلو أنّ السنين تقاسمته   حوى الآباء أنصبة البنينا

ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ولما تم غرض والده السلطان، واستوفى ما وجهه إليه بتلك النواحي والأوطان، أمره بالتوجه لحضرته فتوجه مؤيدا منصور الأعلام واللواء، مصحوبا بسوابغ النعم والآلاء، فاتضحت لوالده //73 السلطان نجابته، وظهرت فائدته، وبانت سعادته، وأنه مبارك الناصية ميمون الغرة، جدير بأن ينشد فيه ([1]):

أما سعودك فهي دون منازع   عقد بأحكام القضاء مسجل
ولك السجايا الغر والشيم التي   بغريبها يتمثل المتمثل
ولك الوقار إذا تزلزلت الربى   وهفت من الروع الهضاب

1 انظر نفح الطيب ج6 ص478

وتقدم أن سُنَّة الملوك الملوك يتمنون بمن أظهر الله يمنه، ولهم في ذلك أسوة حسنة، فقد كان ﷺ يعجبه الفأل الحسن تيمنا. وقال في قضية خيبر "غدا يأخذ الراية رجل يفتح الله على يده" أو كما قال ﷺ، وذلك الرجل سيدنا علي كرم الله وجهه، لعلمه ﷺ أنه ميمون الغرة، ومن بان عليه عكس ذلك بَانُوا عليه.

وهذه بداية السلطان مولانا الحسن في هذا الأمر

وفي الحكم العطائية: من أشرقت بدايته، أشرقت نهايته. لما رجع وحل بحاضرة مراكش حيث والده فرح به فرحا بطلوع شمس نجابته وسعادته، وفرحا //74 بصدق فراسته إذ لم تتخلف، بل أربى على ما اختصته فراسته فيه، فالناس كلهم يفرحون بما يلوح على أبنائهم من النجابة لأنها من أكبر نعم الدنيا والآخرة.

نعم الإله على العبد كثيرة وأجلها نجابة الأولاد

والملوك بذلك أشد فرحا، لأنهم حملوا راية خلق الله فاسترعاهم خلقه واستخلفهم فيه، وأكثر ما يتشوفون إليه في أبنائهم أن يزيدوا في تأسيس بنيانهم، وأن يكونوا على آثارهم، متيمنين بسيرهم، متممين لما شيدوا، ومقيمين على الازدياد فيما مهدوا، ليكون جميع ما أصلحوا من بعدهم في سجلات حسناتهم، لما ورد من حديث "الولد حسنة من حسنات أبيه".(1) والتشوف لأبناء الملوك ليس كالتشوف لأبناء غيرهم، فالناس كلهم يتشوفون لمزاياهم، والملوك أشد تشوفا لها وفرحا بها، انظر إلى قضية هارون الرشيده مع ابنه العباس، فإنها مما يزيد هذا المعنى إيضاحا، بل تفصح عنها إفصاحا، فقد روي أنه لما ولد لهارون الرشيد ولده العباس من أمه ربطة، وجاءت به أمه شديد //75 الأدمة، اشمأزت منه نفس الرشيد وكاد أن ينكره لولا شناعة ذلك، لاسيما في جانبه وجانب أمثاله، وكان يقصيه، ولم يزل في الازدياد في إقصائه،

---

1 على هامش المخطوط ما نصه: تنبيه: حدثت لهذا الحديث حكاية حاصلها أن الشريف السلطان مولانا إسماعيل رحمه الله كان مولعا جدا بمحبة أعجوبة عصره العالم العامل أبي علي اليوسي رحمه الله ويؤثره على جميع أمثاله، فلم يزل علماء وقته من أهل فاس يوشون به إلى السلطان على العادة من الحسد حتى أوغروا عليه صدره، فبعث إليه السلطان فأحضره في محفل من العلماء، فعمد إلى تنقيصه بلطافة أمامهم إذ لا سبيل واضح صحيح عندهم يلمز به غير ما تلطف به السلطان، فقال له: أيها الفقيه ما تقول في حديث "آباؤكم خير من أبنائكم إلى يوم القيامة"؟ فذكر له أبو علي صحته وسنده، ثم قال له: وأي نسبة بينك وبين أبيك، بربري أمي، فأجابه على البديهة قائلا: وقد قال صقى الله عليه وسلم "الولد حسنة من حسنات أبيه" وأنا وعلمي وعملي حسنة واحجة من حسنات أبي، وله حسنات أخر، يقري الضيف ويرفد من يستحق الإرفاد ويرعى غنمه ويواسي فيها ومن وبرها وسمنها إلى غير ذلك. فسكت السلطان ونكس العلماء رؤوسهم لعلمهم أنه الجواد الذي لا يجارى، رحم الله الجميع اهـ مؤلفه

فإذا به تنبأ رجل على عهد الرشيد ونهاه الرشيد فلم ينته، ولم يزل مقيما على مذهبه، فأمر به الرشيد أن يجلد، ولما طرح للضرب وأخذ الشرط يضربونه وأخذته السياط، اضطرب اضطرابا شديدا مع الجزع والصياح، فمر به العباس وهو يومئذ ابن عشر سنين والتفت إليه فقال له: اصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، فاستطار لها الرشيد فرحا وأي فرح، وقال: ابني والله حقا، ابني والله حقا، فمن ذلك اليوم صار يدنيه ولا يقصيه، اهـ فكيف بمن غاب عن ولده ثلاث سنين أو أربعا فوجده جامعا مانعا مع حسن الصورة والشمائل، التباعد عن الرذائل، كما يأتي قريبا في حليته. وأخذ من العلوم أوفر نصيب، وفي الأدب والسياسة ضُرِب له بسهم مصيب، له أدب جزل، ومنطق فصل، وقريحة ثاقبة، ودراية صائبة، ونفس سامية، وكف هامية (1)، الحمد لله على أن أعطى قوس السيادة 76// باريها، وأضافها إلى كفئها وكافيها.

ولما رجع مولانا الحسن من تمهيد تلك القبائل لمستقره بحضرة والده بمراكش، انسلخ من جميع أبهة الخلافة وحتى من التشوف إليها كأنه لم يرها ولم تره، تواضعا وحسن أدب، وانشغل بالانكباب على ما كان عليه من مدارسة العلم. وفي ذلك العام الذي رجع فيه من معقله، واستقر كما كان أولا في محله بين أهله، كان إذ ذاك العاملَ على مراكش قائدُ مشور مولانا عبد الرحمن ومشور سيدي مُحَمَّد من بعده وصدرا من إمامة مولانا الحسن، القائدُ الجيلاني بن حَمُّ المكناسي، ولي عليها بعد القبض على عاملها الذي استقرت ولايته عليها نحوا من ثلاث وعشرين سنة من السنين الطوال، الفارغة من كثرة الأشغال، وتراكم الأهوال، وهو الطالب أحمد بوستة المراكشي الذي كان زمان ولايته لم تشغله ولايته ولا أمور دنياه عن إخوته، فكان السلطان مولانا عبد الرحمن يحبه جدا لما يعرف من ديانته، وعادت عليه بركه محبته، وقد ولاه على مراكش في سابع عشر ربيع النبوي عام ثمانية وخمسين ومائتين وألف، وقبض عليه يوم الأحد رابع 77// عشر القعدة عام تسع وسبعين ومائتين وألف، وكان عابدا ذاكرا لا يكاد يوجد يصلي المكتوبة في غير الجماعة، حسن الخلق شديد الثبات والتؤدة، حكي أنه ما سمع منه سب لأحد المتداعيين قط، وله حسنات كبار جدا، كلها في صحيفة مولانا عبد الرحمن. من جملة حسناته أنه نشر دلائل الخيرات في الصلاة على النبي ﷺ للجزولي في جميع الآفاق، كان له طائفة من الطلبة يكرمهم ويكريهم على ملازمة انتساخ الدلائل حتى يجمع عددا ثم يسفره ويجلده، وحيثما جاءت الأركاب من الآفاق يعطيهم عددا من النسخ مجانا يأمرهم بالذهاب بها واعطائها لمن يستحقها، انتشرت في الأقطار كالصحاري ونحوها، ثم زاد أن جعل للعميان الملازمين مقام أبي العباس السبتي خراجا على حفظه، فلم يبرحوا أن حفظوه عن ظهر قلب، وبعد ذلك تنافس في حفظه المبصرون، فهو السبب في ذلك، ثم عمد إلى أنفس بستانيه فحبسه على من يقرأه تجاه الروضة الشريفة بالمدينة المنورة، فأطْلع (2) عليه السلطانَ مولانا عبد الرحمن 78// فأمضاه، وإنما أشرت لبعض أوصافه لما نص عليه الفقهاء من أن أعوان القاضي يستدل بهم على القاضي، فهو عون من أعوان مولانا عبد الرحمن. وحكي عنه من دلائل محبة السلطان له شيء كثيرٌ تَتَبُّعُه، من جملته لما ودعه هو وأهل مراكش في سفره للغرب الذي كان

---

1 مِن همَى يَهمِي هَمْيًا وهَمَيانًا، فهو هامٍ. هَمَى الدَّمْعُ أَوِ الْمَاءُ : سَالَ.

2 كذا في المخطوطة مضبوطا بالقلم بسكون الطاء وفتحة على النون في لفظة "السلطان".

آخر عهدهم به، قدس الله روحه في أعلى الفردوس، قال على رؤوس الأشهاد: "أ الطالب أحمد بوستة طهرت صحيفتي مع أهل مراكش طهر الله صحيفتك" ثم التفت إليهم وإليه وقال: (إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون)، فودعهم وداع الفراق، وكان له حظ من المكاشفة، ففارق مولانا عبد الرحمن الدنيا وهو راض عنه، وكفاه ذلك، سبحان الله المتصرف كيف شاء، فلكل جواد كبوة ولكل صارم نبوة (1) ولكل حليم هفوة، ولم ندر ما كبوته حتى قبض عليه السلطان سيدي مُحَّد أسكنه الله بحبوحة جنته، ولكن لم ينفك عن سجنه حلم سيدي مُحَّد وفضله، فتعطف عليه جدا لما قدر الله سجنه، ولم //79 يزل معظما محترما، وما كشف عنه ولا عن عياله جلباب التوقير والاحترام، وذلك كله ببركه محبته مولانا عبد الرحمن وصالح دعائه له. وجاء في الحديث "ما أحسن عبد صدقة إلا وأحسن الله الخلافة في تركته". ولما سجن انطبع في مرآة قلبي أن ذلك السجن على تلك الصفة إجابة لدعاء مولانا عبد الرحمن بالتطهير، فكان ابتداءَ تطهيره فطُهِّر به مع حصول العافية، فيلقى الله تام التطهير.

قضية تفرقع البارود بجامع الربح بمراكش

وكان في سنة عقد الراية الأولى لمولانا الحسن ورجوعه بها العاملُ هو الجيلاني المذكور، والقاضي حينئذ السيد قاسم الدكالي والسيد مُحَّد بن عبد الواحد الفيلالي الدويري. وقد وقعت في ذلك العام ليلة الاثنين ثامن شعبان عام 1280 واقعة البارود الذي تفرقع بجامع الربح، فتفرقع فيه بارود كثير جدا لبيت مال المسلمين كان موضوعا في محل خزنه هناك، وقد جعل الله فيه لطفا كبيرا، فبإزائه من الخلق ما لا يُحصِى //80 عدده إلا الله، وما أصيب منهم بذلك إلا قليل جدا بالنسبة لمن حضر ثمة، فكان بناء ذلك المحل كأنه بناء الأهرام، لو اجتمع الخلق على هدمه ما قدروا،ثم قلعه البارود من الأرض ورمى به قطعا قطعا نثرها لكل ناحية. قال مقيده: كنت تلك الساعة بقبة الجزولي أُقرِئ فيها الشمائل درسا، وهي غاصة بالناس، ولما تفرقع وثب الجميع هاربا، فلم يبق معي إلا المملي الساردُ، فسألنا عن ذلك من رجع فقال: سقط أعلى القبة من بناء وقرمود على ما تحته، فظهر لنا حينئذ صدق ذلك لما رأينا مما سقط على البُسط والزرابي حتى رجعت سوداء مما كان علق بسقف القبة من غبار وأدران، وحيث رجعنا للمازل وجدنا الأمر أشد من ذلك، انفتحت الأبواب الموجفة (2) ومنها ما انكسرت أقفالها، ورتجت الحيطان، وقد شاع وذاع، حتى تشنفت منه الأسماع، أن سببه بعض ممن كان له حينئذ دخل في الوقوف عليه، وكان قد ضيع منه نحو الأربعين قنطارا وزنا، فاستشعر //81 قرب اختباره من السلطان فدَس تلك المكيدةَ، فدُس فيها حتى نجا من شهرة الفضيحة. وسمعنا من ذوي الخبرة، ولم يزل الناس لَهِجين بما سمعنا، بأن السلطان فطن لذلك وتحقق عنده وغض الطرف حلما، وأخو الحلم دأبه الإغضاء، وتلك شنشنة

1 نبا السيفُ عن الضّريبة: كلَّ وارتدّ ولم يقطعها.

2 أَوْجَفَ البابَ: أَغلقه.

معروفة، وعادة مألوفة، لسادتنا وموالينا الأشراف العلويين، فقد فاقوا الناس حلما وتغافلا، وإنهم لأحق بقول المأمون منه هو حيث قال: لو يعلم الناس ما لنا في العفو من اللذه لتقربوا إلينا بالجرائم، أو قال بالذنوب، فإنه دأبهم. فالله يديم حفظ الإسلام بهم.

وقد فاقهم صاحب هذا التاريخ السلطان مولانا الحسن بالإناءة والحلم. إذ هما وصفان يحبهما الله ورسوله. قال رسول الله ﷺ لزيد الخير: "ما وصف لي أحد في الجاهلية فرأيته في الإسلام إلا رأيته بدون تلك الصفة إلا أنت فإنك فوق ما قيل، إن فيك لخصلتين يحبهما الله ورسوله: الإناءة والحلم". وفي رواية "الحياء والحلم" فقال: الحمد لله الذي جعلني على ما يحب الله ورسوله اهـ

82// فكذلك ينبغي أن يحمد الله أميرنا صاحب هذا البستان على ما جبل عليه من ذلك.

تنبيه: قد حكم عليَّ الالتزام الذي بصدر الكتاب أن لا أخلي هذا الكتاب من الفوائد المناسبة له، وقد تقدمت حكاية إياس بن معاوية المزني مع المهدي حيث قال له المهدي كم سنك يا فتى؟ فقال له: سني أطال الله بقاء أمير المؤمنين سن أسامة بن زيد..الخ. وكذلك لإياس هذا نوادر لما له من الذكاء، منها أنه دخل الشام وهو غلام فتقدم على خصم له إلى بعض قضاة عبد الملك بن مروان، وكان الخصم شيخا كبيرا، فقال القاضي: أتتقدم شيخا كبيرا؟ قال له إياس: الحق أكبر منه، فقال القاضي: اسكت، فقال: من ينطق بحجتي إن سكت؟، قال القاضي: لا أظنك تقول حقا، فقال إياس: لا إله إلا الله، أحقا قلت أم باطلا؟ فقام القاضي ودخل على عبد الملك بن مروان من ساعته يخبره الخبر، فقال له عبد الملك: اقض حاجته وأخرجه من الشام لا يفسد علينا الناس اهـ

هذا وقد آن نقرر هنا حكما ومعنى تحته قد التبس ذلك على كثير من الناس، فمنهم مستشكل متشوف 83// للاطلاع على السر فيه، ومنهم منكر عن جهل، وهو تولية ملوكنا لبعض صغار السن للأمور العظام من أمور الملك، ومما له بذلك اتصال وارتباط كسائر الخُطط، فتحتاج لبيان المستند من السُّنة من كلام الأئمة من الحكماء والعلماء، فنقول: قول إياس للمهدي: سني سن أسامة بن زيد لما ولاه رسول الله ﷺ جيشا فيهم أبو بكر وعمر..الخ، فلقد صدق وأشار لقضية أسامة التي في صحيح البخاري، بعث ﷺ بعثا وأمّر عليهم أسامة بن زيد، فطعن بعض الناس في إمارته، فقال النبي ﷺ: "إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبلُ، وأيم الله إن كان لخليقا للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إلي، وإن هذا، يعني أسامة، لمن أحب الناس إلي بعده" اهـ

ولما أمَّر عليه السلام أسامة كان ممن انتدب مع أسامة كبارُ المهاجرين والأنصار، فيهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وسعد وسعيد وقتادة بن النعمان وسلمة بن أسلم، فتكلم قوم في ذلك، وكان أشدهم في ذلك كلاما عياش بن أبي ربيعة المخزومي 84// بأن قيل يُستعمل هذا الغلام على المهاجرين، فكثرت المقالة في ذلك، فسمع عمر بن الخطاب ﵁ بعض ذلك فرده على من تكلم وجاء إلى النبي ﷺ فأخبره بذلك فغضب ﷺ غضبا شديدا، فخطب ﷺ فقال: إن

تطعنوا..الخ أي طعنكم الآن فيه سَبَب لِأَنْ أخبركم أن ذلك من عادة الجاهلية وهِجِّيْرَاهُم (1)، ومن ذلك طعنكم في أبيه. وقال التوربشتي (2): "إنّما طعن من طعن في إمارتهما لأنّهما كانا من الموالي، وكانت العرب لا ترى تأمير الموالي وتستنكف عن اتباعهم كل الاستنكاف، فلمّا جاء الله عز وجل بالإسلام، ورفع قدْر مَن لم يكن عندهم قدر، بالمسابقة، والهِجرة، والعلم، والتُّقى، عرف حقَّهم المحفوظون من أهل الدين، فأمّا المرتهنون بالعادة، والممتحنون بحب الرياسة من الأعراب ورؤساء القبائل، فلم يزل يختلج في صدورهم شيء من ذلك، لاسيّما أهل النفاق، فإنّهم كانوا يسارعون إلى الطعن وشدّة النكير عليه". وكان ﷺ قد بعث زيدا على عدة //85 سرايا، وأعظمها جيش مؤتة، وسار تحت رايته فيها نجباء الصحابة وكان خليقا بذلك لسوابقه وفضله وقربه من رسول الله ﷺ. ثم أَمَّر أسامة في مرضه على جيش فيهم مشيخة الصحابة وفضلاؤهم. وكأنه رأى في ذلك زيادة على ما توسم فيه من النجابة أن يمهد الأرض، وتوطية لمن يلي الأمر بعده، لئلا ينزع أحد يدا من طاعة، وليعلم كل منهم أن العادات الجاهلية قد محيت مسالكها وخفيت معالمها اهـ.
وقد سر النبي بقول القائف في أسامة بن زيد وزيدِ بن حارثة أبيهِ وهما مضطجعان في بيت عائشة: إن هذه الأقدام بعضها من بعض. ولم يقدر أحد أن يكلم النبي ﷺ في المخزومية التي سرقت حليا فقالوا: من يكلم فيها النبي ﷺ؟ فلم يجترئ أحد أن يكلمه، قالوا: لا يجترئ أحد عليه غير زيد، فكلمه أسامة بن زيد، فقال عليه السلام: "إن بني إسرائيل كان إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف قطعوه" الحديث اهـ.
هذا صميم السنة، وإذا علم هذا فلعقلاء //86 الملوك في تولية الصغار سالمي العقل والفطرة نظر سديد يُعلم مما يتلى.
قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه: "القلب الحديث كالأرض الخالية، ما ألقي فيها من شيء قبلته" اهـ.
وقال عمرو بن قطبة: " عليكم الحديثَ السِّنِّ الجديدَ العقلِ الحديدَ الذهنِ". وقد جاء عن رسول الله ﷺ: "مثل الذي تعلم في صغره كالنقش على الصخر". وسمع الأحنف "التعلم في الصغر كالنقش في الحجر" فقال: "الكبير أكبر عقلا ولكنه أشغل قلبا". قالوا:

إن الكبير إذا تناهت سنه — أعيت رياضته على الرواض
وإذا دفعت إلى الصغير فإنما — يكفيك منه إشارة الإيماض

وقال آخر:

أتَرَوِّض عِرسَك بعدما هَرِمت — ومن العناء رياضة الهرم

انظر إلى قولهم:

---

1 - يقال: هجيراه كذا، وهي (هِجِّيرى) أضيفت إليها هاء الضمير، وهي من أوزان المصادر القليلة في كلام العرب، بكسر الهاء وتشديد الجيم وكسرها وفتح الراء وبعدها ألف مقصورة. ومعناها العادة والدأب والديدن، إلخ.

2 - أبو عبد الله شهاب الدين فضل الله بن حسن بن حسين بن يوسف التوربشتي (ت: 661 هـ / 1263م) فقيه وأصولي حنفي. له كتب بالفارسية والعربية.

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ولن تلين إذا قومتها الخشبُ

87// ومن علم هذا علم يقينا أن من كانت همته تتعالى دائما أبدا، وفكرته وقادة سرمدا، لا يقنع بالاقتصار على سير من قبله، من باب حذو النعل بالنعل، حتى لو دخل جحرا دخله، بل لابد لذي الهمة أن يربوا على ما كان قبله بزيادات عديدة، وأحداث ما يخلد عنه من الآثار الجديدة، ولذلك يحتاج للعقول الفارغة التي تنبت ما يلقي فيها بسرعة، وما هي الا العقول الجديدة، والأذهان الحديدة. نعم، والتوقف على كبار العقول، من الشيوخ والكهول، في مهمات الأمور، التي على القواعد القديمة تدور، لما لهم من الرسوخ والتثبت والتأني أمر مشهور، لأنهم في الغالب على بصيرة بمواقع الأمور، ومن خفي عليه ذلك، هو الذي يستشكل أو ينكر ما هنالك، لكونه من عدم المعرفة ونفي الاطلاع في ظلام حالك، وفي المثل السائر "جري المذكيات غلاب" (1) وفيه "رأي الشيخ خير من مشهد الغلام"

وَابْنُ اللَّبُونِ إِذَا مَا لُزَّ فِي قَرْنٍ لَمْ يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ الْبَزْلِ القناعيس.

فصل في عقد الراية الثانية له

88// رَجْع: وفي ذلك العام نفسه الذي رجعت رايته الأولى من تلك البلاد، ولاحت أنوار السعادة مُساعِدة بنيل المراد، أخذ والده في تدبير عقد راية أخرى أكبر من الأولى على سبيل الترقي، كان والده كما قيل، أخذ سبيل سرعة التدويخ بالبلوغ إلى درج السؤدد. فعقدها له عام ثمانين ومائتين وألف لسوس الأقصى، لعله يسوس من دنا منهم ومن استقصى، واختار له من عماله أعيانهم، كعامل عبدة وعامل الشياظمة وغيرهما، ومن الجيش من رآه أهلا لذلك، ومن العلماء أهل مذاكرته، ومن طلبة الديوان من يليق بديوانه من الكتاب، فتوجه معه الفقيه الثبت الراسخ السيد علي المسفيوي، لما خصه الله به من الرزانة والصمت وحسن السمت وصدق اللهجة، لقد قَل أو فُقِد نظيره في هذا المعنى، وتوجه معه البارع النحوي الصالح للمذاكرة والمنادمة والمسامرة، السيد مُحَمَّد بن عزوز الرباطي، واستوزر الكاتب الهين اللين أبا عبد الله السيد مُحَمَّد بن داني كان قبله من كتاب الفقيه الوزير الأستاذ النحرير السيد الطيب أبي العشرين، ووجهه 89// للقصر السوسي، وجيادُ الخيل وأنجُبها تُقاد خلفَه وامامه، ثم ودعه ولسان ضميره في باطن والده ينشده:

كلأك الله حيث عزمت وجها وحاطك في المبيت وفي المقيل

---

1 إذا أتم الفرس سنته السادسة قيل: إنه فرس مذك. وفي هذه السن يصبح قوياً قادراً على الجري مكتمل القوة، إذا سابق غيره ممن ليس في سنه سبقه، ولا يجري معه أحد في ميدان إلا غلبه.

فاجابه لسان الحال بقول القائل:

وإذا العنايةُ لاحظتك عيونَها نَم فالمخاوف كُلهنّ أمان

فتوجه في ذلك الموكب يطوي المراحل، تجوب السير به الجيادُ والرواحل، فكان كما قيل:
"وسالت بأعناق المطي الأباطح"

لا يترَوَّى عزمه، بمنزلة المجد الذي إلى أهَم أموره راحل، فاستوى عنده السهل وحُزونةُ الطريق، وتراه على غاية سعه الصدر في تصرفاته في السعة والضيق، كانه أوحي بالتوفيق إلى صدره، وحُسنُ الصواب بين طبعه وفكره.

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام الكرائم

فيسر الله له الطريق وسيرها، وكُفِي ضيرَها ونال خيرَها، حتى حل بلاد سوس، ولما طبع عليه من قوة القلب وربط الجأش لم //90 يَحتَم فيها بتقديم (1) عين وجاسوس، هيهات تلك فطرة فطره الله عليها من اليقين بما عند الله، ومن الشجاعة التي لم يشاركه فيها غيره. ومن جملة ما رسم به الناس الشجاعة وحَدَّها به القسطلاني في شرح البخاري ناقلا أنها "ثبوت القلب عند حلول المصائب".اهـ

تنبيه: اتفق جميع الحكماء وأهل العقول السالمة أن شجاعة الملوك الثبات وربط الجأش، بحيث لا تفجعهم المصائب، ولا تستفزهم النوائب، اي ثباتُهم قطفا (2) للمحاربين، ومعقلا للمنهزمين، ولا تكون شجاعتهم بالإقدام في المعارك والكر في المكافحة، قالوا فإن ذلك من الملِك تهور وطيش وتغرير. ومما مثلوا به لثباتهم قضية موسى الهادي، كان يوما في بستان له ومعه أهل بيته وبطانته وهو راكب على حمار وليس معه سلاح، فدخل عليه حاجبه وأخبره أن خارجيا جيء به أسيرا، وكان موسى الهادي حريصا على الظفر به، فأمر بادخاله فأدخل بين رجلين قد أمسكا يديه، فلما رأى الخارجي موسى الهادي جذب يديه من الرجلين واخترط سيف أحدهما ووثب نحو الهادي، فلما رأى //91 ذلك من كان حول الهادي من أهله وخاصته فروا جميعا وبقي الهادي وحده، فثبت على حماره مكانه ولم يتغير حتى قرب الخارجي منه وكاد أن يعلوه بالسيف، قال الهادي: اضرب عنقه يا غلام، فالتفت الخارجي فوثب عليه الهادي وضرب به الأرض وعلاه ونزع السيف من يده فذبحه به ثم عاد إلى ظهر حماره من فوره، فتراجع إليه خاصته وأهله يتسللون، وقد مُلئوا منه رعبا وحياء، فما خاطبهم في ذلك بحرف واحد، ولم يكن بعد ذلك يفارقه سيفه ولا يركب إلا الخيل.

ومثل هذه وقعت لكسرى مع فيل اغتلم، أي هاج شبقا، وهو إذا اغتلم أنكر سُواسه، ودخل عليه قصره وهرب عنه جميع من معه فثبت كسرى أنوشروان فضرب الفيل ضربة صده بها وألَّمه بها ألما شديدا. اهـ

---

1 في المخطوط "لتقديم".

2 كذا تبدو في المخطوط.

وللسلطان صاحب هذا التاريخ من أفراد القضايا الدالة على قوة شجاعته وثباته وشدة ربط جأشه أكثر من هذا عدة وافرة، كل واحدة منها تذكر في محلها وزمان وقوعها إن شاء الله.

ولا ريب أنه يدل على الفجر سناه، ويعرب عن الشجر //92 جناه. مما يدل على ما ذكر أنه بمجرد ما دخل بلاد سوس قدَّم التوجه لأقصاها. وذلك من النواحي التي كانت قبل يقال إنها أصعب تلك البلاد وأعصاها، وكثر إرجاف العامة عامة بأنها لا تطأ خيل الملوك أرضها، ولا تدخل أوامرهم طولها ولا عرضها، وأن من وصلها من الملوك وحلائفهم تدور عليه الدائرة، ويكونون بقضهم وقضيضهم نهبة لتلك القبائل التي بها دائرة، وعندهم من المحال رجوع جيوش الملك منها سالمة، أو تقوم لها بعد ذلك قائمة. فأسرع لإبطال تلك الكهانة، فَيَمَّم تلك القبائل التي مضى عليها زمان طويل، وهي معطلة من حلى طاعة الملك وقلائدها أيَّ تعطيل، وهو إذ ذاك منطبع في باطنه قول الحكماء، "أحلى الأشياء نيل المرجو، وأمرها ظفر العدو"، مهمته لا تقنع إلا بتقريب البعيد النازح، وتسهيل الصعب الجامح، أكثر استحضاره لقولهم "العزائم منازل الأبطال، واستعمال الصبر دأب الرجال". ولقولهم:

وقل من جد في أمر يحاوله واستعمل الصبر إلا فاز بالظفر

//93 فسار (1) حتى جاوز الحد المعتقَد أنه لا يُتعدى وهو وادي ماسة، وإرجاف العامة في شإن ذلك الوادي كثير شهير، فلما جاوزه بجيشه ودَهِم تلك القبائل منه ما دَهِمهم، وغشيهم من أمره ما غشيهم، وهو ما حل بهم مما لم يألفوه هم ولا آباؤهم قبلهم، وقعت تلك القبائل في هرج ومرج، وكان إذ ذاك رئيسهم المسموع كلامه عندهم المرابط السيد الحسين بن هاشم، وكانت له سطوة كبيرة على معنًى على جل تلك القبائل مع كثرتها، وكان الملوك قبل أن يبطل مولانا الحسن تلك العزيمة إنما يأخذون الأمور معه بالسياسة، وهو كذلك، فلا يخرج عن طاعتهم كل الخروج ولا يدخلها كل الدخول، يهاديهم ولا يصلهم، وذلك بعض مما سرى به في قلوب عامة تلك القبائل ما سرى، ومنذ عقلنا والأمر على ذلك حتى أفجأهم هجوم خليفة السلطان ولده مولانا الحسن، فجاؤوا يهرعون من كل فج. فدخل قلوبَ العمال والأعيان وكبراء الجيش ما دخلها، وربما منهم من تلجلج في باطنه وامتلأ منه قلبه ما كان يُرجَف به قبلُ، فنكصوا وتناجوا فيما بينهم //94 دونه متنادين نداء خفيا، وتواطؤوا على أن الأولى والأفضل لهم أن يقال فيهم خلصوا ونجيا، قائلين فما لنا ولأمر حتى إن سلمنا نستوجب به العتاب على بلوغنا مكانا قصيا، ولم يساعدوه على زيادة التقدم مشيرين عليه بأن السلامة يبقى معها عند والده مرضيا، وهم إذ ذاك قل منهم من كان لذلك الإرجاف نسيا، فعند ذلك ناجى صاحب هذا البستان ضميره الموفق فأرشده إلى كونه ليس بمفوض له في الأمر، وأن عقد الرايات له لا زال على التدريب والاختبار، وإن خالف أولئك الرؤساء والعمال وقواد الموكب، وإن كان هو صاحب العَلَم، ربما خانوا وكتبوا بِدارا (2)

---

1 في المخطوط "فصار" بالصاد، ولعله سهو من الناسخ.

2 بِدار : مصدر بادَرَ.

لوالده ما يغير خاطره، ودأبُه مع والده شدة الطاعة بأنواع الطاعات وكثرة المراعات، على أنه طبع في قلبه وفطرته قول الحكماء: "أفضل الرأي ما لا يُفَوت فرصة ولا يورِث غصة"، وكان من أول أمره بصيرا ناقدا والله يحب من كان كذلك.

فإن عمران بن حصين ﷺ قال: أخذ النبي ﷺ بعمامتي من ورائي وقال: "يا عمران إن الله يحب الإنفاق ويُبغِض //95 الإقتار، فأنفق وأطعم، ولا تعسر فيعسر عليك الطلب، واعلم أن الله يحب البصير الناقد عند هجم الشبهات، والعقلَ الكامل عند نزول البليات، ويحب السماحة ولو على تمرات، ويحب الشجاعة ولو على قتل حية"اهـ

انظر هذا الحديث ما أعظم موقع وأشد اطراده في صاحب الترجمة، لكن سيرته في كل ساعاته وسائر لحظاته طلب ما يُرضِي والدَه، جاعلا ذلك نصب عينيه في جميع وجهاته، وذلك دأبه وهجيراه في جميع مدة خلافته، حتى إنه ما أحصي عليه فيها أنه استوجب عتابا من جانبه قط. وقد سهل الله له الأمور فلم يتعاص منها شيء عليه، ولا ندم غالبا فيما أبرمه مما أُسند إليه، فالأمورُ منقادة إليه بأزمتها، ومع ذلك يسندها إيرادا وإصدارا لوالده برمتها حتى يكون كأن لا شيء له فيها، مع أن أساس كثير منها هو الذي ربما يؤسسه، حتى لا يبقى إلا الإبرام لوالده الإمام، ومن رزانة عقله وتثبته ما نقل لنا عن مشاهدة ناقله أن الأمور المهمة قد يُصدر له فيها السلطان الأمر //96 بالتنفيذ فيتأني به احتياطا، عسى أن يظهر للسلطان خلاف ذلك فيجده قد أمضاه، فلذلك يتأنى استبراء لعاقبته، وما ذلك إلا من قوة ذكائه ودهائه والسعي في رضائه، وبذلك السعي في الرضى يسر الله له مطالبه ونال مآربه.

ولما رآى ما عليه صمم أهلُ الموكب كلهم أعيانا وعمالا، ما وسعه إلا المساعدة لهم والانقياد، فثنى عنان عزمه ملتفتا لباقي سوس من القبائل والبلاد، من قبائل اشتوكة وهوارة وراس الواد، فدوخها مَوصولَ الأسباب، ممدودَ الاطناب، فمهدها واستخلص وظائفها في أقرب مدة، فكان هذا كله في عشرة أشهر، ثم رجع على ما أحب وأراد، وانكشف لوالده الغطاء عما كان توسم بنيل المراد، ولاحت مخائل اليمن والتيسير، وبان مصداق ما قيل: "رب لحظ يدل على ضمير ورب كلمة تغني عن خطبة". وخاطَبَه ظاهره حالا بقوله: "كفاك علما منظري عن مخبري".

نعم، ولم تزل قضية رجوعه بعد مجاوزته وادي ماسة في باطنه مؤثرة، ولكن لا يُظهِر ذلك ولا يشير له بمعرفة ولا نكرة، حتى أفضى له الأمر بالاستقلال، فاستوفر (1) //97 مرامَه على أكمل حال، كما سيأتي شرحه إن شاء الله في محله، ولما رجع بجيشه اجتاز براياته وأعلامه على جيش رئيسُه عمه مولانا عبد القادر مخيما بوادي القيهرة بين تلك القبائل التي عن يمينه وشماله وخلفه وأمامه، مزوضة ودويران وسكساوة ونفيفة ومتوكة وأولاد أبي السباع، لاستخراج ما عليها من الوظائف وتأديبا لها لما فرط منها من الطيش، حيث السلطان سيدي مُحَّد بالغرب مشتغلا بتمهيده كما تقدم من خياطة فتق قضية تطوان. ثم جوازه قاصدا زيارة اولياء الله رجال لخنيگ ببلد أولاد أبي السباع، فدخل الناسَ دهش عظيم وظنوا

---

1 اِسْتَوْفَرَ العَمَلَ: أَتَمَّهُ.

أن تلك الزيارة إنما هي كما في المثل "يُسِرُّ حَسوًا في ارتغاء" (1) وقيل لنا إن أولاد أبي السباع لما تلقوه بإظهار الفرح والطاعة، توجه إليه للشفاعة العربياتُ الفصيحات في هوادجهن وتشفعن له فشفع، ثم زار وتوجه لحضرة والده بمراكش، فطفح السرور على والده والفرح، واتسع كل الصدر وانشرح، لاجتماع السلامة، والغنيمة والسعادة الجسيمة، فأنشده لسان الحال //98 ما يزيده اطمئنان بال:

نفس مؤيدة بالحق تعضدها   عناية صدرت من بارئ النعم

فأمر بركوب الجيش لملاقاته، والاحتفال لموافاته، فكان يوم حلوله بالحضرة المراكشية كأنه موسم عظيم، أو يوم عيد مبارك كريم، وذلك عام الثمانين بعد المائتين والألف. وبعد مقدمه ذلك بيسير رجع السلطان سيدي مُحَمَّد من مراكش لحضرة فاس مارا على قبائل تادلا وغيرهم، لإقامة شؤونهم وتفقد أحوالهم. ونصبه حينئذ بمراكش، (لما برح الخفاء وبَانَ الصبح لذي عينين، وصرَّح الحق عن محضه) (2)، للخلافة، واستقام الأمر حتى لا يَسمعُ أحد خلافَه، فقام بأعباء ما حمله أحسن قيام، وازدهت بخلافته الليالي والأيام، فصار كأنه في فم الدنيا ابتسام، فسار فيها بسيره حسنة، من ثبات وتُؤدة وسكينة، فآوت إليه وأحسن معها المعاشرة، وأولى الناس لطفَ المباشرة، وألبسه الله حلة الهيبة والوقار، وحلاة بكل وصف مختار، فسبحان من جبله على ذلك مع سعة الأخلاق، وسهل له إذ ذاك الأمور //99 على الإطلاق، حتى أذعَنت القلوب لفضله بالاعتراف، وانطلقت الألسن في تشبيهه ببدائع الأوصاف، ولا غرابة إذ كل نفس لِعادتها صَبَّة، وإلى مُلائم طبعها منصبة.

وصل السلطان سيدي مُحَمَّد حاضرتي الغرب وهما فاس ومكناسة والناس في رغد عيش، لا يذكر في أقطار الرعية تشويش ولا طيش، إلى عام اثنين وثمانين ومائتين وألف في شهر شوال، نزل بسيدي مُحَمَّد السلطان من الأعراض البشرية التي كل البشر بمَدرجة (3) سيلها، ودرك ليلها، مرض شديد أشفى منه على الهلاك، حتى تكدر على جميع من له اهتمام بأمور المسلمين معاشه بسبب ما اعتراه، وأرجف كل مرجف بما اختلقه من هواه وامتراه، فاستمر به أياما عديدة، ثم ألبسه الله من العافية ثيابا جديدة، فذهبت علته، ونمت عافيته، ففرح المسلمون بما ألبسه الله من العافية، وعادت الموارد كلها بعدما تكدرت صافية، وعند ذاك سابق أعيان الدولة من الوزراء والكبراء إلى تبشير نجله، وخليفته وشبله، مولانا الحسن يبشرونه، وبعافية والده يهنونه، فلما //100 فلما بلغه ذلك أمر بأمارات الفرح، الدالة على نبذ كل ترح، من إخراج البارود والأنفاض والمدافع، وكل نوع من أنواع الفرح طافح دافع، حتى اهتزت من ذلك الجبال الرواسي، ولان كل قلب

---

1 ومعنى ذلك أنه يوهمك أنه يأخذ بفِيه تلك الجلدة عن اللبن ليصلحه لك، يحسو من تحتها، يضرب هذا المثل لمن يريك أنه يعينك، وإنما يجتر النفع إلى نفسه. اهـ الكامل للمبرد ج1 //78

2 ما بين القوسين كتب بلون أحمر لأنه من الأمثال العربية، وقد جعلناه بين قوسين حتى يتضح سياق الكلام بعده.

3 المِدْرَجَة : ممَرُّ الأشياء على الطريق وغيره.

قاسي، وقام الناس طائفة بعد طائفة لإظهار الانبساط وإشهار آثار الانشراح، وذلك بإقامة النزهات ونشر الأفراح، فكان الخليفة مولانا الحسن، ذو المزايا الكبار والخصال الحميدة ومبدئ كل فعل حسن، هو أول من ابتدأها بجنان رضوان ثلاثة أيام، واجتمع فيها من أعيان الناس وغيرهم ما لا يجمعه إحصاء، ولا يعده استقراء، وفي كل يوم من تلك الأيام يوضع للجميع من أنواع الأطعمة والمشتهيات الكاملة ما يضيق عنه نطاق العد، ولا يؤخذ بضابط ولا حد، فكل يوم من تلك الثلاثة ينسي طعامُه لحسنه اليومَ الذي قبله، وهو في كل يوم يجمع عليه أقاربه من إخوة وأعمام، وأبناء الأعمام، في القبة المحمدية الملقبة بقبة السويرة، مشرفا على لعب الخيل في مجاريها وميدانها، إذ كل يوم من تلك الأيام تُسرَجُ فيه الخيل العتاق الصافنات الجياد، وتأتي لمكان تسابقها المعتاد، فقد حاز فضيلة السبق لذلك الميدان. وقد ورد أن //101 الملائكة لا تحضر من اللهو إلا ثلاثة، لهو الرجل مع امرأته وإجراء الخيل والنضال. وكانت تلك الأفراح ونزهاتها والله أعلم في شهر ذي الحجة سنة 1282، وكانت إثر عيد الأضحى، ولا زال العمال وقبائلهم بالحضرة المراكشية، فاحتفلوا أي احتفال بلعب الخيل ونحوه، ولما مضت تلك الأيام الثلاثة التي قام بها الخليفة مولانا الحسن، احتفل لمثل ذلك القائد مُحَمَّد بن بلَّى الرحامني وكان من مشاهير العمال وأعيانهم، فنصب نزهة كبيرة في جنان حصيرة، وكانت له وجاهة ورياسة كبيرة، وعَمالة شهيرة، ودعا لها الناسَ على أصنافهم ومراتبهم، وبالغ فيها جهده، ولم يقصر ولا بخل بما عنده، فأحضر لجميع من حضر من الطعام والمستلذات شيئا كثيرا، ثم قام لمثل ذلك بعده القائد الحاج عبد الله أُبيهي الحاحي عامل جميع حاحا وقته، فأقامها بالعرصة المامونية، وكانت له رئاسة كبيرة، وخدمة كثيرة، وجاه وحظوة عند الملوك، وكان أدرك //102 مع مولانا عبد الرحمن قدس الله سره من فخامة الجاه وضخامة الرئاسة أقصى الغاية، فأقام تلك النزهة ولم يقصر على جميع الناس الذين يأتونها أفواجا أفواجا من صنوف الطعام، والمشتهيات على التمام.

وهذه النزهات الثلاث هي الكبرى، وإلا فما بقيت طائفة ولا زمرة جمعها وصف إلا وقامت لمثل ذلك فرحا وسرورا، ونشاطا وحبورا، وزينت الأسواق، ودعت لأنواع الطرب الأشواق، وبلغنا أن مثل ذلك أو قريبا منه أقيم بحاضرتي فاس ومكناس، ثم ازداد مولانا الخليفة نشاطا وانشرحا، مستعينا بهما على حسن التدبير وتمام السياسة، ومع ذلك كله لم تشغله فخامة تلك الخلافة واتساع أمورها عما هو عليه من تعاطي العلوم، يستزيد غرر الفوائد، ويكتب درر الفرائد، ومع شبابه في رزانة الملوك الكهول، لا يوصف إلا بالعَقول.

وحليته ليس بالطويل البائن ولا بالقصير، حسن القامة جدا، فإذا ركب وجال في صهوة جواده فلا يُذَكِّر إلا ركوبَ جده مولانا عبد الرحمن، كان إذا ركب كأنه على سرجه قضيب البان، لا يضاهي واحد //103 من جميع جيوشه انتصابه لسِر مُنِحَه. جميل الصورة، أبيض مشرب بحمرة، حلو الشمائل، شديد حسن المنظر، مليح اللحظ، ذو دين وعقل ووقار وخير وعدل، لا نعرف أشهم منه، بطل شجاع مقدام شديد الهيبة، ذو رأي وفطنة وهمة عالية، مع الحق يدور، وبيده أزِمة الأمور، كامل السؤدد فصيح، له منطق مليح، حلو الإشارة، خليق للإمارة.

شيم يَكِل لها لسانُ مُفوَّه ويحار كل مقصد ومقصر

وبالجملة، إنه لظرف علم، ووعاء حلم، مستوجب أن يُنشَد فيه:

كأنك من كل النفوس مركب فأنت إلى كل النفوس حبيب

وقد جرى فيه المثلان: مثل "بِيَدَيْنِ مَا أَوْرَدَهَا زَائِدَةُ"، ومثل "تَرَكَ الخِداع مَن أجرى من المائة" (1) الاول يضرب للجلاده والقوه في العمل (2) والثاني يضرب للرجل الذي حنَّكته السِّنُّ والتجارب مع العقل والحزم. ولا خفاء في كونه شد إزار العقل بحبل التقوى، وله خلق حسن وناهيك به. قال جده ﷺ: "خير ما أعطي المرء خلق حسن"، وحديث عمر ﵁: "إن أَحبُّكم (3) //104 إلي أحاسنكم أخلاقا، الموطَّؤون أكنافا، الذين يألفون ويُألفون" وكم في هذا من آية بينة وحكمة بالغة. قال تعالى: (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ). وقال (رحماء بينهم). في الخبر: "اقصدوا بحوائجكم سمح الوجوه". وكان ﷺ يقول: "إنَّ مِن خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقًا" اهـ
وحسن الخلق اختيار الفضائل، واجتناب الرذائل، وهل هو غريزي أو مكتسب؟ استدل القائل بأنه غريزة بحديث ابن مسعود عند البخاري "إنَّ اللَّهَ قسَّمَ بينَكم أخلاقَكم كما قسَّمَ بينَكم أرزاقَكم". والحق ما قرر عياض في الشفاء أن بعضه يكون غريزة، ومن وفق يزداده بالاكتساب اهـ

---

1 الترك معروف، والخداع: الختل والمكر، والمائة حذف مميزه أي مائة غلوة، والغلوة بالفتح: ما بين موقف الرامي ومسقط سهمه. ومجموع ذلك اثنا عشر مِيلا. وهذا من كلام قيس بن زُهَير، قاله لحُذَيفة بن بَدْر يوم دَاحِس: أي لو كان قَصْدي الخِدَاع لأجريت من قريب. انظر زهر الأكم، ومجمع الأمثال.

2 لأن العامل عملاً بكلتا يديه يكون عليه أقوى وأشد من الذي يعمله بيد واحدة.

3 لم نعثر على هذا الحديث النبوي مرويا عن سيدنا عمر ﵁، بل هو مروي عن غيره، فلعله سبق قلم من المؤلف أو الناسخ. وقد ورد في المخطوط بلفظ "أحبكم إلي..." فصححناه بأقرب رواية له من كتب الحديث.

الفصل الثالث في عقد الراية الثالثة
من رايات خلافته عن والده قدس الله سره

فهو الخليفة عن أبيه وجده   شَهدا عليه بمَنظَر وبمخبَرِ (1)

لما ألهمه الله أولا من رشده، وأدام عليه فيما استُخلف فيه من رِفدِه، جعله دائما محفوفا بالرعاية من كل حيف، ومصحوبا بالتأييد والعناية والأمن من كل خوف، ازداد فيها رشدا، ومُنح معها رفدا، فدام // 105 حفظه، وأُجزِل من جميع الخيرات حظُّه. وفي الحديث "إن الله سيُقمِصك قميصا" أي يلبسك لباس الخلافة، وقد ألبس الله صاحب هذا البستان قميصي الخلافتين على كلا الاصطلاحين، فقد لاحت عليه من ابتداء أمره من ذلك الأمارة، وبهجة النضارة، وحسن الشارة، بحيث لم يخفَ ذلك على من له أدنى قريحة، فضلا عن أهل الميز من ذوي الأذهان التامة الصحيحة.

فصل في إصابة الرأي ونور الفراسة وكون ما تَحَمله لم يشغله عن استزادة العلم وفضله.

هذا وقد تقدم أن الملِكين الجد والأب توسما نجابته واستحقاقه إياها، لاستجماعه شروط مبناها، كما تقدم، وأن جميع ما سلف له قبل هذه الراية الثالثة من تدبير أمور الخلافة التي تشيد بحسن التدبير فيها شرفه، وأطلق هواه في اكتساب المكارم حتى أبرَّ بذلك سلفه، لم يشغله كل ذلك عما كان معتكفا عليه //106 من أخذ العلم، مع الرياضة على دروب المعالي واكتساب الزيادة في الحلم، يجتني من رياض مذاكرة العلوم ثمارها، ويجتلي أنوارها، يتعاطى ما تطمح له النفوس من فنونها، ويأخذ جواهرها من عيونها، حتى شرب منها بالكأس المترعة، ما ملأ به الجراب، واستوى فيها على ذرى الصواب، فتسابق إليه تمام الشرف وتسارعت إليه معالي الرتب، فصار بحر علم، ومعدن حلم، وقدم الاهتمام بالعلم لعلمه بمضمون ما أخذ من قول جده ﷺ: "تجدون الناس معادن..." إلى قوله: "خيارهم في الإسلام إذا فقهوا" قالوا وفي قوله "إذا فقهوا" إشارة إلى أن الشرف الإسلامي لا يتم إلا بالتفقه في الدين، فصار بذلك خليقا أن يُنشد فيه:

فعِلمُه وافر والزهد (2) ناسبه   وحلمه ظاهر عن كل مجترم

هذا وقد عقد هذه الراية من مراكش لناحية قبائل تادلا وجيرانها من الشاوية بأمر والده من غير حضوره، إذ السلطان حينئذ مقيم بالغرب، خرج بتلك الراية من مراكش في السادس والعشرين من ذي الحجة عام ثلاث وثمانين ومائتين وألف،

---

1 في المخطوط "والمخبر"، وتصحيحه من تاريخ الخلفاء للسيوطي

2 في المخطوط "والدين ناسبه" وتصحيحه من خزانة الأدب ج1 ص371

فادَّرع //107 بها اغتباطا، واستأنف لها نشاطا، لما عرفه الله من البركة في مطلعها، والسعادة في موقعها. ولما أخذ الأمر مشاريطه، أي أهبته، توجه لتلك النواحي ناصبا ألويته وأعلامه، تخفق فيها رياح النصر خلفه وأمامه،

برايات يحل النصر فيها تمر كأنها قطع السحاب

داريا بجياد خيله، وأبطال فوارسه ورجلِه، نحو تلك الأرض تنشده همته قول الطغرائي:

فادرأْ بها في نحورِ البيد جافلةً معارضاتٍ مثاني اللُّجمِ بالجُدُلِ
إن العُلا حدثتني وهي صادقةٌ فيما تُحدثُ أن العز في النُّقَلِ
لو أن في شرف المأوى بلوغَ منىً لم تبرح الشمسُ يوماً دارة الحملِ

وأكثر جيشه إذ ذاك من القبائل وعمالها، وقد توجه لتلك الناحية، وهو يتقلب في جميع أحواله بدروع العافية، جاعلا تأنيه أمام عجلته، وحلمَه رسولَ شدته، وعفوَه مالكَ قدرته، وبذلك ملك قلوب رعيته، لِما أضاء الله من سبيل رشده، حتى بلغ به صلاحُ نيتِه منتهى قصدِه.
وكان من ابتداء أمره //108 شهما جلدا، كأنه حنكته التجارب والخطوب، ومارس أمور الشدائد والحروب، حتى استبان فصلها، وعرف فضلها، وليس ذاك إلا نشأة غريزية، وطبعة جِبلِّية، ولم تزل تزداد في ذلك طبعته، وتتعالى في مراتب الفضائل والفواضل همته، فكما لم تزل عن ذلك خلافته، لم تبرح في الازدياد فيها إمامته.

لا يستريح إلى الدنيا وزينتها ولا تراه إليها ساحب الذيل
يُقَصِّر المجد عنه في مكارمه كما يُقَصِّر عن أفعاله قولي

فما زال بتلك الراية يتسنَّم المجدَ بسِمَتِه، ويجذب العلا بهمته، ويَسعَد الدينُ بنَظره، والدنيا بفهمه وأمره، قائما بأمر تلك السفرة أحسن قيام، وهو بها في بروج السعادة والإكرام، أعلى الله فيها أعلامه، وحَسَّن لياليه وأيامَه، وهو في أعين الخلائق وقلوبهم على غاية المهابة، رهبوه وهابوه أعظم مهابة.

لو يستطيع الناس من إجلاله تخذوا له حر الخدود نِعالا (1)

---

1 البيت لأبي العتاهية، وهو بلفظ آخر في أمالي القالي ج1 ص ص291 طبعة الهيئة المصرية:
لو يستطيع الناس من إجلاله لحذوا له حرّ الوجوه نعالا

سكنت الفتن في أيام خلافته فكانت أيامُها طيبةً كثيرةَ الأمن والرخاء، كأن الناس فيها بعد التنافر حصل بينهم الإخاء، 109//

إذا راضَ كل أمر (1) ذلّت   وحسبك من راع له ومدبِّر

ترى الناس إجلالا له وكأنهم   غرانيق ماء تحت باز مصرصر

وكان من جملة أخلاقه التي ظهرت في خلافته، وانتشرت بالزيادة بعد إمامته، المعروفة له في جميع حالاته، أنه لا يشغله معاناة كبار الأمور عن تفقد صغارها، ولا الجد في إصلاح ما يصلح منها عن النظر في عواقبها، يُمضي ما كان الرشد في إمضائه، ويُرجي ما كان الحزم في إرجائه، ويبذل ما كان الفضلُ في بذله، ويمنع ما كانت المصلحة في منعه، ويلين في غير تكبر، (ويحضُّ في غير قيل، ويعم في غير تَصنُّع) (2)، لا يشقى له المحق وإن كان عدوا، ولا يسعد به المبطل وإن كان وليا، والناس كلهم يعدون مآثره أنه لا يضحض حجة، ولا يدفع حقا لشبهة، وهذا من جميل أخلاقه يسير من كثير، وقُل من كُل، وغيض من فيض، زكى الله عمله، وبلغ به كلُّ مُحِق أملَه، ولو تتبعنا شرح هذا المعنى بذكر القضايا التي حصحص فيها صدق ذلك من أول خلافته إلى حين التأليف لاحتجنا في ذلك ألى إجراء مؤلف كبير، ولو مع الاقتصار منها على ما هو شائع ذائع عند عامة الناس 110// شهير، فهو بذلك معروف عند كل عاقل منصف من العباد شرقا وغربا، وفي آفاق البلاد.

هذا ولما دوخ تلك النواحي وساس من أمورها ما أمكنت سياسته، عرج على دار عامل من عمال الشاوية يقال له القائد أحمد الفكاك، وكانت سيرته ساءت فيما ولي من أمر السلطان والرعية، وكان ذلك العامل استَنوَط أمرُه، أي اضطرب واختلط، فقبض عليه وعلى أخيه خليفته ويعرف بزويويل (3) وولى مكانه في الحين عاملا آخر يقال له القائد مُحَمَّد بن العربي المعروفي. وأقام الخليفة المؤيد بالله، مع إظهار الله عونَه، وتحسينِه صونَه، بدار ذلك العامل الذي قبض عليه مدة، حتى نهض والده السلطان من حاضرتي الغرب متوجها للحوز ولمحل كرسي ملكه بمراكش الحمراء، وكان الخليفة المؤيد قبل تلك الراية وفي أثنائها جاعلا نصب عينيه أن والده أمير المؤمنين الذي استخلفه جزاه الله خيرا عن الإسلام خيرا وأسكنه أعلا مقام في دار السلام، لَمَّا استخلصه لنفسه واستخصه في كل مهم بأنفسه، وائتمنه على رعيته، وجعله ناطقا بلسانه، 111// يأخذ ويمضي بيده، ويُورد ويُصدر عن رأيه، وكثيرا ما يفوض إليه، وذلك كله بعد امتحانه إياه، وانتحالِه مَن سِواه (4)، وتسليطه الحق على الهوى فيه، صار الواجبُ عليه مهما ازداد رفعة وتشريفا، وارتقى مكانا منيفا، لا يزيده

---

1 وفي زهر الآداب ج2 ص424: "إذا راض يحيى الأمر ذلّت صعابه ... الخ"

2 لم يتضح لنا معنى العبارة بين قوسين فنقلناها كما تبدو في المخطوط، وكلمة "قيل" كأنها "ميل".

3 في المخطوط "ازْرَوْييلْ" مضبوطا بالقلم، لكننا صححناه من إتحاف أعلام الناس ج2 ص149

4 على هامش المخطوط:"أي ادعاه لنفسه وهو لغيره اه مؤلف"

ذلك إلا هيبة لوالده وتعظيما، وزيادة السعي في رضاه لينال منه خيرا فخيما، وكلما زاده على الأمور تسليطا وتمكينا، ازدادت نفسه عما لا يُرضِي الله ووالدَه تنفيرا، ومن البعد عن ذلك مكانا مكينا. وهذا من جملة جميل سيرته مع والده كما تقدم لذلك بعض إشارة.

ولم يبرح مولانا الخليفة مقيما عند دار الفكاك حتى بلغه والده السلطان بها، ثم نهض معه وكل بجيشه، وكل من توجهَت وجهتهما صوبه ندم قبل وصولهما على طيشه، ونظر السلطان فيمن بقي لم تعمَّه سياسة نجله فساسه، وأصلح من شؤون تلك الرعايا ما ظهر له في الوقت، من أخذ ما بقي من الوظائف المتعينة، وتفقد أحوال العمال والرعية.

ثم توجه الجيشان وقلباهما بعسكريهما لحاضرة مراكش مرحلة بعد 112// مرحلة، ومنزلا بعد منزل، على القانون المتعارف، والضابط المؤتلف، ومن نشر نظر التدبير، في النزول والمسير، على من يمران عليه أو حوله من الرعية، في جميع تلك الناحية، التي حلا كرسي ملكهما وملك أسلافهما بمراكش تاريخ ... (1).

وكان السلطان لما جاوز الجيشان بلاد تادلا والشاوية بدى له أن يولي الطالب أحمد بن داوود المراكشي عمالة مراكش، فولاه أياما إذ ذاك قبل حلوله بمراكش، وكانت له قبل ذلك خدمة كالقيام بأمر جنات الملك وغيرها مما جُعل لنظره. وكان السلطان قبل ذلك في مدة أخرى عزم على توليته تلك العمالة، وكان قدسه الله كثير استعمال المشورة كما أمر الله نبيه المؤيد بالوحي، قال تعالى (وشاورهم في الأمر) وذلك حين وقع القبض على عاملها الطالب أحمد بوستة كما تقدم شرح قضيته، فاستشار وزيرَه الناصحَ الضابط البارع الفقيه الأستاذ السيد الطيب بوعشرين المكناسي فأظهر له عدم الاستحسان، فساعده السلطان على مقتضى نتيجه المشهورة على ترك توليته حينئذ، وولى قائد مشوره السعيد القائد الجيلاني بن حمو البخاري المكناسي 113// وكان قائد المشور عند السلطان مولانا عبد الرحمن قدس الله روحه، وعند والده السلطان سيدي مُحَّد أسكنه الله من الجنان فسيحه، وصدرا من إمامة السلطان المنصور بالله سيدي حسن أطال الله بقاء ظلاله على الإسلام، الذي تسارع لانتثار عقده أعداء الله الكفرة الظلام، لولا أن الله تفضل بوجوده أسمى الله قدره، وأجزل أجره، على سعيه المشكور، وحلمه المنشور، وأدام الله سؤدده، وزاد مدده، وجدد تأييده، وفي ديوان الصالحات خلده، وعلى مكابدة مكائد الأعداء أعانه، ولصيانة هذه الملة الحنيفية صانه.

ولما ولى السلطان القائد الجيلاني بن حمو استقر على دكان العمالة على مراكش حتى أزمع السلطان الشخوص للغرب فعزله عنها وأرجعه لخدمته الأولى، وولى مكانه الفقيه السيد أحمد بن الطاهر الأزموري بعد تسريحه لما عُزِل عن ولاية أزمور، فسرَّحه وولاه على مراكش، وظعن (2) السلطان سيدي مُحَّد رحمه الله لتفقد أحوال الغرب وما فيه من أحوال الرعايا إلى أن حل به، وأقام هناك إلى أثناء سنة سبع وثمانين ومائتين وألف أجمع أمره وجمع جيشه 114// للتوجه للحوز وللملتقى مع نجله وخليفته بهذه الراية الثالثة على ما تقدم قريبا. ولما توفي الفقيه السيد أحمد بن الطاهر عامل مراكش،

---

1 بياض بالمخطوط وعلى هامشه مكتوب "بياض بالأصل".

2ظَعَنَ الْمُسافِرُ : سارَ، اِرْتَحَلَ.

وكان عالما فقيها نحريرا بليغا بارعا، جمع ذلك إلى جودة الخط وبراعة هل اليراعة من أفراد وقته في ذلك، وقد طعن في السن، إن لم يجاوز ثمانين سنة مدة التعمير فلا يقصر عن مجاوزتها إلا بيسير، وكان السلطان ترك خليفته ونجله وريحانته سيدي حسن عامَّ النظر والتدبير، في التقديم والتأخير، فأقر خليفة السيد أحمد بن الطاهر على ما كان عليه من مباشرة الأحكام.

وبعدما سافر الخليفة على ما تقدم وتلاقى جيشه مع جيش الإمام، توجهوا لحضرة مراكش بسلام، وجاوزوا ما ذكر من القبائل، سنح للسلطان تولية عامل على مراكش، فرشَّح له الحاجبُ الناصح الضابط الفقيه السيد موسى بن أحمد هو ورفيقُه السيدُ عبد السلام البقالي، وكان سيدي مُحَمَّد رحمه الله يتأثر للبقالي في بعض الأحيان، توليةَ (1) الطالبِ أحمد بن داوود (2)، وتعاونا على ذلك وأبديا ما لديهما في ذلك من رد رأي السيد الطيب السابق، فتقوى بذلك ما كان عزم عليه //115 السلطان من توليته قبل، فولاه ثمة قبل وصوله لمراكش، وبعد قدوم السلطان في هذه المدة من هذه الغيبة لمراكش بأشهر توفي الوزير السيد الطيب رحمه الله عن سن عالية، وأنواع من الضعف ذاتية، إذ كان في آخر عمره ممراضا، أي مِسقاما، فتوفي في تاريخ ... (3)

وكان سيدي مُحَمَّد رحمه الله له وزيران اكتنفاه عاقلان ناصحان، حقيقة يؤثران الملك والمِلك ومهمات الرعية على مهمات أمورهما، بارعان ماهران ضابطان، وهما الفقيه السيد الطيب بن اليماني والفقيه السيد موسى بن أحمد، فإن وجهة ضبطهما وفطنتهما وتيقظهما مصروفة لمعالي الأمور فيما يرجع للملك، وهما في ذلك كله فرسا رهان، لم يتضح بينهما تفاوت في ذلك في مبلغ العلم، وإنما التفاوت الذي بينهما في أمر واحد، وهو السخاء الذي نص أنه من أفضل محاسن الملك، فالسيد موسى برمكي وقته وحاتمي جوده، صرف القلوب إليه والألسنة بالثناء عليه لسخائه وليونة جانبه، والسيد الطيب مرواني زمانه أسودي //116 أوانه، فقد انتخب وصف عبد الملك بن مروان من حيث السخاء، ووافق مذهب

---

1 توليةَ: مفعول به للفعل "رشَّح".

2 على هامش المخطوط مع نصه: تمام شرح تولية ابن داوود: فعلى ما يجري على ألسنة بعض العامة صح أن يجري عليه مثل أبي أيوب، وسبب المثل أن المنصور لما فسدت نيته وزيره أبي أيوب ونسبه إلى أخذ أموال وهمَّ أن يوقع به، فتطاول ذلك، فكان كلما دخل ظن أن سيوقع به ثم يخرج سالما، فقيل عنه كان معه شيء من الدهن قد عمل فيه سحرا فكان يدهن به حاجبيه إذا دخل على المنصور اهـ فإن صح أن للبقالي غفر الله له شيئا من ذلك فقد ألقت عزيمة مولانا المؤيد بالله سيدي حسن عصاه وتلقفت ذلك وأبطلته والله أعلم اهـ مؤلفه.

3 بياض بالمخطوط وعلى هامشه مكتوب "بياض بالأصل ."
وقد توفى الطيب بن اليماني بوعشرين فجأة بمراكش الحمراء عشية يوم الخميس الرابع عشر من شعبان عام ستة وثمانين ومائتين وألف. (الاستقصا ج3 ص122)

أبي الأسود الدؤلي من حيث جودة الذهن والإمساك وليونة جانبه. فقد قيل لأبي الأسود الدؤلي إنك ظرف علم، ووعاء حلم، غير أنك بخيل، فقال أبو الأسود: "لا خير في وعاء لا يمسك ما فيه"، وهذا من فصاحته وبلاغته التي ترد القبيح مستحسنا في اللفظ، إن من البيان لسحرا، فرحم الله الجميع وجدد عليهم وابل المغفرة.

تنبيه: يتشوف هنا للجواب عن معارضةٍ ظاهرة بين ما نقله الدميري في حياة الحيوان وما نقله ابن خلكان، فإن الدميري قرر أن عبد الملك بن مروان كان يلقب بحمامة المسجد لملازمته إياه، لقبه به ابن عمر ﷺ، وجاءته الخلافة وهو يقرأ في المصحف فطبقه وقال سلام عليك هذا فراق بيني وبينك، وأنه كان قبل الخلافة متعبدا ناسكا عالما فقيها واسع العلم، ومع هذا كله كان شديد البخل يلقب برشح الحجر لبخله. وهذا يعارض ما في ابن خلكان أن جرير الشاعر لما دخل على عبد الملك وأنشده قصيدته التي //117 أولها:

أتصحوا أم فؤادك غير صاح عشية هم صحبك بالرواح

إلى أن قال:

تعزت أم حَزْرَة، ثم قالت رأيت الموردين ذوي لقاح

فلما انتهى إلى قوله:

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

استوى عبد الملك جالسا بعدما كان متكئا وقال من مدحنا منكم فليمدحنا بمثل هذا أو فليسكت، ثم التفت إلى جرير وقال: يا جرير أترى أم خزرة يرويها مائة ناقة من نعم بني كلب؟ قال جرير: يا أمير المؤمنين، إن لم تروها فلا أرواها الله تعالى، فأمر له بها كلها سود الحدق. قال جرير: يا أمير المؤمنين نحن مشايخ وليس بأحدنا فضل عن راحته، والإبل إباق فلو أمرت لي بالرّعاء، فأمر له بثمانية، وكان بين يديه صحاف من ذهب وبيده قضيب، فقال جرير: يا أمير المؤمنين، والمحلب، قال وأشرت الى إحدى الصحاف، فنبذها إليه بالقضيب وقال: خذها لا نفعتك

//118 وإلى هذا أشار بقوله:

أعطوا هنيدة تحدوها ثمانية ما في عطائهم مَنٌّ ولا سرفُ

وهنيدة علم على مائة من الإبل، فما في ابن خلكان يقتضي غاية السخاء، وما للدميري يقتضي نهاية الشح، اذ الحجر لا يرشح إلا في تنور حرقه للجص، وتركتُ الجواب لغيري اهـ كاتبُه مُحَّد غفر الله له. لكن جِد سيديُّ الطيب وعُلُوُّ همته فيما يرجع لنصيحة الله ورسوله وأئمة المسلمين ربما يُعْطي ويُغْنِي. نعم، من شاركه في ذلك كله وفاته بخصله السخاء المحبوب عند الله وعند خلقه فاتَه بأمر كثير. ولقد ظهر على السيد موسى مفاد الحديث الشريف وقول الصادق المصدوق ﷺ كما في الجامع للسيوطي: " ما أحسن عبد الصدقة إلا أحسن الله الخلافة في تركته"، اي يحسنها في أولاده من بعده. ومما سمعته من بعض أهل الخير قديما قيد حياة السيد موسى رحمه الله ما مُحَصِّله أن هذا الملك لا يزال بخير ما دام فيه

أولاد احماد، بهذا اللفظ اهـ ولا غرابة في ذلك، فلا غرابة في كونهم ربحوا من هذا الملك وخدمة أشرافه، وبخدمتهم له ربحوا، ومع 119// ذلك يرى الملك بركتهم (1)، فإن البحر ترتفع منه السحاب ومنه تنشأ ومع ذلك تمطره وتنتفع دوابه منها.

وعن جابر عن عبد الله سمعت رسول الله ﷺ يقول: " قال جبريل عليه السلام: قال الله عز وجل: هذا دين ارتضيته لنفسي ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق، فأكرموه بهما ما صحبتموه" اهـ وانظر عظم موقع هذا الحديث ونقله بعض المفسرين عند قوله تعالى (ورضيت لكم الإسلام دينا).

مستملحة مضحكة لا بأس بالإحماض بها: ورد "إذا مللتم فأحمضوا" يروى حديثا (2) وقال الشاعر:

أفدْ طبعَكَ المكدودَ بالجدِّ راحَةً ... يَجُمُّ وَعَلِّلْهُ بِشَيءٍ من المزحِ

ولكِنْ إذا أعطيْته المزحَ فلْيَكُن ... بِمقدارِ ما تُعطي الطَّعامَ مِنَ

والحديث شجون. في نوادر أبي الأسود الدؤلي ما حكى الضابط الحجة النقادة الدميري من جملة نوادر أنه دخل يوما على معاوية رضي الله عنهما معا، فبينما هو يخاطبه إذ ضرط أبو الأسود فضحك معاوية، فقال له: يا أمير المؤمنين لا تخبر بها أحدا، فلما خرج من عنده دخل عليه عمرو بن العاص فأخبره معاوية 120// بما كان من أبي الأسود، فلما رآه عمرو قال له: يا أبا الاسود ضرطت بين يدي أمير المؤمنين، فلما دخل على معاوية قال له: ألم أسالك أن لا تخبر بها أحدا، قال له معاوية: ما علم بها إلا عمرو، فقال: إياه كنت أحذر، ولكن فأنت لا تصلح للخلافة، قال: كيف؟ قال إذا لم تكن لك أمانة على ضرطة فكيف تؤمن على أموال المسلمين ودمائهم؟ فضحك معاوية ووصله.

رجع. لما دخل السلطان وخليفتُه شبلُه لحاضرة مراكش جاءت التهاني من كل قطر وناحية، شاسعة كانت أو دانية، على العادة من تهنئة الملوك بقدوم من سفر، وحصول مزية ونيل ظفر، يهنُّونهما معا مع تقديم الهدايا، والفرح بمجيئهما بالعافية وحصول المزايا، فتتابع ذلك أياما عديدة، ومدة مديدة، والناس في فرح وانبساط، ولعب الخيل في مجالها ونشاط.

ولما فرغ السلطان من تلك الشؤون، وقضى ما ترتب على مقدمه من مغيبه من لازم التقديم من الحقوق والمؤن، وجه وجهة عزمه، وأجمع وافر همه، لاقامة وليمة عرس شبله وخليفته، وقره عينه وريحانته، الخليفة الذي زكى الله سناه. وبلَّغه تمام مُناه، 121// صاحب هذا البستان، فلما انسلخ شهر رمضان وحضر جميع أعيان القبائل وجميع عمالها ومن وفد من

---

1 على هامش المخطوط ما نصه: تنبيه: سئل حكيم عن أشياء منها قيل له ما صلاح الملك؟ قال وزراؤه إذا صلحوا.اهـ وقال الحكماء الوزراء كأصابع الراحة في افتقار بعضهم لبعض وتزيين بعضهم ببعض، يستمدون من نور وعقل الملك بنظرهم إليه واستماعهم منه كما تستمد الدراري من نور الشمس، فكلهم إلى الملك محتاج وبه مقتدون. اهـ مؤلفه

2 عزاه اليوسي في المحاضرات لابن عباس رضي الله عنهما. وقوله: "أحمضوا" هو من الحمض، والحمض ما ملح من النبت. والعرب تلقي الإبل في الخلة، وهو ماحلا من النبت. فإذا ملته ألقتها في الحمض.

الوفود لحضرة السلطان لحضور العيد، أُعلِم الجميع بالإقامة لحضور تلك الوليمة، الشامخة القدر العظيمة، الميمونة السعيدة الجسيمة، المباركة الفخيمة.

وحيث حصل التفرغ من شواغل العيد، ومن إهداء هدايا وفوده من قريب وبعيد، حصل الاهتبال والتجديد للفرح الأكبر الجديد، فأقام له الوليمة، وما أدراك ما الوليمة، إذ هي له أول وليمة. وبالجملة فلو رآها الإخباريون السابقون، والمؤرخون السالفون واللاحقون، لكان أقربُ ما يشبهونه بها لا ما يشبهونها هي بغيرها، وذلك من ولائم الملوك، بأن يقولوا أقرب شبه بها وليمة المأمون على بوران بنت الحسن بن سهل، أخي الفضل بن سهل وما فوقها، قاصدين أن المشبِّه لا يقوى قوة المشبَّه به، وأن تلك القاعدة الأغلبية لازمة هنا، مع زيادة كون الشبه إنما هو في التوسعة على الخلق في الأطعمة وفي إفاضة أنواع الإكرام واسباغ ضروب النعم، وإلا فوليمة 122// المأمون على بوران بنت الحسن بن سهل، وهذه الوليمة على من؟ وسليلةِ من؟ وبضعةِ من؟ عريقة النسبتين، طيبة العنصرين، كريمة الشرفين، تفرعت عن شجرتي الشرف والملك، بضعة نبوية خالصة، بنت عَمِّه وصِنو أبيه الذي هو أنجب أعمامه، بل من أنجب أولاد الملوك على العموم، ومن أكثرهم مشاركة في العلوم، وجدها من أشرف الملوك وأعلمهم وأعبدهم، وفي الصلاح والولاية أرسخهم، وبعلها من أنجب أولاد الملوك، وأبرع وأرسخ الملوك، وأجمعهم لجميع خصال الشرف ومزايا الملك من غير خلاف، فهي إذا جديرة بأن تنجِب.

فأقيمت تلك الوليمة العديمة النظير، التي لم يعرف فيها مشتها لأحد من كبير ولا صغير. فكان ابتداؤها، أي ابتداء الشروع فيها، في واحد وعشرين من شوال عام أربعة وثمانين ومائتين وألف، وكانت سابغة الذيول والأطراف، دخل تحت واسع أطنابها عدد كثير من الأشراف، كلهم أولموا تحت متسع جلبابها، واستظلوا بظلالها، واشتملوا بطول أذيالها، فزينت لأجلها بساتين الحِمَا المسمى بأگدال، وعمرت حدائقه كلها 123// على التفصيل والإجمال بالزرابي المبثوثة والنمارق المصفوفة، فلم يبق حارس على أبوابها، وأبيحت لدخول جميع الناس على مراتبها، وارتبطت المسببات بأسبابها، فلم يبق سبب جالب للمسار والأفراح، وتنتفي معه جميع الأكدار والأتراح، مما هو مندوب أو مباح، إلا حضر. ورتبت المراتب في الجلوس، على حسب مؤتلف الطباع والنفوس، فأهل العلم على حيز في مراتبهم، والأشراف كذلك على طبقاتهم، والرؤساء من عمال وولاة كل إلى أنسه، وسائر صنوف الناس كل جنس إلى جنسه، ولكل بعد ذلك الخيار في مستطاب نفسه، ولا تفرقة ولا تفاضل في غير ذلك، فإن انصباب النعم عليهم على حد سواء، وهم بعين الملاحظة والاعتناء، في خط الاستواء. ولو أحصي نوع واحد من أقل صنوف مصروفاتها الذي هو ما خرج فيها من رعود البارود، لتعجب فيه المتعجبون وقالوا هذا لم يشاركه متقدم فرح لا في صدور ولا ورود، وذلك الإكثار، رعيا لما رغب الشارع فيه من الاشتهار. فامتد ضافي (1) ذيلها، وانهلَّ وَكْفُ (2) وبلها، في مدة من سبعة أيام التي هي 124// معلومة عادة بكونها لا يشبهها ما قبلها ولا ما بعدها من الأيام.

---

1 طَعَامٌ ضَافٍ: كَثِيرٌ، غَزِيرٌ وَافِر. وٌثَوْبٌ ضَافٍ: سَابِغٌ، مُتَّسِعٌ.

2 وكفتِ العينُ بالدَّمْع: أسالته.

ثم تجددت الهدايا للفرح الجديد، وتزاحم المهدون بالهدايا كل بما لديه من أصنافها مهيأ عتيد (1).
ولما أدى الكل من ذلك ما وجب عليه، كل على حسب ما لديه،

على حسب المهدي الهدايا ولو تُرى　　على حسب المهدَى لكن جَلائلا

رجعت الوجوه كل إلى وطنه، وأمقام السلطان بعدها بمراكش محل استيطانه، مدة من نحو ... (2) وتلك الأيام طافحة بأنواع الخيرات، وأسباب المسرات، وأنواع الزهو والسعادة، ووجوه الأماني مساعدة، ولم يزل حصول الأماني في الانتشار والزيادة، إلى أن أزمع سيدي مُحَمَّد قدس الله روحه الشخوص للغرب، فخرج بجيوشه وأعلامه، لتفقد الغرب أيضا في أحواله، وحكامه واحكامه، وما طرأ بعده من صروف الزمان نقضِه وإبرامِه. ونهوضُه له من مراكش متوجها له ولتفقد أحوال من دونه من الرعية في تاريخ ... (3) بجيش عرمرم يزيد في مسرة الإسلام، ويضاعف مساءة الأعداء الظلام، طافح بالأبطال من كُماة الرجال، ومن //125 وافر الشعر فيه يقال:

غدا بالجيش يرعد بالمنايا　　ويبرق بالمذكِّرة القِضاب

ولما توجه له توجه سَالِيَ (4) البال، مطمئن البال، من كل وجه وعلى كل حال، فيما يرجع لشؤون جميع الحوز ومحل كرسي ملكه بمراكش حيث خليفته مولانا الحسن صاحب هذا التاريخ فيه مستخلف، إذ ما من أمر كان صعبا إلا ذلله وبه ائتلف، وسياسته تصير المتفاقم من كل شأن كأنه ما قَط اختلف، يقول منه الباطن ولسان الحال، الذي هو أبلغ من لسان المقال، يا ولدي، وفِلْذَ كبدي، ما غاب من استخلفك، ولا فُقد من خلَّفك، لاختصاصك بمعناها، واستحقاقك إياها.
فبقي خليفة بمراكش وجميع الرعايا التي بأحوازها تنضاف إليها سهلا وجبالا، عربا وعجما، مع القطر السوسي يسوس أمورها، ويدبر شؤونها، ينظم في سلك السياسة منثورها، ويفصل فيه من حسن السياسة شذورها. وقد تقدم أن من جبلته، واتساع أخلاقه، وفساحة صدره وطبيعته، لا تشغله معاناة //126 كبار الأمور عن صغارها، يولي ويعزل، ويقدم ويؤخر، والكل بنظر المصلحة الراجحة، تاركا للمرجوحة، فقد وُلي على يده عمال عدة، وأُخِّر عليها آخرون، ولم يزل في الازدياد، على ذلك المعتاد، وسياسته تنمو وتنبو، وليس لِصارِمِ آرائه من نَبْوَة، ولا لجواد فكره من كبوة، موهبة من

---

1 عتيد: حاضِر مُهيَّأ.
2 بياض بالمخطوط وعلى هامشه مكتوب "بياض بالأصل".
3 بياض بالمخطوط وعلى هامشه مكتوب "بياض بالأصل".
4 من سلا يسلو عن الشيء :نسِيَه، وطابت نفسُه بعد فراقه.

الرحمن، فسبحان الواهب المنان. فلما كان عام التسع والثمانين في خامس عشر ربيع منه، أمره والده بعقد راية أخرى توجه بها لناحية قبائل تادلا والشاوية أيضا.

من رايات خلافته المنبئة عن وافر نجدته وبارع نجابته، هي التي عقدها أيضا بإذن والده وخرج بها من مراكش بجيشه وجُنده، في الخامس عشر من ربيع النبوي سنة تسع وثمانين ومائتين وألف. فكان سفره بهذه الراية مسفرا عن السعادة والإقبال، ومبشرا ببلوغ المقاصد والآمال، فصارت خيول عزه في ميادين الظفر سابقة، ورياض النعم له ولجيشه بغيث كرم الله ناضرة باسقة، لأنه نهض في اقتناء المآثر، واقتناص شوارد المفاخر.
//127 فاستحق أن يُنشد فيه من الوافر:

خلقت كما أرادتك المعالي   فأنت لمن رجاك كما يريد

لأنه لمعالي الأمور شديد الاغتباط، لما بينها وبين موارد أفعاله ومصادرها من الارتباط، يأخذ في كل الأمور بالاحتياط، يرشد غيره للأمثال الواردة في ذلك مع ما فيها من حسن الاستنباط، مما يضرب منها للأخذ بالاحتياط، قولهم "عَشِّ ولا تغتر" وقولهم "عَشِّ إبلك ولا تغتر بما تقدم عليه" (1)
مما روي عن ابن عباس وابن عمر وابن الزبير ان رجلا أتاهم فقال لهم: كما لا ينفع مع الشرك عمل كذلك لا يضر مع الإيمان تقصير، فكلهم قالوا له: عش ولا تغتر، اهـ. ولا يخفى أن هذا البلد هي مرتع خيول حزم مولانا الحسن صاحب هذا البستان، ومركض أفراسِ نُهاهُ في كل وقت وأوان.
ومن أمثال الأخذ بالاحتياط قولهم "قبل الرمي يراش السهم" وقولهم "ليس للدهر بصاحب، من لم ينظر إلى العواقب".
ومن جملة ما اشتهر به صاحب هذا التاريخ في خلافته وبعدها عند كل عارف من العباد، شرقا وغربا وفي //128 وفي آفاق البلاد، من جملة فطرته التي فطره الله عليها، أخذه بالاحتياط في كل الأمور، ونظره للعواقب فيما عليه تدور، كما فطره على محبة تأسيس العوائد الحسنة المرضية، وابتكار حسان الأمور التي مجراها الأخلاق السنية. حكي أن الإسكندر قال له بعض ندمائه: إن الله أعطاك مملكة كثيرة، وسطوة كبيرة، وشوكة وافرة شهيرة، فأكثر من النساء حتى يكثر أولادك ويبقوا بعدك. فقال له الإسكندر: أولاد الرجل ليس ما ذكرت، وإنما أولاد الرجل العوائد الحسنة، والسير المرضية، والأخلاق الكريمة.
قال مؤلفه غفر الله له ووفقه: ولقد صدق الإسكندر، فإن الذي يُستجلَب للرجل من الثناء الجميل المؤبد، والذكر الحسن

1 وأصله أن رجلا أراد أن يقطع بإبله مفازة ولم يعشها ثقة بما فيها من الكلأ، فقيل له عش إبلك قبل الدخول فيها، فإن كان فيها كلأ لم يضُرَّك، وإن لم يكن فقد أخذت بالحزم انتهى. كشف الخفا ج2 ص75. وقد ضبطت في المخطوط خطأ بكسر العين وسكون الشين.

المخلد، وأنتم شهداء الله في أرضه فمن أثنيتم عليه خيرا ...الخ (1) بسبب عوائده الحسنة، وسيرته المرضية، وأخلاقه الكريمة، لا يستجلب له بأولاده، قد ورد في الأولاد "الولد حسنة من حسنات أبيه" الحديث. ويقال هذا إذا كان حسنة كهذا الملك، ومن في معنى ذلك، وإن كان //129 من دونه، وكعالم وصالح وعابد، والعوائد الحسنة لو لم يرد فيها إلا "من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة" لكان كافيا، والسير المرضية والأخلاق الكريمة لو لم يكن تطابق ألسنة الخلق من الترحم والثناء على من عُرِف بها وهو منذ أعصار خَوَالٍ، تحت الأرض رِمَم بَوال، لكفى، فلله أبوه.

وقد عُرِف هذا الخليفة من ابتداء نبغته في الخلافة بأمور عظيمة من هذا المعنى، فما أدَلَّه من أوَّلها على منصِبه، وما أشبَهَهُ قبلُ وبعدُ بنَسَبِه، ولقد سبق إلى القلوب من محبته ما لا يبلغه وصفي له من صفته، كأنَّ عينيه لسانان ينطقان بتعالي همته.

فمن الأمارات التي لاحت عليه في صغره كونه يخلط أبهة الأملاك، بزي النُّسَّاك، تقبله القلوب، وتتبعه العيون، يُعرَف الشرفُ في تواضعه، والعفو في صورته، واللب في مشيته.

تنبيه: الحديث شجون، ويجر إلى فنون، فاللب هو خالص العقل، فإن العقل له ظاهر وله لب، ففي أول الأمر يكون عقلا //130 وفي حال كماله ونهاية أمره يكون لبا، ولا يخفى أن هذا المعنى تعطيه التسمية، إذ لب كل شيء خالصه.

وقلما أبصرت عيناك ذا لقب إلا ومعناه إن فتَّشت في لقبه

تنبيه آخر: سئل الحرث بن أسد البصري الزاهد المشهور الجامع بين علمي الظاهر والباطن، المعاصر لأحمد بن حنبل وللجنيد، عن العقل ما هو؟ فقال: نور الغريزة مع التجارب يزيد ويقوى بالعلم والحلم اهـ ولا يخفى اجتماع سببي زيادته وقوته في هذا السلطان الموضوع فيه هذا التقييد.

رجع: فتوجه الخليفه لتلك البلاد، التي هي بعقد تلك الراية المراد، تجوب خَيله ورَجلُه ما دونها من البلاد، وكل من واجهه من رعيته، تكاد صدورهم تنفرج من هيبته، فتعاطى من شكر الله على نعمه التي أولاه من جلائلها وجمالها، وأسحبه من أذيالها، ما لو لم يتحدث به من كان ناشرا أو مثنيا، ومعيدا ومبديا، لأثنت عليه به حاله، وشهدت به رحاله، سيما وقد امتلأت بذكر ذلك المحافلُ، وصارت بخبره الركبان والقوافل، //131 فصارت الألسنة كلها بثنائه وشكره لسانا، والجماعات على نشره وإشاعته مع الدعاء له أنصارا وأعوانا، كلٌّ من درى "من لم يهتم بأمور المسلمين فليس من المسلمين" وعلم أن الله أقام لإصلاح المسلمين عماده، يبتهل إلى الله بلسانه ولبه، قائلا في جنبه، زكّى الله عملَه، وبلغه في إصلاح الإسلام والدين أمله، وأعاد علينا من بركاته، وبارك لنا في حياته، وأعز الله محبيه، وبزَّ مبغضيه، وأعلى شرفه،

---

1 قال رسول الله ﷺ: من أثنيتم عليه خيراً وجبت له الجنّة، ومن أثنيتم عليه شرّاً وجبت له النّار، أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض) رواه البخاري

وأهلك عدوه، وجذع أنفه، وقطع طرفه، وقد أوجب له ذلك ما حُبِّب إليه من الترقي في أحسن المسالك، على ما تقرر وتقدم مرارا أنه جُبِل عليه من حسن الأخلاق والحلم والعفة والعفو، وكل ما كان من معالي الأمور التي يَغتبِط، (1) حتى قالت له المكرمات "استكرمت فاربط"، (2) وهو مثل سائر، أي ظفرت بنفيس فشد يدك عليه اهـ

وفي الحديث "اللهم غبطا لا هبطا" أي اللهم نسألك الغبطة أو منزلة نُغبَط عليها. وكيف لا وقد شهد له بفطرته على هذه الأوصاف أهل الميز على طبقاتهم عامة //132 وعلماء وأشراف، مع اكتسابه الزيادة عليها في أحسن طرق العفاف. وقد قال جده الأعلى ﷺ: "إن الله يحب الحيي الحليم المتعفف، ويبغض السائل البذيء الملحف". وقال ﷺ: "ما وُضع في الميزان أثقل من حسن الخلق"، وذلك أنه ليس من نعوت المخلوقين، بل هو من أخلاق رب العالمين، والعباد مأمورون بالتخلق بأخلاقه. وورد: "أحسن أخلاق المرء في معاملته مع الحق التسليمُ والرضى، وأحسن أخلاقه في معاملته مع الخلق العفو والسخاء". اهـ وقد تقدم قريبا قول جبريل [للنبي] ﷺ "ولن يُصلح هذا الدين إلا السخاء وحسن الخلق فأكرموه بهما".

وقد قيل وهو من حكم السلف: "إن التواضع من مصائد الشرف". وقيل لبعض الملوك: ما الذي بلغ بك هذه المنزلة من الشرف التي خصصت بها من بين السلف والخلف؟ قال: عفوي عند قدرتي وليني عند شدتي، وبذلي الإنصاف ولو من نفسي، وإبقائي في الحب والبغض مكانا لموضع الاستبدال اهـ (3). وحيث كان //133 الأمر كذلك فكيف بمن نبغ من عين الشرف، مجبولا على التواضع محيطا بجميع ما سلف.

فلم يزل يقود جيوشه والهيبة عن يمينه وشماله، ومن خلفه وأمامه، ويعامل كل صنف بمناسبِه،

كريم له وجه إذا كان راضيا طليق ووجه في الكريهة باسل

---

1 اغتبطَ الشَّخصُ بالشَّيء: فرِحَ، حسُنَت حالُه وكانَ في مَسرَّة.

2 في المخطوط "فاربط". قال العسكري في جمهرة الأمثال ج1 ص73 (وَأَصله فِي الْفرس الْكَرِيم يُصِيبهُ الانسان فيحتفظ بِهِ).

3 على هامش المخطوط ما نصه: ما أعظم موقعه من كلام فهو مأخوذ من فعله ﷺ وقوله، فكان ألين الخلق عند الشدة ما لم تُنتهَك حرمات الله، وكان يُنصف من نفسه، حتى إنه كشح عن بطنه الشريف للذي أوجعه بالسوط ليقتاد منه. وقال: "أحبب حبيبك هونا مَّا وأبغض بَغِيضك هونا مَّا" الحديث اهـ مؤلفه.

وهذا الحديث جاء في رواية بلفظ: "أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما، وأبغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما". واختلفوا فيه بين مضعف ومحسِّن ومصحِّح، ورفعه بعضهم إلى سيدنا علي كرم الله وجهه.

وتلك الأيام حسنة كأنها عُقِّمت عما ليس بحسن، فلا تتعاطى في تصرفاتها إلا الحسن المستحسن، وزادها بهجة خلافة مولانا الحسن، الذي وطن نفسه على ارتكاب كل فعل حسن، ولا ينتقل من شأن حسن، إلا لما هو منه أحسن. وحيثما توجه أنشده لسان الدهر الذي صار به بين فُكاهة ووسَن:

لقد حَسُنت بك الأيام حتى　　　إنك في فم الدنيا ابتسام

محاسن سير الأيام، تحرسها أسنة الأقلام، وتدرسها ألسنة الليالي والأيام. فازدادت الدولة بخلافته في شبابه شبابا ونموا، كما ازداد في أنواع الشرف وعلو الرتب سموا، حتى كانت السعادة وفد بابه، والبَشائر قِرى سمعه، والمسارُّ غذاء نفسه، إلى أن نصب قبابه وأخبيته بالمحل الذي 134// أمر أن ينهي إليه رحلته، وهو الموضوع المشهور بالصخرة، ويقال له صخرة الدجاجة، وأقام بها ينشر كل يوم جيش تدبيره في تمهيد تادلا ومن بالقرب لذلك المحل، بأخذ الوظائف وسياسة جميع أمورهم، وإصلاح شؤونهم من حيث هي، ولم يزل مخيما بها، وإنما الذي يظعن، وفي نحور العدا وعويصات الأمور يطعن، رأيُه وتدبيره، وفي ذلك ينشد من حكم الشعر وافره:

وما شيء من الأشياء أمضى　　　على المهجات من رأي سديد

وقد تحفز للوثوب أو كاد، على من لم يُعطِ من القبائل كل الانقياد، لأنه المتقبِّض (1) المرتاد، وإنما يمنعه من الوثوب على من استوجب الوقوف مع معتاده، كونه (2) لا يقدم على مثل ذلك إلا بإذن والده.

أقام زمانا يبتغي الإذن صامتا　　　وتحسبه إن رام أكدى وأصلدا
فلما امتطاه راكباً ذلّ صعبه　　　وسار فأضحى قد أغار وأنجدا

ومن ذلك المقام بعث إليه والده فنصب أعلامَه وألويتَه، وطوى قبابَه وأخبيتَه، ورحل يقدُم جيشَهُ وجندَه، كل كَمِيٍّ (4) 135// منهم متكمي بما عنده.

متقلَّدين　صفائحاً　هندية　　　يتركن من ضربوا كمن لم يولد

1 على هامش المخطوط مانصه: المتقبض: الأسد المستعد للوثوب اه مؤلف
2 قوله: "كونه لا يقدم ...الخ" في المخطوط "من كونِه لا يقدم ...".
3 أَكْدَى :أَلحَّ في المسأَلة - أصلد: شديد الصلابة.
4 الكَمِيُّ : لابسُ السِّلاَح.

وسار حتى لحقت جيوشه بجيوش والده ببلد بربر زعير بالموضع المسمى بطالع گرماط، فلما رآه والده وعلم حاله وأحواله امتلا فرحا ونشاطا، وازداد الزمان بسطا والقلوب انشراحا وانبساطا، ولما التقى الجيشان وتيقن السلطان أن خليفته مولانا الحسن مبارك الناصية ميمون الغرة تتسارع إليه وفود السعادة، وأيامه مواسم اليمن ومطالع الخير له في الزيادة، أخذ يقدمه في كل رحيل من ثمه إلى مراكش أمامه فكل منزل نهض منه به ينزل السلطان بعده، ثم نهضا من ذلك المحل إلى الموضع المسمى بالكيسان، ومنه إلى المحل الذي كان الخليفة به مخيما يمهد أمور القبائل كما تقدم، والضابط هو ما تقدم ذكره قريبا من صفة نهوض الجيش ونزولهما، وذلك أن كل منزل نزل به جيش الخليفة وبات فيه وظعن منه، فاليوم الذي ظعن منه ينزل به السلطان وبه يبيت //136 وفي أثناء ذلك توجهت الهمة والعزم لما كان الخليفة قبلُ كما تقدمَ يتحفز للوثوب عليه، فتوجه الجيش لعقوبة بني مَحمد من الشاوية على ما فرط منهم من الطيش، حيث لم يقيدوا نعمة الهناء ورغد العيش، فطفق يشن عليهم الغارات بالبعض من خيله ورجله ونهب أمتعتهم وأموالهم، وأخذ مواشيهم ورجالهم، وهم كانوا يظنون أنهم مانعتهم حميتهم وجيرانهم، هيهات، استوفضهم أوفاضا أوفاضا، (1) واقتاضهم اقتاضا، (2) ففي الحين وقعوا في برثوطة (3). وكان من سابق قدر الله في تلك المدة أن ثارت فتنة يوم الجمعة ثالث جمادى الثانية، من عام تسع وثمانين ومائتين وألف بين أهل حاضرة مراكش وعاملهم الطالب أحمد بن داوود، وسببها بعض شرطييه وأعوانه جاروا في مد يد العداء على بعض صانعي الخرازين بها، فارتفع التصابر، ووقع التشاجر، فأورى اقتداحه نارا مشتعلة فتسعرت بها الفتنة بين الدباغين والشرطيين، فتأججت في الحين، وكانت عين الشيطان يقظانة وهو بالمرصاد، فجرى في الازدياد، بإيقادها أي إيقاد، فما أبطا حتى أجج نار الرقطاء (4) وشرط //137 الناس شَرطا (5)، فسعى في إعانته جل غوغاء الناس وكثيرهم ضواط (6) حيث لا يستطيع أن يردهم راد، فاجتمع من في المصر من الصعاليك والغوغاء الذين ما لهم في المصر ثاغية ولا راغية، وما لهم رَكوبة ولا حَلوبة ولا حَمولة، وانما هم خُلَّيْطَى (7) وحاصوا حيصة أو حيصات، متوجهين لدار العامل يريدون الهجوم عليه لولا لطف الله وهمه السلطان وسعادته. وقد ظهر من الصبيان ومن في معناهم من خوارق العادة وشدة الإقدام وتيسيره أمر عجيب يتعجب منه كل عاقل أريب، حتى إن من كان يشاهدهم حكم بعقله أن نوعا

---

1 اسْتَوْفَضَ فلانا: طَرَدَه. والأَوْفَاضُ: الضِّعاف من الناس الفقراء الذين لا دِفاعَ بهم.

2 اقتَاضَ الشيءَ: استأصَله.

3 وَقَعَ في بُرْثوطَةٍ: أي في مَهْلَكَةٍ.

4 الرَّقْطاء: الفتنة.

5على هامش المخطوط: أي وقعوا في أمر عظيم.

6 كذا في المخطوط. والأَضْوَطُ: الأَحْمَقُ. يقال: ضَوِطَ فكُّهُ ضَوَطًا: أي اعوجَّ. فهو أَضْوَطُ، وهي ضَوْطاءُ. والجمع: ضُوطٌ. فلعل ما في المخطوط مصحَّف والله أعلم. انظر المعجم الوسيط.

7 خُلَّيْطَى وخُلَيْطَى: أوباشٌ مُخْتَلِطُونَ.

من الجان معهم لتكاثرهم وخفة كرِّهم وفرِّهم، فتحير أهل العقول والسكينة كيف التوصل لإخماد تلك النار، والسلطان وخليفته معا في شاسع الأقطار، فاجتمعوا وجمعوا أعيانهم، من رؤساء وعلماء وأعيان فجاؤوا بقضِّهم وقضيضهم، أي كبيرهم وصغيرهم، لباب دار السلطان قاصدين التيمن بأعتابها الشريفة، والمشورة مع من تُمكن مشورته بها، كمن بالمنشية من العمال والخلائف ونحو ذلك، فاجتمعوا وتفاوضوا حتى انفصل 138// رأي الجميع على أن تلك الفتنة لا تنحسم مادتها إلا بلزوم العامل داره وكفه يده عما كان عليه من التصرف برسم الولاية، لأن بعض الشر أهون من بعض، ويقدمون من به ينزجر أهل الطيش فتحصل الهدنة وتسكن الفتنة، حتى يقدم السلطان وله النظر فيمن يستحق العقوبة، ولا يخفى أن ذلك نظر سديد عند أول التأمل، وما يسبق للذهن بدارا، إذ لولا ذلك لربما زاد الأمر فظاعة، وامتدت تلك الشناعة، فاستخطأ السلطان نظرهم ظاهرا ورأوا أنهم ما أُنصِفوا، لكنهم حقيقة في الباطن أنصِفوا، أنصفهم حقيقة بعدم المؤاخذة، والذي يناسب الظاهر هو ما قابلهم به، فإن نظر السلطان أسد وأرشد وأقعد، فإن عقول الملوك ملوك العقول، إذ لو لم يقابلهم بالجلال وقابلهم بالجمال لكان مدرجة لمعنى بعض الأمثال، التي منها قولهم: "أطعم العَبد الكُراع يطمع في الذراع" ومنه قول العامة "أكل السلا يجر إلى أكل الخروف". نعم حيث أخطأ نظرهم ظاهرا اتبعوه بالخطأ حقيقة ظاهرا وباطنا فازدادوا خطأ على خطأ وسُوء نظر، بأن وجهوا مقرَّبي زواياهم وجملة 139// من أعيانهم، حتى صاروا وفدا كبيرا فتوجهوا وافدين على السلطان استرضاء وطلبا لحلمه وعفوه مع إرادة شرح السبب، خوف الوقوع في العطب، والحالة أن السلطان دخل بين قبائل من البربر والعجم والعرب، متوجها للالتحام بالطعن والضرب، ولما وصلوا حضرة جيشه وهو آخذ لمن ذكر في الحصار، وهم في مجيئهم على ضرب من الاشتهار، وتوجهوا بعدما أناخوا مراكبهم طالبين التمثل أمامه، فلم يكن بأسرع من وقوعهم في المثل السائر الذي هو قولهم "فإذا هو بين حاذف وقاذف"، والحاذف الضارب بالعصا، والقاذف الرامي بالحجر اهـ وصدق عليهم مثل "ضغث على إبالة"، يضرب لمن يزداد غما على غم، وفسره الدميري بقوله بلية على أخرى، والتفسيران متقاربان، الضغث الحزمة الصغيرة من الحطب، والإبالة الحزمة الكبيرة، فعادوا في حافرتهم، كما في المثل السائر، ومنه قوله تعالى (في الحافرة)، ورضوا من الغنيمة بالإياب، كما في المثل أيضا، ومنه قول العامه: الهزيمة مع السلامة غنيمة، فرجعوا سالمين لكن صدق عليهم مثل "جاء وقد 140// لفظ لجامه"، فكلهم لفظوا لجُمهم، ولا يخفى أن السلطان عرف بعدُ أن فعلهم في إخماد نار الفتنه رأي ونظر، لأن بعض الشر أهون من بعض، لكن لو اقتصر على ذلك والسلطان أعرف بمضرب المثل الذي هو "إنَّ السِّقط يحرق الحَرَجَة" (1) يضرب في الأمر الصغير يفضي إلى كبير، حيث صادف وقوغ ذلك منهم حلول السلطان بين قبائل البربر والأعراب وَعْراً وسهلا، جبالا وغيرها، وهو آخذ في قتال من استوجبه، وزجر من استحقه، ونكال من سعى في موجبه، وفي تلك الحالة شاع عنهم، أي عن أهل مراكش، أنهم أثاروا الفتنة، لكن سماعا والسماع لازال بين مصدق ومكذب، حتى قدموا على السلطان ببينة تصدقه وتزيده شهرة، ناصبين أعلامهم أمامهم تخفق بها الرياح، فلم يصادفوا طالع السعادة، ولا واجهتهم

1السقط ما يسقط بين الزندين قبل استحكام الورى. والحَرَجَة: الشجر الكثير الملتف.

من السلطان مساعدة، فحملتهم الضَّفاطة (1) على الوقوع في برثوطة، فلم يزد السلطان على أن استوفضهم، ومن حلمه وكظمه بعد غيظه أن لم يزد على الأمر بأن يُذادوا كما يذاد (2) البعير الضال عن الحوض ليس إلا.

ولما بلغت العقوبة ببني مُحَّد حدها، ووقعت موقعها، وحلت محلها، انتقل //141 جيش مولانا الخليفة لابن حَسَّان بدار ولد الراضي وولده السلطان على إثره، ثم بالوادي المسمى بالزم، ثم بعين القصب ببوجعد، وكان قد صدر من بني زمور مثل ما صدر من بني مُحَّد أو أكثر، واستوجبوا مثل ما استوجبوا، فأقام الجيشان بذلك المحل المسمى بعين القصب نحوا من خمسة عشر يوما، حتى جوزي بنو زمور بمثل ما جوزي به بنو مُحَّد، فجادتهم خيل الله شماطيط، فانقضت عليهم فحادت بهم بأقصى قضيضهم وقضيضتهم ما عليهم نفاض، فمعنى شماطيط: متفرقة ارسالا، ومعنى انقضت الخيل: انتشرت، وبأقصى قضيضهم وقضيضتهم: أي بجماعتهم، وما عليهم نفاض: أي ما عليهم شيء من الثياب، فداس الجيش زروعهم، وشالت الخيل مواشيهم وضروعهم، وتسابقت الأيدي في أخذ رجالهم وسلبهم، حتى أفضى ذلك إلى سلبهم من ثيابهم.

ولما طفق أبطال الجيش يأخذون رجالهم ويشدون الوثائق، وضاقت بهم الأرض وضاق الخناق، لجؤوا لزاوية سيدي ابن داوود فاستحرموا واستشفعوا //142 به فعُفِي عنهم، وإنما أوقع بني مُحَّد وبني زمور في ذلك حتى "وقع العشا على سرحان" (3) جهلهم بأمرين: بما أوجب الله عليهم بصريح كتابه وحديث نبيه وصحيح خطابه، والأمر الثاني عدم معرفتهم بقدر وثوب الغضنفرين السلطان وشبله خليفته حيدرة، ولم يَقدُروا عظم أمرهما قدرَه، وما أدراك ما هما.

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم ... أو حاولوا النفع في أشياعهم
سجية تلك منهم غير محدثة ... إن الخلائق فاعلم شرها البدع

ولعمري إنهما لأحق عند كل مُنصِف، من صديق أو عدو مُصلِف، (4) بأن ينشد فيهما هذين البيتين لاختصاصهما بمعناهما واستحقاقهما مفادهما، وهما:

كرمتم فما منكم جبان لدى الوغى ... ولا منكم عند العطاء بخيل
إذا استكثر الأعداء ما قلت فيكم ... فإن الذي يستكثرون قليل

1الضَّفَاطَةُ: الجَهْلُ والضَّعْفُ في الرأْي. انظر لسان العرب.

2الذَّوْد: السَّوق والطرد والدفع.

3 "سَقَطَ العَشَاءُ بِهِ عَلَى سِرْحَانٍ" هو مثل أصلُه أن رجلا خرج يلتمس العَشَاء، فوقع على ذئب فأكله، وقيل غير ذلك.

4 مصلف: مُتَكَبِّرٌ، مُتَعَجْرِفٌ.

ولما عفى عنهم، وأسدل حلمه على الضعيف والقوي منهم، وولى عليهم عمالهم، واسترعاهم رقابَهم وأحوالَهم، أمر حينئذ بالنهوض عنهم لقصبه تادلا بآيت الربع، فنزل الجيش بها على القبائل التي بحواليها فأظهروا الطاعة، وأدو من 143// اللوازم ومن ضيافة الجيش قدر الاستطاعة، ثم نهض الجيشان منها للزيدانية على الضابط المتقدم من كون الخليفة الميمون الغرة المبارك الناصية يتقدم بجيشه، والمحل الذي نهض منه به يحل والده بجيشه كذلك، فانقاد جيرانها كافة للقيام بما لزمهم من المؤن والضيافة.

تأديبهما لبني عمير

ثم منها وقع التقدم بالنهوض لبني موسى والحالة أن في قلب قلبي الجيش، وهما السلطان وخليفته، ما فيه من بعض الوغر (1) على بني اعمير، فرقة من تادلا، لِما أسلفوا من نبذ رسوم تمام الطاعة وراء ظهورهم، وتماديهم على عدم المبالاة من سيء أفعالهم، وارتكابهم الخرق وعدم الرفق في أمورهم. ومن أجل ذلك أمر شرذمة من جيشه فثنت أعنتها إليهم، وشنت الغارة عليهم بخيلهم ورجلهم، فعاملتهم بما يحق على المتمردين، فساء صباح المنذرين، فاستأصلت أموالهم، وأوثقت رجالهم، حتى سرى ذلك إلى أن مد أبطال الجيش 144// الأيدي لسلبهم من الثياب، وأخذ ما في حِللهم من ظرف وإهاب، وبعد ذلك ثارت شنشنة معهود الحلم، وفارت منه عيون العفو والرُّحْم، فأطلق أسراهم، وكسى عراتهم، بعدما كانوا من الحلم أُبلِسوا، ومن العفو أيسوا، وعلم أنهم اجتنوا إنما ما قد غرسوا.

الأخذ في زجر ارفالة وبني عياط

فنهض عنهم نهوض قوي الجناح، مع الظفر والنجاح، مصمما على أن يوقع مثل ما بهم أوقع، بمن جرى مجراهم وعَرض عرضَهم (2) ممن بمثل شكيمة طيشهم رتع، وانخرط (3) في ذلك الأمر أي انخراط، كأعراب وبربر ارفالة (4) وابن عياط، وكان السلطان أمر بالنهوض لوادي داي، فلما خيم به تيقنت قبائل ارفالة وابن عياط أن ما جرى على المثل يجري على المماثل فتحزبوا، وللمعارضة والمناضلة تأهبوا، معتقدين أن جبالهم وحصونهم مانعتهم، هيهات، لكن غرهم جهلهم

---

1 وغَر فلانٌ: امتلأ غيْظاً وحقدًا.

2 عَرَضَ عَرْضَ فلانٍ: نَحَا نحوَه.

3 انخرط في الأمر:أي ركب رأسه جهلا.

4 ارفالة: هي قرية مغربية شمال المملكة. وتنتمي لإقليم أزيلال الساحلي.

بالسلطان وشبله خليفته مع ما عهد منهما من الحلم عنهم وعن أمثالهم، ولم يعلموا أن كل واحد منهما أحق أن يُنشد فيه هذا البيت، فهما يتنازعانه لاختصاص كل واحد منهما بمعناه، واستحقاقه إياه: //145

أسد ضار إذا ما منعته وأب بر إذا ما قدرا

وكل منهما مستوجب هذه الأبيات الثلاثة بطريق الاستحقاق:

إمامنا أنت البحر إن جاء وارد وليث إذا ما الحرب طار عقابها
وأنت كسيف الهند وإني إن غدت حوادث من حرب يعب عبابها
وما خلقت أكرومة في امرئ له ولا غاية إلا إليك مآبها

ولما خاطبهم لسان حالهما، وظاهر توجههما إليهم بخيلهما ورجلهما، وللخيل في الوغا خيلاء، شمرت للالتحام تلك البرابر والأعراب، ولم تقدُر قَدر ذلك التوجه ولا عرفت معنى ذلك الخطاب، فوقع الالتحام وأي التحام، فما هي إلا أن أَلَمَّت بهم المصائب أي إلمام، فوقعت عليهم الهزيمة، وما أدراك ما الهزيمة، فقيض لهم قرناء، أي تسبب لهم من حيث لا يحتسبون، فاقتاضهم، أي استأصلهم، فما أقام وطيس الالتحام وحمي إلا كلمح، حتى واجهتهم خيلهما وأبطالهما على أوفاض، واستوفضتهم ايَّ استيفاض، أي لقيتهم عن عجل وطردتهم على استعجال، ولم تمنعهم الصياصي (1) والجبال //146 فانتهبوا وسُلِبوا بعدما لجؤوا للجبال الشامخة العظيمة، وصاروا للجيش طعمة طعيمة، فهم الباحثون عن حتفهم بظلفهم، واستئصالهم واجتثاثهم من أصلهم، فكان فيهم من مراد الله ما كان، ونفذ فيهم سابق قدره على حسب ما سعوا فيه منذ زمان.

ومن عادة هذين الملكين السلطانين الإمامين المعتادة إذا وضعت الحرب أوزارها، وأغمدت صقور حربها وبزاتها أظفارها، صفحا وعفيا عن المحسن بالمسيء، ووهبا للرجل قومه ومن اتصل بأسبابه، فتذهب المثابرة وتخبو الفتنة وتطمئن القلوب، لامتزاج معنى حديث جدهما ﷺ منهما امتزاج الروح بالجسد، ويسرعان في الحلم والعفو حتى عمَّن أُخِذ واستوجب حبلا من مسد. والحديث قوله ﷺ: "من كظم غيظا وهو يقدر على إنفاده ملأ الله قلبه أمنا وإيمانا". ولعمري إن [ما صداق] (2) ذلك الظاهر عليهما وهو من مفاد (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين).

ومن هناك توجه الجيشان لحاضرة مراكش مرحلة بعد مرحلة على الضابط المتقدم، //147 فمن الحلول والنزول بساحة دار بوزكري العميري لساحة دار القائد الغزواني ببني موسى، ثم منها لوادي العبيد، ثم للدشرة ثم لتاساوت، ثم للقناطير

---

1 الصياصي: الحصون. مفردها صِيصِية.

2 عبارة مشوشة كتبناها كما وردت في المخطوط. ولعلها "مِصداق".

قرب قلعة أولاد مُحَمَّد الصغير بالسراغنة، ثم لتملالت، ثم طويا مرحلتين في مرحلة فلم تحط رحالهم من ثمة حتى حطت بزاوية ولي الله سيدي عبد الله بن ساسي (1) بشاطئ وادي تانسيفت، فتخطيا دار نزول على غالب العادة وهي راس العين ببلد الرحامنة، وذلك لكون شهر رمضان أطل، ومن الزاوية المذكورة غلَّسا رحلتهما يوم السبت الذي هو متم مشعبان.

تمام قضية أهل مراكش مع عاملهم عند دخول السلطان

وخرج أهل مراكش بأشرافهم وأهل زواياهم، وصبيانهم بألواحهم، بعدما ذبحوا الذبائح بأبواب مدارس طلبة العلم الغرباء ليخرجوا معهم متشفعين، فخرجوا معهم وخرج الجميع آخر الليل للتلقي للسلطان قبل دخوله لاستعطافه، لما غمرهم وخامر قلوبهم من الخوف والرهب من غيظ السلطان عليهم، لاسيما حيث رجع وفدهم الذي وجهوا قبل ذلك بصحيفة الملتمس (2)، لكن وثبت عقارب الوشاة فغيرت الظنون وأفسدتها، وأوغرت القلوب وغيرتها //148 وأخوف ما يُخاف منه الأسود الخادرة عند غضبها، فأقرب ما يشتبه به غضبها غضب الملوك، ولكن مطلق الشبه، وإلا فالنسبة بعيدة، فغضب الأسود يُدفع بأدنى سبب، وبأيسر حيلة يحذر منها من العطب، وغضب الملوك لا يدفع بحيله ولا سبب، وما ينشأ عن لحظة واحدة من غضب الملوك لا ينشؤ عن غضب الأسود الخادرة مع توجهها للافتراس السنين الطوال.
ومما وثبت به عقارب الوشاة أن قدموا له ما أوغر صدره، مما لا أصل له، وليس بمعتاد بمراكش منذ بنيت، فإن المعروف المتعارف في أهل مراكش محبتهم للملوك من أول الزمان، ولا يخطر ببالهم معارضةٌ مَّا في جانبهم، وشكرُهم لإحسانهم (كذا)، ولم نعلم من الملوك من عرفهم بهذا الضابط حق المعرفه مثل مولانا عبد الرحمن بن هشام قدس الله روحه في نعيم الجنان، وبارك فيمن أقام مقامه الآن، وبسط كلتا يديه بالإحسان، ويعترف به ولا أعرف من يخالف هذا او يشك فيه، فلا زالوا يلهجون بالثناء والدعاء له على توسعة توسعوا بها مرارا، مما كان يصرف عليهم من سلع البحر المسماة بالصاكة، ومنهم من تُرِك له ثمن ما أخذ //149 إلى الآن، ولولا مانع التطويل الذي ليس هذا محله لسردنا قضايا من ذلك أخذناها عنهم وتحققنا بها التباعدَ بينهم وبين سائر الأمصار التي لا زال أهلها على غاية التوسع والسعة في خراجات بيت

---

1 عبد الله بن ساسي العزوزي السباعي، هو فقيه ومجاهد مغربي صوفي ينحذر من قبيلة أولاد أبي السباع وكان من بين المجاهدين الذين تصدوا للبرتغاليين عند احتلال ثغر أزمور سنة 1515م، وذلك إبان حكم السعديين، وقد دافع المسلمون عن إطلاق سراحه لما أسره النصارى. توفي ليلة الجمعة 26 شعبان سنة 961هـ.

2 وهي الصحيفة التي حملها المتلمّس خال الشاعر طرفة بن العبد وفيها أمر بقتله لكنه ألقاها ونجا فصارت تعبيرا اصطلاحيّا بلاغيّا يدلُّ على الشؤم، وأصبحت مثلا يضرب لمن يحمل رسالة فيها حتفه.

المال وإسداء الملوك لهم ذلك، ففرق كثيرا بين أهل مراكش وغيرهم مما يرجع لهذا المعنى، وبُعد بعيد فيما دبت به تلك العقارب حيث قدموا للسلطان أن أهل مراكش ملؤوا الجنات والحدائق التي اكتنفت منهم مرور السلطان مضمرين شرا، فلما توسط السلطان تلك البساتين والجنات رآى بها عددا كثيرا من الناس وهم يتحينون وقتا فيه فسحة يثبون فيها للمطارحة على وجه الصعيد أمامه، ويعفرون أذقانهم بالتراب خلفه وقدامه، يطلبون رضاه وعفوه وحلمه، فلم يكن بأسرع من رفع خبر آخر للسلطان أن طائفة من جهلة الأوباش وذوي العقول المخيفة من الصعاليك تعرضوا للعامل بأسلحتهم، منعوه المرور من بينهم، وهو متوجه لملاقاة السلطان قائلين له: لا تتقدم أمامنا، ومنعوه ذلك ظنا منهم، لجهلهم بمواقع الأمور، أنهم أصابوا، ويوافقون على 150// ذلك حيث وقع ونزل. ولما بلغ فعلهم السلطان واجتمع مع ما قبله ثارت نار الغضب فاشتاط غضبا وتحفز للوثبة عليهم، فأمر بتهيئة أسبابها ولو فعل لهلك من أصناف الناس وضعفائهم وصبيانهم ما لا يَنْعَدُّ، فجلهم يداس بالأرجل وحوافر الدواب، ولقد حضر من لطف الله ما لا ينضبط بحد، وكان من لطف الله أن أشار بعض الأقارب والحواشي، الذين لهم الاطلاع على صنع ذلك السلطان حتى اغتاظ، على أخيه وابن أبيه مولانا العباس بن مولانا عبد الرحمن، بتداركِ الأمر قبل إنفاذه، فانشال عن صهوة مركوبه وترجل أمامه يقبل ركبتيه وينحط تُجاهه يستعطفه. ففي الحين غلبت الشنشنة الأصلية، والطبيعة الغريزية، والأخلاق الهاشمية، فكظم غيظه في الحين، وعمل بما نزل على جده (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) وظهر فيهم صدق قولهم:

إن الكرام إذا ما استعطفوا عطفوا   والحر يعفو لمن بالذنب يعترف

فكظم قدس الله روحه، وأدخل عليه رَوحَه، وكف عن الوثوب، وتجاوز 151// عن الذنوب، وأعرض وصفح وعفا وحلم وسمح، وجاوز أصناف الناس داخلا للحضرة بدار الملك. وكان من جملة من تلقى للسلطان على العادة، محتسب مراكش ذلك الوقت مولاي أحمد بن عامر السباعي، لكنه منفرد عن العامل لميلانه لمن شاقَّه معتمِدا معتمَدَهم وظانا ظنهم، والحالة أن سؤر سَورة (1) الغضب السالف لا زالت منه بقية في قلب السلطان بسبب ما دُس إليه، فأمر بالقبض عليه ثمة خارج المصر وأدخل مسجونا، ودخل السلطان محله ومحل ملكه مصحوبا بالسلامة والعافية. فيا للمسلمين من غضب الملوك ما أعظم شأنه، وما أشد أمره وهوله، فإن المصيبة كل المصيبة ما يوجب غضبهم.

لقد دخل السلطان ولم يُؤذِ أحدا ولم يتوعد أحدا، وإن ذلك النهار مع شدة صحوه لقد ظل مظلما على الناس كلهم يخفضون أبصارهم فيرون الأرض أظلمت، ويرفعونها فيرون الجو مظلما كذلك، وظل الناس ذلك اليوم كله وباتوا ليلته في كرب شديد، وهمٍّ عتيد، لما رأوا غضب السلطان، فظل النهار مظلما والليل مظلما، فليس إلا الظلمة التي لا تشبهها 152// ظلمة، والحالة أن السلطان ما عاقب ولا صرح بإيعادٍ بعقوبة، فما بالك لو وقع شيء من ذلك.

---

1 السؤر: بقية الشيء. وسَوْرَةُ الغَضَبِ: شِدَّتُه.

وبعد حلوله محله بنحو ثلاثة أيام، أمر بالقبض على القاضي السيد مُحَّد بن عبد الواحد الفيلالي الدويري، فكان رأس الذين اجتمعوا بالمنشية وتوافقوا على تأخير العامل وتقديم غيره ممن يباشر الأمور حتى يقدم السلطان، بل ربما هو قطب رحاهم، وكل من اجتمع هناك على تأخير العامل لَمَّا رجعوا من مجتمعهم كل واحد لازمَ محلَّه حين سكنت الفتنة، سوى القاضي المذكور أطلق عنانه في التحزب على العامل غفله عما يلزم على ذلك ويترتب عليه، إذ المتحزب عليه في الحقيقة كلمةُ السلطان التي جَعل فيه لا هو، فالساعي في إهانته ساعٍ في سوم كلمة السلطان بالإهانة وهضم الجانب، وقد غفل القاضي، غفر الله له لِتأوُّلِه، عن عظيم خطر ذلك شرعا وعادة، فغلب عليه حب الظهور القاصم للظهور، فصار يغري ويحسن للعامة سوء فعلهم آخذا في ذلك بطرف من التشديد، ويبدي في ذلك ويعيد، ويستحسن فيه المزيد، فتوغل في ذلك بقدر 153// ما لديه، وذاك السبب في القبض عليه. وولي مكانه عبد السلام بن حمو الوزاني الآتي تمام أمره عند ابتداء نصر السلطان صاحب هذا البستان، وكان حينئذ العاملَ في المنشية السعيدة وعلى قبائل عدة من قبائل الدير وغيرهم القائدُ إبراهيم الأجراوي، وصيفُ الدار العلية بالله، وكان له في الولاية عمالة فخيمة، وله ثبات ورزانة عظيمة، وطالت مدة ولايته لأجل وصفه وسيرته، وكأنه اتُّهِم باستحسانه ما وقع بين أهل مراكش وعاملهم وجَهم (1) ذلك، وربما عزل وليم على ما هنالك، وبعد ذلك بأشهر توفي غفر الله لنا وله في سنة تسعين ومائتين وألف. وكان عامل مراكش الطالب أحمد بن داوود سبقه بالوفاة آخر سنة تسع وثمانين أو بعد تمامها، فتوفي غفر الله له بعد هذه الواقعة بنحو ثلاثة أشهر أو أربعة والله أعلم.

1 جَهِم ضَيْفَه: استقبله بوجه كريه.

الفصل الخامس في نصب الراية الخامسة لحاحا

فأقام الخليفة المؤيد بالله مولانا الحسن، الذي أكرمه الله بالخلق الحسن، مع والده السلطان بحاضرة مراكش //154 ستة أشهر وسبعة عشر يوما، فعقد له الراية الخامسة من رايات الخلافة لقبائل حاحا على ما يأتي بيانه إن شاء الله بحوله وقوته وهو المستعان.

الكتاب الثالث في ذكر الخلافة العظمى وإفضائها إليه وإلقائها زمامها بين يديه.

هذا ولما استقر هو ووالده السلطان بحاضرة مراكش راجعين بجيشهما بعد التقائهما والفراغ مما انعقدت له رايته الرابعة على ما تقدم ذكره مفصلا، وجه والده طائفة من جيشه لزجر فرق قبيلة مسفيوة على ما كان صدر بينهم وبين عاملهم حين أرادوا الهجوم عليه، ولما رأى منهم خليفته العزم على ذلك، جمع أهله ومتاعه وأفرغ لهم داريه، وفر هاربا هو ومن معه لمراكش، فحينئذن وجه السلطان تلك الطائفة من جيشه وبعض عمال الرحامنة وهو القائد مُحَمَّد بن بلَّ السلامي مع طائفة من إيالته، وكذلك عامل متوكة الحاج عمر المتوكي فرابطوهم //155 وحاصروهم وضيقوا بهم غاية، بعدما جرت بينهم جولات، ومضاربات والتحامات، ولما وقع بهم التضييق جاؤوا مهطعين فعفا عنهم السلطان وأدوا وظائفهم، وسجن العامل منهم عددا كثيرا من رؤسائهم وذوي شوكتهم.

وفي تلك المدة وجه السلطان خليفته المؤيد بالله صاحب هذا البستان مولانا الحسن بتلك الراية الخامسة التي هي خامسة رايات الخلافة في ثامن عشر ربيع النبوي عام تسعين ومائتين وألف بجيش عرمرم أكبر من الجيوش التي قبله، لأنه قد بلغ فيه أمله، فتوجه وسط تلك الجيوش يجرها بحر خميس (1) كأنه بينها بدر كمل بعد الهلال، وكأنها في تلك الراية الجسيمة براعة استهلال، قاصدا بها قبائل حاحا لإصلاح ما فتقوا، وجمع ما فرقوا، وترقيع ما مزقوا، حيث تعاونوا مع بعض جيرانهم على الحصار على دار عاملهم، حتى خرج منها طالبا لسلامة نفسه وعياله، وأخرج معه عددا كثيرا من رقيقه وأهله وماله، وحمل منها من الأمتعة ما قدر على حمله //156 وعامِلهم حينئذ القائد مُحَمَّد ولد الحاج عبد الله أوبيهي بعد وفاه أبيه، فبقيت قبائل حاحا بسبب ذلك فوضى لا رئيس لها، فتوجه إليها مولانا الخليفة إذ ذاك يجر بحر خميس فوق سابحة إلى أن حل وسط بلادهم، وخيم جيشه خلال ديارهم، فأخذ يبدل المقامات، ويحول الإقامات، بحسب التدبير والسياسات، مع ما يقابلهم به من الزواجر اللطيفة، والأوامر العفيفة، واستخراج ما عطلوا من زكاة وأعشار ووظيفة، وتلك القبائل في أثناء ذلك من جميع الفرق، حصل لهم غاية الدهش والفرق، وغلب فيهم الخوف على الرَّجا، متحيرين إلى أين المفر واللَّجا، فلم يروا حضنا يأويهم ينجون فيه من حيدرة، حتى صار التابع يقول للمتبوع أضللتمونا إضلال الفجرة، وتفرقت منهم الجموع، وتبرأ التابع من المتبوع، وبعدما كان البعض منهم حاصوا حيصة حمر الوحش هاربين، رجعوا وتراجعوا كأنهم موفَّقون لقول الحكمة: لا تُحاجِج من يذهلك خوفُه، ويُهلكك سيفُه، فرب حجة أتلفت مُهجة، وفرصة تؤدي إلى غُصة. وهو حفظه الله لا يتأثر لضجر ولا نصب، ومن رآه //157 امتلأ من الهيبة والرُّعب والرّهَب

---

1 شبه الخميس وهو الجيش العظيم بالبحر. قال البوصيري في بردته:

يجرّ بحر خميس فوق سابحة يرمي بموج من الأبطال ملتطم

وهذا الحدث نقله المؤرخ ابن زيدان في كتابه إتحاف أعلام الناس ج2 ص152 مصرحا بذلك، كما صرح بنقل آخر عنه في ج5 ص 435.

تكاد قِسيه من غير رام تُمكن في قلوبهم نبالا

تكاد سيوفه من غير سل تجد الى رقابهم انسلال

فلم ينزل على ما هو عليه من سياسة أمورهم، وتدبير شؤونهم، وفي كل يوم يجدد لهم من آرائه سديد رأي، "لَوْ اقْتَدَحَ بالنَّبْع لأَوْرَى"، (1) وذلك من نحو أربعة أشهر، فانقادوا كلهم إليه أفواجا من رئيس ومرؤوس وسوقي، وكل من جاءه يرجع ساكن الفؤاد قائلا: أبلعني مولانا الخليفةُ ريقي (2)، وقد تبوأ إذ ذاك الجيشُ من بلدهم البلدة المسماة بوريقى، فما هي إلا أن هجمت صروف الدهر التي تنقض مبرما وتبرم منقوضا، فللدهر كما قيل طعمان، حلو ومر، وللأيام صرفان عسر ويسر

إن الليالي في الزمان مراحل تطوى وتنشر عندها الأعمار

فقصارهن مع الهموم طويلة وطوالهن مع السرور قصار

تنبيه: قال الحكماء: "كل شيء يبدو صغيرا ثم يعظم ألا المصيبة فإنها تبدو عظيمة ثم تصغر"اه ويأتي قريبا إن شاء الله //158 مصداق هذه الحكمة وبيان اطرادها. ففي ثامن عشر رجب الفرد يوم الخميس وقت صلاة الظهر عام تسعين ومائتين وألف دُعِيت إلى رحمة الله روح سيدنا مُحَمَّد السلطان فلبت، وفي مستقر أرواح المؤمنين في ذلك اليوم استقرت، فعظمت إذا ذاك على المسلمين المصيبة، وما أدراك ما المصيبة، هجمت بجيوشها على كل حسب وحسبة

لقد كان في أمر الليالي وصرفها بصائر للمرء البصير إذا استهدى

فيا لها حينئذ من حادثة نزلت بالناس، عند هجوم ذلك البأس. قال السلف من الائمة الراسخين: إن هجوم الأوجال (3)، مما يزلزل أقدام الرجال، ولا يكاد يثبت له إلا رواسي الجبال.

أجل إنّها الأحداث تجري مدارة مقاليدها في قبضة الصمد الفرد

مقادير منه أبرمت عن مشيئةٍ قديما وعن علم محيط وعن قصد

---

1 هو مثل يضرب لمن يُوصَفُ بجَوْدَة رأي وحِذْقٌ بالأمور، يعني أنه مُؤتى له حتى لو قدح حصاة بنبع -وهو نوع من الشجر- لأروى له، وذلك ما لا يتأتى لأحد، وجعل النبع مثلا في قلة النار.

2 وذلك من رزانته كما كتب على هامش المخطوط. وقولهم "أبلِعني ريقي" معناه: أمهلني حتى أبلع ريقي. ومما يروى في ذلك أن أبا العبّاس أحمد بن سريج، وكان أحد المجتهدين على مذهب الإمام الشافعي، يقال له البازي الأشهب، مصنّفاته تزيد على أربعمائة، ينصر مذهب الشافعي، كان يناظر أبا بكر محمّد بن داوود الظاهري فقال له أبو بكر: أبلعني ريقي! فقال له : أبلعتك دجلة! وقال له يوما آخر: أمهلني ساعة! فقال: أمهلتك إلى قيام الساعة.

3 الأوجال: جمع وجل وهو الخوف والفزع.

وليست بما تهوى النفوس صروفها ولا حذرُ المحتال في صرفها يُجدي

ولما قدس طيب الله ثراه، وجعل الجنة مقره ومجراه، وذلك دون تقدم من مرض كاشح، ولا ظهور سقم واضح، ما لم يكن أسير ألم //159 لا يُعبأ به في الغالب، مما يغلب طروه عن المعدة. ولما أحس به استعمل له السنة من قوله ﷺ "عليكم بالمشي"، وحيث استعمل المشي ذهب ذلك الألم، فما بقي له أثر ولا سقم، فطفق في يوم عروج الروح، يروج ما يصلح من الأوامر التي تغدو وتروح، فلم يبرح إلى وقت القيلولة قضى لنومة القائلة ثيابها، وأمر بعض حظاياه بإيقاظه [إذا] كشطت الهاجرة إهابها، وذلك عند نداء الزوال للصلاة في أول وقتها على المعتاد خشية أن يُفيته النوم أولية المختار، فلما حضر الوقت الذي به أُمرت، امتثلت فنادت، وبالنداء تأدبت، وإذ لم تدر أن الروح خرجت، ولبرزخها عرجت، وبتكرير النداء وعدم الإفاقة ارتابت، فعمدت لتحريكه وهو عندها من الجفا، وحين حركته برح الخفا، فغشيها ما غشيها من الفزع، من غير شعورٍ من أجل الجزع، فجاء النعي في الحين لحاضرة مراكش التي هو بها، فأنشدهم لسان الحال:

وهل جولة الأحداث إلا صوائل بهندية مصقولة ونِبال

160//

وأيدي الرزايا ناقرات إذا انتقت فما أخذت غير النفيس بحال

إذا بيَّتت قوما فهمتها إلى نفيسِ نفوسٍ لا نفائسِ مال

ففزن بسلطان الورى الماهر الذي هو العَلم الملحوظ فوق جبال

فما كان العصر من ذلك اليوم حتى اجتمع العلماء وكبراء الدولة والأشراف وأعيان الحضرة وأشرافها بمسجده الذي كان يقيم به الخمس، المسمى بجامع الرملة، فامتلأ وامتلأ صحنه، وانعقدت البيعة حينئذ لمولانا المنصور بالله مولانا الحسن، وما النصر إلا من عند الله، وهو حينئذ بحاحا. فصغرت المصيبة التي كانت عظمت، فاطرد ما تقدم من قولهم كل شيء يبدو صغيرا ثم يكبر إلا المصيبة ... إلى آخر ما تقدم. فأسرع الناس إلى عقدها فرحا به ومحبة ورغبة، لا خوفا ولا رهبة، يُنشد منهم لسان الحال:

قلوبأ النهى ببابكم وقفت تحققت أنكم للخير مجتمع

الخير ذاتكم والحسن وجهكم والجود فيه أصلكم فليس ينقطع

وقد كان الفقيه الحاجب الوزير، من جُبل على صِدق //161 النصيحة وملك أزمة التدبير، السيد موسى بن أحمد رحمه الله، استظهر بعقد الوصية بالعهد له من أبيه، لكن لم يحتجها أحد لامتلاء قلوب القوم من محبته، حتى أنشده لسان محبتهم:

كأنك من كل النفوس مركب فأنت إلى كل النفوس حبيب

فإنه إذا ذاك إلى كل نفوس المسلمين حبيب لمكان الثبات والعفة والتؤدة وحسن السمت ومحبة معالي الأمور وبغض سفسافها، وذاك الإلف الطبيعي، فما برحنا من ذلك المجلس حتى كتبنا بخطوط أيدينا البيعة، وشُهدت على من لا يُحسن كتبها ممن حضرها. فبدأ القاضيان حينها الفقيه العلامة المشارك السيد مُحَّد بن المدني السراغني نجارا، (1) المراكشي دارا وقرارا، والقاضي السيد عبد السلام بن حمو الوزاني، بهما صدرنا في كتبها، وأمرنا بتقديم الشرفاء الحاضرين من أعمامه وإخوانه، ثم سائر من حضر من العلماء، ثم الإشهاد على غيرهم، ولكن أخبرت بعد ذلك أنها لما أريد وضعها في ورقه أخرى أحسن مما كُتِبت فيها، وليُنتَخَب كتبُها بأفضل من ذلك وتُذَهَّب، اختصرت، أخبرني كاتبها باختصار عدة //162 أسماء ممن وضع خطه وممن أشهد عليه. وكان مقيد هذا التأليف من أول من حضرها ووضع شهادته فيها، وما رأينا إلا راغبا في ذلك، ولم نر من كرهه. وما قيل من نزر طيش رُئي من بعض الأشراف من أقاربه ما رأيناه ولا رأينا ما يدل عليه.

فأصبحت حاضرة مراكش بعدما ذاقت حر الثكل، وغشيها الذهَل، كأنها لم تيتَم ولم تَيِم، زال عنها ما كان من الولَهان، وقرت العين وسكن البال أرض الاطمئنان، فتسلت واطمئنت، حيث خاطبها لسان القدر الواقع بالتعزية والتهنئة، وحصل بين السرور ما يضيق نطاق البيان فيه عن الوصف والكيفية، قائلا لها إن مولانا الحسن الذي ملك أزمة الملك الذي كان لوالده ما فُقد من خلَّفَه، ولا غاب من استخلفه.

هذا هو ابتداء صيرورة الإمامة العظمى للإمام الهمام المنصور بالله، المؤيد بتأييده، الموضوعُ في سيرته هذا التاريخ، سيدنا ومولانا الحسن، ولم نفترق من ذلك المِحفِل حتى سافرت المكاتب بحصول القضية الواقعة إلى حيث الإمام مقيم، كما سافرت بها لفاس ومكناسة الزيتون، فطارت أجنحة الشوق إليه والرجاء //163 بالمكاتب وخلفت الناس خلفها يتجرعون مرارة تلك المصيبة التي هي من أعظم المصائب.

تنبيه: نقل القسطلاني عمن قال ما حاصله: "إنكم لا تزالون بخير ما دمتم مهما مات أمير توافقتم على أمير وبايعتموه مكانه" وللقضية بعض حكاية، وضَلَّ عني الآن محل نقلها لأسوقها بلفظها، إذ سوقها به أحلى وأجلى.
عثرت والحمد لله على القضية بعينها ونصها في البخاري عن جابر بن عبد الله البجلي لما بعث إلى اليمن يدعوهم إلى الإسلام، ولقي رجلين من ملوك اليمن في رجوعه إلى المدينة، وهما ذو الكلاع وذو عمرو، فحدثهم عن رسول الله ﷺ، وأخبره ذو عمرو بقبض رسول الله ﷺ من طريق اطلاعه على كتبهم المتقدمة، فظهرت صحة ذلك واستخلاف أبي بكر، فقال ذو عمرو لجابر: يا جابر إن لك عليَّ لكرامة، وإني مخبرك أنكم معشر العرب لن تزالوا بخير ما كنتم إذا هلك أمير تأمَّرتم في آخرَ اه قال القسطلاني: أقمتم أميرا منكم عن رضا منكم أوعهد من الأول اه

1 النُّجَارُ : الأصلُ والحَسَبُ

ولما بلغته تلك المكاتب الجامعة بين متضادين، تعزية وتهنئة، وعلم ما تضمنته 164// لما وُضعت لديه، عظمت فجأة المصيبة وسُقِط بيديه، لما تقدم من هجوم الأوجال، مما يزلزل أقدام الرجال، فبات يُغضي عينيه على القَذى (1)، وقلبه يتقلب بين مرارة ذا وذا، وثقلِ حَملِ أعباءِ ذا، ويتجرع ريقه على الشجا، فما نفعه إلا التأييد من الله بالعلم والحجا، لكونه وَسِمه أمرا أمرَّ من طعم العلقم، وأسقم للقلب من كل سقم، وهو ما اعتراه من فراق والده وفقده، واستقلاله بأعظم الأمور من بعده، فباتت عيناه بمصابه ومصاب المسلمين بدموع الرحمة تذرفان، وبات فؤاده تنشد فيه هذان البيتان:

فالله لو اسطِع لقاسمته الردى   فمتنا جميعا أو يقاسمني عمري

ولكنما أرواحنا ملك غيرنا   فمالي في نفسي ولا فيه من أمري

ومع هذا لم يَخْفَ على شريف علمه، ولطيف فهمه، أن ذاك موردٌ مصير الأولين والآخرين إليه، ومشرب لابد لكل أحد من الورود عليه، وباب يدخله الداني والقاصي، وكأس يشرب بها المطيع والعاصي، فما ينفع إلا الإذعان لمقدوره ومحتومه، والصبر عند نزوله ولزومه، فالعمر وإن طال فمآله إلى الانصرام، والشمل وإن انتظم 165// فلابد أن تفرقه الأيام، فبلغه ونعي والده وتقديسه، ونصره هو وتقديمه، يوم السبت أو الأحد تمام عشرين أو واحد وعشرين من رجب الفرد عام تسعين ومائتين وألف. فنقض حينئذ عزيمته، وطوى قبابه وأخبيته، ونهض بجيشه، مع ربط جأشه، موجها وجهته لمراكش حتى حل بها كنزول الغيث، المحتاج إليه بعد الإبطاء والريث، في سابع وعشرين رجب فقطع المسافة التي بين حاحا ومراكش في خمسة أيام أو ستة.

تنبيه: تقدم قريبا أن شجاعة الملوك شدة الثبات وربط الجأش بحيث لا تفجعهم المصائب، ولا تستفزهم النوائب، لا بالإقدام في المعارك والكر في المكافحة، إذ ذاك تهور وطيش في جانبهم. وإذا تمهد هذا فقد تبين في هذه المصيبة من ربط جأشه ما يدل على شجاعته، كيف ولما بلغه النعي وهو في حال اشتداد وطأةٍ بتأديب القبائل الكثيرة في خِللها، وبين حِللها، وفي شواهق جبالها، والطائفة التي معه لا معول عنده على رجالها، ومع ذلك لم يكتم الأمر، بل أفشاه وأشاعه وأذاعه، ونادى بالإعلان بالترحم على والده، وإشادة بيعته 166// فهذه من جملة ما وعدنا به فيما تقدم، ولم يترك الجرح يرم على الفساد

إذا ما الجرح رم على فساد   تبين فيه تفريط الطبيب

فانظر واعتبر لهذا الثبات وقوة القلب، واعرف لذلك حقه وكرم الله على المسلمين فيه.

ومن أفراد حدة ذهنه، وذكاء عقله، وكونه لا يؤثر في نور عقله رخاء ولا شدة، ولكل أمر عنده في الحالتين عَتاد وعُدَّة، أن الطرق المنتهجة للسويرة وحاحا معلومة شهيرة أي اشتهار، منذ قرون وأعصار، ولما مر بها ذهابا وإيابا مرة واحدة

---

1 أَغضَى عينًا على قذًى: صبَرَ على أَذًى.

تفطن لبعض انحراف في بعضها لزم منه تطويل مَّا، وذلك فيما بين وادي شوشاوة وسيدي المختار ببلد أولاد أبي السباع، ولما رجع من حاحا ووصل ذلك المحل نَكَّب (1) محل الانحراف الذي لم يتفطن له غيره، فأمر بعض أهل البلد بالمسير أمامه بإشارته هو، وذلك في شعب بلغت من الحزونة والحروشة شيئا كثيرا، والخشونة بحيث لا يهتدي أحد فيها إلى إمرار السبيل منها، فاستقام في مسيره فيها تُجاه قصده إلى وادي شوشاوة، فسهل الله إحداث تلك الطريق فجعلها مرورُه بجيشه طريقا //167 واضحا نافذا نكَّب الناس على انتهاجه الآن، ولم يزل مسلوكا إلى الآن لاختصاره ونفوذه، ومسمى عندهم الآن بطريق مولاي الحسن، مع كون تلك الشعاب قبل ذلك ربما تضل فيها الغزال بل ربما القطا. فليُنظَر لهذه الفطنة وحدة الذكاء في ذلك الوقت الذي استولى فيه من موجبات هول العقل ما يكاد يُذهِل حتى عن النهج المنتَهَج، تبارك الله وبارك، وبحسن العافية وتمام السلامة والعافية والعناية تدارك.

هذا وقد تلقاه أعيان أهل مراكش من أشرافٍ وعلماءَ ورؤساءَ وقضاة قبل وصوله للبلدة المسماة بالحوز، ولما وصلوا جيشه وتهيؤوا للتمثل أمامه، استؤذن عليهم فأُذن لهم فعزّوا وهنّوا وجُوزُوا على الاعتناء والقيام بالواجب ودعا لهم وللمسلمين بما تطيب به النفس، فاستؤذن على القاضي ابن المدني السراغني بالملاقاة فتلاقى بالسلطان ثمة، وأخبرني بعد ذلك بقوله، قال لي: إني أديت للسلطان ما وجب علي من النصيحة بأن خاطبته بقولي: أسيدنا إن أهل مراكش وحوزها بادروا لسد هذه الثلمة //168 وشد طُرق هذه المُلِمَّة، بالبيعة لكم غبطة وفرحا، ممتلئة صدورهم بها سرورا وانشراحا، وإنما رأس الحية والشجاع الأقرع ذي الزَّبيبتَين الثَّوَّار، هو الغرب وما فيه من الأمصار اهـ وقد كان يَظهَر مصداق قوله رحمه الله لولا حسن التدارك كما يأتي بعض الإشارة إليه قريبا إن شاء الله.

ولما جاوز نصره الله بجيشه وادي النفيس، قدم زيارة ولي الله مولانا عبد الله بن حسين، وسيدي أبي إبراهيم بقرية تمصلوحت، ودخل بمحل كرسي ملكه بمراكش صبيحة يوم السبت السابع والعشرين من رجب، فتلقاه من بقي من الكبراء وكبراء الدولة الوزيرُ الناصح ابن الناصح الفقيه السيد موسى ومن معه، كالوزير الفقيه الصفار الذي كان منفردا بالوزارة مع جده مولانا عبد الرحمن إلى أن قدس، ومن معهما من الأعيان خارج المدينة بقرب منها بجواد والده وفصيله تيمنا وإشارة، فركبه ثمة، وخرج الناس كبيرا وصغيرا، وهم أحب وأكثر نفيرا، لزيارته وملاقاته، وسرورا وحبورا بموافاته، ولولا مراعاة الأدب مع جده ﷺ لتناشدوا نحو "طلع البدر علينا" //169

رَجْعٌ: ولما قُدِّس سيدي مُحَّد السلطان رحمه الله وكان ما تقدم من أمر بيعته، وبقي بالمسجد العلماءُ وبعض الأعيان وأعيان الدائرة إلى أن أدبر النهار قبيل الاصفرار، خرج علينا وصيف صغير من باب الدار العلية بالله المتصل بالمسجد فقال للوزير السيد موسى: إن أهل الدار يقولون: يدفن سيدنا الآن، مراعين في ذلك كونه توفي رحمه الله في طالعة النهار والزمان زمان قيظ، فأجابهم بقوله: الآن تفرق جل الناس وضاق الوقت وغدا صبيحة الجمعة ويجتمع الناس والطلبة وأهل

---

1 نَكَّبَ عنه: عدَل وتنحَّى.

الخير للتشييع وحضور الدفن، فرجع الوصيف فقدم رأي أهل الدار، فما باتوا حتى بيتوه في روضته ليلة الجمعة بعد العشاء، فصبَّحنا مع الناس روضته في مقام جده مولانا علي الشريف في جم غفير لقراءة القرآن ودلائل الخيرات والابتهال والتضرع بالدعاء، وأعيد ذلك اليومَ الثانيَ والثالثَ حتى تضيقَ تلك المواضع عن الناس، وفي اليوم الثالث أنشِدت المراثي //170 منها واحدة للحاج إدريس ابن الفقيه الوزير الأديب مُحَّد بن إدريس، وأخرى للفقيه الحاج مُحَّد الأمين الصحراوي، وأخرى أنشأها العُبَيْدُ وما درى أن المراثي تنشد تلك الصبيحة فتأخرت لذلك، وكنت ارتكبت فيها جعل غالبها الشطر الأول من البيت تعزية والشطر تهنئة. وفي اليوم الثالث جاء أمناء بيت المال بمال له بال ففرق على من حضر مع كثرته فنفذ، ورجع الأمناء مسرعين لبيت المال فجاؤوا بمال آخر كذلك.

ولما خرجنا من القبة في اليوم الثالث تلقاني البركة صهرنا الفقيه النجيب الحاذق العاقل البيب الإمام الخطيب السيد عبد الوهاب أجانا رحمه الله، ومال بي عن محل ازدحام الناس فقال لي: يا فلان، من بينك وبينه عداوة أو شحناء؟ فقلت له: لا أعلمه ولا أعلم لذلك سببا مع أحد الآن. فقال لي: اعلم أن الاشتغال بك الواصل لدار المخزن شديد، ومع شدته أمر أكيد، فاستفهمته فقال: هذا القدر هو الذي بلغني، فقلت له: لا أعلم أحدا يتوجه إليه فهمي أو يسري إليه وَسْمي ما لم يكن عامل أولاد أبي السباع //171 ومتوكة ودويران، وكنت ابتداء حلولي بمراكش أصانعهم بالمواصلة فقطعتهم، وتحزبوا سابقا على إيصال الأذى وسكن ذلك، وغيرهم لا أعلمه ولا أتوهمه، والآن أخبرني بما سمعت، فقال: لم يبلغني غير هذا، فقلت له: وممن بلغك لأفهمَ المنحى؟ فقال لا حاجة لذكره، ففهمت أن القائل له أخوه السيد الهاشمي، ثم قلت له: يُهوِّن عندي ما روَّع خلدي ما بلَغَتْهُ فراستي ومشاهدتي من شدة تثبت السلطان وعدم اعتباره ما اعتاده العمال وغيرهم من إرادة الظهور والنصيحة وروم التقرب بذلك، وزدته أن قلت له: لا إله إلا الله، هذا مما يدخل تحت قول العلماء: "الجمود على النقول من غير مراعاة الأعراف وتقلب الأحوال ضلال"، فقال لي: كيف؟ فقلت له: أنت أشد الناس علما بحالي واتصالا بجانبي، وأعلم بحالي وأحوالي، لكني جمدتُ على قولهم: طريق السلامة العزلة، وها هي لم تفدني، فضحك، وافترقنا.

فأخرت المرثية حتى حل السلطان بمراكش فرفعتها //172 لحضرته الشريفة على يد السيد عبد الله بن أحمد ، والوزير السيد موسى بن أحمد رحم الله الجميع، فلم تُنتج ولم تُجز، فغلب على فهمي أن الأشغال المتراكمة واشتغال القلوب هو السبب في عدم معاملتها معاملة صاحبتيها، إذ هما تقدمتا وهي تأخرت، وأيضا عادة واحد من المنشئين السابقين الإلحاح حتى يستخرج مطلوبه ولو مع الاشتغال عنه، فحصل التأسي بذلك الفهم ثم بحثت عن طريق أعلم لها من وَشَى، وكيفية القول الذي (...)(1)، فما اهتديت لشيء من ذلك الأثر، ولا وقفت منه على نقل ولا خبر، فغلب على الظن أنه لم يكن، حتى ظهر ما يصدق قول الفقيه المذكور، بعد سنين وشهور، ونص المرثية التي أنشأت إذ ذاك، وأما ما أنشأه غيري فلم يقع في يدي وإلا لنقلته لاقتضاء المقام ذلك:

1 كلمة غير واضحة لعلها "نشأ" والله أعلم.

فلله قرص شمس غَيَّبه الثرى وعَقَّب شمسا لا تشبِّه بها بدرا
فوا عجبا شمس تغيب لدى وأعجب منه أنها ولجت قبرا
ويا عجبا شمس تغيب ونورها كأن لم تَغِب وفاخَر الصبحَ والفجرا
مغيب دهى منا القلوبَ فأظلمت ولكن بُعَيده بشائرُنا تترا

173//

مَغِيبٌ كسى الإسلامَ والدين ذِلة وبالقُرب منه صار ذُلُّها نصرا
مَغِيبٌ رَمانَا بالذي لا نطيقه وبالإثر منه جاء ما أثلج الصدرا
فعند المغيب استحكم البأس شدة وجاء بحمد الله ما أذهب الهُجرا
فكادت تَفِيض النفسُ مِمَّا تَحملَت ولكن لُطف الله قد بَهر الفِكرا
وإذْ بَلَغ السيلُ الزُّبَى وتحكَّمت شدائدُنا صار العسيرُ لنا يسرا
بفقدٍ لِشَمسِنا اكتسى الجَو ظُلمة أزال شروقٌ بعدها ذلك الحِجرا
بفقد إمام الدين جَلَّ مُصابُنا وأجلى طُلوعُ شِبله الضَّيمَ والقَهرا
فيا لإمام العِز يا لفَخَاره ويا لشموس المجد أُدخِلَت القَبرا
ويا أسفا لمجدٍ قد هُدَّ رُكنُه ولكن فضلَ الله قد جَبر الكَسرا
ويا عُظمةُ خَطبٌ أصاب جميعَنا كأبنائِه البدور ما وَجدوا صبرا
وكُل أخ صِنوٍ لَه جَلَّ حُزنُه وضاعفَ وجدَه الذي أعوزَ الصَّبرا
إمامُ الهدى فخْرُ السلاطين إذْ غَدا مُجاورَ جَده بروضته الخضرا
هِشامِيُّنا محمدٌ خيرُ من بنَى مَحامدَ في الدنيا وعَليَاء في الأخرى
عليه مُفاضُ الدمع في رجب جَرى به "حيض رش" (1) وفي غيره إجْرا
ويومَ نَعى الناعون طلعةَ وجهِه أهلَّ المنادي قائلا لكم البشرى

174//

بطلعة شِبله ونجلِهم الرِّضى أدِيموا لِمن أولى بطلعَته شُكرا
سَمِي لِسِبط المصطفى وسليلِه له حَسَن اسما وفعلا ولا هُجرا

---

1 حيض رش: كتبت في المخطوط بلون أحمر وفوقها أرقام تدل على أنها وُضِعت لحساب الجمل تأريخا لسنة وفاة السلطان مُحَمَّد بن عبد الرحمن. وقد نقلنا العبارة كما هي واضحة ولكن جمعها لا يعطي 1290 هـ

أسيدَنا الإمامَ يا حسنٌ عَلا | على خلفاء العصر أصدِق به خُبرا
لكم في رسول الله إسْوة بعدَه | كما لكم الهناءُ يا عِزَّه نُصرا
ألا إنها الأحداثُ تجري مُدارَة | فما مات من أخلفتُموه كَما يُدرا
فَليْسَت بما تهوى النفوسُ صروفُها | حَباكَ إلاهُنا أبا علي صَبرا
فقد باتَتَّ الأسى على فَقدِ والد | وأصبح مَجدُكم حوى البَدو
مقاديرُ منه أُبرِمَت على مَشيئَة | بحزنٍ وأفراحٍ بها جَبَر الكسرا
أصابَت سُويداء القلوبِ بسهمها | وأعقبَها ما أبعدَ البأسَ والضُّرَّا
سقى الله رَمسَه سَحائبَ رحمة | وأصلَح دنيانا بنجلِه والأخرى
وأسكنَه من جنة الخُلد ما عَلا | وخَوَّله الرضا ونعمتَه الكبرى
تسلَّ أبا علي حُضَّ على الرِّضى | أقاربَ كنت لِكلهم ذُخرا
أقاربَ من أخ وعم وإلفة | رَجَوكُم لِخَطبِهم كمن بُوِّئتَ خِدْرا
فلستَ ترى إلا مُحِبا ومادحا | كلهم في المجد قد وَطئوا النَّسرا
وكُلُّهم شمُّ الأُنوفِ عن الأذى | ويأنف أن يَنال ذُلا ولا صغرا

175//

رَجَوكُم كما رَجوا أباهُم عِنايةً | لا يَرقُبوا منكم جَفاء ولا نفْرا
تَصبَّر على بَيْنٍ أبانَ اصطبارَنا | ويَهنَاكَ مُلكٌ شامخٌ بَلَغ الخَضْرا
تَصبَّر لأعلام شوامخَ سُيِّرت | بما عوَّض المولى ولا تحتمل إصرا
فإن مَسيرَها أذابَ حُشاشةً | ولكن ما أُولِيتَ أعظِم به قَدرا
تَسلَّ وسَلِّ عن مصيبة قد أَتَت | لِما قد مُنِحت من مَحامِدَ لا تُمْرا
فإنْ طَلَبَ الملوكُ نَيلَ مناصبٍ | لقد طلبَتكُم المناصبُ والذِّكرى
مَقامٌ عَلت أقدارُه وتتابَعَت | مَكارِمُه وشَنَّف البَرَّ والبَحرا
هَنيئا لحَوزِنا وسُوس وحَوزه | وبشرى لكم يا أهلَ مُراكشَ الحَمرا
وبُشرى لكم يا أهلَ فاس وغربها | وأعلامِها مِن طالب وذوي إقْرا
إمامٌ همامٌ ناشِئٌ في شَبابِه | صعابُ خطوبِ الدهرِ ذَلَّلَها قَسْرا
فليس له إلا المكارِمِ مَذهَبا | فَحَدِّث بها مِن غيرِ رَيب ولا إطرا

فَصُنهُ إلاهَنا وسَدِّدْ شُؤونَه وسَهِّل أُمورَه وبارك له العُمرا

ومُدَّ جيوشَه بنصر مُؤيّد يَمُدُّ على الإسلام مِن عِزه فخرا

انتهت المرثية والتهنئة، وتقدم أنها لم يُسلَك بها مسلك نظيرتيها. قلتُ إذا ذاك ولم أزل إلى منتهى الحياة، فإن كان الذي عاقها عن الإعمال، إنما هو نسيانها من الوزير بتراكم الأشغال، لقد أعملت وأي إعمال، بمجازة النية التي هي //176 خير من العمل، وإن كان لِتَوَسُّمِ جريمة وَشَى بها واشٍ فإني أنشد لنفسي خطابا لسيادة السيادة:

لئن مَجَّدتُك ما أَولَيتَ من نِقَم إني لفي اللُّؤمِ أمضى مِنك في الكَرم

وأقول أيضا: وإني لفي الجهل أمضى منك في العلم. وأُنشِد لسيادته:

يا سيفَ نَصري والمهند يانعٌ وربيعَ أرضِي والسحابُ مُصاف

أخلاقُك الغُر النَّميرة مالَها حَمَلَت قذى الواشين وهي سُلاف

والإفك في مرآة رأيِه مَا له يَخفَى وأنت الجَوهر الشَّفاف

كيف وأنا الفقير إلى طاعتكم التي لا طاعة لله إلا بها ظاهرا وباطنا، ولا طاعة بدون أحدهما، وأنتم الأغنياء عن طاعتي كل الغناء، وكل واش من ثم إلى الآن [لو] (1) لم يكن إلا تسجيل الحق عليه بالفسق لكان في غلط اهـ وإني سائل من معدن الحلم الإغضاء والصفح عما جرى من ذكر هذا، إذ الحديث شجون، ويجر إلى فنون.

ولما حل السلطان مولاي الحسن بحاضرة مراكش أقام بها يصلح شؤونه تهيئة للنهوض للغرب شهرا واحدا //177 وستة أيام، لأنه حل بها سابع عشر رجب، ونهض منها يوم الإثنين رابع رمضان.

إذا هَمَّ ألقى بين عينيه عزمَهُ ونَكَّبَ عن ذكر العواقب جانبا

ولما أزمع النهوض حدث بعض طيش من الرحامنة يريدون تبديل بعض عمالهم لا غير، كما هي العادة التي كانت جارية في قبائل الحوز إن نقموا من العمال ما نقموا ثاروا لأجل أن يبدل لهم، ووجه إليهم الفقيه السيد عبد الله بن أحمد وزير الحرب إذ ذاك، وأخو الوزير الأعظم لينتهوا فلم يقع منهم تمام الانتهاء، فأعرض عن أمرهم السلطان وأضرب عنهم صفحا، وكذلك بعد نهوضه، ووقع مثل ذلك من أولاد أبي السباع مع عاملهم لما رجعه السلطان إليهم هو وصاحبه المتوكي، وكان في رجوعهما تسعير لطيشهم، وكانت القبائل غالب عادتها إذا أضر بهم العمال خرجوا عن أمرهم ليستبدلوا غيرهم، والغالب إذا صدر منهم ذلك استُبدلوا غيرَهم. وكان السلطان مولانا الحسن قبل استقلاله بالأمر لا يرضى ذلك

---

1 إضافة يقتضيها السياق.

ويراه مما يزيد العامة إغراء على الطيش والجراءة حتى على الملك، لأن ذلك أدى إلى كون العامة //178 هي التي تولي وتعزل، وجعلت القضاء فيه لأنفُسِها عدلت أم لم تعدل.

فلما ألقت إليه الإمامة الزمام، ومنحه الله سعادة الأيام، وأناخت راحلتها ببابه السيادة، كان من جملة ما همَّ عليه إبطال تلك العادة، لأنها إن لم تنحسم مادتها ترامت للزيادة، وبسبب ذلك أعرض عن طيشهم وطوى عليه كشحا، وأضرب عنه حينئذ صفحا، إذ المقصود أمام، والأهم المقدم، وكان أعز الله أوامره عند تأهبه للنهوض عزل القاضي السيد عبد السلام الوزاني وأمره بالخروج مع الجيش، لأن السلطان المقدس إنما كان أمره بالفصل بين الخصوم بمراكش حيث نقله معه من الغرب لأمر مَّا، وصادف ذلك عزلَ القاضي ابن عبد الواحد كما تقدم شرحه، فرأى سلطان المؤيد بالله نقله من مراكش واستيطانه بفاس، واقتضت السياسة إذ ذاك الإعراض عما ذُكر من طيش من ذُكر والتغافلَ عنه والتغابي، لكمال سيادته، ووفور سياسته.

ليس الغبي بسيد في قومه لكن سيد قومه المتغابي

فالعامل الذي نقم عليه الرحامنة القائد مُحَّد بن بلّ السلامي راجين //177 إزالته بإثر ثورانهم، وعامل أولاد أبي السباع القائد عبد الله بن بلعيد، فالأول أشخصه حينئذ السلطان مع الجيش، والثاني أمره بالرجوع هو وعامل متوكة كما تقدم، وكان رجعهما سببا لازدياد الطيش، وبه دام حتى كان فيه حتفهم كما يأتي شرحه في محله إن شاء الله.

فتوجهت للغرب رايته وألويته وأعلامه، وانتشرت بين يديه سياسته وقضاؤه وأحكامه، وجعل أهم نظره حال ظعنه منقسما إلى نظرين، ودائرا بين أمرين، فللجيش بحسن التأييد، ولما وقع عليه من الرعايا بنظر التمهيد، حتى طالت مدة السفر بسبب ما ذكر إلى أن بلغت فيما بين مراكش وفاس ستة أشهر ويومين، لما تقدم أنه ظعن من مراكش رابع رمضان من عام 1290 وحل بحاضرة فاس سادس ربيع النبوي عام واحد وتسعين ومائتين وألف. وكأنه نصره الله سبق إلى خلده ما يقابله به أهل فاس فأطال السفر في تمهيد من عداهم بدوا وحضرا، وأرخى لهم العنان كي يتراجعوا فيرجعوا لئلا يوقع بهم ضررا، ولسان الحال ينشده في تمهله

على مهل ففي الأحوال رَيث أتخشى أن تُضام وأنت لَيث

//180 وكانوا قد ثارت منهم طائفة كبيرة، مخصوصة شهيرة، وليس من الجاه أو القوة أو مبالات الناس بهم إلا ثوران الفتن، وهي طائفة الدباغين حرفة وما ينضاف إليهم، وصالت على دار الأمين، كبير الأمناء حينئذ فيما يرجع لمستفادات بيت المال وتأمين أمناء الثغور وغير ذلك،وله من الملاحظة السلطانية شيء كبير، فصار مهابا جدا عند العام والخاص لكون السلطان سيدي مُحَّد جعل ما ذكر مقصورا عليه، وأمره راجعا إليه، فأدرك أموالا كثيرة، ورفاهية كبيرة، ووجاهة غير صغيرة، لا نعلم في عصرنا هذا من شابهه في ذلك أو قاربه من جميع من ولي خطة من الخطط السلطانية في الدثر وكثرة

الوفر ومراعاة الناس رؤساء وغيرهم لجانبه، وتيسير نيل مطالبه، إلا دار واحد (1) بمراكش الآن في هذا التاريخ أدرك فوق ذلك بل أربى عليه ونافه بأضعاف مضاعفة، لأن فيض خير الملوك دائما جارٍ، حتى اختص بضرب هذا المثل الجاري، وهو قولهم "أَمْرَعَ وَادِيهِ وَأَجْنَى حُلَّبُهُ" يُضرب لمن اتسع أمره غاية واستغنى فوق النهاية، والمعين مبتدع، وكان أخبرني مدة //181 مقامي بفاس بعد الواقعة بيسير مخبر صدوق جدا ممن له بأحوال الأمين ابن المدني بنيس المَصولِ عليه غايةُ الاطلاع والمخالطة، أنه قبل تلك الواقعة بمدة أخذ صندوقين كبيرين جدا وملأهما نقدا ذهبا فيما بين السكة المسماة باللويز والسكة المسماة بالضّبّلُون، ، وعمد إلى المحل المعروف في عرف الناس في صدور البيوت بالبهو (2) وجعلهما فيه وأبطل البهوَ بإجراء الحائط على مادة البيت، فصار البيت بدونه، وأجرى الجِبْسَ على الحائط جميعه فبقي ذلك كذلك حتى صالت تلك الطائفة على داره بقصد قتله فلم يجدوه فيها، إذ كان تلك الساعة بحمام سيدي عباد بقرب داره، فأجاره الحَمَّام من الحِمَام (3). فانتهبوا داره في سويعة قليلة أي انتهاب، حتى إنهم سلبوا عياله من الثياب، وظهر في ذلك عَجَب العُجَاب (4) يأتي الواحد منهم فيزيل بيديه المصراعين وموجف الأبواب، مع شدة إحكامها فتصير تحت يدي المزيل كأنها إهاب، أو كأنها ممسكة بالعجين لا بالحديد والجير والتراب، وشوهد الواحد منهم يعمِد إلى شبابيك الحديد //182 الكبيرة جدا الموثقة أي توثيق فيهزها بيديه ويقلعها من محلها ويخرج بها أو بالباب، ويخرج بذلك حاملا له وحده، فإذا وضعه بالمحل الذي قصده عجز عن حمله بعد ذلك ولو أُعِينَ عليه، وهكذا حتى لم يبق من الدار سوى حيطانها في أقرب مدة، وما تفطن أحد لما بداخل البهو، ورجعوا بعد ذلك وحفروا مواضع الدار كلها ولم يهتدوا لذلك، وحيث هجموا على الدار جاءه النذير العريان (5) كما في المثل، وهو عريان، فاختفى بين الظروف المُعَدَّة للاغتسال في الحمام في بيت صغير مُعَد لوضعها، حتى أيس الصائلون من وجوده، فتخلص لمقام مولانا إدريس ﷺ واحترم به، ولما علموا به بعد ذلك فمن الناس من تلصص عليه فيه لولا أنه مُنِع منه. وانظر إلى غيرة الله على أوليائه، فالمصيبة التي نزلت بالأمين بنيس غيرة من الله على مولانا إدريس وعباد الله، وكذلك الذين تلصصوا عليه في الحرم أُخِذوا من حيث لا

1 على هامش المخطوط بخط مخالف ما نصه: هذا الرجل الفرد هو المحتسب مولاي عبد الله البوكيلي الذي كان بمراكش مكلفا بجميع مداخيل البلد. اهـ بلفظه.

واسم أبيه إبراهيم، فهو عبد الله بن إبراهيم البوكيلي.

2 كتب على هامش المخطوط: والبهو هكذا في نفح الطيب مكررا اهـ مؤلف.

3 الحِمَام: الموت.

4كذا في المخطوط بالألف واللام.

5 مثلٌ سائرٌ يُضرب لشدة الأمر ودنو المحذور، وبراءة المحذِّر عن التهمة، وأصله: أن الرجل إذا رأى العدو وقد هجمت على قومه، وأرادت أن تفاجئهم، وكان يخشى لحوقهم عند لحوقه تجرد عن ثوبه، وجعله على سائر خشبة وصاح؛ ليأخذوا حذرهم ويستعدوا قبل لحوقهم. اهـ من تحفة الأحوذي.

يشعرون عن قريب، غيرة أيضا من الله على أوليائه، فأخذوا أخذة ربانية أخذ المقتدر بثأره، وأخذ بنيس بهتك أستاره، وأوحى الله //183 بالإلهام والتوفيق إلى ضمير السلطان المؤيد المنصور بالله بأنْ عَلِم عِلمَ يقين أن ذلك الواقع غيرةٌ من الله، وبذلك أعرض إعراضا كليا عن المؤاخذة به رأسا كأنَّ واقعته غير واقعة، وأدرَجَها في الظاهر في سَفَط (1) حلمه الذي هو هجيراه على الفاعلين وغيرهم. وزاد رحمه الله على ما أُوحِي به لضميره (2) ما عنده من العلم اليقيني أن حقا على الله بمقتضى حكمته، ومعتاد مشيئته وقدرته، أن لا يرفع أحدا وينسى نعمته التي بها رفعه، أو تكبر وتجبر إلا صغَّره ووضعه.

ومما وقع أن الشريف العَقول، العلامة الجامع بين المنقول والمعقول، الحافظ القاضي مولاي مُحَّد بن عبد الرحمن العلوي قاضي فاس ذلك الوقت، بالغ في نصيحته، ومن مولاي مُحَّد سُمِعَت، وذلك ليقضي الله أمرا كان مفعولا. كما أني أُعلِمت علم يقين أن الأمين الآخر العَكُّوز بنيس قدم لديه لمحل جلوسه وثنى ركبتيه أمامه متأدبا في خطابه وأفرغ جهده في النصيحة وافَقَ مولاي مُحَّد في أن الملوكَ المقدمُ //184 عندهم من تجيء السكينة على أثره، لا من تثار عليه الفتنة ويَغلُب شره على خيره، وهذا وقتٌ العاقلُ فيه من يبذل جهده أو يُنفِذ من المال ما عنده لطلب الهدنة، هذا وافقَ فيه العكّوز بنيس مولاي مُحَّد وكأنَّه بإشارته، وزاد على يديه حتى أفرغ من النصيحة ما لديه، فسكت ينتظر الجواب، فلم يكن جوابه له سوى أخذه لزربي صغيرة كانت مفروشة بإزائه وطواها طي السجل الكتاب، فقام فقام وجلس عليها مطوية فقال له: كَانْ كَاتْشُوفْ هَكذا عندي فاس، يعني هكذا فعلتُ لها، فانقطع العكّوز عن مراجعته وقام اهـ ومن جملة ما نُصِح به: أما تعلم أن الملوك مع ما خوَّلهم الله من السطوة أكثر أمورهم السياسة والحذر واتقاء مواضع الفتن اهـ وليس من هذا يتعجب لأنه ليس بأول من غره الجاه والمال، ونسي سطوة الكبير القهار المتعال، فأحق بالتعجب منه فطنة السلطان لذلك، وسرعة إلهامه السير في ما هنالك، مع كونه لم يره ولا قص عليه أحد خبره، أي خبر السر الباطني، ولهذا ما أخذ له ثأرَه، بل أهدره لكونه //185 نصره الله علم أنه أصيب بعدم شكر النعم، قال جده مولانا علي كرم الله وجهه: إذا وصلت إليكم أطراف النعم فلا تنفروا أقصاها بقلة الشكر. قالوا معناه: من لم يشكر النعم الحاصلة لديه والواصلة إليه حُرِم النعم الفائتة منه القاصية عنه، وربما سلب التي عليه، المستقرة لديه، وهو مأخذ "من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها". قال بعض أئمتنا: مما قرره المفسرون: قد وعظنا الله تعالى في الكتاب، بكل ما هو خير وصواب، ونهانا عن كل ما يؤدي إلى هلاك وتباب. وقال بعض المفسرين عند قوله تعالى (ولم يجعلني جبارا شقيا) ما نصه: الجبار هو الذي لا يُنصح، والشقي هو الذي لا يقبل النصيحة. اهـ فمن ذلك الوقت نُبِذت رياسة ابن المدني بنيس بالعراء، وأَهمَل أمرَه السلطانُ لما رأى، لأنه بعدما رُفع إلى النسرين، فعند ظهور فائدة مثله لم يُفِد في كلا الأمرين، لا فيما يرجع لنفسه ولا لمن رفعه، فضاعت فائدةُ اكتسابه المالَ والجاه، //186 هذا آخر أمر بنيس، وكان ابتداء قضيته سببا للجرأة الواقعة

1 السَّفَط: وعاء يوضع فيه الطِّيبُ ونحوُه من أَدوات النساء.

2 في المخطوط "لضمير" بدون هاء.

من جل أهل فاس، وهذا موضوع المثل الجاري "إن السقط يخرق الحرجة" أي الشرارة الدقيقة الصغيرة قد تحرق إذا سقطت الغيظةَ الملتفة والغاب المنتشر، ومعناه أن الأمر الصغير قد يعظم حتى يصير إلى أمر كبير ويتفاقم الأمر به، وقد قالوا: إنما يهيج جسيمَ الأمور صغارُها، فبسبب تلك الصولة على دار ذلك الرجل قد وقع أهل فاس، حفظ الله حاضرتهم وأهلها من كل شر وبأس، في أمر خطير لولا الحلم والعفو من مولانا الأمير.

هذا وقد تقدم أن مولانا الإمام، لما ألقت إليه الإمامة الزمام، ومنحه الله سعاده الأيام، وتوجه للغرب وحاضرتيه فاس ومكناس، استعمل غايه التأني في مسيره، وذلك لشدة ثباته وحسن تدبيره، وفي طي ذلك أمور منها تمهيده من يمر عليه من الرعية على اختلاف الأجناس، ومنها تدبير أمر جيوشه واختبار أحوال ما اشتملت عليه من الناس، لأن أكثرهم لم يكن له فيه قبلُ اختبار ولا مساس، ومما انطوى في ذلك أن يرجع مع الطول 187// أهل الطيش عن طيشهم، لئلا يحمله طيشهم على مقابلته إياهم بغير ما جُبل عليه من الحلم والعفو. قال الشاعر

لئن أغضبت ذا كرم تخطَّى إليك ببعض أفعال اللئيم

مع كونه قد تقدم أنه أحق وأجدر بقول المأمون منه حيث قال: "لقد حبب إلي العفو حتى خفت أن لا أؤجر عليه"، فما عفو المأمون في جانب عفوه، فلما عفى المأمون على إبراهيم بن المهدي قال له: يا إبراهيم لقد حبب إلي العفو حتى خفت أن لا أؤجر عليه، أما لو علم الناس ما لنا من اللذلات في العفو لتقربوا إلينا بالجنايات، أو قال بالذنوب، لا تثريب عليك يغفر الله لك، كان إبراهيم ابن المهدي عمه يقول: والله ما عفا عني لرحم ولا محبة ولكن قامت له سوق في العفو كره أن يُفسدها اهـ ومعنى خوفه أن لا يؤجر على العفو لأنه صار لذة من لذاته وشهوة من شهواته، فربما لا يبقى مع ذلك قصد للثواب، ولا نية للاحتساب. ومن عَلم من عفى عنه إمامنا هذا صاحب هذا التأليف من ذوي الجرائم وكتم عفوه عن الناس وحتى عن المعفو عنهم وتغافل من غير تعرض لذكر ذلك ولا منة، عَلم يقينا أن بين 188// العفوين بونا بعيدا، وتباينا شديدا. قولنا علم يقينا أن بين العفوين بونا بعيدا ...الخ ربما يقول جاحد: هذه دعوى بلا دليل، فنقول: نقيم الدليل بقضية واحدة تكفي عما سواها، مع أن هناك قضايا أوقعها المأمون يتباعد عن إيقاعها صاحب هذا البستان، وتلك القضية التي تنصب للفرق تقريبا هي أن علي بن جبلة المعروف بالعكوك، أحد فحول الشعراء المبرزين الذي قال فيه الجاحظ إنه أحسن خلق الله إنشادا، قال: "ما رأيت مثله بدويا ولا حضريا"، لـمَّا أنشد قصيدته المعروفة في أبي دُلَف الذي يقول فيها:

إنما الدنيا أبو دلفٍ بين مغزاه ومحتضره
فإذا ولَّى أبو دلف ولَّت الدنيا على أثره
كلُّ من في الأرض من بين باديه إلى حضره
مستعير منه مكرمة يكتسيها يوم مفتخره

وهي طويله عددها 58 بيتا، ثم بعدها مدح المأمونَ بقصيدة أجاد فيها فقال المأمون: يخير بين أن يجمع بين قوله هذا وقوله في حميد وأبي دُلَف، فإن وجدنا قوله فينا خيرا منه أجزيناه عشرة //189 آلاف، وإلا ضربناه مائة سوط، فخُيِّر فاختار الإعفاء، قال ابن المعتز: ولما بلغ المأمون خبر هذه القصيدة غضب غضبا شديدا وقال: اطلبوه حيثما كان واتوني به، فطلبوه فلم يقدروا عليه لأنه كان مقيما بالجبال، فلما اتصل به الخبر هرب إلى الجزيرة الفراتية، وقد كانوا كتبوا إلى الآفاق فظفروا به وحملوه إليه مقيدا، فلما صار بين يديه قال: يا ابن أبي اللخناء، أنت القائل في قصيدتك للقاسم بن عيسى (1): كل من في الارض من عرب.. وأشد البيتين، جعلتنا ممن يستعير المكارم منه والافتخار به، قال: يا أمير المؤمنين أنتم أهل بيت لا يقاس بكم، لأن الله اختصكم لنفسه من عباده، وآتاكم الكتاب والحكم، وآتاكم ملكا عظيما، وإنما ذهبت في قولي إلى أقران وأشكال القاسم بن عيسى من هذا الناس، فقال له المأمون: والله ما أبقيت أحدا ولقد أدخلتنا في الكل، وما أستحِل دمَك بكلمتك هذه، ولكني استحله بكفرك في شعرك حيث قلت عن عبد ذليل مهين:

أنت الذي تُنزل الأيام منزلها وتنقل الدهر من حال إلى حال

البيتين. فقال أخرجوا لسانه من قفاه، فأخرجوا لسانه من قفاه فمات //190 أنشد الله من يقف عليه ممن يعلم أن العالم كله يلهج بحلم المأمون وعفوه ولا يشبهون به أحدا في ذلك من الملوك، هل هذا فرق واضح أم لا؟ وهل يحكى فيما اعتيد من سلطاننا هذا صدور مثل هذا منه لمجرم أجرم أيا كان، فقد أجرم ناس عدة عليه بتزوير المكاتب وطابعه وأَخَذَهم ولم يعاقب، فمنهم من أعرض عنه رأسا بالتغافل كأنه لم يشعر، ومنهم من سجن قليلا، وهناك ما هو أعظم من ذلك فستر عليه، وحيث ستر فما لنا إلا الستر، وقد وقع أعظم من ذلك من طائفة من أهل العلم ولم يزدادوا منه إلا قربا، ومن الغريب زيادة على ذلك ما استفدته محققا يقينا، أن بعض رؤساء أهل العلم وقع بينه وبين عامل البلد امتحان، فكتب ذلك الفقيه كتابا يشتكي على النبي ﷺ ويتظلم ويسأل الشر العظيم لخليفة الله في أرضه، فألقى ذلك الكتاب في الحجرة الشريفة فأُتي به منها حتى وقع بيد السلطان وخليفته، فلم يزدد ذلك الفقيه إلا إكراما منهما وأي إكرام إلى أن لقي الله. وآخَر من مشاهير أهل العلم واشتهر بالأدب، أُخبرت أيضا عنه (2) //191 خبر يقين أنه بعد قضية تطوان وإقامة السلطان سيدي مُحَمَّد قدسه الله برباط الفتح ليمحو أثر ذلك، كتب ذلك المذكور كتابا للحاج عمر السوداني الذي كان يُذكر أنه كان يتقاتل مع ناحية من السودان، أن يستدعيه لهُنا ويغريه بحُمق وهذيان، فرجع كتابه إلى أن وقع بأيدي ملوكنا ولم يطلعوا عليه أحدا وزادوا في البرور بصاحبه. ومنهم من بلغهم عنه تحقيقا أنه يرفع كفيه إلى السماء عند بعض الثوار ويدعو لذلك الثائر بالظهور ولغيره بالإخفاء والإطفاء فأعرضوا وصفحوا، ولكن كل الثلاثة لا يخلو من حمق، كل واحد على نوع منه غير الذي بالآخر.

---

1 هو أبو دُلَف العجلي السابق ذكره.

2 في المخطوط "عمّا" ولعله تصحيف من الناسخ.

تنبيه: كما ذكرت هذا مع أن مولانا سلطان أمر أن لا يتعرض لأحد بنقص ما، لما تعين علي من إقامة البرهان القاطع على زيادة الفرق وإيضاحه بين الحِلمين. ومن علم هذا شهد لي بغاية الصدق فيه، الذي لا يسع حجره وبالله التوفيق. ولذلك تمثلت لصاحب هذا البستان بقولي:

صفوح عن الإجرام حتى كأنــه　　　من العفو لم يعرف من الناس مجرما
وليس يبالي أن يكون به الأذى　　　إذا ما الأذى لم يَغْش بالكُره مُسلِما

192//

ولعمري إن وصفه هذا لهو وصف جده ﷺ، لا ينتقم لنفسه وإنما ينتقم لحرمات الله. وقولنا ومنحه الله سعادة الأيام...الخ لا يخفى ما له من السعادة الظاهرة، والسياسة الباهرة، في زمن ضنك لم يتقدم مثله ولا قريب منه لمثله، كما لا يخفى ما أنعم الله به عليه من السعادة النفسانية حتى جمع مراتبها، واستقصى فنونها وأبوابها. قال المفسرون: اعلم أن مراتب السعادة النفسانية منها الذكاء التام والحدس الكامل، والمعارف الزائدة على معارف الغير بالكمية والكيفية، كالعفة والشجاعة اه وهذه انفرد في هذا العصر بالإحاطة بها على التحقيق، حيث لا يمكن إنكارٌ لهذا من عدو ولا صديق، فمن قدر على نفي واحدة منها عنه فدونه. ومن الأوصاف الملازمة لأحواله وأفعاله استعمالُ غاية التأني في المواضع التي يحمد فيها التأني كما تقدم التعرض لذكر بعضه، وبيان موضعه، وكثيرا ما ينشده فيها لسان طبعه الجِبِلّي:

لا تَعجلنَّ لأمر أنت طالبه　　　فقلما يدرِك المطلوبَ ذو العَجل
فذو التأني مصيب في مقاصده　　　وذو التعجل لا يخلو من الزلل

193// وينشده ضميره دائما:

أخلق بذي الصبر أن يحظى　　　ومُدمِن القرعِ للأبواب أن يَلِجا

قالت بنت معاوية ﷺ: الاستيناء (1) في الأمور، أوفى لما يخاف فيها من المحذور. وأما الأماكن التي لا ينبغي فيها التأني فإن سرعة إقدامه عليها مما يبهر عقول أولي الألباب، هل رأيت إذا انقض على الصيد العقاب، وقد بينا بعض ذلك في تقييد لطيف كنا قدمناه مصحوبا مع قصيدة في فتح مولانا السلطان برابر بني مكيلد ومن جاورهم بما هو كالشمس، إذ دليله المشاهدة والعيان، وذلك لا يبقى معه حدس، ولا ريب ولا لبس، وسنتعرض لذلك إن شاء الله في محله.

---

1 التَّمَهُّلُ وَالتَّأْخِيرُ.

ومن جملة ما استعمل في سياسة التأني في توجهه هذا للغرب أنه حرَّف طريقه لجهة دمنات مارا عليها بجيشِ عزمِه، وجيوشه وخدمه، وكان إذ ذاك حواليها شيخ من إيالتها يقال له ... (1) وله عصبية وتعصب على الولاة، وكأنه يريد شق العصا عليهم، ولعلهم عجزوا عن الظفر به، فاقتضت السياسة القبض عليه مع اعتقاله، والتصرفَ في ماله، ففُعِل به ذلك إخمادا //194 لنار فتنته لئلا تشيع كما هي غالب عادة العامة، ثم توجه للمقصود بالذات ناصبا أعلامه، خلفه وأمامه، مارا بين قبائل الشاوية، وكل قبيله أقبل عليها تذعن ذعن الخوف قائلة هذه هي هذه، وما أدرك ما هية، لما رأوا من الهيبة وسطوة الجبار، ولما وصل الجيش قبائل زناتة نظر إلى ما صدر منهم من الفساد، فعاملهم بزجر مَّا من القبض على بعض رؤساء ذلك، ونهب بعض المتاع عما هنالك، زجرا لهم ولغيرهم، ورعيا لما في ذلك من تسكين غيهم، ثم جوازهم إلى أن حل برباط الفتح، وهو في زيادة ظهور مخائل النصر والفتح، فاستراح به أياما قلائل زيادة في سياسة التمهيد، وإنذارا لكل غوي عتيد عنيد، ثم عبر نهره، وقدَّم أَمامه لبني حسن وغيرهم نهيه وأمره، لما كانوا عليه من معهود مناهجهم، وجريهم على مألوف أدراجهم، ولما وصلهم تمحض عنده أن رئيس فتنتهم أحد عمالهم وهو العربي ولد الكيحَل فقبض عليه، ثم قدم عزمه أمامه حتى حل بمكناسة الزيتون، وقابل قبائل //195 مجاط، ببعض ما اشتغلوا به من التفريط والإفراط، فعمتهم وطأته، وأذاقتهم كأس الصغار سطوته، ثم لفت جواد تلك السطوة لبني مطير، فأذاقهم بعض ذلك على سبيل الاختبار والتنقير (2) وقبض منهم على مساجين عدة، ولم يبالغ بل أخر المبالغة للوطأة الآتية، التي قالوا فيها أمهم هاوية، وما أدراك ما هيه، ولما أوقع بمجاط ما أوقع، أمر فيهم بالرحيل والنزول بسايس وبلاد الشراردة. ولما استعمل حفظه الله وأدام به حفظ الإسلام أقصى ما يمكن من التأني في مسيره، واستقصى في تدبيره، واستعمل مما يغني عن الإعذار والإنذار ما استعمل، مما هو مضمّن المثل الذي هو قولهم: "الإِينَاسُ قَبْلَ الإِبْسَاس"، (3) تقدم لحلول محله بحاضرة فاس، لأنه استعمل نهاية الإعذار لأهلها لمن كان له عقل من الناس، فحل بها يوم الخميس رابع ربيع النبوي عام واحد وتسعين ومائتين وألف، فنعر من جهلة أهل فاس عرق الداء الدفين، ولم يكترثوا بالعقلاء منهم من أهل العلم وذوي الرأي والدين، فحاصوا حصية الجهلاء، وحادوا عن طريق ذوي العقول //196 الفهماء، إذ لولا الجهل ما أقدموا على عظيم تلك الجريمة، متمالئين في شدة الشكيمة، المعروفة في تلك الساعة عن الأخلاق الذميمة، التي لولاها ما ارتكبوا فعلة شنيعة، وتجاسروا على خطيئة فظيعة، علموا أنها في حكم الشرع والطبع ومقتضي العقل وضيعة.

لقد فقدوا عزما وحزما وسؤددا وعلما أصيلا خالفَته المجاهل

---

1 كتب على هامش المخطوط "بياض بالأصل".

2 كلمة غير واضحة اجتهدنا في وضع ما يقاربها رسما ومعنى. والتَّنْقِيرُ عَلَى الرَّجُلِ: ذِكْرُ عُيُوبِهِ، مَسَاوِئِهِ. ويقال أيضا: حَاولَ التَّنْقِيرَ عَنْهُ: أي البَحْثَ عَنْه. وربما كانت "التَّنغير" وهو صوت الصائح بالآخر.

3 يقال: آنَسَهُ أي أَوْقَعَه في الأنس، وهو نقيض أَوْحَشَه، والإبساس: الرِّفْقُ بالناقة عند الحَلَب، وهو أن يقال: بس بس.

ولكن أهل الدين والعلم والعقل منهم خرجوا عن سبيلها، وعن الإدلاج في درك ليلها، ولا خطب لهم معهم في حبلها، ولا تبعوهم في ذلك على هواهم، لكن وقليل ما هم، فزين الشيطان لأولئك ما سمعوا مِمَّا كان صَدَر ممن قبلهم مع الملوك منذ أزمان، ولعمري إنهم لفي فاسد قياسهم قد اطرد فيه مثل "قاس البيضة بالباذنجان" فسلكوا مسلك من تفسَّخَ تفَسُّخَ الرُّبَع (1) من البيعة وعصا، تحزبوا على شق العصا، فقاموا وقعدوا، وأزبدوا وأرعدوا، فانضم كل جنس إلى جنسه الجنيس، فتسارعوا إلى الضرب والقتال حتى حمي عندهم الوطيس، وكانوا عند الاحتفال، وابتداء الحال، قدموا جميع من اعتقدوه من الأبطال، وكماة الرجال، وانتقوا رؤساء الرماة عندهم كعلاَّل البحراوي وحزبه //197 في ذلك الشأن، وأقعدوهم بأعلى صومعة جامع أبي عنان، فلم يألوا جهدا في مقدورهم من الضرب مطلقين فيه الشكيمة والعنان، وقد اغتروا بما ظنوا في جانب السلطان من الفشل، فأخطأ الظنُّ منهم والوهَلَ، وسرى لهم ذلك الظن من أمور مرجعها لغالب أمر عادي مشهور، منها كونه حديث عهد بالأمر وبمصيبة والده، وأنها دَهَمَتْهُ قبل استِداد ساعِدِه، (2) ومنها أنه لا زال لم تحنكه التجارب، ولا ركب قبلُ من مُهمَّات الملك السَّنم ولا الغارب، (3) معتقدين أن أقصى ما كان من أمره من جملة أبناء الملوك، الذين ما ركضت خيل عقولهم قط في ذلك الميدان ولا عرفوا له السبيل ولا كيفية السلوك، لما في علمهم من أنه ما تقدم لركوب الأهوال، ولا مقاساة الهم والشدائد والأثقال، وقد أخذوا فيه بالقاعدة على عمومها وهي قولهم:

إذا امرء لم يركب الأهوالا ... ولم يُقاسِ الهم والأثقالا
فأعطِه المِرود والمِكحالا ... وعُدَّه من أهله عيالا

هيهات هيهات، ما أبعد ما قاسوا، وما أشد ما نسوا.
//198 أما شدة نسيانهم فلقول القائل:

ملوك وأبناء الملوك وسادة ... تفلق عنهم بيضة الطائر الصقر
متى تلق منهم ناشئا في شبابه ... تجده على آثار والده يجري

---

1 الرُّبَع: بضم الراء وفتح الموحدة، هو الفصيل (أي ولد الناقة بعد فطامه) ينتج في الربيع وهو أول النتاج، فإذا حُمل عليه ما لا يطيق تفسَّخ.

2 هو في المخطوط بالسين وهو الصواب. جاء في مختار الصحاح: «و(اسْتَدَّ) الشَّيءُ بالسين: استقام. قال الشاعر: أُعَلِّمُهُ الرِّمَايَةَ كُلَّ يَوْمٍ ... فَلَمَّا اسْتَدَّ ساعِدُهُ رَمَاني. قال الأصمعيّ: «(اشْتَدَّ) بالشين المعجمة ليس بشيء». اه وذلك لأن الرمي يوصف بالسداد لا بالشدة.

3 سَنم البعير أعلى ظهره. والغَارِبُ من البعير: ما بين السنام والعُنق.

ونسوا وجهلوا ما قال الحكماء من السلف، والعلماء من الخلف، ولا يبعد أن يكون أثرا مأثورا، فإن لم يكن باللفظ فبالمعنى وهو قولهم: "فإن كان التوفيق رفيق عبد لا يزال يقطع المسافات، وإن مسته الآفات، إلى أن يصل إلى المقصود، ولا يَتقيد بالعادات والوصف المعهود"اهـ. وقد تقدم ببرهانه مع أنه موفق أوحي إلى ضميره بالتوفيق. وأما بُعدُ قياسهم فانهم أخذوا بالقياس، على مطلق أولاد الناس، لا على أشبال الأسود، لاسيما وهو الأسد الخادر، والليث الثائر، الذي قد تحفز للوثبة، ولا يُتَصور منه في حِندِس الوَغى (1) تَوَلٍّ ولا أوبة ولا هيبة، فله من تأسيس المجد وتأصيل النجدة حتى فاض على مَن تقدَّم نجدتُه وشرفُه، وجرى عليهم مَثَل "هو الفحل الذي لا يقرع أنفه"، كما قيل في جده ﷺ وهو أجدر أن يقال فيه من أول نشأته //199

فتى كان يحميه عن الذل سيفه ويكفيه سوءات الأمور اجتنابها

فصمموا على أنه لَئِن مَلَكَ كان يَرفُل في مَطارِف الشباب، في رغد العيش اللُّباب، بعيد عن مُقاسات الشدائد التي يترتب عليها الهلاك والتباب، فإذا البعيدُ كُل البُعد هو بُعد نظرهم عن الصواب، فلم يكن إلا لمَحَة حتى تبيَّن لهم أنهم صادفوا نفسا لا تُستَفَز، وجبلا لا يُهز، ووقع بهم العشاء على سَرحَان، (2) ولولا لطف الله الذي ملأ باطنه حلما وعفوا لحانوا (3) فيما حان، فلو أطلق نصره الله في ضربهم العِنان، لَرَغَى فوقَهُم سَقْبُ السَّماء (4) وصاروا عبرة للزمان، فالرماة الذين أُقعِدوا في أعلى صومعة جامع أبي عنان حصروا العسكر الذي هجم، لأن النهج الذي هجم منه ليس له منفذ للمِصر إلا من باب أبي الجنود وهو حاصر (كذا)، وكل من خرج منه داخلا للمدينة يكون نصبَ أعين الجالسين بالصومعة كأنه لهم غرض وهدف وشارة فلا يكادون يخطئونه، فحصلت منهم للعسكر الإذاية، وتعسرت عليهم مجاوزة ذلك الباب لكونه حابسا وموضعه مرتفع وبَراح عارٍ وكل من اقتحمه إنما اقتحم حتفَه، فرُفِع الأمر في الحين للأسد الخادر والليث الثائر، المتحفز حقيقة للوثوب، ولا يستفزه توالي الركوب، فنصب في الحين المدفع تجاه تلك الصومعة، //200 فلم يشعروا حتى أسقط عليهم أعلاها، فأبطل كيدهم أي إبطال، واستوى النساء إذ ذاك ورجالهم الأبطال، ففر من سلم ممن فيها، وهجم العسكر عليهم هجوم الأُسُود والصقور، ووافق ذلك أن هدت طائفة أخرى من العسكر من ناحية فوق ذلك السور، أي سور المدينة، فتسابق الجميع من الطائفتين لانتهاب الحوانيت والإصطبلات والدور، وذلك بأعالي الطالعة، فعند ذلك اختلط رجالهم ونساؤهم معلنين أن لا حيلة تنفع غير الفرار، قائلين البدار إليه البدار، ولا يفيد غيره

1 حندس: ظلمة. الوغى: الحرب.

2 هو مَثَل تقدم شرحه.

3 حان الرجلُ: هَلَكَ.

4 لما عُقرت ناقة صالح صعد فصيلُها جبلا ثم رغا، فأصابهم العذاب. فلذلك تقول العرب: «رغا فوقهم سقب السماء»، إذا هلكوا. والسَّقْب: ولد الناقة الذَّكَر ساعة يولد. ونُسِب إلى السماء لأنه آية من آيات الله تعالى.

مع هؤلاء الصِّقار، (1) فتسابق النساء والرجال لمقامات الأولياء وللمساجد، وضاقت عليهم السبل وضلوا على المقاصد، فصاروا كما في المثل "هم بين سمع الأرض وبصرها" المضروب للمتحير إذا لم يَدرِ أين يتوجه، فتبين لهم في الحين عكس ما ظنوا من حاله وأحواله، وتيقنوا فيه مضرب المثل "إنه لباقعة" (2) وموضع الآخر الذي هو "إنه لحبل من أحبالها" (3) وأنه الذي يرجع إليه في النائبات، ويُتمسك بذيله في الملمات، ويستند إلى عقله //201 في الحوادث المُدلَهِمَّات، ويستشفى بفضل رأيه في المعضلات المعوصات، فهو جُذَيْلُها المُحَكَّك وعُذَيْقُها المُرَجَّب، (4) فخاطبهم حينئذ لسان الحال قائلا لهم قول الحكماء: إياك وما يُسخط سلطانك، ويوحش إخوانك، فمن أسخط سلطانه فقد تعرض للمنية، ومن أوحش إخوانه فقد تبرأ من الحرية، أَوَجهلتم قولهم: لا تحاجج من يُذهلُك خوفُه، ويُهلُك سيفه، فرب حجة أتلفت مُهجة، وفرصة أدت إلى غُصَّة، أوَنَسيتم قولهم:

فما احتمى جانِبٌ لم يَحمِه مالكٌ   ولا مضى صارِمٍ لم يُمضه بَطل

ولما جرى عليهم مثل "إن الشَّقراء لم يَعدُ شَرُّها رِجْليها" (5) ورجعوا "بصحيفة المتلمس" (6) وقال أهل الصلاح منهم لهم معنى قول البوصيري: وَكم سَامَ الشِّقْوَةَ الأَشقِيَاءُ، وقد "بلغ الشِّظاظ الوركين" (7) الذي هو مِن جاري الأمثال، مثل قولهم "قد بلغ السَّيلُ الزُّبى والسكين العظم"، وعلم السلطان بذلك في الحين أيضا فهاض عليه طبعُه المجبول عليه الذي

---

1 صقار: جمع صَقْر. وربما كانت صغار، جمع صغير، تقليلا من شأن الفارين. والله أعلم.

2 إنَّه لباقعة من البواقع هُوَ الطَّائِر الَّذِي يتَجَنَّب المشارع وَيرد الْبِقَاع وَهِي مستنقعات الْمِيَاه حذر القناص فَشبه بِهِ الرجل الحذر الْكيس وَقيل هُوَ الرجل المجرب الَّذِي سلك الْبِقَاع ونقب فِي الْبِلَاد حَتَّى تدرب وتبصر. انظر المستقصى للزمخشري ج1 ص420

3 يقال للداهيةِ من الرِجالِ، كما في القاموس المحيط.

4 الجُذَيْل: تصغير الجِذْل، وهو أصل الشجرة. والمحكَّكُ: الذي تتحكك به الإبل الجَرْبى، وهو عُود ينصب في مَبَارك الإبل تتمرَّسُ به الإبل الجَرْبى. والعُذَيْق: تصغير العَذْق - بفتح العين - وهو النخلة، والمرجَّب: الذي جعل له رُجْبَة وهي دِعامة تُبْنَى حولَها من الحجارة، وذلك إذا كانت النخلة كريمةَ وطالت تخوَّفوا عليها أن تنقعر من الرياحِ العواصِفِ، وهذا تصغير يراد به التكبير.

5 الشقراء: فرس جمحت بصاحبها فأتت على وادٍ وهمت أنَّ تثبه، فقصرت ووقعت، فاندقت عنقها وسلم صاحبها. فسئل عنها فقال: إنَّ الشقراء لم يعد شرها رجليها، أي لم يتجاوزها إلى غيرها. ويقال فرس رمحت ابنها فقتلته. انظر زهر الأكم لليوسي ج1 ص113

6 مَثل سبق شرحه.

7 كناية عن اشتداد الأمر، انظر زهر الأكم ج1 ص204

هو سرعة الحلم وشدة العفو، أي بَلَغَه هجوم العسكر عليهم وأنه طفق ينهب الأمتعة ولا من يتعرض له 202// فأسرع ساعتئذ بإرسال النداء بالعفو، وممن أرسل به من أعيان الدولة الفقيه الوزير السيد مُحَمَّد الصَّفَّار وغيره، وانتشر النداء في السكك بالعفو، وأخمد نار الفتنة وكَفَّ أيدي العسكر عن النهب، انظر إلى هذا الحلم.

كل امرء مُرجَع يوما لتسميته وإن تَخَلَّق أخلاقا إلى حين

وفي الحِكَم: أرفق الولاة من جمع بين اللين والشدة، وقد حصحص الحق وصَرَّح عن محضه في هذه الواقعة العظيمة، وهي أول واقعة وقعت في ابتداء النصر كأنها ظانة كونه على شفا، فتعمَّدَت قصد نوره بالإطفاء، ولعمري إنه لقد تَبَيَّنَ بها أن هذا السلطان، زاده الله تأييدا، هو الذي جمع بينهما، أي بين اللين والشدة، وكل في محله وعنده له عُدَّة، كما لا يخفى، إذ نور الحق لا يطفَا

فما أحجم الأعداء عنه تقية عليه ولكن لم يروا فيه مطمعا
له راحتان الحتف والجود فيهما أبى الله إلا أن يضر وينفعا

وقد اتضح بتلك الهيئة المجتمعة أن بداءة الأمور وحداثة السن في جانبه ليست كهي في جانب غيره. قال بعض الكبار فإن السبق بالعمم، لا بالسيف والقدم. وفي الحكم: "مِن إحسن المكارم عفو المقتدر وَجُود المقتدر"، وفيها: 203// "أحسن العفو ما كان عن قدرة، وأفضل الجود ما كان عن عسرة"، وهذا معنى التي قبلها.

تنبيه: (1) قد آن أن نقرر بالدليل الواضح، والبرهان اللائح، ما كنا أشرنا له في الفرق بين عفو هذا السلطان صاحب هذا التأليف وحلمه، وعفو المأمون المضروب به المثل، حتى قال هو: لقد حبب إلي العفو حتى خفت أن لا أؤجر عليه، وأخذ به تمام الطائي قول المأمون: لقد حبب إلي العفو ...الخ فقال:

لو يعلم العافون كم لك في النَّدا　　　مِن لذة وقريحة لم تحمد

وأخذه أبو العباس بن المعتز فقال:

إذا ما مدحناه استعنّا بفعله　　　فنأخذ معنى قولنا من فعاله

وحتى قال فيه إبراهيم بن المهدي كما تقدم ذكره: والله ما عفا عني لرحم ولا لمحبة ولكن قامت له سوق في العفو كره أن يفسدها اهـ وإن القائلَ لقد صدق، بيد أن السوق القائمة في العفو والحلم لهذا السلطان أكثر قياما بكثير وأنفق. ومما تعجبوا //204 فيه، أي في المأمون، من حلمه وعفوه أنه لما عتب على بعض خاصته قال له: يا أمير المؤمنين إن قديم الحرمة وحديث التوبة يمحو ما بينهما من الإساءة، فعفا عنه. ومما غَيَّوا به بل تجاوز عندهم حد الإغياء، حيث قال العتابي: يا أمير المؤمنين لو قسم هذا الكلام على أهل الأرض لوسعهم عدلا وأعجزهم شكرا، وإن رضاك لغاية المُنى، لأنه لا دين إلا بك ولا دنيا إلا معك، فقال المأمون: سلني، قال العتابي: يدك بالعطية أطلق من لساني بالمسالة، فأمر له

1 على هامش المخطوط ما نصه: ومصداق ما ذكره شيخنا المؤلف من حلم السلطان مولاي الحسن هو ما ذكره الشريف العلامة الحبر النسابة أبو العلاء مولاي إدريس الحسني في كتابه الدرر البهية والجواهر النبوية حيث قال ما نصه: وذكر غير واحد من الموثوق بحديثه أن سلطان وقته عبد الحي بن عثمان بن أحمد بن إبراهيم بن الحسن بن يعقوب بن عبد الحي كان يجالسه بعض الصالحين وكان ينهاه عن مجالسة أهل فاس سيما عوامهم، ثم إنه انقطع عن السلطان أشهرا فلم يزل يستعطفه، فلما دخل عليه سر بذلك سرورا عظيما، فقال لا أكلمك حتى تصدقني فيما حدثك به هذا الداخلُ عليك فإنه لا يأمرك إلا بغش أو خديعة ونميمة، فصدقه وقال له إنه أخبرني أن السكة القديمة فيها زيادة فاقطعها فإنها كبيرة جدا، فلو نقصت فيها لكان صوابا، وإن السيد عليا الشريف السجلماسي أراد القيام عليك والثوران، فلو أرسلت إليه وأنقلته لكان أولى لتطمئن نفسك، فأرسلت خمسين فارسا ليأتوني به، فقال له الولي: علمتُ أنهم يخدعونك ويلبسون عليك الأمور، فلما خرجت الخيل لطلب مولانا علي الشريف وجدوه قافلا متوجها إلى السلطان وصحبته هدية سنية فبهت القوم ورافقوه إلى أن وصل لحضرة السلطان من غير شعور له بما وقع به من الوشاة، فلما استقر به المجلس قدم الولي على السلطان ودار بينهم الكلام وقال له: إن أهل فاس أهل غش وخديعة للملوك، وإن مولانا عليا هذا عليه نور النبوة والخلافة يلوح، ولا يلحقك منه ضرر إلا الملوك بعدك من أبنائك، فأكرم السلطان مولانا عليا إكراما جزيلا، فحينئذ دعا مولانا علي الشريف وقال: اللهم اجعلها في حليم أولادي، وأمَّن الرجل الصالح على دعائه، فكان ذلك وفق ما قالاه رضي الله عنهما، واستجاب الله دعاءه، فما وليها إلا حليم اهـ

بخمسين ألفا. هذا من أبلغ ما وصفوه به مما ذكروه في جانبه، وقد غيّوا بقضية أخرى عند المأمون، وعندي لسيدنا السلطان مولانا الحسن في الحلم قضية أعظم منها بكثير. أما قضية حلم المأمون المشهورة هي لما تزوج ببوران واحتفل بوليمة لم يتقدم مثلها ولا تأخر، وكانت عنده آنية ذهب مرصعة بأنفس اليواقيت أهداها له بعض ملوك الروم، وكانت من الحسن وغرابة الصنع بمكان أيِّ مكان، فأخرجها من جملة الأواني في تلك الوليمة، ولما انقضت أيام إقامتها أخذ الشرط يجمعون البسط 205// وأنواع الفراش والأواني يدخلونها للدار، والمأمون في منتزه يراهم ولا يرونه، فرأى واحدا من الشرط من أكثرهم رثاثة أخذ تلك الآنية وجعلها داخل ثيابه بمرأى منه ومعرفة له، فلما فرغوا سكت المأمون إلى الغد وبعده، فسأل عن الآنية متجاهلا فلم توجد، وكثر السؤال، وعظم على الشرط الأمر والحال، فلما اشتد عليهم سَكَّن روعهم وقال لهم: أخذها من لا يردها ورآه من لا ينم عليه، فإذا بذلك الشرطي على جواد جيد وثياب جدد وسرج جديد بعدما كان بحالة رثة، ومر أمام السلطان فقال له السلطان: هذا من ذاك، فقال له نعم بارك الله في عمر سيدنا وفضلِ الخيرُ، فقال له المأمون: امض لئلا يسمعوك، لا غير.

فأقول: أما مثل هذا فلسيدنا ومولانا الحسن ما هو كهُو: من ذلك أنه أُعلِم بحلي الذهب المعتبر أُخِذ من داره وصيغ ولم يعاتب، وكم لها من نظير شهير. وأما القضية التي هي أكبر وأعظم من قضية المأمون هذه ما حكى لي تلميذ لي صدوق جدا وهو 206// الفقيه السيد الطاهر بن جلون رحمه الله، كان من أخص الكتاب عند السيد مُحَمَّد بن العربي في زمن وزارته، وذلك أن السلطان كان في بعض أسفاره قادما لفاس من مراكش فلما توسط في الطريق أمر سرا بسير الخيل لدار عامل من عماله وأن يقبض عليه هو بعد ذلك، فلم يكن إلا يسير حتى جاء ذلك العامل يطلب ملاقاة السلطان فأذن له، فلما تمثل بين يديه صار يقبل الأرض ويتملق ويتوجه ويتوسل للسلطان بأسلافه قائلا: لا تشف فيَّ أعدائي ولا تفضحني، فقال له السلطان ما هذا؟، قال إن سيدي أمر بالمسير لداري وبالقبض عليَّ، فتعجب السلطان وقال: من أنباك بهذا؟ فقال: أسيدي إن هذا لَحَق؟، فقال له: حق، ولكن إن أخبرتني بمن أخبرك بهذا فلك الأمان، وإن لم تخبرني فإنه واقع لا محالة. فقال له: أخبَرني فلان من الكتبة، فقال له السلطان: كذبتَ عليه، ما الدليل؟ فأخرج له العامل خط يد المُخبِر بالأخبار، فلما رآه السلطان وتحققه أمره بالقيام والكتمان، وترك العامل، وما تعرض للمخبِر بما ذكره بنكرة ولا بمعرفة ولا عينه ببنت شفة، مع أنهم عدُّوا 207// من الأمور التي لا تغتفر عند الملوك بوجه إفشاء السر، فأين هذه من تلك!. فانظر واسمع واعتبر تعرف أننا ما رمينا بمجازفة القول والتحامل اهـ

ثم أقول: لولا أن السلطان مولانا الحسن زاده الله حُسنَ سيرة، وصفاء سريرة، تَقدَّمَ لي منه النهيُ الأكيد، المحقق الذي ليس عن أمتثاله محيد، أن لا أتعرض في هذا التاريخ لتنقيص أحد أيا كان لذكرت جملة وافرة وأفرادا كثيرة من المنحاشين إليه المنتمين لشريف جنابه، ومنهم من يرى أنه من الخاصة، ومن غيرهم الذين ظهرت له جرائمهم التي لا يقبلها المأمون ولا غيره ولا يعفون عنها، فهم وإن كانوا قد يحيط بهم العدُّ، فجرائمهم لا يحيط بها عد ولا تنضبط بحد، بل ولا يعاتبهم، بل ولا يُظهِر لهم علمه بها، بل ولا يقطع عنهم ما عوَّدَهم من التكرم والإنعام، حتى إن الرائي لذلك يرى أنهم يتقربون

بجرائمهم على طريق الإلهام، وما ذلك إلا لما يجده السلطان زاده الله تأييدا في العفو من اللذة على التمام، وهو مصداق قول القائل: لو يعلمون ما لنا من اللذة في العفو لتقربوا إلينا بالجرائم، ولولا الوقوف مع //208 النهي الذي هو امتثال للأمر، لحَبَرْتُ (1) من أسمائهم عِدَّة، وشرحت ما هو كالشمس من جرائمهم الممتدة.

وهذا النهيُ نفسُه الذي قصد به أن لا تُنشَر سيئات أحد ولو كانت في جانبه هو، هو عين الحلم والعفو المعجز الباهر للعقول عند ذوي العقول، فأي عفو يتطلب أقصى من هذا؟! بل وأي عفوا يشبه هذا؟!، فالناس كلهم يضربون المثل بعفو من يُظهِر العفوَ عن الجنايات تكرما بعد سؤال العفو حقيقة أو حكما، وهذا السلطان يعفو من غير أن يُظهِر اطلاعه على المعفو عنه فضلا عن المِنَّة فضلا عن العتاب، وناهيك بمرتبة العفو عن عظيم الذنب بعد سؤال العفو، فأحرى بقبل سؤاله كقضية أهل فاس هذه، فالمرتبة العالية عند الناس في العفو هي المُشار إليها بقولهم:

إن الكرام إذا ما استُعطفوا عطفوا والحر يعفو لمن بالذنب يعترف
والصفح عن مذنب قد تاب مَكرُمةٌ وفي الوفاء لأخلاق الفتى شرف
فالعفو بعد اقتدار فعله كرم والهجر بعد اعتذار فعله سَرَفً

هذا عندهم غاية الغاية في العفو، وأنت ترى عفوَ //209 سلطاننا هذا من غير استعطاف ولا مِنَّة ولا إظهار اطلاع على جرائم أولي الجرائم، وبمجرد ما قيل له بعد اشتداد الالتحام، حصلت الهزيمة عليهم على الخاص والعام، عفا وأيّ عفو، بعد جميع ما تقدم ذكره من عظيم الجريمة وكف الأيدي عن الإذاية في كل شيء، وبعد ذلك أسدى لهم من المعروف ما يقصر عنه اللسان، ويضيق عنه نطاق البيان، حتى صار الجل منهم بسبب إسدائه أغنياء، وأمناء أملئاء، (2) كل الثغور والجبايات يتناوبونها واحدا بعد واحد، حتى إنهم يصرحون في مجامعهم بأن الذي أدركوه مع والده من ذلك ما أدركه أسلافهم مع سلطان قط، وأن الذي أدركوه مع هذا السلطان أربى أربى على ذلك بأضعاف مضاعفة، ولو أنهم لم يعترفوا به فرضا لأغنت المشاهدة عن اعترافهم.

---

1 حَبَرَ الكتابَ: كَتَبَهُ.

2 أملئاء: جمع مليء، وهو الغني المقتدر.

هذا وبهامش المخطوط ما نصه: ولعمري إنه لأحق وأجدر بأن يقول، وليس سواه من يستحق هذا القول،

نفيض كما يفيض النيل ونقدم مثل إقدام الحسام
وإن نزلت بنا كبر الرزايا تأسينا بأملاك كرام

انتهى، مؤلفه.

هذه من أول القضايا التي تصدق قولنا سابقا: إن بين العفوين بونا بعيدا وتباينا شديدا ... إلى آخر ما تقدم، وما شرحنا هذه المسألة تنقيصا لأهل فاس، لا، لكن لما كانت أشهر من شمس رأد الضحى (1) عند جميع الناس، أقمت به الدليل الواضح على ما بينتُه وبنيتُه على ذلك القياس، لما قيل //210

والدعاوى إن لم يقيموا عليها بينات أبنائها أدعِياء

ولا يخفى أن ذكر هذا من تحصيل الحاصل، فإن مرمى همته بعيد جدا، قل من يدرك له حدا.

من كان فوق محل الشمس همته فليس يرفعه شيء ولا يضع

فعاد أهل فاس في الحين بعفوه وحلمه بعد الطيش، لرغد العيش، طلقا غزيرا، واجتنوا ثمر المُنَى مِن كرمه غضا نضيرا، اجتلوا وجه الزمان مشرقا منيرا، وقد تعودوا بعض ما عادوا إليه من التكرم من جد سيدنا ووالده كثيرا، فحق عليهم بعد الأوبة، وإظهار التوبة، أن يُنشِدوا سيدَنا نصره الله ما نصه:

هما أبواك من وضعا فَضعْهُ وأنت برفع من رفعا جدير

لكن لم يدعهما تسابق حلمه، وتسارع كرمه، يقولان ذلك، إذ لم يُبقِ ما غمرهم به من سَبَقِيَة الرفع، وعدم الوضع، محلا لأن يقولوا ما هنالك.

وهنا بالنسبة لقضية أهل فاس وقف بنا هذا المستظهَر المختصَر، ووراءَه لسيدنا أمير المؤمنين أيده الله ونصره إن شاء الله ما يطيب به الخبر، من إظهار ما له فيه التأثير والأثر، //211 مع التأييد والظفر، وإنما طويت عن التعرض لزيادة شرح القضية مع بيان (2) رؤسائِها وما كان نزع فيهم من عرق الداء الدفين وقوفا مع نهي مولانا عن ذلك، أي عن الإشارة لأحد بالتنقيص، على العموم والتخصيص، لأن التعيين مستلزم لذلك من حيث التنصيص.

---

1 رأَدَ الضُّحَى: انبسطت شَمسه وارتَفع نهاره.

2 كلمة غير واضحة اجتهدنا في وضع ما يقاربها رسما ومعنى.

فلما توجه هذا السلطان المنصور بالله عند ابتداء نصره للغرب، مر على دمنات بجيوشه وعساكره، وكان قبل وصولها خيم ببلد السراغنة بسوق الأربعاء بالحمادنة، وأمر بهدم دار ناصر أُحَدُّو الفطواكي، لفساده وخروجه عن طاعة عامله علي أُحَد، ثم نهض يَؤُم مشرع احمر للعبور منه قاصدا رباط الفتح، وفي كل ظعن وإقامة، يوجه خلفه وأمامه، وعن يمينه وشماله، سديد فكره، ورائد طرفه، للاستكشاف عن حال الرعية، واستيعاب التطلع عليها على حالة مرضية، حتى وصل مدينة رباط الفتح، فأقام بها عدة أيام للاستراحة وإتمام النظر على المعتاد، وقد كان أهل سلا وأهل فاس وغيرهما كَسَروا //212 صناديق المستفاد، وأقاموا أمناءَه على ضرب من الطرد والإبعاد، وأما أهل الرباط فاستمعوا لتحذير أمر عاملهم، ولم يوافقوا غيرهم في عملهم، بل أبقوا المستفاد على قديم منهاجه، سالكا قويم مألوفِ أدراجه، من غير نكير ولا تغيير. ثم ألقى عزمَه بين عينيه ناهضا متوجها لمكناسة الزيتون يقدم جيشَه بحر خميس، على هيئة ترهب الأعداء وترتيب نفيس، وذلك بعدما استراح، راياته وأعلامه تخفق بالنصر فيها الرياح، مارًّا بلد بني احسن، جيشُه منتشر في تلك البطاح، وجيش فكره يجول أمَامَه في أمر ذلك البربر في كُل غُدُو ورواح، إلى أن أشرف على دخول مكناسة ظهر من بني مطير ما هو معتاد منهم من العتو والفساد، والجري في شكيمتهم من الطيش مع الملوك السابقين على منهاجهم المعتاد، فاعتمدوا على ذلك، ظانين أنه لحداثته في الأمر ينتهزون فيه أكثر من أولئك، فقابلوه بوجه من الشقاق والعصيان، مظهرين ما ألفوا من الطغيان، فوقعت بينهم وبين الجيش جولات والتحامات راجين شق العصا، فصعب عليهم ذلك واستعصى، فخابت باستئصاله إياهم أمنيتهم، وأشرفت //213 على اجتثاث شجرتهم، فظهرت لهم نجدته ونصرته عليهم أيَّ ظهور، وأيقنوا بالمخائل أنهم مستقبلون غاية المحظور، ولما دخل مكناسة حقق لهم من إيقاعه بهم بعض ما كانوا يظنون، وألبسهم سربال بعض الذي نسجوه، ورجع بعض شؤمهم على الشريف البركة الأمراني، مولاي المدني الذي كان بالحاجب فقتل رحمه الله بما أصابه من شؤمهم، وتلك عادة الله في الفتنة إذا وقعت فأنها لا تختص مصيبتها بالظالمين، فاستقر بعد ذلك مقيما بمكناسة إعذارا وإنذار، ليقلع أهل الغي عن غيهم ويؤوبون منه توبة واستكانة واستقرار، وزاد أن وجه وصيفه وعامله قائد مشوره صاحب الهدنة والسكينة والوقار، المتخذَ الثبات والتؤدة والرزانة دار تبوء وقرار، القائد إدريس بن العلام، بكتاب شريف لأهل فاس على سبيل الإنذار والإعلام، والتنبيه على ما استوجبوه مما استهوتهم أنفسهم، واستحوذه عليهم إبليس فارتكبه غوغاؤهم وأخلاطهم، لا أهل الفضل منهم، من الطيش ونهب دار أمينهم ابن المدني بنيس من الملام، وحين تُلِي عليهم كأنَّ //214 المستحسنين لما وقع بين نهب دار الأمين وما قبلها من الطيش لم يبالوا، بل رأوا أنهم فازوا ببغيتهم ونالوا، وكان إذ ذاك مستندهم في ذلك الانحراف والاعوجاج عاملهم إدريس السراج ومعه في ذلك نفر ينسبون للعلم صورة وهم في الحقيقة عند صادق الاعتبار، ليس لهم على دعوى العلم حجة صادقة ولا استظهار، إلا على ضرب من الاختلاق، وإلا فلا ينسبون له لا لغة ولا شرعا، وتزيينهم ذلك الفعل ورضاهم به ينافيه شرعا وطبعا، كيف وقد رضو بالمخالفة والشقاق، مضمرين ما هو أقوى دليل على النفاق.

لقد فقدوا عقلا وحزما وسؤددا وعلما أصيلا خالفته المَجاهِل

أعانو على ذلك الشقاق ويقولون له في الخروج عن الطاعة بالجواز، وهم الطالب أحمد بنسودة والطالب عبد الله البگراوي، وأشدهم كاتبه عبد الله بن المواز، ومن اقتفى من غير أولئك، سبيلهم في ذلك، وهذا أيضا مما ينخرط في تلك القضايا التي قدمناها دالة على عظيم حلم هذا السلطان، مما لا يبقى لأحد مع ذلك في عظيم حلمه امتراء، ولا يقبل من أحد فيه مِراء، وقدمنا وجوه معارضة حلمه //215 لحلم المأمون الذي تضرب به الأمثال، فالسرَّاج عاملُ والدِه وتقلب في نعمهم كيف شاء وفوق ما يحب، وبعد شنيع فعله، والأمر بسجنه، نقله لمراكش مسجونا ثم سُرح وجعله أمينا على مال أبي العباس السبتي، والكاتب ابن المواز بعد الأمر بسجنه أيضا وإخراجه من فاس ولاه خطة القضاء بأزمور، ثم بالمنشية ثم بمراكش، وأما الاثنان الباقيان فغض عنهما الطرف كأنهما لم يصدر عنهما سوء، ولمثل هذا قلنا فيه كما تقدم إنه لأحق بهذا البيت:

صفوح عن الإجرام حتى كأنه من العفو لم يعرف من الناس مجرما

ولا يقال لِمَ لَمْ يَعْفُ عن الأولين من أول وهلة؟ لأنا نقول: لو لم ينقلهما إذ ذاك ما انحسمت مادة الفتنة، فارتكب فيها ما لا مندوحة عنه. ولما مات الحاج المهدي بنسودة ولَّى مكانه أخاه الطالب أحمد بنسودة واتخذه في محله لسرد صحيح البخاري، ولا قوبل بشيء من سوء فعله الجاري، والطالب عبد الله البكراوي جعله عاملَه وأخُو حاجبِه ووزيره السيدُ عبد الله بن أحمد من خاصة الخاصة إكراما وإنعاما، وكذلك لم يُعدَم من السلطان إكراما، وهذا هو الحلم والعفو //216 الحقيقيان، فمن يستطيع أن ينكر هذا الحلم؟. ولعمري إن مثل هذا الحلم ليضني من لم يعرف له قدره، فلم يبق فوق هذا من الحلم بالنسبة للملوك إلا الحلم الذي لا يشبه به شيء ولا يوازيه شيء ولا يقاس في معرض التمثيل به شيء، كعلم الأنبياء الذي أمرهم الله به، أو حلم ملك الملوك، فالحق سبحانه عفو حليم يحب العفو من عباده كما جاء في كتابه الحكيم، وأمر به نبيه الكريم، ومن أقرب ما يعين العاقلَ على التخلق بوصف هو لله وأحبه لعباده وهو الحلم، قضيةُ وحشي بن حرب قاتل سيد الشهداء سيدنا حمزة عم نبينا ﷺ، أنه لما جُوعِل على قتله بعِتقه وقتَلَه ولم يوف له بعتقه، ندم على صُنعِه وذهب هو وأصحابُه لمكة، وبعد ذلك كتبوا إلى النبي ﷺ أنا ندمنا على الذي صنعنا وأنه ليس يمنعنا عن الإسلام إلا أنا سمعناك تقول وأنت بمكة (والذين لا يدعون مع الله إلها ءاخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون، ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا) وقد دعونا مع الله إلها ءاخر وقتلنا النفس التي حرم //217 الله وزنينا، فلولا هذه الآية لتبعناك، فنزلت (إلا من تاب وءامن وعمل عملا صالحا) الآيتين فبعث بها النبي ﷺ إلى وحشي وأصحابه فلما قرؤوها كتبوا إليه إن هذا شرط شديد نخاف أن لا نعمل صالحا فلا نكون من أهل هذه الآية، فنزلت (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فبعثها إليهم فقرؤوها فبعثوا إليه: نخاف أن لا نكون من أهل مشيئته، فنزلت (يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعا، إنه هو الغفور الرحيم) فلما قرؤوها دخل هو وأصحابه في الإسلام، ورجعوا إلى النبي ﷺ فقبل منهم، ثم

قال النبي ﷺ لوحشي: أخبرني كيف قتلت حمزة؟ فلما أخبره قال له: "ويحك غيب وجهك عني" أو قال: "إن استطعت أن تغيب وجهك عني"، فلحق وحشي بعد ذلك بالشام إلى أن مات بها اهـ فنقل الأمام الثعْلبي بسكون العين في تفسيره لكتاب الله: فلينظر العاقل وليعتبر أي حاجة لله بوحشي وأي حاجة لنبيه بوحشي وأصحابه، فيجب على كل من تخيل من نفسه //218 القدرة على غيره والغلبة، وإن لم يكن المقدور عليه المغلوب ذا قدر، إذا جنى عليه أو أغضبه بفعلٍ مَّا أو تركٍ مَّا أو جرأة وغير ذلك، واستولت النفس والشيطان عليه بتهيج غضبه عليه، أن لا يسرع للعقوبة، وأن يُحمل نفسه ترك المؤاخذه ما استطاع، برعاية إرشاد مالك الملوك القهار الجبار الذي لا يُسأل عما يفعل، فيقتدي بحلمه وعفوه وحِلم أحب خلقه إليه واحتماله، وإن استخف بمن أغضبه فلينظر إلى خفة شأن وحشي بن حرب الحبشي مولى جبير بن مطعم عبد الكافرين كأنه حَمِيتٌ أيْ زِقٌّ سَمْنٍ، قتل عم خير الخلق وأحبهم عند الله، وقوبل بمحض الحلم والعفو، وقبولُ مراجعة كثيرة أشبه شيء بالتهكم، والاستهزاء والتحكم، فليكن العاقل المشفق على نفسه آخذا بمقدوره من ذلك، وأن لا يكون سريع الانتقام. وذَكَّرَنا في هذه القضية حِلمُ هذا الإمام، فإن النفر المذكورين السرَّاجَ وحزبَه قد غمرتهم نِعم هذه الملوك وكفروها بلا سبب، وأدلجُوا بكُفرانها طريقَ من قبلهم ممن استهوته نفسُه حتى أسلمته للعطب، ومع ذلك قوبلوا بالاحتمال والحلم وأُكرِموا //219 إكرام أفاضل أهل العلم، والمقصود من هذا إيضاح ما لهذا الإمام من لذة العفو والحلم لئلا يجهله جاهل، وليُقرَع به سمعُ كل منكر ومتحامل، وكأن القوم جهلوا قول المغيرة ﷺ: "اشكر لمن أنعم عليك وأنعم على من شكرك".

تنبيه: نقل الشعراني في مننه وكذلك المناوي الكبير عند حديث أفضل الفضائل أن تصلَ من قطعك، وتعطي من حرمك، وتصفح عمن ظلمك، أن ابن الحطاب شيخَ ابن عربي رأى ربه في النوم فقال يا ربي علمني شيئا آخذه عنك بلا واسطة، فقال له رب العزة جل وعلا: "يا ابن الحطاب من أحسن إلى من أساء إليه فقد أخلص لله شكرا، ومن أساء إلى من أحسن إليه فقد بدل نعمة الله كفرا"، فقال: يا رب حسبي حسبي، فقال له: حسبك.اهـ فهذا وأشباهه يكفي قارعا لمن لم يشكر الوسائط وكفر نعمتهم، فإنه لم يشكر الله بل بدل نعمته كفرانا، فمن لم يشكر الله لم يشكر الناس، ورد: "من لم يشكر الواسطة لم يشكر الموسوط"، ومن دأبه كفران نعم المنعم بعد شكر نعمه فذاك عنوان لؤمه، يسجَّل عليه أنه لئيم، //220

فإن أَنتَ أَكرَمتَ الكَريمَ مَلَكتَهُ ... وَإِن أَنتَ أَكرَمتَ اللَئيمَ تَمَرَّدا

فَوَضْعُ النَّدى في موضع السيف مُضِر ... كوضع السيف في موضع

فائدة: في الحديث الذي رواه جماعة وافرة عن النبي ﷺ أنه قال: "إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم" رواه أبو داوود من رواية إسماعيل بن عياش، وعن معاوية ﷺ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إنك إذا اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كِدت تفسدهم" رواه أبو داوود وابن حبان في صحيحه، وعن شريح بن عبيد عن جبير بن

نفير وكثير بن مرة وعمرو بن الأسود والمقدام بن معدي كَرِب وأبي أمامة ﷺ عن النبي ﷺ قال: "إن الأمير إذا ابتغى الريبة ..." إلى آخر ما تقدم. وما أشد تحفظ هذا الأمير على معنى هذا الحديث.

فائدة أخرى: حقيقة الحلم في جانب الخلق ضبط النفس والطبع من هيجان الغضب وعدم إظهاره اهـ وفي جانب الحق أنه يفعل بعباده فعل من يحلم على المسيء ولا يعاجِلُهم بالعقوبة مع تكاثر ذنوبهم، وفي شرح الأسماء للإمام الغزالي رحمه الله: الحليم //221 هو الذي يشاهد معصية العصاة ويرى مخالفة الأمر ثم لا يستفزه غضب ولا يعتريه غيظ ولا يحمله على المسارعة إلى الانتقام مع غاية الاقتدار عجلة وطيش، فعلى العاقل أن يتخلق بهذا الاسم بأن يصفح عن الجنايات، ويسامح في المعاملات، بل يجازي الإساءة بالاحسان، فإنه من كمالات الإنسان اهـ
ولا يخفى أن هذا مسلك هذا السلطان، نعم قالوا: إن الحلم لابد أن يكون في محله، كما قيل:

أرى الحلم في بعض المواضع ذلَّة   وفي بعضها عزّا يسوّد فاعله

وكذلك الإحسان فإنه إنما يحسن إذا وقع في موقعه.
قال مقيده غفر الله له: وهذا معنى صحيح يشهد له استحسان النبي ﷺ قول النابغة حيث أنشد بين يديه قصيدته المعلومة حتى وصل إلى قوله:

ولا خير في علم إذا لم تكن له   بوادر تحمي صفوه أن يُكَدَّرا

فقال له ﷺ: لا فض الله فاك. فعاش فوق المائة سنة وما سقطت له سن اهـ الحديث شجون ويجر إلى فنون، جرنا إلى ذكر ما يُرى لكن لا بأس بالزوائد، إذا اشتملت على الفوائد، //222 ولا بأس بالإعادة، مع تقرير الإفادة، وقد تقدم قبل هذا ابتداء قضية فاس وانتهاؤها.

فصل في ذكر ثوران الدجال الهبري (1)

هذا وبنفس توطنه بفاس وتوطينه إياها وأهلها وجيرانها وجميع من مر عليه من القبائل التي تقدم ذكرها، جذبه عرق الإقدام الذي طُبعت عليه نشأته، وشنشنة الشجاعة التي هي جِبِلته، إلى العزم على مد اليد للاستيلاء في الحين على جميع ما وراء ذلك من الآفاق من فاس إلى وجدة من أجناس القبائل أعراب وبَربر، فلم يكن بأسرع من ثوران دجال من الدجاجلة، وإلا فمن فيه رائحة الصلاح لا يقبل فتنة المسلمين فضلا عن شق العصا، والميل لمن عصى، وذلك الرجل الذي استند إليه بوعزى الهبري، ولعله إليه يدعو، مشهور في قبائل بني سدن وآيت صَغرُوشْن وبني ورين ومسموع الدعوى عندهم حيث سلك مسالك الدجاجلة، يُنسَب إلى الشرف ويُقال له مولاي سعيد //223 وحيث هب ريح سماع طيشهما وصار يتزايد في كل نهار وليل، وتناقلته الركبان وأبناء السبيل، أشخص السلطان سَرِية للناحية التي هما فيها لاستبراء خبرهما، جعل أمرها لرئيسها الذي قدَّمه عليها (2) وهو خادمه القائد مبارك بن الشليح الدليمي، وكانت له نجدة وشجاعة، فتوجهت تلك السريه أمامها، لا تثني زمامها، إلى أن نصبت أخبيتها وأعلامها في محل بوسط بلد بني سدن، وأقامت هناك نحوا من شهر تمونها تلك القبيلة رهبة، والحال أن الإمام السلطان أمر بسرية أخرى ضربت قبابها بالموضع المسمى بظهر المهراز قبلةَ فاس، بضربة متهيئة للوثوب إن احتيج إليه، فلما لم يظهر دخان لنار فتنتهم أُمِرَت السريةُ التي ببني سدن بالرجوع لفاس فرجعت، وأمر بضرب السياج وفسطاطه والأخبية مما نَصبُه علامةٌ على عزم الملك على الخروج بنفسه، فضُرِبت وضَرب الجيش أخبيته هناك، ونزل معظمه ثمة فلم يشعروا أن جاء بوعزى الهبري هاجما على فاس، على حين غفلة من أهلها ومن الجيش المخيم، مع ما اجتمع عليه من شيعته من الأوباش والأخلاط //224 فجأة إلى أن أشرف على باب الفتوح، أحد أبواب فاس، فأسرع إليه من سمعه من الجيش وبادروه، ففر هاربا وهم في أثره بالضرب والنهب لمن معه إلى أن وصل جسرَ مولاي إسماعيل المنبنى على وادي سبو المعروف بالقنطرة، فثبت هناك للملاحمة هو ومن بقي معه سالما سويعة قليلة، فوثب عليهم من تبعهم من الجيش وثبه الأسود فبددوهم تبديدا

1 قال ابن زيدان في الإتحاف ج2 ص185: بوعزى بن عبد القادر العامري الشركاوي المدعو الهبري نسبة إلى بلدته هبرى -بالقصر بين أم العساكر ومستغانم- وكان ظهور هذا الفتان في أيام سيدى مُحَّد سنة إحدى وثمانين ومائتين وألف في آنكاد ثم شتت جموعه. فلما بويع مولاى الحسن ظهر ثانية في غياثة واجتمعت عليه التسول والبرانس والحياينة وبنو وراين وكزناية وأولاد بريمة وآيت صغروشن وبنو سدن. اهـ

2 في المخطوط "جعل أمرهما لرئيسهما الذي قدمه عليهما"

واستأصلوهم استئصالا، فلم يبق منهم إلا القليل فهربوا وخلصوا نجيا، ولما خلص نجيا أخذ بجمع شرذمة أخرى للتشويش، رعيا لمراد ذَيْخِه، (1) المسمى بشيخه، فاجتمعت عليه طائفة أخرى.

فصل في أول تمهيد للقطر الذي بين فاس ووجدة مع كثرة أجناس قبائله حسبما يأتي سبرها

وعندما مر الهبري وحزبه أخذ السلطان يتهيأ للإقدام على قبائل الريف وما دونها وما وراءها، وفي الحين أزمع السلطان الشخوص لمد اليد في تمهيد تلك الأقطار، وتفقد أحوال تلك القبائل كلها مستعينا بنصر الله وسطوة القاهر الجبار، إذ ليس من جبلته اتكالٌ على غيره، في ضمن ذلك البحث عمَّن ذكر لإخماد نارهم، وإطفاء شرورهم، فخرج بالجيش //225 من غير مهل في إثرهم، حتى خيم ببني سدن فلم يشعر الجيش أن جاءه الهبري وحزبه ليلا على عادة المشوشين، ففرقع البارود بجانبه قاصدين الضرب، راجين إدخال الفشل عليه في تلك الحالة المنافية لأخذ الأهبة، المعلوم فيها النوم والتفريط، وعن قريب وجهت نحوهم المدافع فتركتهم أشرد من نعامة (2) هاربين متفرقين شَذَرَ مَذَر، (3) ولما أصبح صباح تلك الليلة ثارت على السلطان طبيعته التي هي سرعة الإقدام على مهمات الأمور بالآراء السديدة، فأسرع بالخروج في موكب من الجيش إلى أن نزل ببعض الأمكنة المشرفة من آطام (4) بلد بني سدن، فنزل ذِروتَه وبني له السِّيوان، ثم نهض الجيش واجتمع عليه ثمة وأخذ في التضييق ببني سدن عقوبه لهم على استحسانهم فعل ذلك الضال المضل ومروره عليهم بدون نكير، وأخذه الأمن بين ظهرانيهم، وذلك في الحقيقة إعانة منهم له ولحزبه، وبذلك استوجبوا ما استوجبوا من أخذ زروعهم المخبأة في أمراسهم وغيرها نكالا وتأديبا، وبعد ذلك صمم السلطان المؤيد بالله على طلبه حيثما كان، وألقى عَزَمَه بين عينيه متوجها //226 في اثره، فلم يلبث إلا قليلا حيث توسط بين تلك القبائل حتى أوفت له قدرة الله وسطوة نصره إياه ما عودته مما اختصته به من دون سائر الملوك، من سرعة أخذ الثوار، وإسراعهم (5) لدار البوار، بدون كلفة ولا مشقة، ولو مع التحصن وبعد الشُّقَّة، ما من فاتن يثير فتنةً إلا واقتنصته (6) همَّة هذا الملك المؤيد أسرع ما يكون وأسكنته إما دار البوار وإما دار المحنة، كما يأتي إيضاحه إن شاء الله، فأتى به مصفَرا حتى ألقي بين يديه، فلم يزده أيده الله على استفهامه عما حمله على الضلال الذي كان عليه، ثم أمر به فأركب على جمل وطيف به في

1 الذَّيخُ: الذئب الجريء أو ذكر الضباع الكثير الشعر.

2 أشرد من نعامة: مَثَل يُضرب.

3 تفرقوا شذر مذر: مَثَل يضرب.

4 آطام: جمع أُطْم: البيت المرتفع أو الحصن.

5 كذا تبدو في المخطوط.

6 في المخطوط "اقتضته" ولعله تصحيف.

الجيش كله، ولولا أن كلا من الشرع والسياسة أوجبا ذلك لخلَّى سبيله، وفي الحين بإثره اقتنصت همته أيضا خليله، بل ذَيْخَه، المسمى شيخه، سعيد المذكور، فأخذته أخذا وبيلا، ولم تبق له خليلا، ثم وجه الهبري لمراكش مقيدا فقضى نحبه ببلد زمور حتف أنفه ليس إلا، وكان من جمله من استأنسا إليه، واعتمدا عليه، ظانين كونه لهما عصبية، وحمية جاهلية، من بني سدن وآيت //227 صغروشن وبني ورين، ولذلك لما دهمهم جيش السلطان حينئذ حاولوا مقابلته، وسولت لهم أنفسهم مقاتلته، فهزمهم أسرع من لُمَاظة الوَرَل، (1) ولم ينتظر منهم الأخيرُ الأول، فبلغت منهم القلوب الحناجر وضاقت النفوس، ونُهِبت أمتعتهم وحُزت مِنهم إرهابا لغيرهم الرؤوسُ، فتقدم الجيش حتى تخلل بلد بني ورين وخيم وسطها بمحل لعله يقال له الحوض أو ما هذا معناه، وأخذ في التضييق بهم، واستخراج المُخبأ من زروعهم، وما وجد من متاعهم وسلبهم، حتى جنوا ثمار الضلال الذي غرسوه، والشوكُ الذي بذروا بزره حصدوه ودرسوه، ثم نهض الجيش خلف السلطان لمدينة تازة، ولما تفقد أحوالها نهض منها لمليلية وتم تمهيد تلك القبائل جميعها، على اختلاف أجناسها وأنواعها، بانبساط يد الرهبة منه على تلك الآفاق، ولم يبق فيها مخالفة ولا شقاق، وولى على كل قبيلة عاملا منها، يتولى القيام بشؤونها عنها، وولى مُحَمَّد بن البشير أُمسعود اليزناسي على بني يزناس وعلى وجدة التي هي المورد والمركز وقطب الدائرة، بالنسبة لتلك الآفاق التي بها دائرة، وعند ذلك ثنى عنان //228 وِجهته راجعا، شاكرا الله في جمع كلمة الإسلام متواضعا، حتى حل محل كرسيه بفاس، ولما استقر بها وتم الإيناس، توجه جزء من همته لبناء عجيب بعرصة لالَّة مينة، وشاع وذاع أنه أتى بهيئة قصر المعتمد بن عباد وغيره، وحيث شرع في بنائها صار كلما تم عمل موضع من المواضع يجعل له وَكِيرَة، (2) من أعظم ولائم الملوك شهيرة كبيرة، وقد حضر مقيد هذا التاريخ بعضها مع جمع وافر من العلماء، فقرئ به من كتب الحديث تبركا صحيح البخاري وصحيح مسلم والشفاء، وعند ختم الجميع آخر النهار حضر معنا السلطان بنفسه ووزيره وحاجبه الأنصح الأرشد، أبو عمران السيد موسى بن أحمد، وكان أُحضِر لكل من حضر فيها من أنواع الأطعمة المنتخبة، وصنوف الملاذ الطيبة شيء كثير، وبعد الختم لِما ذكر من الكتب جاءتنا جائزة عظيمة بمال كثير ففُرق على العلماء ساعتئذ، وأقبل جزء آخر من همته لتحويل نهر فاس وإحاطته بسور عجيب، وقد قدمنا أن همته فضفاضة لا يشغله كبار الأمور عن تفقد صغارها

---

1 يقال في المثل "أسرع من تَلَمُّظِ ورلٍ". وتلمَّظ: إذا تتبع بقية الطعام في فيه بطرف لسانه أو أخرج لسانه فمسح به شفته؛ واللُّماظة بالضم: البقية التي يتلمظها. والورل: بفتحتين، حيوان كالضب جمعه أورال وورلان. وهو سريع التلمظ. انظر زهر الأكم ج3 ص166

2 الوَكِيرة: دعوة إلى طعام تقام إذا فرغ الإنسان من بناء دار أو نحوها.

فصل في ذكر الراية التي عقد لأخيه مولاي علي

//229 ووقع فيها ما وقع مما هو سبب لإثارة الغضب على ولد البشير أُمسعود وما تسبب عن ذلك من قضايا عظام. وفي تلك المده عقد راية لأخيه الشريف مولاي علي في أوائل ربيع (كذا) من ذلك العام، ووجهه مع سرية جعل أمرها لمن قَدَّمه عليها وهو خادمه القائد عبد الرحمن بن علي الزراري الشليحي، وحاجب الشريف المذكور الطالب الجيلاني بن مبارك الدكالي وعليهما المدار، والقائد عبد الرحمن الزراري إذ ذاك متولي عمالة تازة، فخاضت تلك السرية برهبة المِلِك المؤيد جميع تلك القبائل التي كثرتها لا توازى، وأخذ من جميعها ما وظف عليها من جميع ما وجب عليها، فكان الابتداء بقبائل الحياينة ثم هوارة الحجر ثم البرانِس ثم التسول (1) ثم غياثة، وكان ابتداء التخييم عندهم على فرقة بني وجان، وبعد استيفاء المطلوب منهم توجهت السرية بجميعها ووفرها موفورة للمحل المسمى بدار الذبان (2) قرب تازة، للتخييم على قبائل بني بوقيطون وبني احمد، فخيمت هناك واستوفت ما عليها وما على جيرانها من هوارة ومكناسة، ثم نهضت السرية، بغاية الظفر والمزية، على تمام الأمن والأمان، محفوفة من جهاتها الأربع بهيبة //230 وسطوة السلطان، متوجهة لقبائل مغراوة وأولاد بوريمة والمطالسة وجزناية (3) وبني توزين وأهل تفريست وتمسمان وبني وليشك وبني سعيد وغيرهم (4). ثم توجه جيش السرية مصحوبا بكل أمنية قاصدا قصبة سلوان (5)، فحصل تمام المقصود إذ ذاك من الكَلعية وأولاد ستوت وكبدانة، وبني بويحيى، ثم تيمن ذلك الجيش بقصده، وتيمم بمقصوده قبائل الأحلاف (6)، حل بقصبتهم على واد

---

1 في المخطوط "الدسول" وهو تصحيف، وتسول قبيلة بإقليم تازة.

2 في المخطوط "الزبان" وهو تصحيف. وهذا الموضع يعرف باسم "مدينة البصرة المغربية" أو "بصرة الكتان" لأن أهلها كانوا ينتجون الكتان، أو "بصرة الذبان" لكثرة الذباب بها نتيجة كثرة القطن والألبان، وتعرف أيضا بالحمراء لحمرة تربتها؛ وهي واحدة من أبرز مدن الأدارسة، والتي أصبحت العاصمة الثانية لهم قبل أن تندرس خلال الفترة الأخيرة لنهاية حكمهم وتبقى قابعة تحت الأرض قرونا من الزمن، إلى أن اكتشفها فريق أثري أمريكي على الطريق الرابطة بين سوق الأربعاء الغرب ومدينة وزان على بعد حوالي 22 كلم من مدينة سوق الأربعاء الغرب، و40 كلم من شاطئ المحيط الأطلسي.

3 في المخطوط "جريانة" وهو تصحيف.

4 كلها قبائل ريفية شمال المغرب.

5 تقع قصبة سلوان حوالي تسع كلمترات عن بحيرة مارتشيكا بإقليم الناظور.

6 مجموعة قبلية تقع مجالاتها في شرق المغرب، وترجع أصولها إلى قبيلتي العمارنة والمنبات من ذوي منصور من قبائل بني معقل، انتقلت من جنوب الأطلس في الصحراء قبل أن تحط الرحال بالمنطقة الشرقية على ضفاف نهر ملوية ومنطقة وادي الزا.

زا حتى استكمل ما عليهم موظفا وما على جيرانهم من علاَّل (1) وبني بوزكَو والزكَارة، ثم ازداد الجيش وعظم باجتماع من ورد عليه ممن أُمر بذلك من تلك القبائل، فصار جيشا وافرا كبيرا، وجما غفيرا، بسبب ما زيد عليه من تلك القبائل بالأمر المولوي (2) زيادة في الحزم، وقد اشتغلت قبائل وجدة فيما بينها بالتحزب والعصبية، وحمية الجاهلية، لما حدث بينهم من الشحناء، ونشأ عنها من البغضاء. فقصد الجيشُ السلطاني، ذو الهيبة والوقار والقهر الصمداني، النزول بوادي بورديم قاصدا وجدة، ولعل الجيش لما حصل على غاية المنَى ونهاية المرغوب، وما فاته من جميع ما تقدمها أمر مطلوب، وقد كان إذ ذاك قليلا ثم كثر، تعجب من نفسه فجرت عليه عادة الله فيمن نسي وأَعجَبَتْهُ //231 كثرته أو قوته، قال تعالى (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين)، حيث قال قائلهم: لن نُغلَب اليوم من قلة، وجزموا أن ساء صباح أعدائهم المنذَرين، وتخلُّفُ الظّنِّ فيما مالت إليه النفوس من قوتها أَمْرٌ معهود، وقد سبقت العَضْبَاء (3) وكانت لا تُسبَق بِقَعُود، (4) فقال ﷺ: "[إنَّ] حقا على الله أن لا يرفع شيئا إلا وضعه"، وقد نسي هذا الجيش ذلك لما تتابع من تيسير الأمور الذي هو من نتائج هيبة السلطان وسطوته، وذلك التيسير كان مع عدم الكثرة، فقال فأحرى مع وجود الكثرة.

ولما بلغ أوائل جيش هذه السرية وادي بورديم وجدوا البشير أمسعود واقفا بجمع وافر من إخوانه ما بين فارس ورَجْل صَفًّا صَفًّا على شاطئ الوادي، ولم يتحقق أنهم أضمروا شرا، والغالب على الظن أنهم إنما قصدوا الاهتبال بالتلقي للجيش وقلبه الذي هو الشريف الموجه معه أخو سيدنا المؤيد، فكان أمر الله قدرا مقدورا، إذا أراد الله أمرا سلب من ذوي العقول عقولهم حتى ينفذه، فكان إذ ذاك القائد عبد الرحمن الزراري مع الشريف قلب الجيش في آخِرية الجيش كله فلم يقدما على أولية الجيش //232 حتى طال وقوفهم بغير بناء للقباب والأخبية، فصار ولد البشير أمسعود يتقدم بموكبه نحو الجيش يريد الملاقاة به، فبادره بعض ركبان الحياينة بالضرب بالبارود من غير داع ولا قاعدة، وربما كان ذلك مكيدة من الاحياينة، فصار كل من سمع البارود من الجيش يفر راجعا غير مبال براحِلَة ولا رَحلِها، فالكل تركوا ما لا يعينهم على الهرب.

ألقى الصحيفة كي يخفف رحله والزادَ حتى نَعلَه ألقاها

---

1 أي أولاد علال، وهو دوار تابع لجماعة أولاد ستوت في إقليم الناظور.

2 في المخطوط "الملوي". صححناها بما يبدو صوابا.

3 في المخطوط "العضواء" وهو تصحيف. روى البخاري في صحيحه: (كَانَتْ نَاقَةٌ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم تُسَمَّى: العَضْبَاءَ، وَكَانَتْ لا تُسْبَقُ، فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ عَلَى قَعُودٍ لَهُ فَسَبَقَهَا، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى المسْلِمِينَ، وَقَالُوا: سُبِقَتِ العَضْبَاءُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: إِنَّ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ لا يَرْفَعَ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ.) اهـ

4 القعود: الجمل البكْرُ إلى أن يصير في السَّادسة.

وفي الحقيقة ما قصدهم أحد أولا بسوء، نعم لما هربوا وتركوا جميع ما لديهم رجع الأمر كما تقول العامة "الهارب لا يعدم من يتبعه" والسر في ذلك هو أنهم أنستهم هيبةُ السلطان المنتِجَة ليَسيرِ جميعِ ما توجهوا له تقييدَ ذلك بالشكر. فلما فتح النبي ﷺ مكة وأكمل الله دينه، وأتم عليه نعمته، طأطأ رأسه شكرا لله حتى كاد أن يمس قادمة الرحل.

ففر الجميع وتُركت الأثقال والأمتعة كلها هناك، ولم يرجع الزراري والشريف لقصبة زا إلا بيسر جدا من الخيل، فلم يسعهم إلا أن زادوا على أيديهم لوادي ملوية فوصلوه في النصف الأخير //233 من الليل، فعرسوا فيه وأصبحوا مقيمين منتظرين تلاحق من تأخر من الجيش إلى الغروب، نهضوا لتازة وخيموا قربها بدار الزبان (1) إلى أن وجه لهم السلطان ما احتاجوا إليه من البغال والأخبية، وأذن لهم في القدوم لديه بفاس، فقدموه إليها في العشر الأواخر من شعبان من تلك السنة، فانطوت تلك الأمور كلها مع كثرة قبائلها وأرضها وسعة طولها وعرضها في نحو ستة أشهر تنقص يسيرا، فقدموا على السلطان وهو برسم المقام بدار الدبيبغ، وكان صادقُ فراسته أنبأه أن السبب إعجاب بعضهم بما رآه من سر السلطان، فغلط ذلك البعض ظنا منه أنه من عددهم، ولذلك لما وردوا عليه بدار الدبيبغ وهو برسم النزهة في أواخر شعبان كاد أن يقصيهم على ما سمعنا، بل نبذهم وأهملهم لما عَلِم من تفريطهم وإفراطهم. أما تفريطهم فمن وجوه منها: تأخر الرؤساء وأهل الرأي ككبير الجيش ومن يليه، وتقدم لفيف الناس من الذين لا رأي لهم ولا تدبير لذلك المحل المهم حتى ظلوا واقفين متحيرين، ومنها عدم استبراء الخبر حتى يتيقنوا بأي شيء لقيهم الناس هل بالخير أو بالشر، ومنها عدم ضبط الأمر حتى //234 سبق أوباش الحياينة لإيقاد الفتنة بغير ظهور داع لها، مع أنهم خاضوا جميع ما تقدم ذكره من القبائل بدون تشويش مَّا، ولا تقدَّمَ لهم وجه يفهمون منه إراده السوء، ويحتمل أن أولئك الرعاة الذين سبقوا لإيقاد الفتنة مقصود عندهم ذلك ولا غرابة، فهذه كلها وجوه من التفريط. وأما الإفراط فواضح من إفراطهم في الهرب بغير سبب وترْكِهم جميع ما لديهم، فإن أقصاهم مولانا المؤيد بالله فهم أحق بذلك لعدم تشبثهم، ولكن إذا نزل القدر عمي البصر.

فصل في ذكر سبب رجوعه عما كان عزم عليه من تقديم أخذ الثأر من قبائل الريف لواقعة الجيش مولاي علي وهو ما تواطأ عليه من أخبروه بما اختلقوه.

ثم نهض لمكناسة الزيتون في أول رمضان عام اثنين وتسعين ومائتين وألف، فأقام بها نحو الأربعة أيام لأجل ما شوش عليه الوشاة المشوشون، واختلقه المختلقون الأفَّاكون، مما يأتي قريبا إن شاء الله. فنهض من مكناسة مارا بجيوشه على طريق زمور الشلح فخيم بالسهول في الثامن والعشرين من رمضان المذكور.

---

1 سبق التطرق لها قبل قليل وأنها ربما كانت "دار الذبان" أو ما يعرف باسم "بصرة الذبان" أو "بصرة الكتان" أو "البصرة المغربية".

غريبة عجيبة: وفي تلك الليلة أي ليلة 235// التاسع والعشرين من رمضان في الساعة الحادية عشر منها جاءت فلوكة قاصدة جيش السلطان فيها رئيس العدوتين سلا والرباط برسم تضمن شهادة رجلين برؤية هلال شوال، فاعتقد السلطان والناس صحة ذلك، ولما أصبحوا تهيأ السلطان لصلاة العيد على العادة المألوفة، فنهضوا للمصلى وعبروا له الوادي من المجاز وصلوا فيه وأقاموا هيئة العيد المجتمعة كلها ورجعوا، وعند الاصفرار من ذلك اليوم قام الناس لترقب الهلال إلى مجاوزة الغروب بكثير مع غاية الصَّحو فلم يستهل، فتبين كذب الشاهدين، وأصبح الناس صياما فسُجِن الشاهدان وَلِيم القاضي على قبول شهادتهما، وهو السيد مُحَّد بن إبراهيم بِبِّزار. (1)

ثم إن ما تقدم هو تحصيل قضية السرية التي فرت من بني يزناس ونُهِب ما لديها وكانت السببَ فيما تسبب عنها من أمور عظام، وارتكاب مشاق جسام، كما يأتي بيانها. ولولا قدر الله في تلك الواقعة ما كان شيء من ارتكاب تلك الكُلَف الهائلة الآتية، التي أولها جَرُّ بحر خميس وجيش عرمرم بِصائِرِهِ ولوازِمِه لمراكش للقبض على أضعف القبائل وأسهلها عند الملوك، إذ ليس من شأنها من قديم 236// الزمان مقابلة الملوك بالشقاق كما يأتي بيانه، ودليله وبرهانه، إن شاء الله، وهي قبيلة أولاد أبي السباع، ولا واقعة غياثة كذلك، ولا ارتكاب مشقة المسير لوجدة في زمن صعب جدا.

بيان ذلك أن السلطان المؤيد لما بلغته تلك القضية، قضية انهزام ذلك الجيش، وملأت سمعه، أغضبته غضب الأسود، وحكم لها بحكم المدلهمات السود، فتحفز لأجلها تحفز الأسد للوثوب، بحيث لا يُراجَع في أمرها ولا يرجع فيها عن أخذ الثأر ولا يؤوب، فانتفض (2) لها انتفاضة جَدَّيْهِ، وبلغ من عزمه على الخروج ما لاحت أَمارته على وجنتيه وخديه. ولما سمع بذلك بعض العمال بحوز مراكش، الذين يبغضون أولاد أبي السباع بغضا شديدا، الذين يتمنون لهم كل قارعة، ويرجون لهم إذ ذاك أكبر صاعقة، وهم في تلك الحالة الراهنة موقدون نار الفتنة مع جيرانهم من البربر ونهبوا بعض عُمَّالهم واستهانُوه وأهانُوه، فصارت مكاتبُ أولئك العمال ورسلُهم على السلطان تترا، بما يوغر صدره من الكذب والإغراء، من كثرة مكاتبهم وبهتانهم عليه، وأخر لذلك ما كان مقدما لديه، فثنى عنان عزمه، عما كان أكبر 237// قصده وهمه، فأبدل النهوض لوجدة بالنهوض لمراكش لأجل ما ملأ سمعه، وأوغر صدره، مما بلَّغوه عمن ذكر، فجاء يجر بحر خميس، يؤم مراكش كما تقدم.

ولما جاوز رباط الفتح بعدما أعادوا العيد وصلاتَه، مر على طريق الشاوية وعلى جهة بني مسكين وعبر الوادي من مشرع ابن خَلُّ. (3) ولما وصلوا تملَّالت خيَّموا بها تسعه أيام، وهو في ضبط الأمور فيها على غاية حسن التدبير والإحكام، والتمهيد لأمر الرعية والإبرام، فرض على الرحامنة فيها العسكر على وجه الإلزام، ولم ينفعهم فيها عذر إلا القبول والقيام،

---

1 كذا في المخطوط، ولم نتمكن من ظبط هذا اللقب.

2 في المخطوط "انتفاض لها انتفاضة".

3 يقصد بني خلوق أو بني خلوك كما هو معروف حاليا.

وفي تلك الأيام ولا عليهم العمال، ولا على البرابيش عباس الزبيري، وعلى أولاد بوبكر منهم عبد الحميد، وعلى سَلام الغرَّابة ولد العظم، وعلى أولاد الحسن الحاج المامون، وعلى العطَّاية وَيگوت النَّاجم.
ولما وقع بجميع من ذكر الاهتبال، وحصل التنجيز والامتثال، نهض منها في اليوم العاشر وخيم بزاوية سيدي عبد الله بن ساسي السباعي.

فصل في ذكر مقدمة سجن أولاد أبي السباع

هذا وكان قدم الأمر لخدامه أولاد أبي السباع بالزحف //238 والاجتماع لقرب مراكش قائلا لهم للتضييق على بعض ثوار البربر، وهو مُحَمَّد الكنتافي، ليبادروا أمره بالتلافي، لما صدر منه من الطيش، فأيقن حينئذ جميع أهل الميز منهم أنهم ما جاؤوا إلا للسجن، لأنهم قد تقدم لهم مثل ذلك مع السلطان سيدي مُحَمَّد بن مولانا عبد الرحمن، قدس الله أرواحهم في الجنان، وأيقنوا بذلك، لكن علموا أن لا مناص، وليس لهم من ذلك خلاص، فامتثلوا واجتمعوا قرب باب الربوة من مراكش عند الصهريج المعروف بصهريج البقر.
ولما حلت جيوش السلطان بزاوية سيدي عبد الله بن ساسي وتلقته القبائل، تلقته من جملتها أولاد أبي السباع، وليلة مبيت الجيوش ثمة وقعت قعقعة عظيمة، وزلزلة كأنها صيحة هائلة أو صاعقة جسيمة، اهتز منها الجيش اهتزازا كبيرا، بل راج وماج ووقع فيه هرج لم يتقدم نظيره، حتى انطلق جل الخيل من مرابطها وثاب بعضها على بعض، وجمح كثير منها ليلا كل إلى ناحية بحيث لا يهتدي لاتِّباعه بمكان الظلمة وشدة النفور، فمنها ما أُلفِيَ في طالعة القهار، ومنها ما أُلفِيَ آخرته، ومنها ما لم يُوقَف له على أثر ولا خبر ولا قرار، قيل ومنها ما أصبح بوادي //239 أم الربيع ومخلاة علفه برأسه وهي عِبرة كأنَّها غَبرَة.
فدخل مراكش في غرة ذي الحجة متم اثنين وتسعين ومائتين وألف ولم يمكث بها إلا نحو خمسة أشهر، ومن ثمة والقبائل تحيي الملك بمعهود تحيته، وأولاد أبي السباع يُؤخرون نحو من ستة أيام أو سبعة، فاشتد يقينهم بما كان سبق لقلوبهم مما أضمر لهم من وقوع المصيبة بهم، ولما تهيأ السلطان للقبض عليهم، أفرد لهم يوما وجلس فيه بمنتزهه بقبة السويرة، فأمر بمجيئهم حتى مثلوا أمامه، فأمر بالقبض عليهم فقبض جميع أعيانهم ومن جاء معهم فكان الجميع قرب المائتين، فأودعوا سجن زبَّالة النصراني حتى ماتوا كلهم بها إلا نحو الأربعة نفر أمر السلطان بتسريحهم، فحصحص الحق بالواقع، وتبين وقوع الأمر الذي ليس له مِن دافع، أن مولانا السلطان المؤيد ما ثنى عنان عزمه عن شأن القضية اليزناسية إلا لإخماد فتنة أولاد أبي السباع مع جيرانهم ليس إلا، وإن كان لولا ضيق الزمان وضيق الصدر لِمَا تراكَمَ، لو توسع في الفحص واتباع القرائن لعلم يقينا أن جل ما توطأ (1) عليه //240 العمال الواشون به محض افتراء، ما فيه من مراء، نعم يعلم هو أيده

1 تَوَطَّأَ المتنَازعانِ عَلَى الأَمْرِ: وَافَقَ كُلٌّ مِنْهُمَا الآخَرَ عَلَيْهِ، تَوَافَقَا.

الله وأسلافه المقدسون أن جاري عادتهم، ومألوف عملهم على شاكلتهم، مهما وجدوا السبل لِشَانِئِهِم من جيرانهم، شدوا له سهام حربهم لا غير، ولا يتعدون ذلك لشيء مَّا إلا ما يجر ذلك من إخافة السُّبُل حواليهم، وأما ما يرجع لشق عصا الملوك فلا يحومون حوله، ولا يسومون نَوله، وهذا أمر معروف، بل يزعم أولهم وآخرهم أن جدهم عامر الهامل المُكَنَّى أبا السباع، دعى عليهم بذلك وأنهم لا يَسعَوْن فيما يشبه ذلك، وقد قامت على ذلك قرائن منها ما هو قريب الوقوع ومنها ما بلغت حد التواتر حكايتُه، فمن الواقع قريبا ما شُوهد يقينا في ابتداء نصر مولانا وسيدنا مُحَّد بن مولانا عبد الرحمن سنة ست وسبعين ومائتين وألف، وذلك لما شمر القائد عبد الله أوبيهي الحيحي عن ساعده وَساقَي جِدِّهِ في تخريب دار عامل امتوكة بجميع قبائل حاحا حتى نال من ذلك غاية قصده ومراده، وبعد ذلك تأسَّد وأظهر الإعجاب بعدته وعدده، وألزم أولاد أبي السباع أن يُخرِجوا له جميع الفارين من متوكة لديهم //241 حتى يتمكن منهم ليصير الجميع تحت قهره، فأبوا وقالوا له هذه مَعرَّة وعار لا ترضاه العرب ولا الأعراب، فلا يطردون من أبوابهم حتى الكلاب، فقام وقعد، وأزبد وأرعد، وقال لهم يَعُمُّكم ما يعمُّهم، فإن لم ترفعوهم جميعا رفستُكم ذُلاً وصَغارا، فعند ذلك قالوا له كما في المثل "إن كنت ريحا فقد لقيت إعصارا"، وهم حينئذ غاية ما لديهم من الخيل كبيرها وصغيرها إناثا وذكرانا دون خمسمائة، فجمع لهم قبائل حاحا اثنتي عشرة قبيلة كل قبيلة إذ ذاك تعدل وحدها أولاد أبي السباع، قبائل نَفيفة ودمسيرة وكل من يأوي إليه من غير من ذكر، وقيض لهم من الناحية الأخرى قبيلة مجَّاط ومن أعانهم من غيرهم من أخلاط القبائل كالرحامنة وغيرهم، وكل ذلك لم يُفِد فيهم، بل صدوا الجميع وقهروهم، بل هزموهم وذلك مرارا عديدة، حتى غلبوهم، وتركَّب على ذلك زيادتهم في طيشهم وفسادهم وإفسادهم، وانتشر ذلك في جيرانهم، حتى قدم السلطان ابن السلطان سيدي مُحَّد ابن مولانا عبد الرحمن لمراكش ونار فتنتهم موقدة، وعلى جيرانهم وسبلهم موصدة.

فلما حل السلطان بمراكش وهو على بصيرة ويقين //242 مما علم أنهم لا يشاقون الملوك بوجه، ولا يتقون بأسهم حتى بأيديهم، عند ضرب الملوك إياهم أو عبيدَهم، كما يتقي كل من يُضرَب، ولذلك أقصى ما قابلهم به قدس الله روحه والحالة أنهم على نهاية قوتهم، وخائضين في فتنتهم، أن وجَّه لهم خادمه الطالب بوعبيد الشرگي مع شرذمة قليلة من أعوانه لعلها لا تبلغ المائة، فبعث إليهم وجمعهم في صحراء من الأرض يقال لها بُوجْمادى (1).

ولما اجتمعوا خَيلا ورَجلا أخذ في قبضهم وتكتفيهم من غير أن يتقي أحد بيده، بل ولا فر من عنده، حتى أوثق منهم القدر الذي أمر بشد وثاقه وساقهم للسجن بمراكش، وهذا مكان الشاهد وهو المقصود بسوق الحكاية ومساقها استدلالا على صدقها وأنهم لا يسعون في شقاق الملوك أصلا، وتلي هذه القضيةَ القضيةُ المارة آنِفا قبلها من سجنهم، فإنهم قدموا عليهم موقنين بأنهم ساقوا أنفسهم إليه، وهم متمكنون من الهرب والفرار، إما لأرضهم الصحراء أو غيرها من الصحاري والقفار. وأما ما كان قديما وبلغ حد التواتر قضيةُ إجلاء سيدي مُحَّد بن عبد الله إياهم، فإنهم أوقدوا نار الحرب مع القبائل السوسية كلها لكون تلك القبائل //243 السوسية كانت استضعفتهم في مدة قبل ذلك وقابلتهم بالنهب

1 توجد بوجمادى بإقليم شيشاوة.

والإهانة كما يأتي في مكاتبة ولي الله سيدي مُحَّد بن ناصر لهم في ذلك، ولذلك قاموا لأخذ الثأر في القتال معهم ومع جيرانهم الشياظمة في حكاية طويلة، حتى كَلَّ جميع من يقاتلهم.

ومن جملة ما يُحكَى شائعا ذائعا ولم نزل نسمعه متواترا من غير منكر له أنهم وقعت بينهم وبين جيرانهم الشياظمة واقعة وقعت فيها الهزيمة على الشياظمة، كثرت فيها القتلى حتى عُدَّ في الشياظمة مائة عائشة حادَّة على زوجها فيها، أي مَن اسمُها عائشة دون من اسمُها غير ذلك، وهذا لازال يذكر الآن، وعلى فرض الزيادة فيه فلا أقل أن يكون الجُل منه حاصلا، وسيدي مُحَّد بن عبد الله كان يحبهم حبا شديدا لأنه كان بين ظهرانيهم حتى في الصحراء في عُنفُوان شَبابِهِ قبل إفضاء الخلافة له، وكان متزوجا منهم حال الخلافة وكان يحاورهم ويجاريهم بأشعارهم الملحونة، وكثيرا ما كان ينهاهم عن ذلك ويتوعدهم بحلول ما يكرهون، وهم عن ذلك في سكرتهم يعمهون، اغتروا بما سلف من الصَّفا، وغابوا عما سعوا فيه من الجَفا، فانحرفوا عن نهج السلوك، وغابوا عن بطشة الملوك //244 ولما أيقنوا بتصديه لهم، لم يعتمدوا سوى على الفرار، ولم تبق لهم في أرضهم نية قرار، فجمعوا قضهم وقضيضهم ورحلوا آمِّين (1) سوس الأقصى ثم الصحراء، وتحملوا حرب تلك القبائل كلها لهم عن يمينهم وشمالهم، ومن خلفهم وأمامهم. ولما وطئوا إيمي نتانوت وجدوا البربر كله سده دونهم بإقعادهم فيه المقاتلة المِتَتَرّسِين بالجبلين الشامخين ومضيقهما وسفحهما، فلم يسعهم إلا أن دفعوا من يقابلهم وأَزَفُّوا الرحيل [إلى] (2) الجبَل من جهة أخرى صعبة جدا، فخلصوا نجيا لسوس، ومنه تفرقوا على الأقطار حتى صارت منهم فرقة بالغرب وبجبال جبالة وتافيلالت وغير ذلك، وما قط واجهوا ملكا ولا رُسُله ولا أعوانه بشقاق، بل يواجهون كل القبائل الكبار التي تواجه الملوك بالشقاق، ففي التواريخ والمحفوظ عند الناس أنه قَلَّت قبيلة لم تواجه الملوك بالشقاق سواهم، وواجهتهم قبائل دكالة في القديم بذلك في أيام ابن العربي وقبل ذلك وبعده، وواجهتهم أيضا بالشقاق والضرب قبائلُ عبدة، ووقع بعض ذلك في القديم من السراغنة والشاوية والشياظمة، وما سُمِع من أول الزمان إلى الآن واحد من الملوك وجه سرية لأولاد أبي //245 السباع من عنده جَلَّت أو قَلَّت فقابلوها بالشقاق فضلا عن أن يقابلوا الملوك، فغاية ما يرتكبون أنهم إذا ثارت ثائرة بينهم وبين جيرانهم أو أخذوا في شَنِّ الغارات عليهم يتجاوزون في ذلك الحد، وإن نهُوا عن ذلك لا يَنْتَهون طلبا لأخذ الثأر، ومهما رأوا عَزْمة من المُلوك هابوا وخافوا وانكفُّوا ويُوَلون الأدبار.

فأول فتنة سَعَّروا نارها في هذا الأفق وآخرها القضيتان المشهورتان في زمن السلطانين المحمَّدَين، سيدي مُحَّد بن عبد الله وسيدي مُحَّد بن عبد الرحمن قدس الله أرواحهما في الجنان لا غير.

فشرحُ الأُولى: كان سيدي مُحَّد بن عبد الله جال في الصحراء ومازجهم كل الممازجة حتى أُشرِب الحبُّ في القلوب من الجانبين، وعند ابتِداء نَصره ظهر أثر المحبة جدا من الجهتين، وعند تمام النصر والتمكن عاملهم بفضفاض الإحسان، وإسبال سوابغ النِّعم والامتنان، وتزوج منهم شريفة ظريفة بليغة اللسان بارعة الجمال اسمها خديجة، ويسميها هو في

1 آمِّين: أي قاصدين.

2 ما بين المعقوفتين إضافة يقتضيها السياق. وأزفُّوا: من أَزَفَّ الرَّجُلُ فِي طَرِيقِهِ: أي أَسْرَعَ الخُطَى.

مغازلتها وتغزُّلاته بها خدُّوج أم الدُّمُوج (1) على عادة العرب، وله فيها أشعار وتغزلات ، ولها له أجوبة بالغة لازال بعضها //246 يتداول عند بعض الناس، ولعله القائل فيها:

أهلكتنا سوالف وخدود وعيون مدعجة رقود
مَلَكَتنا الظِّبا وهي أذِلة خضعنا لها ونحن أُسُود

وكان سيدي مُحَّد بن عبد الله يكرم علماءهم، وأهل الفضل والرئاسة منهم، ويجمعهم ويجتمع بهم، فاغتروا بما رأوا من محبته وفضله، وغفلوا عن وصية الحكماء القائلين فيها: "إذا زادك السلطان إكراما فزده إعظاما، وإذا جعلك ولدا فاجعله سيدا، وإذا جعلك أخا فاجعله والدا، ولا تديمَنَّ النظر إليه..." إلى آخرها، فقدر الله أن ثارت الفتن بينهم وبين القبائل السوسية ورأسها "إِدَّاوبْلاَل" (2) وبينهم وبين الشياظمة، وتَناشبتهم القبائل ونشبُوها، ونشأ عن ذلك خوف السافِلة، وانتهاب أموال ذويها من ذاهبة وقافِلة، والسلطان سيدي مُحَّد بن عبد الله يراسلهم بالنهي والتهديد والإيعاد، وهم في مقابلة القبائل بالمقاتلة في الازدياد، وتمالأت القبائل السوسية بحَمِيَّة الجاهلية من شن الغارات من كل جهة عليهم، ونهب أموالهم ومواشيهم، وكانت تلك القبائل تمالأت في مدة قبل هذه على //247 إيقاعهم بأولاد أبي السباع ونهب أموالهم وإهانتهم بشن الغارات عليهم، وكتب لتلك القبائل إذ ذاك ولي الله العارف بالله سيدي مُحَّد بن ناصر الدرعي ﷺ وأرضاه ما نصه كما وُجِد بخط الناقل الثقة من خطه مباشرة:

الحمد لله، من مُحَّد بن ناصر كان الله له إلى فرقة الضلال من عَرب وأتْباعهم على الغي من أولاد ادليم، أخص منهم رأس كل خطيئة فلان وفلان، إلى آخر من سمى من الجماعة، سلام على من اتبع الهدى. أما بعد، فما لكم عن التذكرة معرضين، مالي أراكم في غيكم متمادين، أفلا تثوبون إلى الله وتستغفرون، كأنكم بالآخرة لا توقنون، وبآيات الله تستهزئون، كيف تعمِدون إلى ركن من أركان الدين، وبقية الخير والبركة والرشد من جماعة المسلمين، أولاد أبي السباع الذين شهدت بفضلهم سكان الأرض وعمارها فنهبتم أموالهم، وهتكتم حرمتهم، إني لعملكم من القالين، وإني بريء مما تعملون، فإما أن تتوبوا إلى الله وتردوا عليهم ما نهبتم إلى آخر فتيل، وإلا فاذنوا بحرب من الله ورسوله وأوليائه وذُلٍّ مسجل عليكم وعلى ذراريكم إلى يوم الدين اه بلفظه //248 من خط الخليفة سيدي أحمد. وتلك العداوة المتقدمة هي الحاملة لهم في زمن سيدي مُحَّد بن عبد الله على عدم الانتهاء حين نُهوا. وقد وقع لهم، أي لتلك القبائل، وحل بهم حقيقة ما توعدهم به ﷺ، فكان إذ ذاك أقوى من تصدى إليهم إداوبلال وكانوا قبيلة كثيرة، ذات بأس وشوكة كبيرة، فمن ثم انكسرت شوكتهم، وتقلقلت قوتهم، وقَلَّت كثرتهم، وحلت بهم المصائب، وتناولتهم النوائب، حتى أضحوا وصاروا لا يُذكَرون من القلة والعالة، وشُتِّت شملُ أولاد ادليم ومن معهم من السوسية، وأيُّ تشتيت، في قضية زاوية الشرادي

---

1 الدَّمَجُ : الضفيرةُ.

2 إداوبلال: هو دُوَّار يقع بجماعة تالكجونت، إقليم تارودانت، جهة سوس ماسة في المملكة المغربية.

الشهيرة، فظهر في الجميع مصداق وعيد ولي الله سيدي مُحَّد بن ناصر ﷺ، وقد ذهب ﷺ في ذلك مع عدم تنقيص أولاد [أبي] السباع في فعلهم مذهب أكابر العلماء العارفين، العاملين بالسنة العاملين، كيف لا وهو ﷺ وأرضاه من الأولياء العلماء المتمسكين بأقوم الطريقة، الجامعين بين الشريعة والحقيقة، خلافا للكنسوسي الذي أطلق فيهم وفي غيرهم لسانه وقلمه، كأنه ما رأى قط الوعيد في ذلك ولا سمعه ولا علمه، ولا درى ما فرض الله لهم من المحبة وكف الأذى 249// ولا فهمه ولا سمع قول الحكماء: من استخف بشريف دَلَّ على لُؤم أصله، ومن مال إلى سخيف أبان عن ضعف عقله. ولا يخفى أن هذه الحكمة مستنبطة من الكتاب ومأخوذة من السُّنة، انظر إلى قول الإمام الشعراني كما في "العهود والمواثيق" الذي اقتفى سيدي مُحَّد بن ناصر سبيله وسَنَنه: فأما أولاد فاطمة ﷺ فإنهم بضعة من رسول الله ﷺ كما ورد، ولا ينبغي لمسلم أن يُدخِل بضعة من رسول الله ﷺ تحت أمره وتصريفه كما يفعل بالمريدين من آحاد الناس، ومن فعل ذلك من الفقراء فهو دليل على جهله بالواجب فضلا عن الأدب، فإن الله تعالى جعل الشريف أعلى درجة منا اختصاصا إلاهيا لا بعمل عملوه، ولا بخير قدموه، بل لسابق عناية من الله عز وجل لهم. وتأمل قوله عز وجل (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) أيظهر لك ما قلناه؟، فإنه لا رجس أرجس من المعاصي، فذنوبهم إنما هي ذنوب في الصورة لا في المعنى، لعدم مؤاخذة الحق لهم بها، فأي شيخ يدعي هذا المقام له، ولو توقفت المغفرة لذنوبهم على توبتهم لم يكن لهم مزية ولا اختصاص على غيرهم فافهم.//250

ثم لا ينافي كونهم مغفورا لهم إقامة حدود الشريعة عليهم، لأنه ﷺ شهد لماعز بقبول التوبة ومع ذلك رجمه ولم يرحمه، وقال: "لقد تاب توبة لو قُسِمت على أهل المدينة لوسعتهم"، فنهاية ما يصل إليه السالكون من الشرف دون مرتبة الشرفاء في الدرجة، ونحن نستحي من رسول الله ﷺ أن تكون لنا ولاية على من جعله بضعة منه، فافهم. فطريق الشيخ في تربية الشريف أن يَعُدَّ نفسه خادما للشريف، ثم ينصحه بكلام جده ﷺ فقط دون كلام غيره من العلماء مما تولد من أفهامهم. اهـ لفظه.

وقال في العهود والمواثيق: أُخِذ علينا العهد أن لا نَكره أحدا من المسلمين بحظ نفس. ثم قال: هذا العهد في حق الأجانب من الأمة، فكيف بأولاده ﷺ وذريته وأنصاره وأصحابه، وكيف حال من يؤذي الشرفاء ويشتكيهم لبيوت الحكام، ذلك والله من علامة الشقاء نسأل الله العافية، فإن كره شريفا فكأنه كره عضوا من أعضاء رسول الله ﷺ من غير تعيين، فينسحب الأمر على ذاته الشريفة كلها، اهـ بلفظه.

وفي قواعد القرافي ما نصه: القاعدة الخامسة عشر التفضيل 251// بين الأنساب والأسباب، كتفضيل ذريته عليه السلام على جميع الذراري بسبب نسبهم المتصل برسول الله ﷺ، وكتفضل نسائه ﷺ على جميع النساء، كما قال تعالى (يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن) ذلك بسبب النسبة إليه ﷺ والاختصاص به، وإن كن في هذه النسبة متفاوتات اهـ لفظه. ولا يشكل هذا بضميمة (يضاعف لها العذاب ضعفين) لما قرر العارفون من أن أهل السعادة على صنفين، صنف منهم السعيد والآخر الأسعد، فالسعيد من أهل الجنة والأسعد من أهل الله، فإذا صدرَت من السعيد معصية وأعطي بها عذابا واحدا فيكون من عذاب الجحيم، وإذا صدرت من الأسعد معصية يضاعف له العذاب ضعفين

بنقص في درجة من الجنة ونقص مرتبة من القرب اه ومنهم من قال: الآية على حدِّ (لئن أشركت ليحبطن عملك)، وتوجيه من حملها على الظاهر ظاهر، وفي كتاب الله عز وجل وقول رسول الله ﷺ ما يكفي مُجرِّحا للكنسوسي ومنقصة عظيمة فيه، وناهيك بأمر الله لنبيه ﷺ (قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى) وجعله ﷺ 252// أهل بيته أحد الثقلين الذين من قام بحقهما لن يضل، ومن ضيع حقهما أو أحدهما ضل.

وفي صحيحي البخاري ومسلم ما حاصله عن أبي عمران أن أبا بكر قال: "ارقبوا مُحَمَّدا ﷺ في أهل بيته".

وعن زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ قال: "إني تارك فيكم ثقلين كتاب الله وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي". اه وهل يخفى على ذي بصيرة سالم العقيدة عِظَم موقِعِ هذا، فقد قرن أهل بيته بكتاب الله وأكَّد تذكيرَ الله فيهم بالتأكيد والتكرار، أي لكن أذكركم المودة في قرابتي الذين هم قرابتكم فلا تؤذوهم فمودتهم من فرائض الدين، وأي إذاية كتسطير الكنسوسي ذَمَّهم وسبَّهم في بطون الكُتب كفادِحِ ذَم غيرهم مما سَيُتلى بعضُه بلفظه.

وقال المفسرون عند هذه الآية: وعنه عليه السلام: "حَرمت الجنة على من ظلم أهل بيتي وآذاني في عترتي"، ثم قال: "ألا ومن مات على حب آل مُحَمَّد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمن، ألا ومن مات على حب آل مُحَمَّد مات على السنة والجماعة، ألا ومن مات على بغض آل مُحَمَّد جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله" اه الخ 253// وهناك من الوعيد شيء كثير تركناه تجنبا عن زيادة التطويل، ولا بأس باشتمال التاريخ على الفوائد الخارجة عنه. وبِعِلمِ هذا علما ذوقيا يقدُر العاقلُ وليَّ الله سيدي مَحمد بن ناصر قدره، ويعرف مكانه من التضلع بالسنة وشأنَه في ذلك الأمر الذي علا به ذكره وفخره، لم يَر بِفَحوى خطابه فعلَ جانب المنتسبين لبيت الرسول نقصا فيهم، ورأى فعل الآخرين من الكبائر.

ولله در صاحب هذا التاريخ سيدنا ومولانا الحسن، فإنه لما وقف على تأليف الكنسوسي المسمى بالجيش العرمرم (1) وقال: هذا مَحشُوٌّ بالسَّبِّ الذي وصل بعضه إلينا. ولقد صدق لأنه سب جل الرعية وسب العبد فيه إيماء لنقص سيده. ولهذا المعنى أمر أيده الله مقيد هذا التاريخ جازما كما في شريف كتابه أن لا يقتفي سبيلَه، وأن يتجافى عن صنعه كل التجافي. اه

<u>**رَجْعٌ**</u>، ولما لم يَنتَهِ أولاد أبي السباع، أمَرَ سيدي مُحَمَّد بن عبد الله قدس الله روحه القبائل كلها بالتوجه إليهم لضربهم، وانتهاب ما لديهم من متاعهم وكسبهم، زجرا لهم ولأمثالهم، وعند ذلك أجمعوا أمرهم وجمعوا رأيهم، وتوجهوا 254// قضهم وقضيضهم راجلين لسوس الأقصى ومنه للصحراء، والقبائلُ في غاية التناوش لهم، وهم يدافعونها بالضرب والطعن إلى أن خلصوا نجيا لسوس، وبعد ذلك تفرقوا، وهذا سبب تفرقهم وافتراقهم، فهذه هي المرة الأولى الصادرة منهم في هذه

1 الجيش العَرَمْرَم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي، وهو أوفى كتاب في تاريخ الدولة العلوية إلى الآن، حسب قول عبد القادر زمامة في ص123 من العدد الرابع من مجلة دعوة الحق - السنة العاشرة - مارس 1967 (عدد خاص بمآثر الدولة العلوية)

القرون كلها التي جعلها الكنسوسي أساسا بنى عليه أسوار الطعن فيهم والسب والتنقيص، مع أن من قابلها بوقائع القبائل الشهيرة عند الناس وجدها لا يقام لها عند ذلك وزن ولا يظهر معها قياس.

ولما أفضت الخلافة لمولانا سليمان رحمه الله تراجعوا وقابلهم بالعفو والاحترام، إلى أن أفضت الخلافة لسلطان الأولياء مولانا عبد الرحمن بن هشام فزاد في احترامهم وتعظيمهم ورعاية نسبهم وما يستحقه، حتى إنه لا يكلفهم بشيء مما تُكلَّف به العامة عدى الزكاة الشرعية بوجهها، وإن توجه بجيوشه لجهة لا يكلفهم بسوى خمس وعشرين فارسا ويقول لهم: ذلك القدر منكم عندنا بمنزلة المئين من غيركم، وفي كل عيد وهدية يخاطبهم عند الوقوف أمامه بقوله: أنتم منا وإلينا، ولا يؤاخذهم بجريمة حتى قُدِّسَ قدَّسَه الله في أعلى //255 الفردوس، وفي فتره تقديسه هجم عامل حاحا عبد الله أوبيهي على قبيلة متوكة وفتك بها وبمحارمها فتكا شنيعا، وطرد عاملهم مُحَمَّد ولد موسى طردا ذريعا، وهَدَّ دارَه فالتجأ جل متوكة لأولاد أبي السباع حتى دخلوا معهم في مساكنهم وخيامهم، ومع ذلك أبى أن يرجع عنهم، فحشد قبائل حاحا كلها كما مر قريبا، وقبائل نفيفة ودمسيرة، وأمر الجميع بالزحف إليهم، يقول لهم: إما أن تطردوا من عندكم من متوكة وإلا حل بكم ما حل بهم، وأغرى بهم مجاط وبعض جيرانهم من ناحيتهم فقالوا له: ما أمرتنا به لا ترضاه العرب ولا نرضاه، ولقد صدقوا، فإن كرام العُربِ تحمي كلابها سيما الجار، الطالب الاستجار. وقد حمى مدلج بن سويد الطائي الجراد لما بات بجانبه حتى ضُرِب به المثل فقيل: "أحمى من مجير الجراد"، وذلك أنه كان جالسا في جانب خيمته ذات يوم فرأى قوما من طيء قد أقبلوا ومعهم الأوعية فقال لهم: ما شأنكم؟، فقالوا: نريد أخذ جراد بات بفِنائك، فقام وتسلح وركب فرسه وقال لهم: يبيت بفنائي وتأخذونه، والله لا يتعرض له واحد منكم إلا قتلته، فحماه حتى طلعت الشمس وطار، فقال الآن //256 شأنكم وإياه اهـ وبهذا السبب الذي هو منعُهم جيرانَهم منه انتشرت الفتنة وتسعرت نار الحرب بينهم وبينه، وجاءهم بالضِّحِّ والريح (1) كما في المثل، أي جاءهم بجيوش كثيرة فلم تُغْنِ عنه كثرته وقوته شيئا، وضعُفت قوته، وذهبت سطوته، وخابت فيهم أمنيته، فصدق عليه المثل "جاء على غُبَيْراء الظهر" (2) أي لم ينجح سعيه ولا ظفر بحاجته، فرجع بخفي حنين، وأيضا فإنها شنشنة أنصارية بدون مين، فالتفتوا لمُعِينِيه -قبيلة مجاط- فأخرجوهم من أرضهم، استأصلوا ما وجدوا من زروعهم وعَرَضِهم، وبقي الأمر على ما كان حتى جاء الخليفة مولانا مُحَمَّد من الغرب بعد سد ثلمته الواقعة بسبب ضرب الكافر الصبليون تطوان.

ولما حل محل كرسيه بمراكش وجه لهم كما تقدم خديمه الطالب بوعبيد الشرگي مع شرذمة قليلة من الخيل فلم يواجهوه إلا بتسليم أنفسهم بالانقياد له، فأتى بمساجين عدة، وانقادت طائفة أخرى لمراكش موقنة بالسجن فسُجِنت، وفي الحين سأل السلطان عن أهل العلم والفضل منهم، ولما عُيِّنوا له سرحهم في الحين، ثم بعد ذلك سرح الجميع وعاملهم ببعض

---

1 قولهم "جاء بالضِّحِّ والرِّيح" معناه: جاء بكل شيء، وقال ابن الأعرابي: الضِّح: ما ضحا للشمس، والريح: ما نالته الريح. وقال الأصمعي الضِّحّ: الشمس بعينها.

2 الغُبَيْراء: تصغير الغَبْراء وهي الأرض.

الزجر والتطهير 257// لهم، مراعيا في ذلك نسبهم وانتسابهم، ولم يتقدم لهاتين غيرهما، وما ذُكِر هو حقيقه صورتهما الواقعة، ليس في ذلك نقص ولا زيادة لا في البدء ولا في الانتهاء ولا في الإعادة، وجمهور شهودها من كل الناس لازال حاضرا لم يلحقه عدم، وما بالعهد من قِدَم، وعند هذه الأخيرة من القضيتين خَرط الكنسوسي سنانه، وقلمه ولسانه، وقال فيهم قول من لم يَقدُر آل البيت قَدْرَهم، ولا راعى لهم حرمتهم، فجعلهم عنصر الغواية والغي وإخوان كل شيطان، مع علمه بانتسابهم لآل الرسول، من ذرية فاطمة البتول، وعلمه من قديم العصر أنهم أكثر القبائل علماءَ وفضلاء، وأكثرهم قراءة وإقراء، رجالا ونساء، مع كثرة العفاف، وإكرام الأضياف. ولعمري إن ما صدر منه فيهم وفي غيرهم مما يأتي ذكره بلفظه لا يصدر ممن في قلبه رائحة الإيمان فضلا عن أن يكون في قلبه مثقال ذرة من محبة الرسول صلى الله عليه وسلم وأهل بيته، وَهَا كلامُه باللفظ من غير زيادة ولو حرفا يُسطَّر، هذا ليس العيان كالخبر، وعند ذلك يعلم كل راء أني لم أَنْحُ نحوَه بالتحامل، ولا لي شهوة في تنقيصه أو تنقيص غيره بالجهل والتجاهل، 258//

فصل في ذكر بعض مقالات الكنسوسي بلفضها في ذم جملة من الناس فيهم أهل فاس، وبعض الرد عليه زيادة على ما تقدم.

ونص كلامه في هؤلاء الأشراف، المعروفين بين سائر القبائل بالدين والعفاف: وكان مولانا نصره الله وجه أخاه مولانا عبد القادر يربط بالمحلة والعسكر على أهل الدير الذين أطلقوا الأعنة في مجال الفساد والطغيان، أولاد أبي السباع، فإنهم منشأ كل فتنة وقعت في الحوز من قديم الزمان، وكان السلطان الناصر للدين سيدي مُحَّد بن عبد الله رحمه الله أخرجهم منها أذله وهم صاغرون، ثم تراجعوا في الفتن التي كانت بعد موته وفي هذه أكثر، فإنهم أعوان لكل من أراد الفساد وضعف عنه، وإخوان لكل شيطان مَريد يُستعاذ منه، فهم الذين أشأموا متوكة حتى خربت ديارهم، وهم الذين أوقدوا نار الشياطمة فأحرقتهم نارهم، وكذلك مزوضة وكدميوة مساعير تلك الشرور كلها، ومصادر جميع الفتن قُلها وجُلها انتهى لفظه (1).

انظر أيها العاقل ما اشتمل عليه 259// من محض الكذب الواضح من تناقض قوله، وفي الحكم: شر القول ما ناقض بعضه بعضا. وانظر قبح قوله في هؤلاء الأشراف.

وقال أئمة الإسلام: إن تنقيص أهل البيت يدل على لؤم الأصل وسوء الاعتقاد وقبح السريرة. وقد حكم هذا بسيء مقاله أنهم إخوان كل شيطان مريد، أيصدر هذا من كامل الإسلام فضلا عن الإيمان، فهلا أقام لهم وزنا بالقسط مع جميع جيرانهم وغيرهم، ومن وجه التفاضل بينهم. ثم يحصي عليهم من مسائل الشياطين بعض ما يحصي على غيرهم،

1 الجيش العرمرم الخماسي ج2 ص109

فأحق من يقال فيه أخو الشيطان من عَرَف ما أمر اللهُ ورسولُه به أمرا جازما ونبذه وراء ظهره عموما وخصوصا، (ولا يغتب بعضكم بعضا...) الآية. (قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى) إلى آخر ما تقدم بيانه.

قال المفسرون عند هذه الآية ما نصه: وعن ابن عباس ﷺ: "الغيبة إدام كلاب الناس" اهـ وهذه غيبة على وجه قبيح، بل أبهتهم بقبيح اللفظ. وعن ابن عمر رضي الله عنهما: صعد رسول الله ﷺ المنبر فنادى بصوت رفيع: "يا معشر من أسلم بلسانه ولم يُفْضِ الإيمان إلى قلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم //260 ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن يتتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله".

قال ابن نافع: ونظر ابن عمر يوما إلى الكعبة فقال: ما أعظمك وأعظم حرمتك والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك.

وعن أنس قال: قال قال رسول الله ﷺ لما عرج به: مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم ولحومهم، وفي نسخة: وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم اهـ. قال تعالى (واتقوا الله) أي أمرَ الغيبة واجتناب نواهيه اهـ ومن لم يتق الله وبالغ جهده في قرض أعراض الناس حتى جعلهم إخوان الشياطين وهم من هم، وخالف ما ذكر من صريح الكتاب والسنة، أهو أقرب لما يرضي الشيطان أم أولئك!. قوله تعالى (ولا يغتب بعضكم بعضا، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه) تمثيل وتصوير لما يصدر عن المغتاب من حيث صدوره، ومن حيث تعلقه بصاحبه على أفحش وجه وأشنعه طبعا وعقلا وشرعا، شبه الاغتياب من حيث اشتماله على تناول عرض المغتاب بِأَكْلِ (1) لحمِ //261 الإنسان ميتا تشبيها تمثيليا، وعبر بالهيأة المشبَّه بها عن الهيأة المشبَّهة، ولا شك أن الهيئة المشبَّه بها أفحش جنس المتناول وأقبحه، فيكون التمثيل المذكور تصوير الاغتياب بأقبح الصور، وذلك أن الانسان يتألم قلبه من قرض عرضه كما يتألم جسمه من قطع لحمه، بل عرضه أشرف من لحمه ودمه، فإذا لم يحسن للعاقل أكل لحوم الناس، لم يحسن له قرض أعراضهم بالطريق الأولى، خصوصا أن أكل الميتة هو المتناهي في كراهة النفوس ونفور الطباع ففيه إشارة إلى أن الغيبة عظيمة عند الله. فهل أحصى لهم هذا المغتاب أو الباهت غير الفتنتين اللتين أوضحنا، وهل تكونان عشر العشر فيما يقع بين القبائل وما يقع من القبائل سواهم، فالأولى قد بُيِّنَ سببُها وكيفيتُها، والثانية كذلك، فأين قوله: هم منشأ كل فتنة وقعت في الحوز من قديم الزمان مع قوله تراجعوا في الفتن التي كانت بعد موته؟، فمن أوقد تلك الفتنة؟، وأين فتن دكالة حتى حاربوا الملوك؟، وأين فتن عبدة كذلك؟ وأين فتن الشاوية على كثرتها، والسراغنة والشياظمة اللتين يأتي قولك فيهما؟ وأين فتن حاحا //262 وجميع البربر؟ وأما أولاد أبي السباع لم تُحصِ لهم إلا هاتين مع شدة الخوف من الملوك وعدم مبارزتهم لهم على ما تقدم شاهده، وأين قولك: أشأموا متوكة؟، وهم إنما حموهم عن الإجلاء وتمام الخلا بعدما خرب الغير ديارهم، أليس بعد هذا من كذب؟، ولكن المصيبة إذا خَصَّت هَالَت وإذا عَمَّتْ هانَت، فقد أطلق بذيء لسانه وعنان قلمه وبنانه في غيرهم كثيرا.

---

1 كُتِبت في المخطوط هكذا "يأكُل لحَمَ" وما أثبتناه أنسب.

فصل في مقالة الكنسوسي في أهل فاس وغيرهم من الناس بنص لفظها وحروفها، بدون تغييرها وانحرافها، زيادة على ما تقدم في غيرهم.

فقال في أهل فاس، المشتمل مصرهم على الأشراف والعلماء والأولياء وأفاضل الناس، ممن علمهم وفضلهم غني عن إقامة البرهان ولا يوازيهم غيرهم بالقياس، ولولا فاس، ما ذكر بالفضل في المغرب ناس، وناهيك باشتمالها على الفاتح البضعة الطرية الذي بناها وأودع السر فيها في القواعد والأساس، وبفتحه عم الإسلام في كل من كان في غربنا كله من الناس، فقد قال فيهم ما لفظه: إن السلطان سليمان غلط في فعله الخير مع أهل 263// فاس، وأن أهل فاس لا خلاق لهم، وتمثل فيهم بقول القائل الذي اجتذبته نزغة كنزغته، وعرق داء دفين كعرقه.

فأما أرضها فأجل أرض وأما ناسها فأقل ناس

ثم إن قيامهم على الملوك تجاوز حد الطغيان ...الخ لفظه اهـ

ولله در عالم العلماء، علماء الظاهر والباطن، وولي الله من الأولياء المستغاث بهم في كل المواطن، سيدي الجيلاني بن المختار السباعي نجل سيدي المختار الشهير بأرض أولادي أبي السباع حيث عارض قول ذلك القائل الذي طغى لسانه وقلمه بذلك البيت الذي تلذذ بذكره، من دخل معه في عشه ووكره، وهو الكنسوسي، فقال، أي الشيخ الجيلاني بن المختار في قصيدة شهيرة بليغة خرجت من قلب نقي مقيد بالسنة، تنيف على مائة بيت، عند التخلُّص فيها لذكر جده مولانا إدريس

فمهد الشمس قبل بدوها كإدريس في الأرحام قد مَلَك

رضوه لحمل التاج في بطن أمه ولا نَدِموا بَعد أو لا عدِموا خيرا

محاسن أهل البيت للناس أسوة وأسوتهم في المجد كان بها أحرى

264//

بنى مجدهم في الغرب حتى رَفَعت قبابٌ لهم بالشرق قد لُمِحَت شَزْرا

وصل بأنوار النبوة غربنا لمحو ظلام الشرك البطشة الكبرى

إلى أن قال بعد أبيات عدة:

ففاس (1) على الأيام تسري نجومُها كأن السماء في دورها قطع صغرى

ففاس هي الدنيا ومن العيش دونها سوى أمة عمياء مِن جَهلِها سمرا

1 في المخطوط "بفاس" ولعله تصحيف.

ذخائر كنز العلم في ثخن أصلِهِ ومن لا يرى فاسا فلا يبصر الذُّخرا
هي الخُلدُ كل الخُلدِ والناسُ ناسُها ومن خصها من دونهم ركب العورا
بأهل الديار الدُّورُ تُمدَح في الورى وإلاَّ مدَحتَ الطِّينَ لا غيرُ والحجرا
أعد ذكرها لا قصر الله صيتها ولا زال في أُذْن العُلا شَنَف (1) العفرا
مُقدَّسة لولا الخليلُ مَشى بها رأى سُنَّة الأضيَافِ ما كُسِيتْ غَبرا
بناها أمير ضمنت من بهائه ضِياء ومن إعطائِه سَيلَها البحرا
له قبة متى تُفَتَّح رَحَّبَت وأعلَت صَريرا كَي يُزعِجَ الفَقْرا

إلى أن قال:

كسرت عصا التسيار عند فِنَانه ومن شَامَ فيض النيل لم يَرِدِ النهرا

انظر مسافة الفرق بين العارفين وغيرهم من المتمضمضين بأعراض 265// المسلمين، وبالمحرم من لحوم الناس وأهل الرسول ناهشين، فقد رد الشيخ السيد الجيلاني بن المختار السباعي بمحض الحق، وقول الصدق، على السلماني (2) ومن نزعه عرقه في اتباعه بقوله: "ففاس هي الدنيا" الأبيات السبعة.

وقد نال الكنسوسي حتى من مولانا إدريس كما يُعلم بالوقوف على تاريخه. ولله در الإمام الهمام السلطان مولانا الحسن في نبذِه تاريخَه لحشوهِ من تنقيص المسلمين.

ومن أدل دليل على تكذيبه إياه، واستقباحه ما جناه، حيث قال إن السلطان سليمان غلط في فعله الخير مع أهل فاس... الخ، أنه، أي مولانا الحسن، فعل معهم من الخير ما لم يتقدم لسلطان، ولم يغير محبته لهم ومعرفته بهم ما صدر من عوامهم عند ابتداء نصره مما سبق في علم الله وقدره فَكَانَ، بل أسبغ عليهم الفضل، مراعيا ما هم له من الصفح والعفو أهل، بصيرورة تجارهم أمناء في جميع الأقطار، مُوثِرا لهم على جميع أهل الأمصار، ومما يُهَوِّن على أهل فاس وأولاد أبي السباع تنقيصَ الكنسوسي لهم مما نزع منه عرقُ الداء الدفين، من السب والإغراء بالشر على المسلمين، ما أطلَقَ 266// به عنان قلمه في غيرهم من الرعية، مما هو على قائله أعظم مصيبة وبلية، فمنه ما قال في قصيدة يخاطب بها السلطان سيدي مُحَمَّد بن عبد الرحمن يغريه بالفتك بالسراغنة والشياظمة، ونص المقصود منها:

لقد غر منك الحلم غرا وما درى بأن لأهل الحلم بطشا مشددا
كما اغتر أغمار السراغنة الأُلَى هديتهم والسيفُ ما زال مغمدا

---

1 الشَّنَفُ: القُرْط، وقد يخصّص بما يُعلّق في أعلى الأذن، والقُرْط في أسفلها.
2 كذا في المخطوط.

فلما استحبوا الغي جهرا رميتَهم بخيلك خيل الله جندا مجندا
فغادرتهم بالسَّمهَرية والظُّبا (1) نكالا يحاكون النعام المشردا
كذلك نرجو للشياظمة مثلها فتتركهم في الأرض شِلوا مُقَدَّدا
فلا تأخذنكم بالشياظمة رأفة فكلهم ثوبَ الضلال قد ارتدى

إلى آخر ما نقص به وأغرى، ولم يبال بما سُجل عليه من ذلك في الدنيا والأخرى، نسأل الله السلامة والعافية، في هذه وفي الآتية، فقد جعل الأولين أغمارا استحبوا الغي، وقد صرح في الآخرين بأنه يرجو لهم الإيقاع بهم حتى يصيروا في الأرض شلوا ممزقا، ونهى وحذر عن الرأفة بهم، وشهد بأنهم كلهم قد لبسوا ثوب الضلال مع من فيهم من أهل الصلاح والفلاح على كثرتهم. اهـ

وقال أيضا في أهل فاس ما لفظه: فمن ذلك رضي الله //267 عنه حِلمُه، يعني مولانا سليمان، على أهل فاس الذين بلغوا الغاية في هدم أركان دولته ومحو آثاره بكل ما قدروا عليه وحاربوها بمالِه ونعمتِه اهـ ومن ذلك ما شرح من قضية ابن الغازي المشاب بفادح الذم فلتُنظَر في تاريخه.

ولما تعرض لسجن مولاي العربي الدرقاوي شيخ الطائفة رحمه الله وأَدمَج فيها ما أدمج من الغض في جانبه قائلا: وبقي مسجونا حتى أفضت الخلافة لمولانا عبد الرحمن فسرَّحه (2). وذكر أن مَنشأ كل فساد هو من ابن الغازي، قائلا (3): "وقد قدمنا أنه تلميذ مولاي العربي الدرقاوي وأنه لا يخالفُه في أموره كلها"، وقال في موضع آخر: "وكان مولاي العربي الدرقاوي شيخ الطائفة حاضرا في هذه البيعة مع أهل فاس، وكان ابن الغازي الزموري من خاصة أتباعه، وهو رئيس البربر [في ذلك الوقت] (4) وعليه وعلى حمو وعزيز بنيت هذه الأمور كلها، فوجه أهل فاس مولاي العربي يأتي ببيعتهم، وكان له أتباع فيهم، فلما ذهب إليهم قبضوه وأدخلوه السجن ..." الخ ما ذكر. دائما في جميعه التنقيص وهو المقصود. وقال في محي الدين (5): كما فر عبد القادر الغمر خاسئا ... له الويل الخ، ثم قال:

سقاه يظن العود من فرع كرمة وغرسٍ لذيذِ المجتنى مِن ثمارِهِ

268//

إذا أنه لا ظل فيه ولا جنى ولكنه مُستَوقَد بجِمارِهِ

1 السَّمْهَرِي : الرُّمح. والظُّبا جمع ظُبَّةُ: حَدُّ السَّيْفِ والسِّنَانِ والخَنْجَرِ وما أَشْبَهَهَا.
2 الجيش العرمرم الخماسي ج1 ص327
3 في المخطوط "وهو تلميذ مولاي العربي الدرقاوي..." وصححناه من الجيش العرمرم الخماسي ج2 ص 59
4 مابين المعقوفتين مأخوذ من كتاب الجيش العرمرم الخماسي ج1 ص316
5 يقصد الأمير عبد القادر بن محي الدين الجزائري. انظر الجيش العرمرم ج2 //96 - 98

إلى أن قال:

هو الجاهل المغرور قد نَزلت به وَخَامَةُ ما أعطاه سوء اغتراره

يظن طِلاَبَ الملك أُكلَة جائع ويحسب أن الغرب مثلُ قَرَارِهِ

إلى أن قال:

أصابَهم ما قد أصابَ بشُؤمه كَحَي ثَمُود باجتِراء (1) قُدَارِهِ

إلى أن قال:

فتبًّا له في ذِمَّة الخِزي جائِيا مُعَنًّى يداني خَطوه في حِظَارِهِ (2)

والعمري إنه لشاعر ومن أشد الشعراء الذين لا يبابون في أي واد يهيمون.

وقال في الشرارِدة: ثم ازدلف السلطان على تلك القرية المنسوبة إلى الشُّرود، تفاؤلا على رئيسها المخذول المطرود. إلى أن قال: وفَرَّ صنمهم المعبود (3) الخ.

وقال أيضا في الشياظمة ودوبلال (إداوبلال) ما نصه: "وفي أثناء ذلك وقعت غدرة (4) دوبلال في أكلهم الصَّاكَّة باتفاق الذين أتوا بها من السويرة وهم الشياظمة، وقائدهم عَلاَّل بن مُحمد، وهو الذي نهب أكثرها من الأموال الثقيلة والذخائر الفاخرة، وهذه الواقعة هي التي //269 هَدَّت قوائم السلطان فاعتراه مرضه الذي كان سبب موته" (5) اهـ لفظه.

ومن جملة ما وصف به الإذاية بفاس، أنهم بدؤوا باليهود الذين بين أيديهم وحول ديارهم فوزعوا جميع أموالهم وأمتعتهم وما كان تحت أيديهم من بضاعة تجار المسلمين، إلى أن قال (6): ولم يقتصروا على الأموال بل هتكوا المحارم، فكل من له

---

1 وفي الجيش العرمرم الخماسي "باجتراح" انظر ج2 //98

2 عَنَّى الرَّجُلَ فهو مُعَنٍّ والمفعول به مُعَنًّى: آذَاهُ، كَلَّفَهُ مَا يَشُقُّ عَلَيْهِ. - والحِظار: كلُّ شيء حجز بين شيئين كحائط البستان. وانظر هذه القصيدة في الجيش العرمرم الخماسي ج2 ص96

3 الجيش العرمرم الخماسي ج2 ص14

4 في المخطوط "غزوة" وهو تصحيف صححناه من كتاب الجيش العرمرم الخماسي ج1 ص329

5 وذلك في 14 ربيع الأول عام 1238 هـ كما ذكر الكنسوسي في بقية كلامه.

6 الجيش العرمرم الخماسي ج1 ص311 - ولم ينفرد الكنسوسي بهذا الكلام عن الاوداية، فقد ذكر مثله أبو العلاء إدريس في كتابه الابتسام، وهو معاصر للواقعة، قال: (وكان أول ما ابتدأ به الاوداية ملاح أهل الذمة فنهبوه في رمضان نهارا وزنوا وشربوا الخمر وجعلوا يمدون أيديهم في متاع أهل فاس) ص74 من مخطوط بخط يده.

بنت حسناء أو زوجة أخذوها للفاحشة ومنعوه منها حتى يُفديها بمال.. إلى آخر ما وصفهم به غير ما مرة من (1) أنهم مسعِّروا نار الفِتن اهـ

ولما ذكر أمهاوش (2) ووصفه بأنه تفرعن وتمرد كل التفرعن وغاية التمرد، وما بأولاده من التشيطن والإغواء واتباعهم لسيرة أبيهم في التدجيل والكذب قال: وكان الذي زاده في طغيانه هو مولاي اليزيد... إلى آخر ما ذكر. فليُنظر ذلك وأشباهُه مما اتخذ فيه قلمَه مقراضا لأعراض المسلمين، خصوصا آل البيت، خصوصا من لولا نعتهم ما ذُكِر، كذرية سلطان سلاطين العدل والعلم باتفاق المسلمين، مولانا أبي الربيع مولاي سليمان قدسه الله، وما أحقه أن يُنشد فيه:

وما تَكلَّمتَ إلا قلتَ فاحشة   كأنَّ فَكَّيت للأعراض مِقراضُ

//270 ولما تعرض لذكر الرحامنة ذكرهم بكلام متناقض، وتقدم قول الحكماء العلماء: شر الكلام وأكذبه ما ناقض بعضُه بعضا. قال فيهم أولا ما لفظه (3): "ونسخة ثالثة على لسان الرحامنة، التي هي لحسن الجوار ضامنة، وبحسن جوارهم تكون الحضرة آمنة". ثم بعده بقريب قال ما لفظه (4): "ولولا ذلك لاحترق الحوز كله بما استوقده الرحامنة الصحراويون من نيران الفتون، وانصبابها كالمطر الهتون". إلى أن قال: "ومولانا، يعني سيدي مُحَّمد بن عبد الرحمن، مشتغل بالعدو الكافر وتقوية العساكر المقابلين لهم بالسواحل وكان جهاد هؤلاء أولى من الذين تُعمل لهم الرواحل" اهـ فليتأمل المنصف العَقول، العارف على سبيل الجُملة ما يجب في حق المسلمين خصوصا آل بيت الرسول، ما شهد به على هؤلاء الفرق كلها وما أمضاه على أولاد أبي السباع، ونهايته تناوشتهم القبائل التي تستخف بهم في الأولى، ودفاعهم في الثانية بعد الثمانين سنة الحاَحِيَ عن استئصال جيرانهم بعدما أجلاهم واستجاروا بهم ليس إلاَّ، وأما هذه الثالثة التي بلغت العقوبة فيها فوق الغاية، وتضاعفت بالزيادة عن الجناية، سببها ما تقدم من استخفاف المتوكي بهم وإهانته لهم //271 وكفران نعمتهم عليه حيث حموه. فلما سار السلطان سيدي مُحَّمد لرحمة الله، ونهض شبله مولانا الحسن، عمدوا لإهانته كما أهانهم وتطاول، وذلك فيما بينه وبينهم، فصار هو وحميته كالدويراني وابن عمر العبدي يوشون بهم ويزخرفون القول فيهم ويفرغون ذلك في قالب غير قالبه، يقولون للسلطان إن سبب ما اشتغلوا به أنهم يريدون نصر عمه مولاي علي، مع أنه لا يعرفهم ولا يعرفونه، ولم يخطر لهم ذلك ببال ولا يثقون به ولا يثق بهم، وما رُئِي قط شيء من أثر طلب ذلك على مولاي علي، ما عدا إرجاف المرجفين الذين من شأنهم التقرب بالكذب للولاة لا غير، وما تجاوزت فتنتهم المتوكي أصلا، ومع هذا نسبهم الكنسوسي قبل هذه الثالثة أنهم عنصر الغواية والغي والفساد والطغيان، وأنهم إخوان كل شيطان مريد يستعاذ منه. إنا لله وإنا إليه راجعون من طغيان قلم هذا الإنسان، الذي هو عنوان على سوء العقيدة منه والجنان.

---

1 في المخطوط "مع أنهم مسعروا..." ولا يُناسب السياق.

2 الجيش العرمرم الخماسي ج1 ص310

3 الجيش العرمرم الخماسي ج2 ص74

4 الجيش العرمرم الخماسي ج2 ص99

وبالجملة فهو غفر الله لنا وله، لسانُه وقلمُه مِقراض للأعراض، كأنه لم يَدْرِ "وهل يَكُبُّ الناسَ في النار على مناخرِهِم إلاَّ حَصائِدُ ألسنتِهم"، لقد أوسع مَجاله في جيشِه على تنقيص الناس حتى من كان في نعمته، وقد خُوطِب كل من يَصلح للخطاب بحكمة "لسانك سبع إن أطلقته افترسك وإن عقلته حرسك، انطق به على قدر وكن منه على حذر". //272
وما أجهله بوصية سيدنا العباس لولده عبد الله بن عباس المتقدمة: يا بني إني أرى هذا الرجل، يعني سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ، يقدمك على كثير من أصحاب رسول الله ﷺ، وإني أوصيك بكلمات أربع، لا تُفشِ لهم سرا ولا تحدثنهم كذبا، ولا تطرين عندهم نصيحة، ولا تغتابن لديهم أحدا اهـ وهذا اغتاب جل الرعية وغيرها، وحدث بالكذب، وما أجهله بقول التاج السبكي في مُعيد النِّعم: المؤرخون على شفا جرف من نار لتسلطهم على الأعراض بالأغراض اهـ كلامه. وهذا منهم، عفا الله عنا وعنه، أَوَ لا يعلم ما روي عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه ﷺ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من حمى مؤمنا من منافق -أُراه قال- : بعث الله ملكا يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم، ومن رمى مسلما بشيء يريد شينه به حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال. رواه أبو داوود وابن أبي الدنيا.
وعن أنس ﷺ: من حمى عرض أخيه في الدنيا بعث الله عز وجل ملكا يحميه يوم القيامة من النار.
وروي عنه صلى الله //273 عليه وسلم أنه قال: من اغتيب عنده أخوه المسلم فلم ينصره وهو يستطيع نصره أدركه إثمه في الدنيا والآخرة. رواه أبو الشيخ الأصبهاني (1) في كتاب "التوبيخ والتنبيه" أطول منه ولفظه قال: من اغتيب عنده أخوه فاستطاع نصرته فنصره نصره الله في الدنيا والآخرة، وإن لم ينصره أدركه إثمه في الدنيا والآخرة اهـ ومثله عن جابر بن عبد الله وأبي طلحة الأنصاري ﷺ قالا: قال رسول الله ﷺ: ما من امرئ مسلم يخذل امرءا مسلما في موضع تُنتهك فيه حُرمتُه ويتنقص فيه من عرضه إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته، وما من امرئ مسلم ينصر مسلما في موضع يتنقص فيه من عرضه ويُنتهَك فيه من حرمته إلا نصره الله في موطن يحب فيه نصرته اهـ رواه أبو داوود وابن أبي بالدنيا وغيرهما.
وقد أطلنا بهذا جدا حتى خرج عن غرض التأليف رجاء من الله أن يكون بفضله انتصارا لمن انتَهك هذا الرجلُ حرمتَه من المسلمين، وآل بيت سيد المرسلين. ولا غرابة في خفاء هذه الزواجر عليه وفراغ قلبه مما فرض الله من حُب آل البيت وصيانة أعراض المسلمين حتى أعرب لسانُه عما في الضمير مما لديه، إذ الذي عُرِف به واشتهر //274 بمعرفته وتعاطيه إنَّما هو فَنَّانِ بلغ فيهما جهدَه، وأنفذ إليهما ما عنده، الشعرُ ومعلوم ما فيه، وتظاهُرُه بعلم التنجيم، أما أدلة ذم التوغل في الأول فغَنِيَّة عن البيان، وأما الثاني فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر. رواه أبو داوود وابن ماجة. قال الحافظ: المنهي عنه من علم النجوم هو ما يدعيه أهلها من معرفة الحوادث الآتية في مستقبل الزمان، كمجيء المطر ووقوع الثلج وهبوب الريح وتغيير الأسعار ونحو ذلك،

---

1 كتب في المخطوطة هكذا "رواه أبو الشيخ في كتاب التوبيخ والأصبهاني أطول منه ولفظه قال من اغتيب ..." الخ. وقد قومنا العبارة بما يناسب.

ويزعمون أنهم يدركون ذلك بسير الكواكب واقترانها وافتراقها وظهورها في بعض الأزمان، وهذا علم استأثر الله به لا يعلمه غيره. فأما ما يُدرك من طريق المشاهدة من علم النجوم التي يعرف بها الأوقات وجهة القبلة وكم مضى من الليل وكم بقي فإنه غير داخل في النهي اهـ وانظر إلى قوله ﷺ "اقتبس شعبه من السحر"، وقد عده ﷺ، أي السحر، كما في البخاري ومسلم من السبع الموبقات عصمنا الله وحفظنا من ذلك.

وهذا الذي أطلق عنان قلمه في تنقيص الناس عفى الله عنا وعنه لم 275// تحصل بيننا وبينه مُثَافَنَةٌ (1) كبيرة حتى نتحقق ما يحسن وما لا يحسن من العلم، أما الفقه فقد تُحُقِّقَ أنه بمعزل عن معرفته، وإن كان مُظهرا لسرده مع قليل ناس فإنه عنده كله ظلمة، ولا يجيد في شيء منه فهمه، فقد تعاطى آخر عمره ما كشف به عن حاله وأنه لا يعرف حتى مَظَانَّ القضايا، والذي ظهر به وتظاهر هو الشعر، فإنه في نسجه، فريد جنسه، ووحيد دهره، وأما التنجيم رأيناه يسارع بإخبار الملوك والولاة أن سيقع الكسوف أو الخسوف في وقت كذا، وربما يقع كما قال ويرجو بذلك نيل رفدهم. وهذا الوجه قد نص المحققون بالنقل الصادق ممن تكلم على مختصر خليل أن الواجب على الحكام في حق من هذا فعلُه أنه يزجر ويضرب على يديه حتى يَنكَفَّ عن ذلك، والأمر لله. اللهم اغفر لنا وتب علينا ولا تؤاخذنا بشيء أنت أعلم به منا.

وتقدم أن الإمام مولانا الحسن لم يرتضِ ذلك المنهج الذي انتهج في التنقيص، على العموم والتخصيص، وقال فيه ما قال، ومن جملة المقال أنه سَبٌّ للرعية، ومن لم يعظم الرعية لم يعظم راعيها، ونَبَذَهُ. وقد ظهر ذلك حتى في جانب من أمره به وهو السلطان سيدي مُحَمَّد رحمه الله، وَلِي عليه دليلان 276//

- أحدهما: قال لي حِبُّه وصديقه مولاي علي بن مولانا عبد الرحمن ما لفظه، والله حسيب من بدل أو غَيَّر: لما اطمأن المجلس عند أخينا سيدي مُحَمَّد قلت له: يعلم سيدنا أن الفقيه الكنسوسي كيت وكيت الخ، يشير إلى محبته وخدمته وكبر سنه وقلة ذات يده، ولا ينبغي لسيدنا أن يغفل عنه، قال فأجابني بقوله: نعم، ولكن الشعر شؤم وشؤمه يعود على أهله، أو كلام هذا معناه، بمعنى أن الفقر ملازم لهم.

- ثانيهما: ما دل عليه بعد ذلك منه صريح السؤال، لسيدي مُحَمَّد مستعطفا طالبا للنوال، ونصه من البسيط:

إنا رجوناك لِلجُلَّى وأنت لها	لا خيَّب الله فيك ما رجوناه
نَدَاك أغنى وأقنى كل مقترب	ونحن أقربُ من رعَيت قُربَاه
وفاض فضلُك فيضَ الغيثِ مُنبَجِسا	حتى الأباعِد نالتهُم عطاياه

1 ثَافَنَ الرجلَ: لازمَه حتَّى عرف باطن أمره.

ما بال عبدك هذا قد أَلَظَّ (1) به   نابُ الزمان فعَنَّاه وأَعنَاه (2)

عبد مُطيع طويلُ البَاع مَفصِله   مُهَند شحذت بالطبع مَتنَاه

يهدي إلى قدرك الغالي مدائحه   في كل عام لعل الفَوزَ يلقاه (3)

ولو رنوت بعين اللطف جانبه   لاهتز فخرا على الأكفاء عِطفاه

277//

وقد دعاك أمين الله مُضْطَرِا   حاشاك تُهمِله حاشاك تَنساه

إلى آخر القصيدة وإنه لشاعر، وفي صنعة الشعر ماهر، وإن هذا السؤال والإلحاح على هذا الوجه لأدل دليل صريح على الاستعطاف بعد الإعراض. اه الخ.

هذا آخر ما رُدَّ به عليه من صريح السنة وإن طال، لإعراضه عن طريقها ونهج الكتاب وعقد الإجماع مما به بَهَّتَ قوما واغتاب آخرين وعليه بغضب لسانه وقلمه استصال، (4) وأسال الله بفضله ألا يؤاخذني بهذا الرد، وأن يقبله مني نصرة لسيد الأرسال، ﷺ على الصحب والآل.

رَجْعٌ، ولما حل بمراكش وكان سبب مجيئه لها ذلك الوقت إنما هو اجتراء من ذكر من العمال عليه بالكذب ومحض افترائهم على أولاد أبي السباع بغضا فيهم وعداوة وهم عمر التيكي ومُحَمَّد الدويراني (5) ومُحَمَّد بن عمر العبدي تواطؤوا على بغضهم وتوافقوا على بناء أبلغ ما يكيدونهم به من المكائد، ونصب الحبائل والمصائد، (فاستخصُّوا) (6) أن يوشوا بهم على أن الحامل لهم على مقاتلة المتوكي وإخراج عاملهم من داره تَوَاطُؤُهُم مع عم السلطان مولاي علي على نصره وخَلع ربقة المنصور بالله، إذ هذا 278// الباب أكثر ما يُستفز به الملوك، فأكثروا بذلك الكتابة للسلطان، ولما سمعوا

---

1 ألظَّ بالشيء : لازمه ولم يفارقه.

2 عَنَّى الرَّجُلَ: آذَاهُ، كَلَّفَهُ مَا يَشُقُّ عَلَيْه. - عَنَاهُ الأَمْرُ: هَمَّهُ.

3 في المخطوط "مسعاه" عوض "ملقاه" وهو خلط وقع للناسخ يتبين بمراجعة القصيدة في ج2 ص89 من الجيش العرمرم الخماسي

4 صَالَ الأَسَدُ عَلَى الفَرِيسَةِ : وَثَبَ عَلَيْهَا.

5 في المخطوط "الديوراني" وهو سهو من الناسخ.

6 كلمة غير واضحة أثبتنا أقرب ما يناسبها رسما ومعنى، ويقال اسْتَخَصّهُ: أي اصطفاه واخْتارَهُ. فيكون المعنى اختاروا أن يوشوا ... والله أعلم.

وقعة الجيش الذي انهزم وحده خوفا من ولد البشير أُمسعود وحميته، وسمع أؤلئك العمال بأن السلطان مولاي الحسن تهيأ للخروج لتلك الناحية للوثوب وأخذ الثأر، جدوا جهدهم في المكاتب والرسل يتلو بعضها بعضا بما محصِّله: فإن خرج سيدنا لتلك النواحي معرضا عن هذه فلييأس من مراكش وحوزها، فإن عمه مولاي علي انبرم أمر بيعته (1) مع أولاد أبي السباع والرحامنة، حتى أوغروا صدره وظن صدقهم، فرجع عن عزمه وحشد جيوشَه متوجها لمراكش يطوي بهما السير طيا حتى حل بها كما تقدم قريبا، وأوقع بأولاد أبي السباع ما تقدم كذلك، فبسبب اجتراء أولئك العمال وافترائهم ارتُكِبت هذه المشقة الكثيرة، والمصيبة الكبيرة، ضاعت فيها أموال، وهلك فيها رجال، ويعلم الكبير المتعال، إنها لفرية، ما فيها من مرية، وأقرب ما يمثل لها به قضية العَبد التي لم تزل تُذكر، ويتلى بين الناس ذكرها وينشر، وهي كما زعموا أن عبدا نمَّاما أظهر لسيدته النصيحة، مضمرا بها الهلاك والفضيحة، ثم قال لها يا سيدتي إن سيدي عازم على أن يتزوج عليك //279 امرأة أخرى وإياك إياك سيدتي تظهرين له ذلك إذ لم يشعر به غيري، ولكن إن أحببتِ سِحرا أَدُلُّك عليه يورثُه محبتَك ويمنعه من ذلك دَلَلْتُكِ عليه، فاشتدت رغبتها فيه، إذ كل قول يقال للنساء يمكن استرابتهن فيه، سوى القول بتزوج الزوج فلا يرتبن فيه غالبا مهما قيل لهن تَرُع قلوبهن وأَفْرُعُهن (2)، فلما رأى العبد اشتداد رغبتها في سحره قال لها: دعيه حتى يأتي من بعض مآربه على تعب فينام، وخذي الموسى واقطعي شعرات من أسفل ذقنه واحرقيها واسقيه إياها في شراب. ولما رأى عزمها على ذلك قال لسيده: يا سيدي إن سيدتي عزمت على ذبحك بموافقة أهلها والعلامة كيت وكيت، فإن ارتبت فأظهر التعب وتناوم، ففعل السيد ذلك، فلما أيقنت منه النوم أخذت الموسى وأخذت في التوصل لقطع ما تريد، فلما وضعت يدها تحت ذقنه وثب عليها ونزع الموسى من يدها فأضجعها في الحين وذبحها، فلما رأى العبد ذلك جزع لأهلها وشنع في القول وقبح في الفعل، فوثب أهلها على الزوج بلا مهل ولا استبراء للسبب فقتلوه، ثم هرع العبد في الحين وأسرع لحي الرجل وأخبرهم على أقبح وجه بأن حي المرأة قتلوا سيده ومثَّلوا //280 به، فأثار الفتنة بين الحيين وثار بعضهم على بعض ثورانا سريعا، وتقاتلوا تقاتلا ذريعا، بسبب كذبة لا أصل لها، فاتسع الخرق على الراقع، ولا مرد لقضاء الله الواقع.

فكذلك هذه القضية الهائلة الجسيمة الفخيمة التي اتسع خرقها بسبب السعاية الكاذبة من كل كذاب معتد أثيم، مشاء بنميم، ويحسبونه هينا وهو عند الله عظيم، وسببها ما ارتكبه أولئك العمال الكذبة الفجرة، فظن مولانا السلطان واعتقد أنهم نصحاء بررة، فلذلك أخذ بشهادتهم مع ضميمة القرينة الدالة على صدقهم، وهي إثارة من ذكر الفتنة مع جيرانهم وطرد عاملهم.

فأما مولانا السلطان فتُرجى له البراءة لاعتماده شهادتهم المحفوفة بما يقويها عنده من القرينة التي ربما تقوم مقام الإشهاد، بحيث يصح عليها الاعتماد، واستعماله في ذلك التأديب بالاجتهاد، إذ التأديب موكول لاجتهاد الحكام، على المعروف

---

1 تبدو في المخطوط مثل "بيعته" أو"تبعته".

2 جمع فَرْعُ : وهو الشَّعْرُ التَّام.

المعتاد، والحاكم العدل إذا اجتهد فأصاب فله أجران، أجر الاجتهاد وأجر الإصابة، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر الاجتهاد ولا إثم عليه في الخطأ، لرفع ذلك عن الأمة بصريح السنة.

وأما 281// أولئك الذين تعمدوا ما تعمدوا من شدة الشكيمة، في الإغراء والنميمة، حتى أوقعوا السلطان برجوعه ذلك في غاية الحرج وارتكاب المشاق، مع طول المسافة وما لزم فيها من كثرة الإنفاق، وما آل إليه الأمر من الإيقاع بأولئك الشرفاء الضعفاء الذين ما خطر ببالهم قط ولا يخطر في جانب الملوك الشقاق، والكاذبون عليه بذلك فالله حسيبهم فسوف يلقون غيا، إذ هم في صنعهم ذلك أشد على الله وعلى السلطان عتيا، وهم على ما يتلى في الكتاب والسنة أولى بجهنم صُلِيا، والدليل على تصديق السلطان أولئك العمال ذوي البهتان أن الجيش الذي جاء به أُمِر بالتخييم خارج باب الربوة من مراكش متحفزا للوثوب على أولئك الموشى بهم إن لم يعطوا الانقياد على الوجه المراد، فلما أسلموا أنفسهم، وأظهروا ضعفهم، حذرا وخوفا من العطب، سكن عن السلطان حينئذ الغضب، فاستكان وسكن للاستراحة بمراكش نحو خمسة أشهر فقط.

الباب الثالث في ذكر الراية العظمى التي هي ابتداء الفتوحات العظام

ثم اعلم أنه لما فرغ من الأمر الذي رجع إليه عن عزمه المتقدم، وأدار نظره في الحوز فرآه ساكنا 282// لا ما يشوش البال واستراح الجيش نحو الخمسة أشهر، نَهَضَ العزمُ يؤم أَمَام، ونصب لمسيره الرايات والأعلام، راجعا للغرب للأمر الذي كان عزم أولا عليه واشتد به الاهتمام، إذ من شدة الاهتمام بشأنه لم يستطب قرارَه ودكَّانه، راجعا في الحين على طريق دكالة، فأخذ طريق الساحل واجتاز بنظر التدبير على الثغور والمراسي، لأن من طبعه وسعة فسحة همته لا يشغله مهم عن مهم ولا تراه عما دون ذلك كالغافل أو الناسي، فله تبارك الله النظر الواسع، وليس له عن إحاطته بالأمور مشوش ولا دافع.

فلما خرج من مراكش مارا على دكالة خيم جيشُه اليوم الثاني بالموضع المسمى امْطَل بينه وبين جبل گرانْدُو ومنه لسيدي أبي النور، وأقام عنده ثلاثة أيام مُرسلا رائدَ نظره، وسديدَ فكره، لتدبير أمر تلك الرعية، ومنه إلى بيار مُگْرَسْ ومنه إلى بيار ابن حمو، ومنها إلى دار (قرب مرسى) (1) الجديدة.

ولما نهض منها للجديدة تلقاه المسلمون واليهود والنصارى ذكرانا وإناثا كبارا وصغارا والناس في هرج ومرج من شدة الفرح حتى أظلم النهار بكثرة ما خرج فيه من البارود، ولما دخل المرسى صعد السقالة (2) راكبا جواده والناس لازالوا في ذلك 283// الهرج والمرج من شدة فرحهم، ثم خرج منها ولم ينزل بها، فنزل قرب أزمور مولاي أبي شعيب وأقام بها نحو خمسة أيام لتمام النظر والتدبير الواسع المحيط، وزار هنالك رجال تيط، وكذلك رجال ثغر أزمور، واجتاز على الدار البيضاء، فإن شدة اهتمامه بما استقبل لم يشغله عن تفقد الثغور، ومن مدينة أزمور استرجع أخاه الشريف العفيف العابد الأستاذ البركة الهين اللين حسن الأخلاق، المحمود السيرة باتفاق، مولانا عثمان بطابع الخلافة لمراكش وأحوازها، ثم جَدَّ السيرَ من هناك ناصبا راياته، تخفق عن يمينه وشماله وبين يديه، جاعلا عزمه على الأمر الذي كان عزم عليه أولا نصب عينيه، لا ينثني له (عنه) (3) هَم، ولا يضعف له فيه عزم،ومع ذلك مر بقصد النظر والاختبار على طريق بربر زمور الشلح تقوية للاختبار بالتكرار، إلى أن حل بمكناسة فأقام بها أياما قلائل، وفي أثناء إقامته بلغه نعي وصيفه وعامله القائد علي الدمناتي وجاءه أولاده بالتعزية فولى مكانه منهم الحاج الجيلاني.

هذا ولما نهض بفاس مبادرا لانتهاز الفرصة، قبل أن تصير غصة، ولم يدعه اشتعال حرارة العزم أن يكون بها المقام 284// أكثر من ستة أيام، بل إنما سلكها على سبيل الاجتياز، آمرا جيشه كله بالتخييم بظهر المهراز، وكان إذ ذاك

---

1 كذا تبدو العبارة في المخطوط.

2 سقالة الميناء أو سقالة المرسى هي ثكنة عسكرية بنيت كأحد التحصينات الدفاعية الرئيسية لإيواء العساكر والذخيرة وتلقي إمدادات المياه بهدف حماية الميناء من الهجمات البحرية المحتملة.

3 كذا تبدو.

الوقت وقت حر شديد، وطريق المقصود صعب جدا، والمقصود نازح بعيد، فداخل الناسَ من ذلك رعب كثير، واهتمام بشأن ذلك وخوف كثير، فجعل الرؤساء والأكابر، والولاة والعلماء والمشاهر، يتعاقبون عليه بالنصيحة، والأدلة التي هي في ظاهر الحال المأوف المعتاد صحيحة، كل يبدي من الرأي ما عنده، ويجهد في النصح جهده، والكل من آرائهم متفق المآل، ومطابق لمقتضى الحال، ومحصل مفاده أن الملك جديد، والوقت صعب شديد، والمؤَمَّل عَتيد، والمحل بعيد، ودونه من الأخلاط التي لا يوثق بها ما لا يحصيه عَدٌّ عديد، وقد أحجم عن ذلك من قديم الزمان دهاة الملوك، التي يضيق عن جيوشها السهول والجبال حالة المرور والسلوك، حتى بذلوا ما عندهم من النصيحة، وخامر بواطنهم الخوف والاشفاق مخافة شبيه الفضيحة، وهو نصره الله إذ ذاك لا ترتا ع منه من ذلك شعرة ولا جريحة، وينشدهم لسان ضميره:

دعوني أنل ما لا يُنال من العلا فسهل العلا في الصعب والصعب في السهل

285//

تريدون إدراك المعالي رخيصة ولابد دون الشهد من إبر النحل

بقلب الإسناد من التأنيث إلى التذكير رعيا للمخاطب (1)، بل لا يزداد عزمه على ذلك بكليته إلا الإقدام عليه والتوجه والانحياش لما جبله الله من الشجاعة وثبات الجأش، وضميره يقول لهم قول الحكماء: "أفضل الرأي ما لم يفوت فرصة، ولم يورث غصة". ومستحضرا معنى قولهم: "العزائم منازل الأبطال، واستعمال الصبر دأب الرجال". وقولهم: "آفة التدبير إضاعة الحزم، وآفة العقل استصعاب الخصم" اه ولذلك لم يكترث بتحذير، ولا شوش على عزمه نكير.

إذا هَمَّ أَلقَى بين عينيه عزمه ونَكَّب عن ذكر العواقب جانبا
ولم يستشِر في رأيِه غيرَ نفسِه ولم يَرضَ إلا قائمَ السيفِ صاحبا

---

1 لأن البيتين في أصلهما للمتنبي يقول فيهما:

ذَريني أَنَل ما لا يُنالُ مِنَ العُلى فَصَعبُ العُلى في الصَّعبِ وَالسَّهلُ
تُريدينَ إدراك المِعالي رَخيصَةً وَلا بُدَّ دونَ الشَهدِ مِن إِبَرِ النَحلِ

فصل في ذكر توجه السلطان من فاس لوُجدة وأحوازها.

وفي اليوم السابع من حلوله بفاس رحل قاصدا قصده، لا ينزع لأجل رأيٍ ذي رأيٍ عَمَّا عنده، جاعلا نَصب عينيه وُجدَة، جيشه وعساكر أمامه وبعده، وهو في ذلك موافق لقول العلماء: "إذا كثرت الآراء خفي الصواب"، إلى أن نزل //286 بالدار المعروفة بدار الذبان (1)، ووجه أمامه كلامه لمن ظهر منهم من بني ورين الفُسَّاد، لينتهوا عن غيهم المعتاد، فلم يقلعوا عنه وربما ظهر منهم التمرد في ذلك والازدياد، وعند ذلك وجه لهم من جيشه وعسكره سرية، فحاربوها وتضاربوا معها فأوقعت بهم السرية، ما وقعوا به في بلية، وحصلت بهم الرزية كل الرزية، فضاق بهم رحب الأرض وضاقت منهم النفوس، ووجه لفاس ما قطع منهم من الرؤوس، ثم نهض ناشرا أعلامه، يقدم جنده وخدامه، في موكب هيأته لا توازى، قاصدا مدينة تازة، وعامله عليها إذ ذاك (...) (2)

فصل في ذكر قضية غياثة

ثم وجه إلى غياثة المكاتب، لعل ما فيها من النهي والأمر بالمعروف يغني عن توجيه الكتائب، لما شاع من بغيهم وتمردهم، على تازة وحوزهم وغيهم، وما قابلوا به ما ذكر من حربهم الوبيل وسعيهم، فأورد عليهم من قِبَله أيده الله كتبا تحل ما ربطوه، وتروعهم مما تأبطوه، إلى أن حل بجيشه بساحتهم فراعهم، وأنساهم الرعب جِلادَهم وقِراعَهم، ولكن سابق القدر، لا ينفع معه حزم ولا حذر، ومن شدة إقدامه //287 أيده الله على الأمور الصعاب التي يشمئز منها كل قلب ويقشعر الإهاب، هجم عليهم بنفسه وجيشه يوم الجمعة، فكل نفس بعادتها صَبَّة، وإلى مُلائم طبعها منصبة، فعادته من شدة الإقدام، اقتحام صعب الأمور العظام، واقتحم عليهم صعود جبلهم الشامخ الوعر المسالك، بدون معرفة المسالك التي هنالك. ولما أخذ في الالتحام في تلك الأوعار، بعث الله عليهم ما لا يكيف من عاصف الريح الناقل لكثرة الغبار، حتى أظلم من شدته النهار، والجيش كله ليس لهم بالمسالك معرفة ولا اختبار، فاستحكم بالهيئة المجتمعة البأس، وعظمت المصيبة فلم يُفِدهم إلا الرجوع القهقرى مع الظلمة وعدم الاهتداء لمحل السلوك، فاستقبلوا هوة (3) صعبة طويلة، غائرة عظيمة، فسقط فيها كثير من الأفراس، وهلك معها كثير من الناس، فاشتهرت حينئذ بواقعة السَّرِّيفَة، إذ هي واقعة من الله شديدة غير ضعيفة، وكل من سقط فيها هلك، والسبب ما تقدم. وأَعَجَّ الريحُ حتى صار كالحلك، فلاح لهم قَتَام،

---

1 كُتبَت الكلمة هنا صحيحة بالذال المعجمة "الذبان" خلافا لما سبق من كتابتها مرتين مصحفة بالزاي عوض الذال المعجمة.

2 كتب على هامش المخطوط: "بياض بالأصل".

3 في المخطوط "مهوة" ولم نعثر عليها في المعاجم، فلتحرر.

(1) كأنه إعتام، فأدلجت فيه سرية خيل، كأنها قطع ليل، فما انقشع القتام، وانجلت الظلام، إلا والخيل في الهوة ساقطة، وبفرسانها فيها هابطة، كأنهم لما //288 تورطوا في تلك الفتنة التي ألقَحُوا (...) (2)، وما لحوا مخائلها، طمع البغاة أن يغتنموا من أمير المؤمنين ملكا معصوما، وأبرموا من كيدهم ما كان بيد القدر مفصوما، ومن لطف الله بالعباد، أن سقط بالسلطان العتيقُ الجواد، وهو قد سلم، وبسلامته ربح الكل وغنم، فإنه قد تعرض للشهادة بجُهده، إلا أن الله تعالى علم احتياج الناس إليه، فأبقاه لهم الله بجميل صنعه، وحسن دَفْعِهِ، وفي ذلك الوقت الذي هو وقت صلاة الجمعة، كانت تفرق صلة السلطان على أولاد مولاي عبد السلام بن مشيش عند مقامه وهم جم غفير، وهم يُعلنون وقتئذ بالدعاء للسلطان، يجأرون بالدعاء والتأمين، لأنه لما نزل بالمحل المسمى بواد العُصفور، بعدما أوقع ببني ورين، وجه بعض طلبته وهو الطالب الطيب بن عمير الشرگي بصلة كبيرة، وجائزة عظيمة، لشرفاء وزان كبيرا وصغيرا ذكرا وأنثى، وكذلك بأخرى لأولاد مولاي عبد السلام، وفي ذلك الوقت الذي وقعت فيه واقعة غياثة، قُرئ عليهم عند مقام الشيخ الكتابُ الشريفُ بحضرتهم أعيانا وكبراءَ وعلماءَ بحضرة قاضيهم، وأخذوا في الدعاء للسلطان فتقبل الله صدقتَه ودعاءَهم، وتصدق الله //289 به على المسلمين، وإلا فكل من سقط في تلك الحافَة هلك سواه، وهذا من مِصداق (3) رد الصدقة للبلاء، النازل من السماء، فرجع عن عزمه وترك اعتياده، وفهم عن الله مراده، ثم نهض من تازة متوجها للأهمّ عنده، وقاصدا وجدة، وألويته تختال في أكف الرياح، إذ هو الهمام الذي زهيت به السياسة والتدبير، والجبل الذي دونه يَلَمْلَمُ وثَبِير (4)

فصل في بيان قضية القبض على ولد البشير أُمَسعود

هذا والأهم بتعجيل هذا النهوض من كان سببا في رجوع سرية مولاي علي وهو ولد البشير أُمسعود. لما توجه له ارتاعت منه الأمصار، وطاعت له اللُّبانات (5) والأوطار، ولما علم ذلك المقصود، بأنه المقصود، ضاق عليه الرَّحب وسُدَّت مسالكه، وأيقن أن سُدِّدت إليه مهاتِكُه. ثم وجه السلطان إليه لَمَّا غَشِيَتْهُ سطوتُه خديمَه القائد بوشتة بن البغدادي، وفي رفقته سيدي عبد الجبار الوزاني، فتحيل العامل عليه، وسدد سهام المكائد إليه، حتى حصل في قبضته قنيصا، وصار

---

1 قال في لسان العرب: والقَتَمُ والقَتامُ: الغُبار.

2 كلمة غير واضحة قد تكون "حابلها" أو "حائلها" أو "صائلها" أو غير ذلك.

3 في المخطوط "من ماصداق رد الصدقة...".

4 يَلَمْلَم: جَبَلٌ من جِبَالِ تِهَامَةَ يبعد عن مَكَّةَ بأربع وخمسين كيلومتراً. كتب مصحفا في المخطوط "يَلْمُم". والعبارة بعينها واردة في قلائد العقيان لابن خاقان ص127 – أما ثَبِير فهو جبل عظيم يقع بين مكة وعرفة.

5 اللُّبَانَةُ: الحاجة من غير فاقة، ولكن من نَهْمة.

لا يجد لنفسه محيصا، وأخرجه من بين حميته وهي أُمَّة كثيرة كأنها لا تعقل //290 رشدها، ولا تجري إلى ما تقتضيه نعم الله عندها (1)، ولا تقلع عن أذى تفشيه قربا وبعدا جهدها، منهم من لا يرعى لجار ولا لغيره حرمة، ولا يرقبون في مؤمن إلاًّ ولا ذمة، قد أعماهم عن مصالحهم الأثر، وأضلهم ضلالا بعيدا البصر، ونبذوا المعروف وراء ظهورهم، ويأتون المنكر في ناديهم، مقتديا صغيرهم بكبيرهم، وليس فيهم زاجر، ولا منكر على غوى فاجر، فلما انجلى ليلها، وتقلص ذيلها، وظفر الأمير برئيسهم البطل المقدام، وأخذهم بالنواصي والأقدام، على ما ارتكبوه من الجرأة والإقدام، سُقِط بأيديهم.

ولما جيء به للوزير الأعظم، ذي النصح والصدق والصداقة، تلقاه بالبشر والطلاقة، وهو علم أعلام الوزارة المتسمين بأزيائها، المرتسمين في زمام عليائها، المشهورين بالبلاغة، المقتصرين على حسن التناول في كل راغة (2)، الوزير النحرير الأنجد الأحمد، السيد موسى بن أحمد، البعيد الغور، الساكن الفور، فهش وبش له مستعملا حديث "إنا لنبش في وجوه أقوام" الخ (3) وأدخله هو ورفيقه علي بورمضان (4) في خبائه، وأمْرُه آيِلٌ إلى أن يقول واخيبتاه، فاقتضت السياسة أن يوجَّه لفاس مصفودا، وأن يوجَّه له على سيئ فعله السابق من النكاية وُفُودا، //291 فعُدَّ له ما قابل به السرية المتقدمة من كبائره، وجرى عليه الردى من جرائره، كيف وقد قابله قبل ذلك السلطان، بالبر والتعظيم والإحسان، وولاه على قبائل كثيرة، ولم يؤاخذه بجريرة.

الدهر يفترس الرجال فلا تكن ممن تُطِيشهم المناصب والرُّتَب
كم نعمة زالت بأدنى زلة ولكل شيء في تقلبه سبب

فزالت نعته بزلَّته، وزلق في مجرى خيبته. قال العلماء: "ثلاثة من لم يُراعِ لها حقها، وينزلها منزلتها، أسرعت في مفارقته والتحول عنه، العلم والملك والنِّعم".

---

1 في المخطوط "عندنا"، وما أثبتناه أنسب للسجع.

2 كذا في المخطوط، ولم نتمكن من ضبطها.

3 هو كلام منسوب للإمام علي كرم الله وجهه "إنا لنبش في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم" انظر فيض القدير للمناوي ج3 ص568

4 في المخطوط "بن رمضان" وهو تصحيف. وبورمضان هذا فقيه أومسعود وأحد أقاربه كما في كتاب زمن لمحلات ص 43

ولما علم أنه وقع في دُهُمات (1) الأسر، وصار إلى موضع نفاقُ شأنه فيه قد كسَد، دخل وهو دهِش، وأشار بالتحية ويده من الوجل ترتعش، وحيث نَزَلَ نَزَلَ خجِلا، ومشى بين يدي الوزير عَجلا، فَكُفْرانُه نعمة السلطان، أدل دليل على الطغيان، سيما حيث شاهد قومَه في واقعة سرية مولاي علي ينهبون الجيش الموجه لهم ولم يقع منه نكير، ولا أبدى عن ذلك شيئا من المعاذير، وتلك حجة قائمة على نقصان عقله، فعدم مراعاة العواقب وبطشة الملوك يُستدَلُّ بها على جهله، ولولا جهلُه بالعواقب ما اغتر، فقد ص 292 قال الحكماء: "الغِرة ثمرة الجهل، والتجربة مرآة العقل". وقالوا: "من قَلَّت فكرته كثُرت عثرته". اهـ

هذا وعند إرادة توجيهه لفاس أُحضر في الحين في تلك الليلة الخديمُ القائد الشافعي المسكيني ومعه نحو الثمانين فارسا من أبطال إخوانه، فذهبوا بهما حتى أودعوهما دار بودلاَّحة بفاس العليا، فلم يقم له بعد ذلك ميزان، ولا انتطح في شأنه عنزان. وفي الحِكم: "أمَرُّ الأشياء ظفر العدو، وأحلاها نيل المرجوّ". فاتَّضحَ لكل من كان يبدي للسلطان النصيحة في التأخير مِن رأي السلطانِ غايةُ سداده، وحِدَّة عقله عند بلوغ مراده. وقد قال الحكماء: "مَن سلك السداد، بلغ المراد". وقالوا: "العاقل من اغتنم غفلة الزمان، وانتهز فرصة الإمكان".

ثم بعد ذلك وُجِّها لسجن مصباح بمراكش فبقيا فيه سنين، فسُرِّح بورمضان وقضي على ولد البشير أُمسعود.

1 في المخطوط "لهوات" أو "دهوات" ولا معنى لها، فلعلها تصحيف لما أثبتناه. والدُّهُمات: جمع دُهْمَة، وهي سواد الشيء.

فصل في ذكر دخول السلطان لوجدة وترحيب من حولها من [أهل] (1) الإسلام والنصارى. وعند توجيهه لفاس

293//

تَوجَّه السلطان لوجدة، ولما وصلها دخلها وأقام بها حتى صلى الجمعة بجامعها، ومهد فيها أمورا فأحاطها، وأحاط تلك النواحي بنظر واسع كثير، وأوسعها حُسن التدبير، فخرج ونزل بالمحل المعروف بالمِحاَدَّة، فوفد عليه هنالك جِلّنَارات الدولة الإفرانصَوية الذين بوهران والذين بتلمسان ومن معهم من أعيان الإيالة الشرگية الذين عمَّتْهم حكومتُهم، في عدد وافر من العسكر والخيل، وأقيم للمقيم مهرجان عظيم كبير أقامَ وأقعدَ، احتفل له الناس أي احتفال، إذ ذاك موطنٌ ينبغي فيه إظهار القوة. ولما تم أمره، واتسع ثناؤه وشكره، وأزمع أؤلئك النصارى الشخوص الرجوع، أُكرِموا بما يناسب مُلك الإسلام زيادة في إظهار القوة، وتقليدِهم المنة، وذلك من عتاق الخيل ونفيس سروجها، وغير ذلك مما يناسب ظهور ملة الإسلام على الملل، وقد جاؤوه هم بهدايا وتحف منوعة، فولَّى عليها، أي على وجدة، وعلى حوزها حينئذ بوشتة بن البغدادي عاملا، وولى على عيون سيدي مَلُّوك (2) الطالب احميدة الشرگي وما حولها من الأعراب 294//

فصل في بيان رجوعه من وجدة

ولما تم مراد السلطان على أحسن مراد، والحالة أنه ما فلَّ الله له حدًّا، ولا أخلفه وعدا، ولا هزم له جندا، إلا ما تقدم شرحه من قضية غياثة، التي أراد الحق أن يُظهر له فيها اللطف والإغاثة، رجع موصول الأسباب، ممدود الأطناب، قاصدا حاضرة فاس، بعد إحكام الأمور على أقوم أساس، وفي القديم قال الناس: إن اقتناء المناقب، باحتمال المتاعب، شعر:

وقلَّ من جدَّ في أمر يحاوله   واستعمل الصبر إلا فاز بالظفر

فلم تزل خيله تجوب البيد، وتُقرب النازح البعيد، راياته تهتز طربا برياح النصر والظفر، وهو قد حمد الله على ما أولاه وشكر، إلى أن خيم قرب فاس بقنطرة سبو في الخامس والعشربن رمضان عام ثلاث وتسعين ومائتين وألف، وخرج لملاقاته وتهنئته بها علماء فاس وأعيانها، وحل محل كرسيه بفاس في اليوم السادس والعشرين وأقام بها ليلة القدر على الصحيح، وأقام بها مدة، وفي تلك المدة أقام وكيرة عظيمة فخيمة جسيمة، للقبة التي كملت بعرصة 295// لالَّة مينة،

---

1 إضافة يقتضيها السياق.

2 مدينة العيون سيدي ملُّوك والمشهورة باسم العيون الشرقية هي مدينة مغربية تقع بالجهة الشرقية على منخفض يمتد من الغرب الجزائري إلى مشارف مقدمة الريف، وتنتمي لإقليم تاوريرت.

وتلك الوكيرة هي التي تقدمت الإشارة إليها بمحضر مقيده فيها مع جم من العلماء وسُرِد فيها صحيحا البخاري ومسلم وكذلك الشفاء على الوصف الذي تقدم.

استدراك لذكر تحويل وادي فاس

ومن الأدلة الصحيحة الدالة على صدقنا أن معاناة الأمور الكبار لا تشغله عن تفقد الصغار، وذلك أنه لما اجتاز بفاس على الوجه المذكور، قاصدا وجدة وما دونها وحولها من جسام الأمور، ولم يقم بفاس إلا ستة أيام، لم ينهض منها حتى هيأ تحويل وادي فاس عن محل مجراه القويم، (1) المتصل بسور فاس القديم، وأمر بشق الحجارات الصلدة، والأرض الصلبة، بمحل آخر أراده لإمراره فيه ومجراه، وتوسعة الموضع وحسنه على ضرب من الإتقان تستحسنه كل نفس وتهواه، وأحاطه بسور في غاية الإتقان والارتفاع، وشبابيك الحديد العجيبة الصورة، مما زاد في رونقه ومعناه، فجاء ذلك شكلا غريبا، وصنعا رائقا عجيبا، وقد تقدمه من الملوك على كثرتهم في القرون الماضية، وكثرة الأعصار الخالية، منذ بنيت فاس إلى عصره هذا، ولم تتيقظ همة واحد منهم إلى هذا الإصلاح المستحسن العجيب 296// والصنع الرائق الفائق الغريب، أبدع بناءه، ونمَّق ساحتَه وفِناءه، حتى اتُّخِذ ميدان المِراح، ومضمار الانشراح، تطيب النفوس في مَشِيدِه (2)، ويطرَب الانس ببسيطه ونشيده، وهذا كله في مدة توجه فيها لغير ذلك من الأمور العظام، ما تدهش فيه العقول الكبار وتَكِل فيها الأفهام.

قل لِلأُلى سَاسُوا الورى وتقدموا　　　قدماً هلموا (3) شاهدوا المتأخرا
تجدوه أوسع في السياسة مِنكُم　　　صدراً وأحمد في العواقب مَصدَرا

---

1 كذا في المخطوط، ولعلها "القديم".

2 من شَادَ البِنَاءَ يَشِيد، شِدْ، شَيْدًا، فهو شائد، والمفعول مَشيد: أي بَنَاهُ، رَفَعُه، أعْلاَهُ.

3 في المخطوط "هلمَّ". وقد أثبتنا ما ورد في الذخيرة للشنتمري ج8 ص649

فصل في ذكر توجه السلطان من فاس بعد قضية وجدة لمراكش وكيفية زجره لقبائل تادلا في ذلك التوجه.

وبعد إقامته هذه المدة بفاس مدة يسيرة، ارتحلت همته الوقادة، لتذييل صعاب الأمور جريا على مسالكها المعتادة، فتوجهت للمزيد، عما أصدر من التمهيد، فأصدر أمره لقبائل الحوز بالنهوض نحوه بالعدد المعروف، وعلى الوجه المضبوط المألوف، ونهض هو بالمواكب والجيوش والضرائب لمكناسة الزيتون، فوجه عمَّه الشريف العَقُول، ذا الحزم والسكينة والهدنة والسياسة والصدق في المقول، الذي 297// ما توجه لقطر إلا أذعنت القلوب لفضله بالاعتراف، ووصفت الألسن سياسته وكريم أخلاقه ببدائع الأوصاف، فمن قائل كأنَّ أخلاقَه رُقيةُ الوَصل، وقائل كأن حلاوةَ مخاطباتِهِ وسيرته رِيقَة نَحل، لإصداره ذلك عن أدب جزل، ومنطق فصل، إلى قريحة ثاقبة، ودراية صائبة، وهمة سامية، ولذلك كثيرا ما يتيمن به السلطان المؤيد بالله في تقديمه لمهمات الأمور، ويُحسنها في الإيراد والصدور، لما له من فطنة تخلِّص بين الماء واللبن، وتفرق بين القبيح الخفي والحسن، فكم أجلسه سميرا، واصطفاه معينا ومشيرا، وما قُدِّم لِمُهم إلاَّ شَفَى فيه النفس، ونَفَى عنه اللبس، حتى عُدَّ لمغلَقات الأمور أفتحَ مفتاح، حيث لا تصدر عن تدبيره إلا على غاية الفوز والنجاح. كيف لا وهو واسطة عقد أهل النبوة والملك، وعين الملِك الباصرة، ويده الناصرة، قَصَر سعيَه لَه على تمام الرياسة، وحُسن كَمال السياسة، وهو على حفظ ما استودعوه أمين، ونجل أكابر الملوك مولانا الأمين، العَقول الكبير الهمام، نجل مولانا عبد الرحمن بن مولانا هشام، وجهه للتَّخييم بدار (1) رباط الفتح 298// وأن يجتمع له جمع الشاوية ودكالة بالمحل المسمى بالگبيبات (2)، ثم أصدر أمرا ثانيا لجموع جيوش بربر دَير مراكش ومن عداهم من حاحا إلى نفيفة وما بينهما كالشياظمة وجيرانهم والسراغنة وجيرانهم بالاجتماع على أخيه مولاي الحسن المميز بابن العامرية، وأن يخيموا بالموضع المسمى بطالع گرماط من بلد زعير ورديغة، وهذه مقدمات للنتائج الآتية. ولما حشد مولاي الأمين من أُمِر بحشدهم، رجع بهم لمكناسة حتى اجتمعوا بجيش السلطان، فنهض إذاً مُنتَهِجا طريق زمور الشلح وزعير، ونكَّب (3) طريق الرباط في وجهته هذه حتى التقى الجيشان، جيشُه وجيش أخيه مولاي الحسن، واجتمعت الجيوش هناك، وهو كما قيل في المثل السائر: "يُسِرُّ حسوًا في ارتغاء" (4)، مضمرا لتادلا بعض ما استوجَبوا فيجتَنوا ثمار ما غرسوا، فتوجهت الجيوش لمراكش خائضة بلاد تادلا، ولما توسطتها الجيوش، توجهت السياسة لجمع أعيان أهل الفساد منهم حتى اجتمع منهم جمع غفير،

---

1 تبدو هذه الكلمة هكذا "لدا رباط الفتح" أو "بدا رباط الفتح" فقومناها بما يبدو أقرب وأنسب.

2القبيبات هي منطقة ساحرة في الرباط، تقع في الجزء الشمالي من المدينة. وتشتهر بمعالمها السياحية الرائعة والطبيعة الخلابة.

3 نَكَّب الشَّيْءَ : نَحَّاهُ، أَمالَهُ.

4 يُضرب لمن يُظهِرُ أمرًا ويريد خلافَه، والمراد أن الشخص يوهم من حوله أنه يريد شرب الرغوة فقط، لأنها بلا قيمة، لكنه يقصد أن يشرب اللبن جُلَّه أو كله، ولو صرَّح لعورِض ومونِع.

فقُبض منهم كثير، ضربهم العسكر في آن واحد برعد من البارود، فصارت الواقعة إلى الآن مسماة بعَام طَرَقَة، يعنون بطَرَقَة //299 في لغه العامة اجتماع صوت الضرب في آن واحد أو متتابع بلا فصل. وصفِّدت منها مساجين ووجهت لسجن مصباح بمراكش، وقُبض إذ ذاك على القائد عبد النبي العميري لِما ظهر منه مما استوجب به ذلك، وتوجهت الجيوش وقبلها السلطان يقدمها بالنصر والظفر والسلامة، وتمام المقصود بدون بخس ولا ندامة، حتى وصل الجميع بمراكش أوائل ذي الحجة متم أربع وتسعين بعد المائتين والألف.

فصل في ذكر ما حل بالسلطان من السقم الذي بلغت منه القلوب الحناجر، وقد من الله على الملك إذ ذاك بأكْيَس معالِج وأحذق (1) زاجر وهو الوزير السيد موسى

ولما تم المراد من التمهيد، على وفق ما يريد، وتمت الإقامة بمراكش وحصلت الراحة والاستراحة، ورجعت القبائل لأوطانها، أخذ السلطان في إظهار شكر الله على ذلك بإقامة النزهات، وتهيأ لنزهة عظيمة لإدخال السرور وإظهار الشكر يقيمها بجنان المنارة الشهيرة، ذي المنتزه الرائق والصهريج المتبحر الكبير، ومن قدر الله أنه بمجرد الانتقال إلى ذلك البستان سَطَت الدنيا بعادتها، //300 وإظهارِها عند ظُهورِ الصَّفوِ مَخْبُوءَ مُصيبَتِها، وعند صفو الليالي يحدث الكدر، فتكدر ما كان صفا، وقابلت الدنيا بالسطوة والجفا، فأصاب السلطانَ في الحين سقمٌ هائل، وفي كل يوم لا يظهر إلا زيادتُه وتضاعفُه بدليل العيان وصدق المخائل، فاشتدت وطأته، وطالت مدته، ومع ذلك لم ترتع الرعية ولا تشوشت ولا اختل لها نظام، بوجود داهية الوزراء العظام، عقلا وخلقا وضبطا وحزما وسياسة الذي هو لمفاصيل الأمور صَيقَل حُسام، بحيث لا يخشى النظام مع وجوده اختلالا ولا بؤسا، وهو الفقيه الوزير السيد موسى، فإنه رحمه الله وافر الحلم والعلم، واسع الأخلاق والفهم، وفي الحِكم: "سعة الأخلاق، كنوز الأرزاق". وقد ظهر عليه وعلى من خَلَّف من ثمرة ذلك غاية المصداق (2)، فاحتمل مع ما هو حامل له ما احتمله السلطان، وسير نظر السياسة في الأمصار والقرى وسائر الأوطان، زياده على ما أصابه من الإشفاق على السلطان.

---

1 تبدو في المخطوط "أحدق" بالدال المهملة، ولعلها "أحذق" بالذال المعجمة.

2 في المخطوط "الماصداق" وقد سبق أن وردت كلمة مثلها من قبل بنفس الرسم بمعنى كلمة مصداق.

فصل في ذكر وفاة الوزير الأحمد، السيد موسى

ابن أحمد، 301//

وكأنه تضرع إلى الله في أن يفديه بنفسه، وأن يكون عوضا عنه في رمسِه، وذلك لصدق نصيحته، وشدة محبته، فاستجيبت دعوته، ونيلت أمنيته، فعوفي السلطان وكان لعافيته من الأفراح، وطرح الأتراح، أمر عظيم صارت تلك الأيام مواسم وأعياد أو مواعيد، وينشد فيها ما أنشئ بمراكش وما سيق من فاس وغيرها من القصائد، فاستبشر الناس وأقلعت الدنيا عما أصابت به من المكايد، ولما تكاملت عافيته، وتمت للوزير فيه منيته، لم يبق الوزير بعد ذلك إلا أشهرا فلحلقته منيته، جدد الله عليه الرحمات، وضاعف له في الدار التي صار إليها جميع الخيرات، فلم يمرض إلا نحو السبعة الأيام أو الثمانية، خيره الله في أبواب الجنة الثمانية، في السابع عشر أو الثامن عشر محرم الحرام فاتح عام ستة وتسعين بعد المائتين والألف، فكان لجنازته محفل كبير، ومن جملة من وقف على دفنه مولانا الأمير، وفي يوم دفنه جُعل مكانَه مساعدةً لظروف الدهر، الذي في الغالب لا يأتي بالبدل إلا أعور، كما في المثل السائر، السيدُ مُحَّد العربي الجامعي. فكان السيد موسى رحمه الله مع كثرة ما تحمل من أعباء الوزارة 302// وجميع شؤون الإمارة، عابدا يقوم الليل، ولا يؤخر الصلاة عن أول وقتها، لا يكاد ينفك عن الطهارة في جميع أوقاته، محافظا على إوراده وإذكاره، حليما صبورا، كريما شكورا، سهل المنال، لا يرد السؤال، صادق اللهجة، كريم الطبع، محبا للعلم وأهله، وله في العلم نصيب وافر، ولنعم الله بالتواضع شاكر، وبهذه الأوصاف باين غيره أشد المباينة، يعلم هذا كل من شاهده وعاينه، وهذا لا يكاد ينكره إنسان أي إنسان، إلا مَن تحامل وكابر بمحض مكابرة العيان، والحديث شجون، ويجر إلى فنون، ويغني في ذلك عن كل مقول، حديث الرسول، ﷺ، وعظم وكرم: "من أثنيتم عليه خيرا" أو نحوه.

الباب الرابع في قضية وطأته على آيت اعتاب بما استوجبوه من النكال والعتاب

وبعد ذلك بقريب، في صدر تلك السنة، أصدر السلطان الأمر بالنهوض للغرب، وفي هذه المرة على آيت اعتاب، وكانوا تمردوا ولم يألوا جهدا في العناد وشدة الشكيمة، في الأخلاق الذميمة، ولم يغن فيهم لوم ولا عتاب، بل لم يزدادوا إلا مخالفة وانحرافا عن نهج الصواب، فوطئ عليهم //303 وطأة الأسود، حتى شردهم وبددهم وأرقاهم عقبةَ بَغْيَهم الكؤود، فصاروا أشرد من نعامة، راجعين على أنفسهم بالملامة، معترفين بخيبة السعي والندامة، وقد ظهر مِصداق (1) قولهم "لا تَنجَعُ (2) الموعظة في القلوب القاسية، كما لا يزكو الزرع في الأرض الجاسية (3)"

لا ينفع الوعظ قلبا قاسيا أبدا وهل يلين لقول الوعظ الحجرُ

وجرى فيهم على قول الحكماء: "انقياد الأخيار بحسن الرغبة، وانقياد الأشرار بذكر الرهبة، فازرع الأخيار بصيب نعمتك، واحصد الأشرار بسيف نقمتك".

فوضع الندى في موضع السيف للعدا مُضِر كوضع السيف في موضع الندى

وفي إيقاعه بهم مات القائد الزبيري الرحامني، ضرب من ثقْب من ثقوب صياصيهم ببُندُقَة رصاص لما هجموا عليهم في متحصنهم، وولى مكانه ولده القائد المهدي.
ثم لما فرغ من وطأته على آيت اعتاب وتوطينه إياهم، ورجوعهم للجادة، وانقيادهم للخدمة، صرف وجهته للمسير أمام على بلاد تادلا، وسيأتي إن شاء الله لقضية آيت اعتاب مزيد إيضاح في نقل تقييد لطيف سبق //304 تقييده هذا التأليف، وذلك عند قضية فتح بربر بني مكيلد، كما يأتي زيادة إيضاح قضية بني مطير، وقضيتي سوس هناك، ففي ذلك ما يغني عما هنا.
ولما سلك بلاد تادلا مر على أبي الجعد وزار ما هنالك من أولياء الله الصالحين، ومن أبي الجعد اجتاز على طريق زعير، ثم منه لرباط الفتح، ومنه توجه لمكناسة على نواحي زمور الشلح بنظر التمهيد في تلك القبائل التي يمر عليها.

---

1 في المخطوط "ما صداق"، وهي ثالث مرة تكتب فيها هذه اللفظة بهذا الشكل، ولم نعثر عليها بشكلها هذا فيما انتهى إليه بحثنا.

2 نَجَعَ الشيءُ : نَفَعَ وظَهَرَ أثُره.

3 الجَاسِية: بالجيم، الصلبة الخشنة.

فصل في ذكر قضية استواء السلطان في هذه الرحلة على بني مطير

هذا وقد كانت بنو مطير لا زالت فيهم بقية من شدة الشكيمة والعناد، وظهر منهم في غيبته هذه من ذلك بعض ازدياد، لاسيما حيث سمعوا ما تقدم من سقم السلطان، فتسارعوا لمألوف أدراجهم من الطغيان، فتمالؤا (1) بحمية جاهليتهم على قبائل الأعراب الذين أنزلهم السلطان بأرض سايس لعمارتها، وقاتلوهم حتى حصلت بينهم قتلى، ونهبوهم وأخرجوهم من سايس، فبقيت عليهم في باطن السلطان بقية وأيُّ بقية لفعلهم ذلك.

ولما أشرف على الدخول لمكناسة وأيقن الجيش بدخولهم لها، وبنو مطير على حذر منه مبطنين بل 305// وموقنين أنه لابد من توجهه لعقوبتهم، وعازمين على الرد عن أنفسهم، نَكَّبَ الدخول لمكناس ومال لناحيتهم، فلم يشعروا إلا وهو خائض أرضهم وبين حِلَلِهم، إلى أن خيم بأعز بلادهم عندهم وأحصنِها لديهم، وأكثرِها ماء، فصب عليهم الذل صبا صبا، وقالوا لأنفسهم تبا تبا، وغشيهم الذل والمسكنة، وصاروا كَلِئام الطير إذا صرصر فوقها البازي، فسقط ما بأيديهم وضلَّت عنهم كل مكيدة نووها وتواطؤوا عليها، فأخذ بمخانقهم وجاؤوا (...) (2) مطيعين، متتابعين تتابع البقر مهطعين، تائبين منقادين، بالت على رؤوسهم الثعالب، وقد ذل من بالت عليه الثعالب، فصار الشرطي يتوجه لصناديدهم وأشدهم عتوا حتى يدخل عليه خيمته ويقوده منها كالضأن ولا من يُنَاوِيه، ولا مفر يأويه، حتى حدث بقدرة الله ريح وبائي في خصوص تلك الأرض استُشهد فيها عدد وافر من الجيش، فأمر السلطان بالرحيل والرجوع لمكناسة، وبعد الدخول لها، من جملة من قضي عليه بسبب ذلك الفقيه الكاتب الطيب الأصل السيد عبد القادر الفاسي، وحمل من مكناسة بوصية منه لروضة جده الطود الراسي، سيدي يوسف 306// الفاسي، بالمحل المسمى بالقبُب (3) خارج باب مفتوح من فاس، وهناك دفن رحمه الله، وكذلك الفقيه الشريف سيدي مُحَّد أيوب، كان مع أمين الصائر وحُمل لفاس ودفن هناك. فأقام السلطان بمكناسة مدة قريبة، وذهب ذلك الريح عند دخولهم لمكناسة. وبعد ذلك انتقل لفاس ولعله في هذه المدة وجه الفقيه العلامة ذا السكينة والوقار والتؤدة والسمت الحسن المختار (4)، شيخنا أبا الحسن السيد علي المسفيوي لبعض الدول النصرانية لسياسة مَّا، وفي أثناء إقامته هذه بفاس حدثت حادثة الله يعلم حقيقتها، فأصدر السلطان الأمر لقاضي الجماعة بفاس، وهو الشريف العفيف، ذو الهمة العالية، والنفس الحرة المتعالية، الحافظ اللافظ العلامة مولاي مُحَّد العلوي، بأن يأخذ له خط يد كل طالب فقيها كان أو عدلا من العدول ونحو ذلك، مظهرا أن المقصود انتخاب طائفة لكتابة الديوان، فامتثل الأمر، وعند الامتثال انتظم في كتاب الديوان من ذوي الخطوط التي

---

1 تمالأَ القومُ على كذا: اجتمعوا وتعاوَنُوا عليه.

2 كلمة غير واضحة.

3 في المخطوط بكاف معقودة عوض القاف.

4 كذا في المخطوط.

صعدت للسلطان نحو الخمسة عشر، منهم السيد مُحَمَّد بن أحمد الصنهاجي الذي نصب بعدُ وزيرا في محل السيد مُحَمَّد //307 ابن العربي ومولاي أحمد البلغيثي، والشريف السيد مُحَمَّد المنصوري، المرابط السيد مُحَمَّد الأخصاصي الفرضي، والشريف الفقيه السيد الحسن الودغيري وغيرهم. وبعد ذلك بقريب تأهَّب لاظهار الشكر، على ما أولاه الله من النصر، فعقد لذلك نزهة بالقصر المسمى بدار الدبيبغ، فانتقل إليه في غرة ذي الحجة من تلك السنة، وعند ابتداء انتقاله ذلك جاءه نعي عمه وصنو أبيه، الشريف مولاي علي نَجل السلطان مولانا عبد الرحمن بن هشام رحم الله الجميع. وجاءه نعي قاضي الرباط الذي تقدم ذكره في قضية خطابه على شهادة من أفطرَ الناسَ قبل إبانه. ومكث بدار الدبيبغ تلك المدة نحوا من ثلاثة أشهر، ثم رجع لدار الملك واستكان بها شاكرا لأنعم الله مدة من (...) (1)

فصل في عقد هذه الراية من فاس لمراكش وما بينهما ونيته بعدها لسوس الأقصى

ثم نهض منها لمكناسة فجلس بها أياما قلائل، فنهض بجيوشه وعساكره المُرهبة للعدو، القامعة لكل ذي عتو، ووجهته لمراكش وأحوازها، ومن عادته في الذهاب والإياب المرور على كل طريق كان الملوك قبله يقضون عليها //308 بالاستصعاب، فمر أيضا في هذه على زمور الشلح في هذا الإياب، ثم إلى رباط الفتح واستوطنه أياما بدار ملكه منه، يجاري نظره في كل أمر يستحق أن يُجارى، من أمور المسلمين والنصارى.

ثم لما فرغ من ذلك ظعن، وفي نحور بلاد زعير وتادلا بتلك الجيوش طعن، يكرر المرور فيها ويعيد، تأسيسا لما قدم فيها من نظر التمهيد، وراياتُه وأعلامُه تجوب تلك البِيد، إلى أن دخل مراكش.

1 كتب على هامش المخطوط "بياض بالأصل".

ولما دخلها واستقر بكرسي ملكه، ثارت همته الوقادة لمركوزها طبعا وعادة من الإقدام والشجاعة الجِبِلية، إلى التوجه للأقطار السوسية.

فكل يرى طرق الشجاعة والندى ولكن طبع النفس للنفس قائدُ (1)

وفي يوم الإثنين الذي هو حادي عشر رجب سنة تسع وتسعين ومائتين وألف أقام صُدورَ مَطِيّه (2) متوجها لسوس، ليمهد شؤون أقصاها ويضبط أمور رعيتها ويسوس، بدون طول مكث بمراكش وكبير استراحة، مارا على طريق قبائل حاحا، إلى أن ادَّرع (3) خيلُه ورَجلُه //309 في وسط تلك الأقطار، وأجال فيها الأنظار والأفكار، فوجد تلك القبائل السوسية جميعها قد أنهكتها السنون قويها وضعيفها، عليّها ووضيعها، وقف حمار شيخها في العقبة، حيث بلغت منتهاها فيهم المسغبة، فرَقَّ لهم ورجع عزمُه، وانقلب تصحيحه، بل رق وأشفق، وأقشَعَ نَوْهُ (4) حِقده عليهم وأخفق، وعزم على الصفح عنهم والتجاوز، وأن يرفع بالإغضاء عنهم تلك المعاوز، مع أنهم قابلوه حيث توجه لهم براية الخلافة عن والده كما تقدم بيانه مستوفى، بما يقلب المحاسن مساويا، وتنقلب الأولياء معه أعاديا، ومع ذلك رأى أن السياسة التي ليس فيها حيف، هي ما اقتضاه الحال من وضع الندا والمعروف موضع السيف، فإن من شيمه يعفو ويصفح، ولو كان الغضب يفيض على صدره ويطفح، لما أكرمه الله به من الخلق الأسجح، فلم يزد على أن خاض ذلك القطر وقبائله آيت وآيت، إلى أن جاوز إلى وادي ماسة بل حتى وصل إلى القرية العظيمة المسماة تيزنيت، فأمر ببنائها وإحاطتها بالسور، وبناء دار المخزن فيها وعين ما يصرف في ذلك من بيت المال، ورجع في الحين //310 لما وجد هناك من المسغبة وشدة الغلاء وعدم وجود ما يشترى البتة، حتى ضاع من الكُراع ما له بال، من خيل وبغال وجمال، وسيأتي إن شاء الله شرح القضية ومزيد وصفها، وشفقة السلطان ببديع رصفها، في التقييد الآتي الذي سببه فتح بربر بني مكيلد عند التعرض له، ففيه من الإفادة ما يوجب التحامي عن التكرار والإعادة. وقد رجع من سوس على طريق القبائل الحاحية، تسهيلا على دواب الجيش لترجع سالمة ناجية، مع سَير جاد نفيس، وفي يوم الجمعة سادس عشر رمضان عَامَهُ ختم صحيح البخاري قرب وادي انفيس، وصلى تلك الجمعة بحاضرة مراكش وأقام بها ليلة السابع والعشرين بمسجده المعلوم على العادة، فجمع بين

---

1 بيت للمتنبي.

2 أقامَ صَدْرَ الْمَطِيَّةِ: إذا سارَ، وإذا تَوَجَّهَ لوجهٍ وتَعَنَّاهُ فقد أقامَ مَطِيَّتَه.

3 كذا في المخطوط بشدة على الدال، ومعناه لبِسَ دِرعا، وربما كانت مصحفة عن الفعل "اندرع"، يقال: اندرع فلانٌ في السَّيْر: أي تقدَّم. والله أعلم.

4 أقشع: زال - النَّوْه: من نَاهَ الشيءُ يَنُوهُ: ارتفع وعلا.

السَّفر وهذه القُرب ولم يَلِت ذلك من عمله شيئا، فكان جملة ما غاب شهرين ونصفا، ثم توطن بمراكش واستوطن دار ملكه منها.

فصل في عقد راية أخرى لفاس من مراكش بعد رجوعه من سوس الأقصى المرة الأولى

ثم لم يزل مستوطنا إلى يوم الإثنين سابع رجب الفرد عام ثلاثمائة بعد الألف، ركب لزيارة أولياء الله بهذه الحضرة المراكشية، وفي يوم الإثنين رابع عشر 311// منه أزمع الشخوص، وأجمع أمر جيشه على العموم لا الخصوص، لتفقد حال الرعية وتجديد النظر في أحوال الناس، مما بين مراكش وفاس، وكان قَدَّم عمه الذي هو عنده أقرب مستشار وأنصح مشير، وأصدق من إليه يُسند التدبير، وعلى ما أُسند إليه حازم أمين، الشريف مولاي الأمين، بسرية يسيرة، ليست بكثيرة، كأنها لتهيئة ما قُصد فَرَط (1)، ولتحقُّقِ ما ربما التبس من الأمور واختلط، ومعه الفقيه النبيه واسع الحافظة بارع الخط ذو الترسيل (2) الحسن، وعاضة الانسلاء (3) المستحسن، الحائز خصوصية البراعة، وفروسية اليراعة، عصامي النفس السيد مُحَمَّد البوعصامي.

تنبيه: قال الحكماء وجماهير الأدباء "حِلي الرجال ما يُحسنونه، وحِلي النساء ما يلبسونه"، وبعبارة أخرى "حلي آذان الرجال الأدب، وحلي آذان النساء الذهب". فخيمت سربتهما بالزيدانية، واجتمعت عليهم قبائل تلك النواحي من بني عمير وبني موسى وآيت الربع وبني زمور وورديغة بذلك المحل.

ثم توجه النظر منهما وانبحث (4) عمن بقي على عناده، وعتوه وشدة شكيمته في فساده، فأنتج النظر في ذلك أن نفرا من بقية أهل الزيغ 312// والطيش، رئيسهم رجل يقال له الدَّرَيْوِيش، وآخر يقال له بوعزَّة حَمَّادي، اجتمعوا بدوار أولاد حسون، وأن بقاءهم على حالهم لا تتم معه استقامة ذويهم بل ربما الكثير من جيرانهم من تادلا كذلك، وقد ورد عليهما كتاب شريف من السلطان أمر فيه بالشروع في أخذ الواجب من الوظائف على تادلا، وظهر مُهِمًّا من نتيجة النظر أن استيفاء الواجب لا يتم بدون القبض على أولئك، وأن المصلحة تعينت في ذلك، فاحتِيجَ لحيلة، ربما تكون أفيد من قبيلة، فنصبا لهم منها شبكة للاقتناص، فما لبث أن أوقعوا فيها وأيقنوا أن لا مناص، فأسرعا للسلطان بذلك الإعلام، بأن

---

1 فَرَطَ مِنْهُ خَيْرٌ أَوْ شَرٌّ : سَبَقَ.

2 تَرسيل الْقِرَاءَةِ : تَرْتِيلُهَا بِأَنَاةٍ.

3 كذا في المخطوط. والانسلاء من الفعل انْسَلَى. انسلى عنه الهمُّ وغيرُه: انكشف.

4 انبَحَثَ يَنْبَحِثُ اِنْبِحَاثًا فِعْلٌ ثُلَاثِيٌّ مَزِيْدٌ بِحَرْفَيْنِ هِيَ الأَلِفُ وَالنُوْنُ فِي أَوَّلِهِ، وهو فعل مطاوعة لِبَحَثَ: بحثت التراب فانبحث. وفي العامية يستخدم عوضا عن بُحِثَ بصيغة المبنى للمجهول.

الدائرة دارت على أولئك الظُّلَّام، فاستحسن فعلهما وبه تيسر ما على تادلا من الواجب على التمام، من تأدية النفل والفرض، مع التناصف لبعضهم من بعض.

فصل في عقوبة السماعلة على ما فرط منهم من الغي

فنهض أيضا السلطان بجيوشه يطوي البيداء طيا، همته تنكيل كل من أبدل الرشد غيا، واجتاز من طريق بلادهم مسلكا للدير محاذيا، مارا على قصبة بني ملال، ثم إلى قصبة آيت الربع //313 ثم إلى أبي الجعد، والمجعولُ نصب العين المقصودُ بلا تردد ولا مَين من لم يُبالوا بما يُسمَع عنهم من الجرائم الهائلة، وهم القبيلة المسماة بالسماعلة، فتوجه إليهم بالجيش والعسكر، ولما أيقنوا بالتوجه إليهم أخذوا في التمنُّع والحذر، وتذهبوا لمقاتلة جيش السلطان، لما سولت لهم أنفسهم من السفه والطغيان، وما يعتقدونه من قوتهم على ذلك لِما خامَرهم من سفاهة الأحلام، حتى أصبح جميع ما جمعوا عليه أمرهم وشركاءهم أضغاث أحلام، فتقدم إليهم الجيش وهم في قصبتهم ومتحصَّنهم يَقدُمُه السلطانُ الظافر، ويقدِّم لهم من جيشه ذلك أسودا في المَغافِر (1)، فلما التقى الجمعان، وارتقى ثنية بَغيِه المُعين منهم والمُعان، حمل العسكرُ عليهم حملة خلعتهم عن مركزهم، وأدالتهم بالذُّل عن مُتعزَّزِهم، فتفرقوا في تلك البسائط والرُّبى، وشربوا سقيا الأسِنَّة والظُّبا (2)، وأوقع بهم الظافر أحسن إيقاع، وتركهم مدرجين في تلك البقاع، وخربت قصبتهم، التي هي عندهم من حصونهم مانعتهم، فضاقت عليهم الأرض من كل جانب، بعدما تخيلوا من أنفسهم أنهم أسود فإذا هم ثعالب، فدمرهم تدميرا، ولم يجدوا وليا ولا نصيرا //314 وبعدما ثُلَّ (3) منهم عرشُ الجماعة، تقدَّم أهل الوجاهات من المرابطين يطلبون الشفاعة، فقبلها منهم وتولَّى عنهم عملا بقول الحكماء: "إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكرا للقدرة عليه". إذ لا يحمله سفه السفيه على مباينة الحِلم، إنما الحليم من يغفر الذنب العظيم.

1 المِغافرجمع مِغفَر: زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة، ويقال له خوذة.

2 الظُّبا: جمع ظُبَّة، حَدُّ السَّيْفِ والخَنْجَرِ والسِّنَانِ وما أَشْبَهَهَا.

3 ثَلَّ عَرْشَه: أذهب سلْطانَهُ.

فصل في قصد زعير بالعقوبة ثم فروا وأُكِلت مخازنهم، ثم لما شفع وأقلع عنهم توجه لرباط الفتح على طريق ورديغة وعلى طريق زعير

وحيث وصل لزعير وجدهم على ما هم عليه من سيء منهاجهم، ومالوا أدراجهم، فكلهم عند مطالبتهم بالمطلب يتمرض، ويصير أروغ من ثعلب، يروغون عن تمام الانقياد، إلى أداء واجبهم المعتاد، فهربوا وتفرقوا شذر مذر، فأمر السلطان بالنزول على مخازن حبوبهم التي هي أمراسُهم (1) فأكِلت أكلا لَمًّا، فما هربوا منه وقعوا فيه، (2) إذ ما تركوا هو المحبوب لهم جَمًّا، وعند ذلك نهض وخيم بمحل قريب من الموضع المسمى كْرِيفْلَة قريبا من رباط الفتح لسياسة مقصودة. وأغراض ممدودة، منها تمكين ذوي المآرب 315// من قضائها من المدينة كتجديد الزاد، وأخذ الأهبة والاستعداد، فكُل يسهل عليه الذهاب لها لمراده والرجوع عند نيل المراد، وللسلطان في عدم حلوله بها إذ ذاك سر مراد، من جملة ما ظهر منه قضية العامل السوسي الذي كان توجه سفيرا إلى مدريد بالدولة الصبنيولية (3) ثم رجع، وغير ذلك من أسرار سياسة الملك التي استأثر بها السلطان. فكانت مدة الإقامة هناك يسيرة جدا، فنهض لمكناسة على طريق زمور الشلح، إلى أن حل بها وحط الرحال فيها، ولم تطل مدة ذلك المقام بها، فجدد الرحيل منها لفاس، وحط الرحل بها وتمت الاستراحة والإيناس، وفي أثناء الإقامة بها هذه المرة أقام الوزير إذ ذاك السيد مُحَّد بن العربي الجامعي وليمة كبيرة لولده الطالب العباس ولأخيه الحاج المعطي، فاستمر حينئذ مقيما بفاس يعطي الأمور حقها، وينيلها مستحقها، يحيط نظره بالرعية لإصلاح الشؤون، وتأسيس قواعد السكينة والسكون، وبعد ذلك جرى خاطره في ميادين قول الطغرائي:

فادرأ بها في نحور البيد جافِلةً   مُعارضات مَثاني اللُّجم بالجدلِ

316//

إنَّ العُلَى حدَّثِنِي وهي صادقةٌ   في ما تُحدِّثُ أنَّ العزَّ في النُقَلِ
لو أنَّ في شرفِ المأوى بلوغَ مُنَىً   لم تبرحِ الشمسُ يوماً دارةَ الحَمَلِ

---

1 أمراس: جمع مَرَسَة، الحبال. وهو تشبيه مجازي.

2 قال ابن المبارك رحمه الله تعالى: "من استخف بالعلماء ذهبت آخرته، ومن استخف بالأمراء ذهبت دنياه، ومن استخف بالإخوان ذهبت مروءته" (سير أعلام النبلاء: ج17 ص251).

3 في المخطوط "الصنبولية" وقصده الإسبانية. فأثبتناها بما هو دارج في السان العامي.

4 البيت من لامية العجم. وقد سقطت لفظة "بها" من المخطوط.

فغلب الطبع التطبع، "ولكن طبع النفس للنفس قائد" (1)، فكأنه لتعالي همته إنما تكمل راحته في الإظعان، ويجد التعب في طول استيطان الأوطان، فظعن بعد ذلك من فاس لمكناسة وأقام بها مدة.

فصل في ذكر عدد القبائل الغربية وبعض الحوزية وترتيبها لإجراء الوظائف على ذلك الترتيب

وفي تلك المدة وَجَّه جيشَ تدبيرِه القائمَ في بعض الأحيان مقام مسيره للقبائل الغربية، وبعض الحوزية، كدكالة والشاوية، أحدث فيها ترتيبا عجيبا لو بقي على أصله الذي أصله ابتداء من ضبط القبائل وما لدى كُل بالحساب والتقييد، بحيث تُجرى الوظائف والتكاليف على حسب حال كُل، بحيث لا يبقى حيف ولا سبيل في ذلك للمزيد، ويحصل به الرفق للرعية، وتنحسم مادة جور العمال بالكلية، فاستُحسن ذلك وإن لم يَعم، لكنه انخرم ولم يدم.

وكان قرب نهوضه //317 هذا لمكناسة أيده الله وجه ولد خاله كبير العسكر أخا الوزير، وهو المسمى مُحَّمد الصغير، لجمع العسكر بدكالة والشاوية، وهو وإن جُعل من كبراء الجيش، ففيه خفة عقل وطيش، وقد عُيِّن للترتيب المذكور الطالب مُحَّمد التازي الرباطي، والطالب الكاتب السيد مُحَّمد الجباص الفاسي.

1 من بيت للمتنبي يقول فيه: وكل يرى طرق الشجاعة والندى ولكن طبع النفس للنفس قائد

الباب السادس في ذكر الرجوع لسوس الأقصى بعد رجوع قوته

هذا ولما فرغ من تلك الأمور، التي هي على سياسة ما بعدها تدور، أخذ السلطان في شد الرحلة، التي نوى فيها طول النجعة، قاصدا من مكناسة فيما يظهر للناس بحسب الظن والاستقصاء، من مراكش الحمراء، ومخبوء تحت طيلسانه المسير لسوس الأقصى، وما وراءه من الصحراء، وما حول ذلك إلى الساقية الحمراء على ما يأتي.

ولما اجتاز بجيوشه على الرباط، لما للجيش فيه طلبا لتجديد الاستعداد والاغتباط، أقام بها أياما مراعاة لذلك الاستعداد، وجمع الشؤون وتقوية الزاد، وعند تحصيل ذلك المراد، صرف وجهته لما كان متوجها له قبلُ 318// على ما دبر واعتاد من ارتكاب المسير، على طريق تادلا وزعير، ثم مال إلى بربر نتيفة لما صدر منهم من مخالفة عاملهم الطالب عبد الله النتيفي ووثوبهم عليه وهدمِهم دارَه، ومنعهم إياه مأواه وقراره، فخلص نجيا لحضرة السلطان حتى رجع مع جيشه.

ولما وصل السلطان أراضيهم خيم عليهم فأنذرهم، وضيق عليهم وحذَّرهم، فأذعنوا للطاعة، واستعاذوا من وطأته وسمعوا وأطاعوا، وعما كان صدر منهم تابوا ورجعوا، والتزموا طاعة العامل وتحمَّلوا بما أُمِروا به، فنهض السلطان عنهم متوجها لمراكش إلى أن نزل بها نزول الغيث، بدون تَوانٍ ولا ريث، وفي الخامس والعشرين من جمادى الأولى بعد حلوله بها سنة ثلاث وثلاثمائة وألف استعمل المطي لزيارة مولانا عبد الله بن احسين نفعنا الله ببركته. وفي يوم الإثنين فاتح جمادى الثانية عَامَهُ زار أولياء الحضرة المراكشية نفعنا الله بهم، وفي يوم الخميس الحادي عشر جمادى الثانية توجه لما كان أيقظَ له عزمَه، وأقام له حَزمَه، من إعادة شد المطي ونصب الرايات والأعلام، بدون تردد ولا طول مقام، 319// وتوجيه المواكب، وقود النجائب (1)، لما كان رجع عنه من أمر سوس من غير تكميل المراد من التدبير، بعد استعمال المشقة مع بعد الشقة من كُلفة ما تقدم من المسير، على أن العوائد أحمد من البدايات، والفوائد في النتائج لا في المقدمات، كما يُختم الطعام بالحلواء، بل كما تنسخ الظلماء بالضياء، وكما بُعث سيدنا مُحَمَّد ﷺ خاتم الأنبياء، وقبل إزماع الشخوص في ذلك قُبض على أحد عاملي مسفيوة وهو إبراهيم بن احسين، تَمكَّد (2) له العامل الآخر بالوزير ابن العربي وبصاحبه المحتسب البوكيلي بما أعطاهما عطاء جزيلا، من جملة ما أعطى للمحتسب وحده فندق السويري بباب الفتوح والحوانيت الخارجة عنه، مُظهِرين للناس البيعَ صورةً ولا بيع في الحقيقة، وتنورا لنضج الخبز وخيلا وبغالا، ودلسا على السلطان أيده الله تدليسا صدقهما فيه، فقُبض على ذلك العامل مع حسن خدمته واستقامته، وعندما أزمع الجيشُ الشخوصَ أُصيب الوزير ابن العربي بداء الفالج المتعارف بالسَّكتة، واستُنيب عنه الفقيه الصنهاجي فمر الجيش السلطاني على بلد حْمِير وعبدة 320// إلى ثغر آسفي فأحاطَ به نظرَه، واختبر أمره، وأصدر فيه من أمره ما أصدره، وثنا عنان المطايا مجددا

---

1 النَّجيب من الخَيْل: الكريم العتيق.

2 كذا في المخطوط مصححة على الهامش بالدال (من المكيدة) بعد أن كتبت في النص "تمكَّر" بالراء (من المكر)، غير أننا لم نعثر على شيء من ذلك في المعاجم فليحرر.

مسيره، يؤُم ثغر السويرة، ولما انتهى إليها سير طرفه فيها، وفي مرساتها وحواليها، واختبرها بالصعود عليها، وبدار السلطان التي قربها بالموضع المسمى بالدِّيابات (1)، خيم بالجيوش وبها فات، وأصبح مدَّرعا كُدا بلد حاحا، من غير إقامة ولا استراحة، ومر بالثغر المسمى بأگدير وجاوزه، ولم يثن عنانا غير مكترث بشيء ولا مُرتاعٍ ولا حَذِر، دوَّخ جميع من استقبله من قبائل سوس، وتلك القبائل وجيشه لا يدريان بأيها يُلحِم (2)، حتى ركز راياته مع تشييد قِبَبه وأخبيته بالقصر المسمى أگلميم، ومنه لما خيم به وجَّه وزيره وشيخه الفقيه العلامة السيد علي المسفيوي، وخادمه القائد مبارك بن الشليح الدليمي، وكاتبه الطالب السيد مُحَّد الجباص، للمرسى المسماة بالبيضاء -بالتصغير- لينظروها بنظره، حتى يُكشَف له عن حقيقتها ويستغني عن نظرِه بمخبِره. ولما اختبروها وأحاطوا بها نظرا واختبارا، والجيش في انتظارهم متوطنا أكلميم دارا وقرارا، حتى رجعوا إليه بالحقيقة، //321 وله في ذلك نكت مطوية دقيقة، ولحق بالجيش هناك الوزير ابن العربي لما خف ألمه، وكان الحاجب السيد أحمد بن الوزير السيد موسى به بعض سقم حين خرج الجيش من مراكش، ولم يتخلف عنه بل خرج كذلك لشدة الاحتياج إليه في مهمات الملك، وعوفي بأثناء الطريق.

ولما رجع السفراء من البُيَيْضة (3) طوى الجيش أخبيته وقبابه، ونصب راياته وأعلامه، قافلا بنظر التمهيد خلفه وأمامه، فمره معيدا نظر التمهيد على القبائل السوسية، تقدم قريبا أن العوائد أحمد من البِداءات، وأن الفوائد في النتائج لا في المقدمات، إلى أن وصل لقبائل هوارة وقابلها بما استوجبت، ثم بقبائل الكدى والجبال الشامخة كإدَّاأُتنان كما يأتي بسطُ ذلك كله، واستقراؤه (4) وتتبعه في التقييد المشار إليه آنفا، المغني عن تكرار ما فيه هنا، إذ فيه الكفاية التامة، ولذلك أجمحنا هنا غاية رَوماً للاختصار، وتحاميا عن التكرار.

ولما فرغ من قضية إداأتنان على الكيفية الآتية خاض راجعا بجيشه تلك الجبال الشامخات، //322 وما فيها من الأوعار والعقبات، إلى أن حل بجيشه ببلد متوكة قرب دار عاملهم في محل يسمى بالبربرية بُوابُوضْ (5) بين جبال شوامخ، في سُمك كل واحد منها وعَرضه فراسخ، وقدمت لهم جرائم أيقنوا بمؤاخذة السلطان لهم بها، فنقلوا جميع ذخائرهم منها، ونَحَّوا كل ما يخشى عليه عنها، موقنين بعدم السلامة، يجري معهم السلطان على هجيراه من الصفح ولم يزد على يسير المِلامة، فنهض عنها إلى أن نزل حول وادي شوشاوة، معيدا نظره لتلك الناحية، إلى أن دخل دار ملكه بمراكش يوم السبت الذي هو عشرون من ذي القعدة عام ثلاثة وثلاثمائة وألف، فكان ما بين سفره وإيابه مع تحصيله لكثرة الأمور المفيدة،

---

1 ديابات: هي قرية تقع في غرب المغرب بالقرب من ساحل المحيط الأطلسي على بعد حوالي خمسة كيلومترات جنوب مدينة الصويرة.

2 ألْحَمَ بالمكان: أَقام به ولَزِمَه.

3 كذا في المخطوط، تصغير البيضاء.

4 في المخطوط "واستقرائِه وتتبعِه" وحقهما الرفع عطفا على كلمة "بسطُ" المرفوعة.

5 (بو): أي صاحب، (أبوض): أي السُّرَّة.

والخصال الحميدة العديدة، مع طول المسافة وعرضها، وكثرة قبائلها وتباعد أرضها، ستة أشهر تنقص خمسة أيام، وقد اجتاز في سفره ذلك مع وادي سوس إلى تارودانت، وخيم بها أياما، ونهض منها مارا ببلد هوارة وما في نواحيها، مُمَهِّدا بهذا النظر الأول لنظر التمهيد بعده.

ولما دخل مراكش مصحوبا بغاية الظفر والسرور والانشراح، أُنيخت الركاب وحُطَّت الرحال وخيم بها 323// الجيش واستراح، والرعية في أمن وأمان، والجيش على بساط الراحة والسلوان، والسلطان صرف وجهته لتفقد أمور الرعية وأموره على الخصوص والعموم، وتتابع المسرات يطرد واردات الهموم. وبعد حلوله محله لم يؤخر زيارة أولياء الله السبعة الرجال وغيرهم شكرا لله وتيمنا ببركتهم إلاَّ يومين، فركب جواده لزيارتهم ثالث أيام دخوله، وهو يوم الاثنين الثاني والعشرون من ذي القعدة الذي دخل فيه.

فصل في راية أخرى مر بها من مراكش على دمنات وأمر بتحويل مَلاَّحها

ولما أعطى للكل حقه، ونال كلٌّ ما قُدِّر له من أخذه مستحقه، وأعطى لجميع ذلك غاية الانقياد، إجراء للأمور على أقوم مِنهاجها المعتاد، مدة من ستة أشهر واثنين وعشرين يوما، نهض على عادته في التيمن للزيارة، فاستعمل مطية في الثاني عشر من رجب الفرد عام أربعة وثلاثمائة وألف لزيارة مولانا عبد الله بن احسين، وفي ثالث شعبان الموالي له زار أولياء هذه الحضرة المراكشية على منهج عادته الجارية، وفي يوم 324// الإثنين الثامن منه أسرجت المراكب، وتوجهت المواكب، ونصبت الرايات والأعلام، وخرج في وسطها الإمام، وخرج لتوديعه جمهور الناس متوجها بعد تجديد النظر في الرعية للغرب وفاس، وجعل طريقه على مدينة دمنات، مستقبلا احداث مصالح عظام ومستدركا منها ما فات، وخيم منها على الجبل المطل عليها من جهة الشمال، ودخل بنفسه، وأجال فيها نظر فكره، وأمر بإخراج مَلاَّح أهل الذمة من بين دور المسلمين، لأن دور اليهود كانت خلال دور المسلمين ومساجدهم، وربما [كان] بعض الماء المار للمسلمين مارّا على دور (1) اليهود، وهم أشد الناس عداوة كما في محكم الذِّكر، فلما رأى أيده الله ذلك أمر بإخراجهم من بينهم، وانفصال محالهم وملاحهم، فلم يبرح من محل إقامته حتى وقع الشروع في تأسيسه وبنائه وهذه من المصالح العظام، والمزايا الجسام، التي لم يسبق بها هذا الإمام، كغيرها مما سبق ومما يأتي أمام، من المحدثات المستحسنات العظام، وخُصَّ باختراعها من بين سائر الناس، ومثلها في القياس، ما تقدمه من تحويل وادي فاس. وأقام هناك سبعة أيام، وقد لحق به في ذلك الموضع الذي خيم فيه مُقيِّد هذا 325// التأليف عبد ربه مُحَّد بن إبراهيم السباعي لسبب دعاه لذلك، وحاصله أنه كان لي ابن عم شقيق مسجونا، سجن حالة القبض على قبيلته في الحكاية التي تقدم شرحها مستوفىً، وطال سجنه، وطالما

1 في المخطوط "وربما بعض الماء المار للمسلمين مارا على دورهم اليهود"

حاولت التشفع فيه بنظم ونثر ولم أصادف فيه ساعة إجابة، حتى قال لي بعض الأحبة من الوزراء النصحاء نصحا، دَعه عنك واطو دونه كشحا، واترك كلامه لئلا يُنتِج خلافَ المراد، حتى سافر هذه السفرة فهاجت عليَّ الأريحية المُذهِبة للصبر، وغلب الرجاء لما أعلمه من غلبة الحلم على هؤلاء العلويين الشرفاء، فأقمت صَدْر مطيتي العَزم لاحقا به، إلى أن دخلت وسط جيشه يوم الخميس ثامن عشر شعبان، ويوم الجمعة ظفَّرني أيده الله بحاجتي، مع زيادة كبير جائزتي. ويوم السبت بكرة نهض من ذلك المحل، ولما توجهت لحضرته مستشفعا فيمن ذُكر قدمت له بين يدي شفاعتي بطاقة وقطعة شعر أطلب بهما حلمه الذي جُبِل عليه وغلب على طبعه، وهو صفة من صفات الله يحبها الله ورسوله، وحاصل البطاقة أني أعوذ بحلم سيدنا وكرمه أن يراني قبائل جيشه لاصقا به وراجعا خائبا، وسيدنا يعلم أن الله لم يُقدِّر 326// أن يكون في دولته جنس العلماء أمثال مالك وابن القاسم، ولا أمثال ابن رشد وابن أبي زيد ومن بعدهم، وإنما حكم الحق سبحانه أن يكون في دولتكم السعيدة مثل العُبَيْدِ وحشاكم أن تردوه على رؤوس الأشهاد خائبا. وأما النتفة الشعرية الملفقة عن شدة العجل لكون الركب سافر وخِيف الفواتُ هي هذه، أي ما وجد من مبيضتها بدون تنقيح:

مُناك مُنالٌ سَلْ وكُن غَير نازِعٍ ... عن السؤل لا تسأم (1) ودُم خير قارع

فإن مديم القرع لا شك والج ... ومن جدَّ واجد لأقصى المَطامع

ولاسيما حيث الكريم له الرضا ... بإلحاح سؤل شاع عن خير شافع

وإن أصول المجد كالعتب للذي ... يهز غصونها بحاجة جائع

وكيف وقد دنت بحمل ثمارها ... وعيش الذي يهزُّ ليس بناجع

ولا هي بالمقطوع (ييْأَسُ) (2) طالبٌ ... ولا هي بالممنوع من نوع شائع

وما هي إلا دوحة نبوية ... لها منتهى الرجا من كل طامع

وإن جناها الحلم والعفو والحيا ... وخُلْقٌ كريم ما يُزَنُّ بِفَاجِع

فمعدنها لولا التشهد كان لا ... (...) (3) بدون منازع

1 رسمت الكلمة في المخطوط هكذا "تَسئَمْ".

2 كذا تبدو في المخطوط.

3 عبارة غامضة، وشطر البيت يبدو هكذا مشكولا بالقلم: "لَديْه نَعم فَضلا بدُون مُنَازع"

327//

وهل تقتفي الفروع غيرَ أصولها	وذا الفرع خيرها من أفضل يانع
كظوم عفو والسماحة خُلقه	ويُغْضِي (1) حياءً ليس رَاءٍ كسامع
إذا قيل من للفضل لَمَّ شتاته	إليه يشار بالأيدي والأصابع
إمام حليم زاد بالعلم هيبة	ففي كل فن منه يدعى ببارع
إمام سما إلى السماء فَخَارُه	وعن بيضة الإسلام أفضل دافع
فَلانَ برحمة من الله للورى	وصار لفعل الخيرات أفضل صانع
بذا عُدتُ سائلا وعُذتُ بجاهه	من الرَّدِّ خائبا بدون مطامع
لسيدنا ومولانا الحسن الذي	لِسَمك بناء الملك أفضل رافع
إذا نَفَرٌ ساوَوْهُ في لَفْظ ملك	فشمس النهار كوكب من الطوالع
فجوده نيل لكِنِ الفيضُ دائم	يُنيل الورى طُرا بخِصبِ المراتع
فباكِر لفيضه وبادِر لفضله	وقل قولَ سابق (2) وكن غير نازع
أقول لِسارٍ يطلب الرزق هائما	سَوام (3) الأماني من حِياض المطامع
هلم الى ربع الإمام الذي بدت	مناقبه مثل النجوم الطوالع
ورُبَّ دَليلٍ لِي عَلَيه أجبتُه	كفاني دليلا ما له من صنائع
ومُستَشفعٍ لي عنده قُلت إنه	كريمُ نداهُ عِنده خَير شافع

328//

إلى كَرَم المولَى رجعتُ وحِلمه (4)	ببغيتي ماض بين راء وسامع
فإن الذي فرض عليك القرآ	ن رادُّك للمعاد أفضل راجع

ومن معهود حلمه وحيائه، وحسن خلقه وكرمه، بمجرد ما قرأ البطاقة والقصيدة غلبته جبلة طبعه، فأمر بتسريحه وَصِلَةٍ لي مشتملة على دراهم وقمح وكسوة زيادة على مطلبي الخاص، فإن الكريم إذا تكرم وأنعم، زاد لَيَظهَر جَوْدُ جودِه وأفعَم

---

1 أغضى عَيْنَيْهِ حَيَاءً : أَطْبَقَ جَفْنَيْهِ وَنَظَرَ إِلَى الأَرْضِ.

2 كلمة غير واضحة تبدو مثل "سابقٍ" أو "سائق"، وقد أثبتنا الأنسب منهما.

3 لا يظهر إن كانت "سَوام" جمع سائمة وهو المال الراعي من إبل وغيره، أم "سَواح" جمع ساحية وهي السيل.

4 ضُبطت هذه الكلمة في المخطوط بضم الميم وكسر الحاء هكذا "وحِلمُه".

(1)، فرجعت قرير العين فرحا مسرورا، ومن ثَمَّ ولساني منطلق له بالدعاء حيثما تذكرت، فإن اللُّهَى تَفتَح اللَّها (2)، وحديث "فادعوا له" قد أوجبها، وشكر النعم قيدٌ لها بعِقالها، وعدم شكرها تعرض لزوالها.
هذا ولما رحل الجيش وقلبه بكرة يوم السبت كما تقدم، وذلك اليوم لم يُقرأ فيه عنده صحيح البخاري لتبكيره، لأنه بدأ قراءته بمراكش واستمر عليها حالَة الظَّعن، مرَّ بآيت مْسَاط (3) إلى آيت عطًّا، ومن هناك نزل من آيت عطا إلى تادلا، ولعل قصده في ذلك الانحراف كان بنية الإيقاع ببعض أهل الطيش والفساد والضلال، من ذوي تلك الجبال، كبعض نتيفة وغيرهم، ففروا أمامه وتفرقوا في الجبال.
//329 ولما نزل من الجبال نزل على قبائل تادلا وخيم بدار العيد المعروفة هنالك، ومنها رحل قاصدا قصبة تادلا، ومنها إلى أبي الجعد، ومنها شد الرحلة قاصدا رباط الفتح على طريق زعير التي أحدث إلى أن وصله واستراح به مدة ثم انتقل منه لمكناسة.

فصل في الإشارة إلى سقم آخر ظهر على السلطان بمكناسة

ولما استقر بها طرأ عليه سقم أدهش العقول، وحصل لمن معه واهتم بأمر المسلمين الذهول، استمر به مدة وألمه وضعفه في الاشتداد، وقلوب العالمين من الوجل والنكر في الازدياد، فأشفق من أشفق وأرجف من أرجف، إلى أن مَنَّ الله على الإسلام بعافيته فاستراح، ونهض الناس للنزهات العظام وإظهار الأفراح، فتصدى لها أولا كبراء الدولة وأعيانها واحدا بعد واحد، ثم انتشر ذلك في غيرهم من الناس كل يوم في الازدياد، حتى مضت أيام كلها مواسم وأعياد، والناس في الفرح والانشراح، ونُبِذت خشية الأتراح، ثم انتقل إلى فاس بعد تمام العافية، لابسا أثوابها الضافية (4)، شاكرا لنعم الله الوافية، //330

1 أفعم الإناءَ: ملأه وأتمَّ ملأه. مُفْعَمٌ بالسعادة.
2 اللُّهى، بالضم: العطايا؛ واحدها: لُهوَة ولُهية. وأصلها: القبضة من الطعام تلقى في الرحى لتطحن، فجعلت الدفعة من المال المعطى لُهوة. وأما اللَّها، بالفتح فجمع لَهاة: الحلق. (المطرب من أشعار أهل المغرب ص118 - لابن دحية).
3 آيت مساط: قبيلة أطلسية من القبائل المطلة على سهل تادلا، وهي موطن مدينة أزيلال.
4 ضَافٍ: سابغ ساتر، ثوب ضافٍ.

الباب السابع في ذكر الفتح الأكبر فتح بني مكيلد ومن ناواهم (1) من البربر

وعندما توجه لفاس توجهت همته وعزمه وكليته، لفتح عظيم، خطبه جسيم، قد أحجم عنه منذ زمان قديم جماهير الملوك، وانسد بينهم وبينه سُبُل السلوك، بل منهم من وقعت عليه عند اقتحامه الهزيمة، ومنع من الإياب سالما معتاضا السلامة من الغنيمة، فأيس الملوك المتقدمون منه لصعوبة أمره، وعِظم خطره، وهذا الإمام عادة همته لا ترتاح إلا عند تذليل صعاب الأمور، ويسهل لديه عند توجهها كل صعب يُخشى منه المحذور، فالهمة العالية تقرب بإرادة الله البعيد النازح، ويسهل لها الصعب الجامح.

إذا هَمَّ ألقَى بين عينيه عزمَه ونَكَّب صورة عن ذكر العواقب جانبا (2)

فصار من شدة الاهتمام بذلك كالأسد الجريء الغير الهيوب، الذي كشر عن أنيابه وكشَح عن مخالبه يتحفز للوثوب، لأنه أحق أن يقال فيه:

وليث هصور ما تغشى حظيرة فيسطو إلا أنعم العضَّ والعَقرا

وذلك الفتح الذي أشرقت في جو باطنه سوافره، وتوجهت إليه بوادره، 331// ولم يبق شيء يقدم لدى عزمه إلا بواكره، الفتح الأعظم، ذو الشأن الأفخم، الذي كان سببا وتمهيدا وتسهيلا لجميع ما أعقبه من الفتوح العظام، التي أراضيها كبار صعاب وأهاليها كثيرة وشؤونها عظام جسام، مما سيذكر مما كان بعضه لا يرام فتحه ولا يسام، ولا شك أن هذا الفتح، وهو فتح بربر بني مكيلد ومن يأوي إليهم ويأوون إليه، هو الذي فتح الأعيُن في تمام ضخامة الملك وسهَّل ما عداه، وأسفر عن جميع مخبوءات الفتوح وكشح اللثام عن جم الفتح المبين وعن جبين محيَّاه. فسبحان الذي جعل بيد هذا الإمام مفاتيح الفتوح، وأعطاه فيها الفوز بالبغية والظفر فيها مهما حصل منه لها جنوح، وقد اقتنى المناقب، باحتمال المتاعب، وقد حصل في ذلك الفتح من الإشاعة وحميد الذكر، ومن تعجب الناس فيه مع جميل النشر، ما لا تزال الرواة تدرسه، والتواريخ تحرسه، ولا يبالي أيده الله بما يقدم عليه من المشاق والتعب، ولا بما يحصل بسبب ذلك من النصب.

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام

332// ولذا قيل:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام الكرائم

---

1 ناواه مناواة: عاداه.

2 هو بيت لسعد بن ناشب المازني (عن الكامل للمبرد وخزانة الأدب للبغدادي).

فصل في ذكر القصائد التي أنشِئت في هذا الفتح والاكتفاء بها عن تتبع عظيم أمره

وبالجملة لقد ألجمني عظيم شأن هذا الفتح وكبر أمره، وكونه غريبا في نوعه وجنسه، حتى لم أدرِ كيف أبتدئ الدخول في التكلم به، ومن أي باب أدخل من أبوابه، لكونه غريبا في بابه، منفردا بعجائبه، ولم تحضرني عبارة أرضاها للإفصاح عن علو شأنه، ولا حَدا أحد به على جهة التقريب لبعض محاسنه، والعجز عن الإفصاح شأن ذلك، مؤذن بزخارة بحر ما هنالك، ومن أجله ظهر لي في أمره أن أقتصر على سرد ما وقع فيه من بعض القصائد الصادرة ممن حضر وشاهد من طلبة الديوان، ثم أذيلها بما سنح لي إذ ذاك من قصيدة فيه لها مقدمة، وبعدها تقييد جره بيت من تلك القصيدة، وقد أحلت على ذلك التقييد في الفتوحات والقضايا السابقة، وذلك التقييد هو السبب في إصدار سيدنا أيده الله أمره الشريف الجازم المحتم لي بوضع هذا التاريخ، مع كوني لست من أهل //333 الأدب ولا من أهل هذا الميدان، ولا يضرب لي في ذلك بسهم بين الأقران والإخوان، سوى أنها نفحة أخرجها مني ما حصل من الفرح بذلك الفتح والطرب، لكونه معدودا عند سائر الناس من أعجب العجب، لكون المفتوح قطرا كبيرا هائلا، وطالما تمالأ أهله على شدة الشكيمة وتَرَبَّوا جيلا بعد جيل في قرن بعد قرن على التمنع من الملوك، وألفوا تلك الأخلاق الذميمة، فلم يرعهم إلا أن وثب عليهم الغضنفر الهصور الأكبر، الأسد الخادر، والبحر الزاخر، الإمام الأشهر، الجامع لكل وصف حسن، سيدنا ومولانا الحسن، فحاولوا جهدهم التفلت من شدة وطأته، فلم يجدوا مندوحة عن الاستسلام والانقياد لواجب طاعته، وقد سار معهم سيرا غريبا، ونصره الله عليهم نصرا عجيبا، فمنذ هجم عليهم في بلادهم، ابتدأ بإبطاله لهم جميع مكائدهم، فمهما عزموا على أن يكيدوا بالاجتماع في أحصن وأوعر بلادهم، وجدوه سبقهم بنفسه لذلك المحل الصعب لإفساد صنعهم ومرادهم، فلم ينفعهم إلا غاية الإذعان وإلقاء السلاح، والتطارح بين يديه والانطراح، وبالجملة فما ارتكبه هذا //334 السلطان في قضية فتح هذا القصر وما حوله من البرابر، الذي عجز عنه الملوك الأوائل والأواخر، من إقدامه على أصعب أماكنهم، وهجومه عليهم في أشد متحصنهم، مما كان لا يخطر ببالهم أمر عجيب، وهو في نوعه وجنسه غريب، وحَمَله مُتعالي همته، واشتعال حرارة نجدته، وجبلة إقدام شجاعته، على أن أَقدَم على الموضع الذي ترك فيه بعض الملوك المتقدمين لما وقعت الهزيمة عليهم هنالك المدفعَ العظيم المسمى بالمهراز، وطالما بقي هنالك منذ سنين ماضية، وأعصار خالية، فلم ترتح همته حتى وقف عليه، وأخذه لديه، بحمله لمكناسة الزيتون، وغير هذا مما يطول استقراؤه، اكتفينا عن تتبعه بإشارة الكتاب الشريف المتلو بعضُه، كإشارة القصائد المشار إليها فيه، وما نشأ عن ذلك من قصيدة مقيد هذا التاريخ والتقييد الذي معها، وذلك هو السبب في صدور الأمر الشريف بتأليف هذا التأليف.

فصل في استقراء ألفاظ الكتاب الشريف وبعده استقراء أشبه القصائد المشار إليها فيه

ونص الكتاب //335 الشريف المصدر بعد الحمدلة والصلاة على رسول الله ﷺ بالطابع الكبير المنيف الذي في دائرته

ومن يعتصم بك يا خير الورى شرفا الله حافظه من كل منتقم

وبها أيضا:

ومن تكن برسول الله نصرته إن تلقه الأسد في أجامها تجم

وفي وسط الدائرة الحسن بن مُحَّد بن عبد الرحمن الله وليه ومولاه.

الفقيهين الأرضيين القاضيين السيد الحاج علي الرجراجي والسيد بوبكر بناني سددكما الله وسلام عليكما ورحمة الله وبعد، فلما مَنَّ المولى ﷻ بالفتح المتواتر، وأسبغ من نعمائه ما يقصر عن إحاطة الشكر عليه لسان الأوائل والأواخر، وانقادت القبيلة المجيلدية بسطوة الله وأدت واجب الطاعة، وسلكت مسلك الجماعة، عبَّرت ألسن أدباء الحضرة السامية بما شاهده العيان، وبرهنت عما وقع من الفتح والنصر المؤزر في ذلك الميدان، ليكون للغائب مرآة ويعلم ما امتن الله به من الآيات البينات، فأنشأ كُلٌّ وَوَشَّى، وعبَّر في قصيده مما شاهد كيف شاء، //336 والمقصد واحد، والتعبير فنون وأساليبُ مُتواجد، وها الكل يوافيكم طيُّه، لتعلموا نشره وطيَّه، فنأمركم بعرضه على فقهاء وأدباء تلك الحضرة، وكل من اتصف بذلك الفن وحرره، وإلقائه تحت يدكم والسلام.

28 شوال المبارك 1305

ولفظ القصائد، أولها قصيدة الوزير في ذلك الوقت الفقيه السيد مُحَّد بن أحمد الصنهاجي، قال فيها وعدة أبياتها 43:

وافت سعاد إلى حِماك تهادى والفتح والظفر المكين مهادا

وإلى جَمالك أقبلت من بعد ما أضحت تسالم عسكرا وجنودا

وإلى البِراز بل النزال تواعدت فأفاد أفئدةَ الطغاة صدودا

صدوا عن الحرب التي قامت على ساق لِمِحنتهم تَقُدُّ مَديدا

وتحصنوا في قصر حتفهم فما أغنى ولا أبقى وعاد هديدا

هدت بأبطال الجنود موانع وغدت رسومهم تراها رمادا

وعلى عديد منهم الأصفاد وال أغلال من سخط الأمير قدودا (1)

وعلى الأسنة أذقن ومفارق حزت بمصرعهم جُعِلن غِمادا

---

1 كذا تبدو، وتبدو أيضا مثل "قيودا".

فكأنهم في محنة وكأنهم ... في حيرة صاروا بها أفرادا

337//

لم يغنهم كثرة ولا عدد وكم ... داستهم الأقدام بل وخدودا

تاهو ببيداء وأنى تقلهم ... أرض (...) (1)

وتناديهم أطلال ربعهم أيا ... أهل الشقاوة خنتم الأولادا

ضاقت مذاهبهم وما أدراك ما ... أدراك حيث جموعهم وُرَّادا

فتواردوا وتتابعوا ييكون إذ ... (...) (2) أطار رقادا

جاؤوا بصبيتهم تضاغوا (3) في المدا ... فع واحتموا بحمى الأمير وفودا

عكسوا رؤوس العِدة التعساء إذ ... وفدوا ونادُوا أسيد انقادا

يا سيدا عفوا وحلما ومنة ... صفحا على سرب أتى منقادا

يا سيدا حسنا رفيقا مغضيا ... انظر إلى صِبياتنا تتعادى

وإلى الملاذ الأرفع الحصن الذي ... مَن أَمَّه ينجو ونال مُرادا

نادوا بأعلى صوتهم وتشفعوا ... وتضرعوا مستصرخين روادا

لما رأوا جند الإله تواردت ... تجمعت (...) (4) أنجادا

فتروعوا وتولهوا وتندموا ... وتحزبوا للسلم قهرا (...) (5)

تابوا وطاعوا بالوظائف جملة ... والشرع أرهقَهم أقام حُدُودا

وزكاتهم وعشورهم طاعوا بها ... وكذا المظالم ألزِموا وعُهودا

338//

حتى إذا أضحوا على متن الصلا ... ح روادفا عصموا دما ونقودا

واستحكمت منهم أزمة تائب ... بوسائط شرطوا الوفا إسنادا

---

1 كلمات غير واضحة.

2 كلمات غير واضحة.

3 ضغا المقهورُ: ضَجَّ وتذلل.

4 كلمة غير واضحة لعلها "بمحالهم".

5 كلمة غير واضحة.

فبذلك تم فصالهم رغما على أنف الحسود يصدهم (...) (1)

ولقد أخذت بثأر عمك مخفقا أعلام نصر الله دمت سعيدا

وأتيت بالمهراس من قُنَنٍ بها وعر تُساهِل فرسخا وبريدا

من بَعد ما عُظْم مَتين مُعجِز عن حمل جثته فكان عتيدا

ناهيك من فتح مبين فائق كل الفتوح ميامنا وسعودا

لا سيما والفتح عنوة بَاتِرِ يُنْبيك لا صُلحا يَكُف بنودا

مولاي يا حسنا عليك سكينة تترا وحسبك إذ بَكَتَّ (2) عنيدا

أرغمت أنف بني مكيلد وانطوت أعلام جرأتهم وصاروا جنودا

فالله يكلأ جندكم وينيلكم فضلا عظيما دائما ورشادا

ويطيل عمرك والأنام نواعس في ظل أمن الله منك مديدا

ويقر عينك بالبنين ومن به سر الخلافة مفردا ووحيدا

ويبعد المشؤوم من ساحاتكم ويريكم الحق الحقيق سديدا

339//

ويعمر الأقطار بالعدل الذي هو الكفيل بشكركم إمدادا

ويديم نعمة ملككم في مغرب شرقت به شمس الخلافة عيدا

بمحمد وبآله وصحابه صلى الإله عليهم أفرادا

ما قال مُغرًى بالوقائع مغرما وافت سعاد إلى حماك تهادا

ومنها قصيدة للكاتب السيد الغالي بن سليمان اشتملت على عشرين بيتا قال فيها:

أبى النصر إلا أن يرد الأعاديا وإن سكنوا وعرا رأوه فيافيا

فيرسلهم بين القبائل ذلة ويذعنهم والسيف يُبدي المنافيا

ألم يعلموا أن العساكر دونهم وأنهم جيش يشق الدواهيا

إذا شمروا للزحف أبصرت خالدا له عدد والفضل لا زال باقيا

1كلمة غير واضحة.

2في المخطوط "بكتتَّ".

وإن ركبوا سهم القتال بعدة تُقرطِسهم فالربع يُصبح خاليا
تراهم بأعلى القصر في هدم سوره بزاة بأعشاش الجبال الرواسيا
تشتت أفراخ الطيور بمخلب ولكنه سيف تراه يمانيا
أيا بني مكيلد إن نصبتم حبائلا فها أنتم فيها خيولا وراميا
تُؤدُّون عن قهر على يد عامل تولى عليكم ما تروه أمانيا

340//

وعند قيام الصاع يظهر ما بكم هُياما وحزنا أو تأسُّفا واهيا
قطعتم ولكن بالسيوف لدى الوغى فيا ليتكم لبيتم من كان داعيا
وللحق في إظهار كل صولة وباطلكم ريحٌ تبدَّت شماليا
فدوموا على هذا بسمع وطاعة فسطوته قهرا ترد الطواغيا
أيا مولانا المنصور جُبت فيافيا تقاصَرَ عنها من تعاظَمَ واليا
رميت سهاما قد أصابت عناية قنصت بها طيرا غرابا وبازيا
وأصبحت في فتح تباهى بعزكم فيا حبذا فتح تبدى عُمانيا
فيا رب أيده وأيد جيوشه وعسكره نصرا عزيزا جماليا
بجاه رسول الله نخبة هاشم عليه صلاة الله تترا دعائيا
وآله والأصحاب ما قال قائل أبى النصر إلا أن يرد الأعاديا

وقصيدة أخرى له اشتملت على عشرين بيتا أيضا قال فيها:

هذي المعزة في دلال غوان هذي المسرة في سرور توان
هذه النفائس في فرائد عزها هاذي الجواهر في عقود جمان
حُطَّت رحال المجد تحت مظلها وأرت لنا فتحا كفتح عمان

341//

بني مكيلد قد تبرجت زينة وبدت لنا في لفظها بمعان
قد دبَّروا أن التمنع بالفلا يغني وأنهم كطير عنان
حتى رأوا جيش العساكر بينهم في شعلة تعدو بكل سنان

حزت رؤوس البغي عند قصورهم وسقتهم حتفا بكأس دنان
قد عاينوا حرب البسوس فأصبحوا بين المدافع في حريم أمان
إذ أظهروا بين القبائل ما بهم من ذلة ومعرة وهوان
قبلوا الشروط وأذعنوا وتواعدوا ألاَّ يعودوا لبغيهم بأوان
هذه المزية لا مزية قبلها فلتحرسنْها بأحرف القُرآن
يا مالكا شاعت مآثر عزه بين الوراء حتى بدت كَكِوان
يا مالكا فاضت ينابع فضله حتى رَوى بجداول وسَوان
يا مالك ملك الخلائق نعمة بلسانه وأكُفِّه وبنان
يا مالكا فقت الملوك عناية حاشا يكون لملككم من ثان
فليهنك الفتح المبين فإنه فتح بديع في زمان بيان
فلِعُدَّة القرطُوس سِر ظاهِرٌ إن كنت للتدبير سيف لسان
أو كنت في قرطاس كُتبه دائرا أو منشئا بفواصل التبيان

342//

الله يحفظكم ويحفظ عزكم ويزيدكم نصرا بكل مكان
ما غردت طير الحمام وأنشدت هاذه المعزة في دلال غوان

ومنها قصيدة للكاتب الشريف مولاي الطاهر البلغيثي بن أحمد اشتملت على ثلاثة وعشرين بيتا قال فيها:

غِيدُ (1) التهاني أقبلت تتهادى مثنى تبشر تارة وفرادى
وعرائس النصر المؤزر قد بدت في خدر فتح مُسدِل تتهادى
والعز خيم في الرحاب مهديا فتحا ونصرا تأييدا إسعادا
لعلا الإمام الأمعي أميرنا من لاح في أوج العلا وقادا
ملك تسربل بالمهابة والتقى بطل كَمِي (2) لا يطاق جلادا
ماضي العزائم لا يقل مضاوة ثبت الجنان لا يُراع طِرادا

1 غيد: جمع أغيد وغيداء، وهي الناعمة اللينة.
2 الكَمِيُّ :الشُّجاعُ المقدامُ الجرىء، كان عليه سلاح أَو لم يكن.

عزم وحزم في سماحة حاتم غوث غياث مُقنٍ (1) إن جادا
حسن الصفات والفعال جميعها بحر المكارم ينهِلُ الوُرَّادا
حاز الفضائل والفواضل جملة عم البرية إنعاما وأفادا
يا سيدا ملك القلوب بحلمه وبعلمه فاق الملوك وَسادا
حكَّمتَ سيفك في الطغاة فأ صبحوا في أسر ذُل معدمين تلادا

343//

غارت جيوش الله في بطحاهم فأذيقوا بأسا يَشهَم (2) الأطوادا
حَزَّت رؤوسا للبغاة وأحرقت دور العُتات أولتهم أنكادا
نالت من الأغاد كل مؤمل أقصتهم أولتهم إبعادا
فليهنك الفتح المبين فاقدمَن وامدد يمينك قد فتحتَ مرادا
يا آل مالو قد أصبتم بدعوة فبِمَحقِكم قام البشير ونادى
قد أقفرت تلك البقاع وغردت بوم الخراب بربعكم تغريدا
بؤتم بسخط من إمام مؤزر فالبأس عمكم قرى وبلادا
يا رب بالكريم وإله وصحابه الغُر الطوال نِجادا
مد الإمام بجيش نصرك واحمه بدروع عزك وطِّئَنْه مهادا
واكلأه يا مولى الموالي منة واحفظ الله الأشبال والأولادا
واصحبه بالتأييد في كل وجهة وأدم له طَرَف (3) العُلا مُنقادا
وأتمم له نُعماك ما قال منشد غيد التهاني أقبلت تتهادى

هذا هو الذي دخل بيدي من قصائد طلبة الديوان وغاب عني بعضها فلم أظفر به، ما عدا قصيدة الطالب السيد عبد الواحد بن المواز رأيتها وقد اشتملت على معنى ما اشتملت 344// عليه هذه القصائد، إلا أنها محشوة بكثير من عيوب الشعر وارتكاب ما لا يجوز للمولدين ارتكابه للضرورة، ومن ذلك رفع ما لا يُرفع ونصب ما لا يُنصب في قوافيها مما يدل على أنه تجاوز ما يستطيع إلى ما لا يستطيع ولذلك تركتها.

---

1 من أَقْنَاه: بمعنى أَرضاه.
2 شَهَمَ الدَّابَّةَ : زَجَرَهَا.
3 تبدو مثل "طرف" أو "طرب"

فصل في ذكر مقدمة قصيدة مقيد هذا التأليف مع القصيدة بعدها

هذا ولما امتثل القاضيان ما أمِرا به من عرض ذلك على أهل العلم بحاضرة مراكش، وكنت فيهم عرجاء الذَّوْد التي تتأخر حتى عند المنقَلب (1)، إذ لا يُضرب لي بين ذوي الأدب بسهم ولا نصيب، ولا يشار لي في شعره ونثره بأني فيه مصيب، لكني حملتني الغيرة وحسد الغبطة في ذلك على الاقتحام، وفي مثلي تقول العامة فيمن اقتحم أمرا لا يحسنه هذا هو " أمسك هذا الحمار لأدخل الازدحام"، فقلت في مقدمة القصيدة ما نصه بعد الحمدلة والصلاة على خير البرية: يقول أسير شهوته، وسمير نهمته، من لا نصيب له من البراعة، ولا يُسهَم له بين فرسان اليراعة، عبيد ربه مُحَمَّد بن إبراهيم التكرور السباعي، قد قضت //345 حكمه الله البالغة، وموهبته السابغة، أنه قد يكون للرجل الأصل الأصيل، في المجد وقديم الشرف، ثم يفيض مجده وشرفه حتى يستطيل على من قبله من السلف، فتحيي به رسومهم ولو كانت دائرة، وتعمر به ربوعهم وإن عُدت غامرة.

هذا ولما صبحتنا البشرى بما طاب به صبوحُنا، ومَرُؤَ (2) اصطباحنا، يوم الإثنين رابع ذي الحجة سنة خمس وثلاثمائة وألف بفتح سيدنا الإمام مولانا الحسن الحسني الهمام، بلاد طغاة بربر بني مكيلد وشواهقها وما حولها، وطفح علينا من السرور، ما لا تسعه الصدور، لأننا ما رأينا ولا سمعنا منذ أعصار، من شعشعت شمسه بمثلها في هذه الأقطار، سوى هذا الإمام، سيف الله الصقيل الحسام. اللهم إني أعيذه بكلماتك التامة، من شر كل سامة، ومن كل عين لامة.

ولما استحضرت معها ما قبلها يليها (3)، من تمهيد سوس الأقصى، حيث أسلم كل من كان هناك وجهه له وكل من كان عصى، ألقى العصا من جبل درن إلى الساقية الحمراء، من شاسع الصحراء، تذكرت قول جده //346 صلى الله عليه وسلم لما فتح خيبر وجاءه عمه جعفر فعانقه وقال: "لا أدري أنا بفتح خيبر أسر أم بقدوم جعفر".اهـ وكل مسلم يقول مثل ذلك، أهو بتمهيد سوس وما بعده أسر، أم بفتح أرض هؤلاء طغاة البربر. وذكرتني أيضا قول أبي سفيان في جد سيدنا أيضا لما بلغه أنه ﷺ تزوج أم حبيبة بنت أبي سفيان حيث قال: "ذلك الفحل الذي لا يقرع أنفه"، وليس مع السرور تَعجبٌ مِنّي واستغراب واستعظام، بخلاف غيري من الأقوام، لأني استصغرت ما في جانب همة سيدنا، فلست

---

1 عادة العرجاء أن تتأخر، فإذا انقلب الذود كانت هي السابقة. وفي همزية البوصيري:

فابقَ في العُرْجِ عندَ مُنْقَلَبِ الذَّوْ　　　دِ ففِي العَوْدِ تَسْبِقُ العَرْجاءُ

2 كذا في المخطوط مشكولا بالقلم، ولعلها "مَرَأَ" بفتح الراء، يمرأ، مَراءةً، فهو مَرِيء. بمعنى: كان سائغًا مقبولاً.

3 كذا في المخطوط.

بالنسبة إليه بشيء عجيب غريب، ولا بأَمر إمْرٍ (1) عسير صعب، عندما توزن بهمته العالية، الشمسية الزحالية المتعالية، حسبما يأتي بيانه، وشرحه وتبيانه، وعندما قرع الأسماع ما رقم من أخبار واقعتهم في الكتاب الشريف، ووقع النظر على قريض أدباء الدولة السعيدة الحسنية المقربين تحت أطناب ظلها الوريف، فرأيت من ذلك ما يطلع بدرا لائحا، ويثمر زهرا فائحا، مما يُستعذب إيراده، ويُستحلى ترداده، فقلت لعمري إن هذه لهي الحرائر التي للاجتلاء على المَناصِّ (2) معدودة، ونفائس الضوالِّ المنشودة، ثم استجديت الفكرة //347 فوجدت عينها غارت ما تبِصُّ بقطرة، فحاولت لسد منبعِها فَتقا، فألفيت شدة الفرح صيرتها رتقا، ولا غرابة.

طفح السرور عليَّ حتى إنه من فرط ما قد سرني أبكاني

ومن المعلوم أن شدته قد ينشأ عنها داء السكتة لا مجرد السكوت، فلم تزل كذلك، مسدودة المسالك، حتى حصل من كشف ذلك الإياس، بعد طول ما مرَيتُها عملا بقولهم في المثل "الإيناس قبل الإبساس"، وحيث لم يبقَ إلا الانقطاع، والاعتراف بتمام العجز بلا نزاع، هبَّت نسيم إغاثة بركة سيدنا الإمام، فانفجرت عين الفكرة على التمام، فتسابق القريض والنثر، وتزاحما في ميدان الصدر، كما يرى كل واحد منهما بعد هذا من غير إطراء، ولا كذب ولا افتراء، فليس إلا الخصال الحاصلة الظاهرة، والدلائل المتظاهرة، والبرهان الحاضر، الذي يراه كل ناظر، فجاء النظم ببركة من ذكر فيه بعض الأوصاف، عند من يراه بعين الرضى والإنصاف، لا بعين التعسف والاعتساف، من النوع الذي يقال له السهل الممتنع، ومن الجنس الذي يدخل الأذن بغير إذن لانخراطه في سلك //348 قول القائل:

أسرح في النسيب عنان طرفي واقتنص النُّهى أي اقتناص
فإن رمتُ التخلُّص جئتُ فيه بما يُلهي الغريق عن الخلاص

لاسيما وقد قال زهير:

وَإِنَّما الشِعرُ لُبُّ المَرءِ يَعرِضُهُ عَلى المجالِسِ إِن كَيساً وَإِن حُمُقا
وَإِنَّ أَشعَرَ بَيتٍ أَنتَ قائِلُهُ بَيتٌ يُقالَ إِذا أَنشَدتَهُ صَدَقا

فلم ينثن عنان الفكرة حيث أُجريَت في ميدان القريض بسوط الفرح والحبرة، حتى وصلت سبعا وستين بيتا.

ولما جرى في القصيدة قولي: إن هذه الخطة التي هي فتح بلاد أولئك البربر كبيرة في نفسها وبالنسبة لمن تقدم، وصغيرة حقيقة بالنسبة لمهمة الإمام مولانا الحسن، حَسُنَ في نظري إيضاح ذلك بالأدلة الظاهرة، والبراهين المتظاهرة، استلذاذا بالإسهاب في ذلك، فجاء جيدا مستقلا مفيدا جدا لذوي الاعتناء، وها هو بإثر القصيدة وهي هذه:

---

1 إِمْرٌ: عجيب مُنكَر.

2 المناصُّ: جمع مِنصَّة: كرسيٌّ مرتفعٌ أَو سريرٌ يُعَدُّ للخطيب ليخطب، أَو للعروس لِتُجْلَى.

تزاورت الأفراح من كل ما قطر وزايلت الأتراح في العسر واليسر

349//

وقد غادرتنا في غدير بروضة يروق بها غِبَّ الندى ناضرُ الزهر
وفي لذة أشهى من الفوز بالمنى وفي طرب بكل ما طرب يزري
وفي نعمة عنها الملِمات عُزَّب وفي حبرة لا تنقضي آخر الدهر
بطلعة سعد لا تزال سعيدة بها سعج الإسلام في البر والبحر
خصال فلم تَسبِق ملوك بها مضوا وصال على مَطاله سالف العصر
بها أُسبغت لنا سوابغ نعمة بها بشير الإسلام بالعز والنصر
بها بات في عيش هنيء ولذة وفي مفخر علا السِّماكين في القدر
جرت مثل سلسل الفرات أو الكرى بأجفان من سرى وبات على سَهْر
إذا ابتسمت عن دُر لفظ وحدثت تفسير اهتزاز السُّكر او نفَث السِّحر
فلله ما أحلى حلول بشيرها تنادي على الأرجاء مثلجة الصدور
حبانا وجودها على حين غفلة بجيش من الأفرح جل عن الحصر
فأصبحت (...) (1) تجر ذيولها على الملة العوجاء تَيْهاً على فخر
وكيف وقد مضى ملوك أجلة أسود الشَّرى (2) من شدة البأس والكثر
على عدد في عدِّهم وقُرُوِنهم وطول سنينهم على فسحة العمر
وبذل النفوس مع نفائس ذخرهم وطول تمنيهم لذي الفتكة البكري

350//

فلم يحظ منهم واحد بابتكارها ومن سامها يسأمْ ويرجع على هجر
يجيبه لسان العجز يا لسفاهِهِ فكم ملِك أردَت وآخر لم يَجْر
فكم مُدَّت الأيدي لأخذ عنانها فباءت بلا أخذ وآبت على قهر

1 كلمة غير واضحة، تبدو مثل "السَّمْحا".

2 الشَّرَى: موضعٌ كثير الأُسْد.

إلى أن أتى سيف الله الذي نَضَى (1) أتته على رغم لها مَثَلٌ يجري
لها مَثَلٌ أعز من أم قِرفَة (2) ويوم حليمة فليس بذي سِر (3)
حسام إذا انتَضَى وليثٌ إذا سَطى ويلبس للبأساء ثوبا من الصبر
أغرُّ تَهاب الأسد صولة بأسِه ويصطادهن الرعب أبعد من شهر
أطاعته حتى العُصْم في قُنَن الربى وإن قَرُبَت مأوى من الأنجم الزُّهر
وصولٌ إلى ما يبتغيه بخيله مغيرات صُبح في السباسب (4) والقفر
لها الغارات الشَّعواء ما ذو حفيظة يَغار (5) مطيقا صرفهن بما يدري
بهندية مصقولة ورواشق تحامل غيظا كالبزاة وكالصقر
وباس غدا يَرتاع من خوفه الرَّدى ترفَّل في الأذيال بالفتكة البِكر
مرامه سهل لا تَؤُودُهُ كُلفَة لصدق اليقين والرجاء على البر
وذا الإمام السيد الحسن الذي بنى مجد من مضى بإحكام ذا الأمر
إمام جَلَت أنوارُه ظُلَم الدُّجا وجَرَّ كَلاكِلا (6) على كُل ذي حَكر

351//

وجر على بني مكيلد ذيله فجرعهم كأس ذل الصغار على وعر
فكانوا من الجِماح عقبان قُنَّة فمن ذا يسوم أو ضِباعا على وَجْر (7)
فما كان من يرتاع من صوت مدفع ولا إن تراءت خيل جيش له تجري

---

1 نَضَى الشيءَ من الشيء : أَخرجه منه.

2 أم قرفة هي فاطمة بنت ربيعة بن بدر بن عمرو الفزارية من قبيلة بني فزارة. تزوجت مالكاً بن حذيفة بن بدر، وولدت له ثلاثة عشر ولداً، وقيل ثلاثون ولداً، أكبرهم قرفة وبه كنُيت. وكان جميع أولادها من الرؤساء في قومهم. وكانت شاعرة من أعز العرب ممن يُضرب بهم المثل في العزة والمنعة فيقال:"أعز من أم قرفة".

3 "ما يوم حليمة بسر" مثل يضرب لكل أمر مشهور.

4 بَلَدٌ سَبْسَبٌ: بَلَدٌ أرْضُهُ مُسْتَوِيَةٌ، وَتَعْنِي أيْضاً الأَرْضَ الَّتي لا مَاءَ فِيهَا.

5 غارَ فلانٌ بعيدًا: مشى وابتعد، اختفى سواء بغيابه أو بخسف الأرض به.

6 الكَلاكِل جمع كِلكِلة : الجماعةُ.

7 الوَجْر: الْمَغَارَةُ الَّتِي يَأْوِي إِلَيْها الحيوان في الجَبَل.

فَصَبَّح سِربَهم بِنَبل رَواشِق كذاك صوارِمِ مهنَّدة تَفري

فعاجلهم كُلاًّ بتشليل عرشهم وعالجهم حِلما سريعا (1) على فخر

فتى ليس يُلفي الدهر إلا على ندى وبأس وهمة تعالت على النسر

له نجدة إن قيل نجدة خادر فما أنصفوا في القول فيه ولا الذِّكر

إذا هُزز الخَطِّيُّ (2) في حِندِس الوَغى رأيت عَليا جَدّه عاطِفَ الكَر

وإن جئت تبغي النَّول تُلف جَبينَه جَبينَ عَقيل (...) (3)

غَدَا هو روحَ الدهر في النَّفع و الرَّدَى (4) أتاح لنا خيرا وشرا لذي حَكْر

إذا ملِك سما بمَنقَبة تُرى يُعَدُّ له إذا نسَبت من النَّزر

فذي خَصلة كُبرى وصُغرى (5) حقيقةً إذا نُسِبت أبا عَلِي إلى القَدْر

فكل خطير إذا نُسبت لعزمه تجده بلا خطر لدى المَلِك الحبر

فكم غارات بالصَّافِنات يشُنُّها أعادت على الطُّغاة بَدْرا على بدر

352//

يرون عُقاب الموت من فوق رمحه يلوح على الأرواح من شرر الجمر

ويدرك بالرأي السديد أموره وقد يغتني به البيض والسمر

فيا أيها البحر الذي فاض موجه على كل عاق (6) بالجواهر والدر

ويا أيها الغيث الذي انهملت به سحائب عِز في البُداة وفي الحَضْر

إذا رام ذو لب خطابك يغتدي فَهيهاً (7) مهابة ويذهب ما يدري

فإني وإن قد قُلتُ أي مقالة أحلِّي بها عُلياك ماذا عسى أدري

---

1 تبدو على المخطوط وكأنها "مَريعا".

2 الخَطِّيُّ: الرمح المنسوب إلى الخَطّ، وهو موضع ببلاد البحرَيْن تنسب إليه الرّماح الخَطِّيَّة.

3 كلمات غير واضحة.

4 الرَّدى: الزيادةُ.

5 كُتِب على هامش المخطوط: ولكن صغرى إذا الخ

6 كذا تبدو في المخطوط.

7 فَهَّ يَفَهّ، فَهَهًا وفَهاهةً، فهو فَهّ وفَهِهوفَهَه وفَهِيه: عجز عن الكلام.

أأنظم الدر الثمين قلادة | من الوَدْع أو شَبْهاً نحاسا بلا خَطر
وما حيلتي في جِيد عُلياك إنما | يُحلى من الأجياد مِعطال (1) من (...)
فهنيئا لك ابن المصطفى وسليلَه | بلوغُ المنى واليُمنِ في شرف الذكر
وإحراز سبق في مدى كُل غاية | إلى سؤدد يسمو على هامة النسر
محاسن أهل البيت أنت بنيتها | وشيَّدتَ مبناها حكيما فلم أُطْرِ
فلم يكفكم إرث التليد من العلا | فزدت طريفَها لذاك على نشر
تسلَّ أمولانا بسبعين قارئا | بقتلهم النبي أصيب كما تدري
فما غدرت سخمان غير نفوسها | لها الويل كل الويل في سائر الدهر
أراقت دم ابن المصطفى وهو | آمن بظلم كظلم الخَيْفَقَانِ (3) على غَدر

353//

لقد سلكوا نهج اليهود بجده | بعَزمٍ على رَضْخٍ له بِعُلا القَصر
فآذنه جبريل يَنهض عاجِلا | بِذا خاب سعيهم وباؤوا على خسر
لمولاي اسْرُر أسوه في شهادة | بِحَمزة عَمِّه عَلِي كذا فادر
فسخمان قد شقوا شقاء ابن ملجم | فذاك لجامهم إلى منزل الحسر
أسيدنا حباك ربك ما تشا | من الخير في الدنيا والآخرة من الأجر
بجاه مُحَمَّد عليه الصلاة ما | تزاورت الأفراح من كل ما قطر

هذه هي القصيدة.

1 المِعطال من النِّساءِ: المعتادةُ تركَ الحَلْي.
2 كلمة غير واضحة، تبدو وكأنها "تدري".
3 كذا في المخطوط، ولم نتوصل إلى معناها.

فصل في ذكر التقييد الذي بعد القصيدة الذي وقعت الإحالة عليه في القضايا السالفة

ونص التقييد الذي بعدها: فصل في إقامة الحجة في واضح المحجة على قولي في القريض إن خصلة فتح بربر بني مكيلد كبيرة ولكنها بالنسبة لسيدنا تصغر.
مقدمه من كلام بعض سلف سيدنا وهو علي الرضى: "كيف يضيع من الله كافله، وكيف ينجو من الله طالبه". ومن قول السلف: "من مال إلى الحق مال إليه الحق". وقال الأعمش: "من كان رأس ماله //354 التقوى كَلَّت الألسن عن وصف ربحه". وقال الشاعر:

من كان فوق محل الشمس همته فليس يرفعه شيء ولا يضع

ولا ريب أن كل من كان صافي السريرة، ورأى سيرة سيدنا بعين البصيرة، ورأى ما نهض إليه من اقتناء المآثر، واقتناص شوارد المفاخر، حتى شيد من ذلك ما يملأ الأرض، ويفوت الطول والعرض، علم يقينا أن رأس ماله التقوى، فلذلك كانت همته فوق محل الشمس، وأن مدح كل مادح له ولو تَعلى حتى بلغ جُهده في العلو فإنما هو كالذي يصف السماء بالسمو، وعلم يقينا أن الحق مائل إليه لميلانه هو إليه، وعلم أن الله كافله، وأن من طلبه فالله طالبه، وكيف لا يقوى على مثل هذه الخصال، وهو شكور لنعم الله على كل حال، مقيد لها بقيودها بحيث لا تَزول ولا تَحول. شعر:

الشكر قَيدٌ للنعم مُستلزِم دفعَ النِّقم
وهو على ثلاثة قَلبٍ يَدٍ فاعلم وَفَم

وفي قوله تعالى (والله يعصمك من الناس) إشارة إلى أن من امتثل أمر الخالق يعصمه من مضرة المخلوق، كما عصم النبي ﷺ //355 وأبا بكر في الغار حين الهجرة.
ومن ذلك حكاية سفينة مولى رسول الله ﷺ لما أسر وهرب وأخطأ طريق الجيش، فأُرشِد وحُفِظ بالأسد يبصبص أمامه حتى أرشده ونال مراده. وقضيته ﷺ مع غورث بن الحرث لما صلَت السيف والنبي ﷺ قائل تحت الشجرة على رأسه مخترطا السيف قائلا له: من يمنعك مني؟ فقال له عليه السلام: الله، فارتعد غورث حتى سقط السيف من يده، فأخذه النبي ﷺ وقال له: من يمنعك مني؟ قال: كن خير آخذ. فعفى عنه الخ القصة.
فكل متَّصِفٍ بأنه بصير سميع يقال له افهم هذا السير البديعَ وكن ممن ألقى سمعه وهو شهيد، فإن المنكر الغافل طريد، وعن الحق بعيد، ومن حُرِم التوفيق وكذَّب بالحق غيبا وحدسا، كذَّب به عيانا وحِسا. انتهت المقدمة.
المقصود من ترتيب المقدمات مطلقا هو الوصول إلى الظاهر من جهة المظاهر، وإلاَّ فالدليل على ما نوره كلُّه ظاهر، يراه كل ناظر، ومن لا يرى إلاَّ الشمس، نوضح له ذلك حتى يزول عنه كل لبس، //356 بأن نقول له: هل رأيت أو سمعت فيمن سمعت على التحقيق، ملكا سواه ظفر بهذه الخصال التي تذكر هنا على سبيل التفصيل والإجمال؟.

منها الأولى: التي ابتدأ بها الآتي شرحها وهي إقدامه على تمهيد ما بين فاس ووجدة مع كثرة قبائله واتساع أقاليمه، من غير اعتماد إلا على مولاه الذي لا يكِله إلى أحد سواه، وتقديم الرأي السديد. شعر:

وما شيء من الأشياء أمضى   على المهجات من رأي سديد

وفي مثلها يقال: من أشرقت بدايته أشرقت نهايته.

ومنها الثانية: قضية بربر بني مطير.

ومنها الثالثة: قضية تمهيد سوس ما بين جبل درن إلى الساقية الحمراء.

ومنها الرابعة: التي هي على الجميع رابية، قضية طغاة بربر بني مكيلدة وعتاة جميع من حولهم.

ومنها الخامسة: قضيه الدجاجلة.

ومنها السادسة: جعلها سرا بينه وبين ربه في تمكين الدين وعموم صلاح المسلمين، فلا نذكرها الآن. فمن أرخى عنان فكره في تفاصيل هذه القضايا التي هي أشهر من شمس الظهيرة، عند 357// كل ذي بصيرة، يتيقن بالضرورة ويجزم أنه بمجرد ما توجهت وجهته لبربر بني مكيلد تُصَيِّرُهم عناية الله به شياطينَ استراقِ السمع إذا انقضَّت عليهم شُهب الرجم، حتى يصير كل شجاع منهم أَسْلَح من حُبارى رأت صقرا، وأشرد من نعامة.

فصل في ذكر الأولى، وشهرتها قد تغني فيها الإشارة والإضمار

حاصلها لما ألقت إليه الخلافة العنان لعلمها أن ليس تحت أديم السماء سواه يصلح لسياسة الزمان، معربة بالحال، الذي هو أفصح مقال، هذا فرع المصطفى الذي يرد بدر شرف الإسلام فجرا، وجدول كرم أهله بحرا، لأن همته لا تسعى إلا في جعله قَرارة كل مجد، ومركز كل حمد، حيث رأت أهم توجُّهاته بعد أداء حقوق الله نظم كلمة الإسلام، وكسر شوكة الطغاة الظلام، إذ بذلك كمال الدين وتحصيل سائر المحامد والمحاسن، ولم يسلك منهج الملوك الماضين من تأخيرهم التأهب والإقدام على مثل تلك الأمور العظام عدة سنين لمعالجة أمور الرعية والملك، وتقديم رجل وتأخير أخرى حتى يفوت بذلك مثل ما هنالك، بل بمجرد 358// ما ألقت إليه الزمام توجه بلا مهل لتلك الأقاليم العظام، فاقشعرات من ذلك جلود من معه من رؤساء وأبطال الزمان، حتى كادت قلوبهم تطير عن الأبدان، وحكموا بمألوف ما اعتادوه أن ذلك طريق الخسران، فتظاهر الرؤساء والكبراء، والأعيان والوزراء، فصار كل واحد منهم يثبط بإبداء النصيحة في أحسن وصف، فيظهرها الآخر في أبدع رَصْف، وجميع تفننهم في النصيحة راجع إلى أن المُلك جديد، وكُل من الزمان والمقصودِ صعبٌ عتيد، وكل من الثلاثة محتاج إلى تدبير وتقديم وتأخير، وقد مضى ملوك عدة ولم يُقدموا على مثل هذا، وهم أكثر

منا جيوشا وعُدة ولم يألوا في مثل ذلك جهدا، ومع ذلك لم ينالوا به قصدا، فلم تُثنِ نصيحتهم عنان عزمه، ولا ماضي سديد رأيه وهمه، مستعملا قول ابن الفارض:

وكن صارما للوقت فالموت في عسى   وإياك عَلَّ فهي أخطر عِلَّتي

وقول القائل:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة   فإن فساد الرأي أن يترددا

//359 وقول عمرو بن الاطنابة:

أبت لي هِمَّتي وأبى بلائي   وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وإقدامي على المكروه نفسي   وضربي هامة البطل المُشيح
وقولي كلّما جشَأَت وجاشت   مكانَكِ تُحمدي أو تستريحي
لأدفع عن مآثر صالحات   وأحمي بعدُ عن عِرض صَحيح

وقد حكي عن معاوية ﷺ قال: دعوت بفرسي يوم صفين لأنصرف، لاشتداد الأمر، فما نفعني إلا أبيات عمرو المذكورة اهـ ومثلها قول ابن الفجاءة:

أَقولُ لَها وَقَد طارَت شَعاعاً   مِنَ الأَبطالِ وَيحَكَ لَن تُراع
فَصَبراً في مَجالِ الموتِ صَبراً   فَما نَيلُ الخُلودِ بِمُستَطاعِ
سَبيلُ الموتِ غايَةُ كُلِّ حَيٍّ   وَداعِيه لِأَهلِ الأَرضِ داع
وَما لِلمَرءِ خَيرٌ في حَياةٍ   إِذا ما عُدَّ مِن سقطِ المتاعِ

ولا يخفى ما بين مقام القائلين ومقام مولانا صاحب المقامة، فبينهما بون بعيد، وتباين شديد، إذ ما لهما محض تكلف وتخلق، والذي له جِبِلة وخلق، ولو حضراه لقالا معا:

//360

هاذي المكارِمُ لا قَعْبانِ مِن لَبَنٍ   شِيبا بِماءٍ فَعادا بَعْدُ أبْوالًا
هاذي المَناقِبُ لاَ ثَوبَان مِن عَدَن   خِيطَا قَمِيصًا فَعَادَا بَعدُ أَسْمالا

بل الذي يشبه أن يقرب من حاله ويُعرب عن بعض أحواله قول العباس بن مرداس:

أشد على الكتيبة لا أبالي   أحتفي كان فيها أم سواها

وقول عنترة:

وإنّيَ لدى الحربِ العَوانِ مُوَكَّلٌ   بِتَقديمِ نفسٍ ما أريد بقاءَها

فحملته الشجاعة التي هي جبلته، والإقدام بالرأي السديد الذي هو فطرته، على اقتحام الأقوام (1) من غير مبالاة بتحذير محذِّر، ولا بإنذار منذر، ولا بصعوبة الزمان، ولا ببُعدٍ ووعرٍ في مكان، معتمدا على مولاه، فعامله بصدق من توكل عليه كفاه. شعر:

الرأي قبل شجاعة الشجعان   هو أول وهي المحل الثاني
فإذا هما اجتمعا لنفس حرة   بلغت من العلياء كل مكان

ولعمري إنهما لقد اجتمعا لتلك النفس الحرة، دَفَعَ الله بوجودها وطول بقائها بالعز والتمكين عن المسلمين كل معرة، وبذلك //361 استولت سطوته بتأييد الله على تلك الأقطار البعيدة، والأقاليم الكثيرة العديدة، وإنه والحمد لله لمنصور بالرعب وراثة من جده ﷺ، ولا غرابة في سريان نور المصطفى، سيما في ذريته إلى قيام الساعة، وإنا لنرجو له ببركة جده الذي قال: "توسلوا بجاهي فإن جاهي عند الله عظيم" زيادة نصره بالرعب أمامه مسيرة الشهر فأكثر، حتى يُعز به الإسلام، ويُطفئ به نارَ الظلم والكفر حتى تصير أيام أهلها كلها عليهم محض ظلام.
وحيث وضع قدم سطوته على تلك الآفاق، من غير سيف ولا دم مهراق، مع بُعدها وتباعدها، وإحجام صناديد الملوك عن اقتحامها، فكيف يُستغرب أو يُستعظم فتحه لبربر بني مكيلد ومن حولهم بتلك البداية، ومن أشرقت بدايته، أشرقت نهايته، اهـ
ثم تمام الحجة في واضح المحجة، بالخصلة الثانية قضية بني مطير الدالة أيضا على النصر بالرعب، وذلك أنه لما مهد قبائل تلك الآفاق، وأحكم إحكامها بشد الوثاق، وقفل لمراكش وخيم نصره الله بها، قام بربر بني //362 مطير وأهل حمية جاهليتهم على ساق اجتهادهم، في تسعير نار فسادهم، على منهاج معتادهم، فتحزبوا على القبائل التي أُسكِنت بين مكناسة وفاس لتحصين السبل بشن الغارات والقتال، حتى أجلوهم من تلك الأرض، وضيقوا بمكناسة ضيقا كبيرا جريا منهم على قديم منهاجهم، ومألوف أدراجهم، يظنون مولانا الإمام كالذي عَهدوا، ولا يدرون أنه كما قيل:

دع ما تناسب في الأبصار ظاهره   إن السماء نظير الماء في الزرق

وليس في هذا تنقيص لواحد من الملوك السالفين قدس الله أرواحهم، إلا أن الله قد يدخر للخلف، ما لم ينله السلف، ولا بدع ولا غرابة والطريق مسلوك والسبيل مهيع، (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض)، وقد ازداد سلفه من الملوك به

---

1 في المخطوط "الاقدام" ولعل ما أثبتناه هو الصواب.

شرفا فَضَمُّوا شرفهم (1) إلى قديم شرفهم.

تسمو الرجال بآباءٍ وآونَةٍ تسمو الرجال بأبناءٍ وتَزْدان
وكم أبٍ قد علا بابن ذُرى حسب كما علت برسول الله عدنان

//363 وقيل:

قالوا أبو النصر من شيبانَ قلت كلا لعمري ولكن منه شيبان
كم من أب قد علا بابن ذرى كما علت برسول الله عدنان

الفخر بالهمم العالية، لا بالرمم البالية، وإلى هذا المعنى أشرت بقولي في القصيدة "محاسن أهل البيت أنت بنيتها" الخ.
ولما رجع بربر بني مطير إلى معتادهم من الطغيان لفاسد قياسهم، كما في مثل "قاس البيض بالباذنجان"، قدح زند رأيه السديد، الذي لو اقتدح بالنبع لأورى، فأورى له ما أورى، أن لا تأخير لتبديد جموع أولئك الفجرة، فنهض إليه من مراكش سنة (...) (2) نهضة حيدرة، فمر بقبائل آيت اعتاب، وقد سولت لهم أنفسهم بعض ذلك، فصبحهم واصطبح بهم، بأن داستهم خيله حيث لم يُفِد فيهم الإنذار والعتاب، فأرخت سطوته الربانية على سهل أرضهم ووعرها وشوامخ جبالها الذيل والأطناب، فلما بلغ بربر بني مطير فراغُه من آيت اعتاب تأهبوا وتحزبوا، وكانوا يظنون ما يظنون، ويتوهمون ما يتوهمون، فلم يرعهم إلا ركض خيله في خِللهم وبين //364 حِللهم، في أمنع متحصّنهم، على وصف لا يخطر ببالهم ولا ببال غيرهم، من غير مبالاة منه نصره الله ولا اكتراث بكثرتهم عَددا وعُددا، وما هم عليه من شدة البأس، فما جذب أعنة خيله حتى حشدها وسطهم فنادى عليهم لسان فعله، وقائم حاله، هذا والله عليكم يا بني مطير يوم كاسف، وما أوقدتم من النار للحرب أطفأها الله، فأطفأ بسيدنا ومولانا الحسن نائرَة فسادهم، فاستاصل شأفتهم وشَالَتْ نعامتُهم (3) والسيفُ في غمده، وكانوا قبل ذلك كثيرا ما يتخذون سطوة الملوك هزؤا ولعبا، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون، فإن السفه يوجه إلى الجهل بمحاسن الحق والهزء به، ولو كان لهم عقل في الجملة لما اجترؤوا على تلك الفعلة السيئة حتى "وقعوا في سلا جمل"، كما في المثل، رجعت نارهم التي سعروا إلى مثل "ما في الرماد بَصوة" أي شرارة، وصاروا أجبن من المنزوف ضَرطا وضُراطا، وحصل لهم العُنوق بعد النوق (4)، وصاروا أنجم من الكُسَعِي، فصاروا بين سمع الأرض وبصرها، إذ لم

---

1 كذا في المخطوط، ولعله "فضموا شرفه".
2 كتب على هامش المخطوط "بياض بالأصل".
3 شَالَتْ نَعَامَتُهُ: غَضِبَ ثمّ هَدَأَ وَسَكَنَ.
4 العَنَاق: الأنثى من أولاد المعز، وجمعه عُنوق، وهو جمع نادر، والنوق: جمع ناقة.
وهو مثل يُضرب لمن كانت له حال حسنة ثم ساءت. أي كنت صاحب نُوقَ فصِرْتَ صاحبّ عُنُوق.

يفطنوا إلا وقد وقع بهم العشاء على سرحان، وربما حانوا فيمن حان (1)، وعلموا أنهم أثاروا ليثا علقتهم أنيابُه، حتى توجه إليهم خطابه وعِتابه، فكان أول 365// أول ما حَتَّم عليهم نصره الله غُرْمُ ما قَدُم وحدث مما نهبوا، فلم يسعهم إلا الأداء، وجرى عليهم مثل "الأخذ سُرَّيْط والقضاء ضُرَّيْط" وأيقنوا عند ذلك أن جميع من احتموا به من حمية جاهليتهم، صدق عليهم المثل "ضعيف عَاذَ بقَرمَلَة". فلما تقرقرت الجموع، تبرأ التابع من المتبوع، وهذه إحدى وطآته التي لم يعقّ رَسُوبُها (2)، وقد أعيت الملوك قبله محاولتُها، فعُلِم أن شوط الملوك قبله وراء خطوات مشيته على مهل، وأن غايتهم هي ابتداؤه، بل ابتداؤه فوق غايتهم، وليس ذلك نقصا فيهم، بل ادخر الله تمام محاسنهم حتى أظهرها (3) فيه حفظه الله من شر كل هامَّة، ومن كل عين لامَّة. ومن علِم هذا وتأمله واستقصاه كيف يعد انخراط طغات بربر بني مكيلد ومن حولهم في هذا السلك غريبا مستغربا، أو عجبا مستعجبا. وهذا المعنى هو الملاحظ في قولي في القصيدة "فذي خصلة كبرى ولكنها إن نُسبت لقدرك يا سيدنا ومولانا أبا علي تصير صغرى حقيقة". فاتضح الدليل، الذي لا يجهله إلا قلب عليل.

الثالثة من القضايا المستدَل بها على إقامة الحجة في واضح المحجة، قضية تمهيد سوس الأقصى 366// من وراء جبل درن إلى الساقية الحمراء، بشاسع الصحراء، بحيث لم تدع سطوتُه بالاستيلاء فيما بينهما أرضا، ولا طولا ولا عرضا، ومن جملة قبائله هوارة، كانوا قبل ذلك أزمنة متطاولة على غاية العناد، مع شدة الشكيمة على مألوف المعتاد، من شن الغارات على القبائل ونهب أموال الناس وإخافة السبل. فلما فرغ مولانا المرتدي حلل الجلالة، والجمال والمهابة، تَميسُ (4) به السيادة تَيْهاً لِما له فيها من راسخ القدم، من تتميم تدبير ما تقدم، وَجَّه وجهة عزمه لسوس سنة تسع وتسعين بعد المائتين والألف، وكان الزمان ضَنْكا، وحيث أزمع الشخوص بهمة لا تعرف التردد والنكوص، سالكا نهج ما تقدم من قول القائل: "الرأي قبل شجاعة الشجعان..." الخ، استولى الرعب على جل من حكمت العادة بتوجهه معه لسوس، من رئيس ومرؤوس، لشدة ظهور مخايل شدة الأمر من صعوبة تلك البلدان، وصهوبة أو شهوبة الزمان، وكون تلك البلدان مع صعوبتها لم تزل بكرا لم يطأها قبله من بعد المنصور سلطان، فمن ذلك تراكم خوف من ذُكر، وجُلُّهم أيقن بعدم السلامة، وكم هَذَر إذ ذاك المتصلحون من 367// الدجاجيل، مِن قال وقيل، ولم يكترث نصره الله بشيء من ذلك كله، مستعملا معنى "فإن كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة" الخ ما تقدم، فلم يثن عنان العزم ولا تردَّد صميم الهم.

حب السلامة يَثني عزم صاحبه عن المعالي ويغري المرء بالكسل

---

1 حان الرجلُ: هَلَكَ.

2 اجتهدنا في تقويم هذه العبارة بما يبدو أنسب لعدم وضوحها في المخطوط بشكل جيد. عَقَّ بمعنى خَالَف. وسَيْفٌ رَسُوب: سَيْفٌ يَغِيبُ فِي الْمَضْرُوبِ.

3 في المخطوط "أظهر" والسياق يقتضي ما أثبتناه.

4 مَاس السَّيِّدُ : اِخْتَالَ فِي مَشْيِهِ، تَبَخْتَرَ.

فإن جنحتَ إليه فاتخذ نفقا في الأرض أو سلما في الجو فاعتزل

ودع غمار العلا للمقدمين على ركوبها واقتنع منهن بالبَلل

حتى وطِئت خيله أقصى أرض سوس، والرعب من بين يديه ومن خلفه محفوظا بأمر الله، فألفى أهله قد أرداهم رداء الزمان الذي ارتدوا من البؤس، وذلك من شده الجوع، فأصابتهم منه جريدة جَدَّت الجُموع، فلما رأى ذلك غلب عليه طبعه الجِبلِّي الذي هو الحلم.

حليم إذا ما الحلم زين أهلَه مع الحلم في عين العدو مَهيب

وفيه يرد:

وَكَالسَيفِ إن لايَنتَهُ لانَ مَتنُهُ وَحدّاهُ إن خاشَنتَهُ خَشِنانِ

فرأى أن الموضع لوضع الندى لا لوضع السيف، فرق لهم غاية الرقة، //368 وتجلت فيه الرحمة، فأسبل عليهم العطاء آمرا بالسفن والمواخر تَحمِل لهم من كثرة الحبوب ما لم تسمح به الأوائل والأواخر، حتى أغنى وأقنى، وتلك لعمري هي المآثر والمفاخر، كما قيل: "تلك التجارة لا انتقاد الدرهم"، وكم لها من نظير، ولمثل ذلك الإشارة بقولي في القصيدة: "فتى ليس يلفي الدهر إلا على ندى" البيت.

ثم ثنى أعنة خيله، وأما عنان عزمه فلا ينثني ولا يخطئ، فرجع بجيوشه حتى تمت لأهل سوس النعمة والعافية، وزالت عنهم البلية ببركته عند الله، فكان عطاؤه مقدمة إسباغ المنعم عليهم، فرجعوا لما كانوا عليه من القوة والشدة، والعِدة والعُدة، لئلا يقال استعان عليهم بما حل بهم، ثم عطف عليهم سنة ثلاث وثلاثمائة بعد الألف متمما لسابق عزمه، فمهده وأحكم تمهيده بنصر الله إياه بالرعب وراثه من جده، ومكافأة على صلاح نيته ومقابلته لأمور الصلاح بجده. وحقيقة الصلاح كما قيل: "الإتيان بما ينبغي والتحرز عما لا ينبغي".

فلما حل أفق تلك الآفاق ناداهم لسان الحال: قد جاءكم الحق من ربكم فمن أبصر //369 فلنفسه ومن عمي فعليها. فعامل أهل الرشد بالرشد وألبس أهل الغي سرابيل غيهم، ومن قديم أهل الغي قبائل هوارة، وكانوا على أنعم حال وأرغد عيش ولم يزدهم ذلك إلا طغيانا، مما يطول بنا شرحه، وأمهلوا حتى ضل عنهم ما في الحكم من قولهم: "البغي يسلب النعم، والظلم يجلب النقم"، فناداهم صريح لسان حاله، وصادق فعل مقاله:

ولن ترهبوا الصمصام إلا إذا غدا لكم بارزاً من غمده وهو مرهف

---

1 ولا يزين الحلمُ إلا قادرا على الانتقام لا عاجزا لاحتمال كون العجز هو السبب في تركه للانتقام. كما أن من اعتاد الحلم ربما تجرأت عليه الأعداء طمعا في عفوه، وهذا ليس شأن الموصوف في البيت، فالأعداء تهابه رغم حلمه، وبذلك جمع بين المزيتين.

فصيرهم في لحظة شذر مذر، فتك بهم بأخذ رجالهم وسلب أموالهم من غير التحام، فلم يكلم من جيشه رجل ولا فرس، لأنه محض النصر بالرعب الموروث، ومن سلم منهم أربى في الشرود على النعام.

ثم استولت عليه زاد الله في معناه شنشنته التي هي الحلم، وهذه قضية كالشمس أغنت شهرتها عن تتبع فصولها. ثم ختمها بابتكارٍ بكرٍ كان اعتقاد جميع الملوك وجميع ولاتهم أنها رتقاء ليس لها فتاقة، لا توطأ أرضها، ولا يقاس طولها ولا عرضها، لشموخ جبالها وشدة بأس رجالها، //370 وعدم مسالكها وكثرة مهالكها، فأتاها حفظه الله وحفظ بحفظه الإسلام من حيث يأتيها الصقر والعقاب من أعلى قُننها، مع بعض التحام في مضايقها، فما يمكن وطؤه بمياسم الخيل وحوافرها وطئ به، وما لم يمكن وصول الخيل وجميع الدواب إليه وطئه بشريف أقدامه، من شدة إقدامه، والناس من ورائه كذلك تبع له، فتم الاقتداء بجده ﷺ، إذ كان الأبطال إذا حمي الوطيس يتترسون به، ثم نقول لمن تأمل في هذا، اعلم يقينا أنه مهما توجه العزم واجتمع الهم لبربر بني مكيلد وغيرهم، لا تؤوده كلفتهم، ولا تصعب عليه مؤونتهم ومشقتهم، فتم الاستدلال وسَلِم الدليل على أنها وإن عظمت وكبرت في نفسها وبالنسبة لما تقدم، إنها صغيرة حقيرة بالنظر لهمته الكبيرة. وأما أهل الرشد الذين قابلهم برشدهم من قبائل سوس، كقبائل آيت باعمران على كثرتها، واتساع أرضها، وكثرة جبالها، وقبائل آيت بْرايِم وقبائل أولاد جرار، وقبائل كثيرة هي في القديم حمية وعصبية لولد سيدي هاشم يطول عدها، فقدَّموا له أمامهم الرشد والصلاح، وخضعت له رقابهم بوضع أذقانهم في البطاح، مستعملين قول القائل //371

وإذا تذللت الرقاب تواضعا منها إليك فعِزُّها في ذلها

فقابلهم بالحلم والغض والتغافل ما هو دأب السيادة، وفي الحكمة: "اللبيب العاقل هو الفطن المتغافل"، قالوا في قوله تعالى (عرف بعضه وأعرض عن بعض) مشرب في هذا المعنى. ويقال: "ما استقصى كريم حقه قط"، وما أكثر وأشهر استعمال سيدنا لهذا الوجه من وجوه السيادة، فإنه كثيرا ما يرى الكثير من الناس إنما هم ذئاب في ثياب كما قيل:

ثياب على ناس من الناس تحتها ذئابُ شعابٍ خلف سارحة طُحلُ (1)

ويكون أعلم بحالهم منهم، ومع ذلك يريهم أنه غير عالم بحالهم.

الرابعة، التي عدت على الجميع رابية، التي هي السبب في هذا التقييد، قضية بربر بني مكيلد، فهم وإن كانوا في الماضي كما في الأمثال السائرة، قبل أن تدور عليهم هذه الدائرة، أمنع من عقاب الجو، وأعز من أم قِرفة، وأحزم من عقاب،

1 ضُبِطت اللفظة في المخطوط بفتحة على الطاء، ولعلها ضمة. وكلمة طُحلٌ نعت لثياب، وهي جمع أَطحَل: لَوْن كَلَوْنِ الرَّمادِ بَيْنَ الْغُبْرَةِ والبَياضِ.

فقد رَغَى فوقهم سَقب السماء، وقيل لهم إن كنتم ريحا قد لقيتم إعصارا، والأمر أشد من ذلك، فقد فَلَّ غَربَهم وكسر شوكتهم (1)، ولله در الطغرائي //372 في قوله:

فما احتمى جانب لم يَحمِه ملِك ولا مضى صارم لم يُمضِه بطل

وقوله:

والحر مفتقر إلى عز الغنى الحسام إلى يمين الفارس

وقوله:

وعادةُ النصلِ أن يُزْهَى (2) بجوهرِهِ وليس يعملُ إلاَّ في يدَيْ بَطَلِ

وفيهم يرد مثل "لا يعجز مسك السوء عن عرف السوء"، أي اللئيم لا ينفك عن قبيح فعله.
فصال عليهم هذا الإمام الهمام، برأي أمضى من حسام، تبارك الله تبارك الله.

وما شيء من الأشياء أمضى على المهجات من رأي سديد

ففيه يطرد مثل "لو اقتدح بالنبع لأورى"، وقولهم "الفحل الذي لا يُقرع أنفُه"، وقولهم "لا يقعقع له بالشنان". فتركهم كمثل جوف حمار (3) لا ينهضون بجناح، ولا ترجع لهم بعد هذا إن شاء الله ببركة سيدنا قوة ولا نجاح، لما جرى من عادة الله أنه لا يحصل من الجسارة إلا الخسارة، فقد حصلت لهم العقوبات الشديدة، ولمولانا بفضل الله العواقب الحميدة، فقد أخذوا بالبأساء والضراء، ويجري عليهم بفضل الله وبركة سيدنا وصلاح نيته {فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين}، لأنهم كانوا قوما عمين، ومعلوم أن من خبثت سريرته، كثرت جريرته، فقد حكَّم عليهم المولى ﷻ سيفه المنصور بنصره، المؤيد بتأييده، المستنصر بالرشد والتوفيق، والسالك في دينه أقوم طريق، //373 الذي ملأ به أنفس الأعادي إرهابا، ذهابا وإيابا، لقد لزم أن يقال فيه شعر:

علا به الدهر ربيعا كله وقام به ميزان العدل واستوى

أنالهم أعزه الله ما لم يكن يخطر ببالهم من الوبال والعقوبة، ونال ما لم ينله غيره من حميد الخصال والمثوبة، وإنه لجدير بقول القائل:

ملك يؤازره الحجا ويُمَدُّ مِن جند بأنوار الغيوب مجند

---

1 قال في تاج العروس: والغَرْبُ: الشَّوْكَةُ. يُقَال: فَلَّ غَرْبَهُمْ وكَسَر غَرْبَهم، أَي شَوْكَتَهم، كَمَا تَقَدَّم، وَهُوَ مَجَاز..اهـ
2 في المخطوط "إن يزهو بجوهره" والتصحيح من شرح لامية العجم.
3 يقال "أَخْلَى مِنْ جَوْفِ حِمَارٍ" و"أخرب من جوف حمار". (مجمع الأمثال للميداني).

ومع هذا رجع فيهم لغالب طبعه الذي هو الحلم، فاستعمله فيهم كما لا يخفى.

هذا وأبيك الفخر العالي البنيان، والمجد المتأسس الأركان، وقد قالوا: "إن الكريم إذا خدعته انخدعا" وصار مثلا، وقد تمثل به الرشيد في قضية الذي بكى عنده فأرسله سالما، ومنه قولهم: "الحر إذا خودع تخادع، وإذا عظم تواضع"، وإن قيل إنه مصنوع، وعلى هذا المهيع، والنهج المنتجع، تجري قضية غدر ثعالب آيت سخمان الذين دخلوا في الطاعة كغيرهم وانقادوا مطيعين، ومن شدة الخوف مهطعين، ثم طلبوا حظهم من الجند كغيرهم ليستخرجوا به ما وظف عليهم فأجيبوا، مع حلم من سيدنا بإرساله معهم بعض ضعفاء الجيش رأيا وتدبيرا، ليسوا عددا كثيرا، ففرقتهم ثعالب سخمان في ديارهم على سبيل الضيافة فبيتوهم //374 آمنين فارتدوا والعياذ بالله، فقتلوا منهم من قتلوا وهم على بساط الأمن، فلهم ولسيدنا الإمام أسوة عظيمة بقضية القراء المقررة، التي في صحيح البخاري مكررة، فقد قتلوا غدرا بعدما أرسلهم صلى الله عليه وسلم إلا رجل منهم أعرج صعد الجبل، فأخبر جبريل عن النبي ﷺ أنهم قد لقوا ربهم فرضي عنهم وأرضاهم. قال الراوي: فكنا نقرأ أن بلغوا قومنا أن قد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا، ثم نُسخ بعدُ، فدعى عليهم. الحديث. فقد فازوا بالشهادة وفاز الشريف المسنُّ الذي معهم بأعظمها، من عناية الله به لما حضر أجله اختار له الشهادة. وله أسوة بعمر وعلي الذين قتلهما غدرا أخس الناس، وفي صحيح البخاري ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد فيتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة.اهـ والحديث شجون، ويجر إلى فنون، فكنت قصدت غاية الاختصار، فتبين لي أن ما دون هذا من نوعٍ مُخِلّ الاقتصار.

الخامسة التي خُصَّ بها من بين سائر من سمعنا من الملوك للدجاجلة إما بالأخذ أو الإذهاب عاجلا لا آجلا (1)، فإنه أطال الله //375 عزه شهاب الدين، لسرعة إطفائه نار الشياطين المتمردين، فإنا نعرف فيما رأينا وسمعنا ما قيض الشيطان بغوايته مجانا ا دجالا إلا وطارت شرارته، واشتدت وسوسته على الرعايا والملوك، حتى يُنفق في إطفائه شره أموال، وتجهز بسببه جيوش من الخيل والرجال، وسيدنا المؤيد بالله، المتوكل على الله، المحفوظ بكلمات الله من شر كل هامة، وعين لامة، لا تنبض نار دجال إلا وأُطفئت بأدنى لمحة يلفتها له، فكم من جبار عنيد بمجرد التفاتة واحدة إليه يرخي عليه الخمول ذيلا، ويصبر نهاره في سائر دهره ليلا، وكم من واحد لا يلتفت إليه أصلا، يقول سيدنا ومولانا بلسان حاله ومقاله:

وما كل كلب نابح يستفزني ولا كلما طن الذباب أروَّع

وقائل:

أَوَكُلَّمَا طن الذباب زجرته إن الذباب إذن علي كريم

فنسأل الله ونتضرع إليه أن يمد مولانا السلطان بجنود النصر والتأييد، ويشد أطناب دولته بأوتاد العز على التأبيد، وأن يجعل الأيام على الدوام، تنقاد لهواه، والأقدار تسعده في نيل المطالب //376 لكل ما يتمناه، بجاه جده عين الرحمة

---

1 في المخطوط "الاجلا" وقد قومناها بما يبدو صوابا.

حبيب الله ومصطفاه. قال الفضيل بن عياض: لو كانت لي دعوة مستجابة لجعلتها للسلطان، قيل له ولم تقدمه على نفسك؟ قال إن دعوتي لنفسي لا تنفع غيري، فإذا كانت له انتعش البلاد والعباد بعدله وصلاحه. اهـ وقيل: لولا السلطان لأكل الناس بعضهم بعضا، كما أنه لولا الراعي لأتت السباع على الماشية. وفي فصول ابن المقفع ما حاصله: الرعية جسم وروحه السلطان، فلا قيام للجسم بلا روح. ومن أجل هذا المعنى وما فعل سيدنا أطال الله نصرة الإسلام بوجوده ووفور جود جوده، بأولئك الطغاة وأمثالهم، قال ثالث الخلفاء الأربعة والنورين سيدنا عثمان بن عفان ﷺ: "ما يزع الله بالسلطان أكثر مما يزع القران" اهـ وقال الحسن: "والله ما يستقيم الدين إلا بهم"، أي الملوك، ولقد صدق، فماذا عسى يفيد القرآن في مثل أولئك الطغاة المذكورين من جهلة البربر الذين قست قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة، ولا شيء يُلين الحجارة إلاَّ طبخُها بالنار. وفي مثلهم ورد الحديث بأنهم لو جلسوا على جبل (...) (1)، وحديث السيوطي الخبث على نيف وسبعين جزءا واحد منها في الخلق كلهم والباقي //377 كله فيهم" (2) اهـ بالمعنى. وقد علم أن القرآن اليوم كاد أن لا يفيد في كثير من مظهري الاستسلام لطريق الإسلام فأحرى مثل أولئك الطغاة، ألا ترى أن بذل الملوك مثال جبل أحد ذهبا وفضة لمثل أولئك الطغاة أيزيدهم ذلك غير زيادة الطغيان، ولو كانوا مع ذلك يتلون عليهم القرآن، آناء الليل وأطراف النهار في سائر الأزمان، ويتلون عليهم قول النبي ﷺ من رواية أبي هريرة عنه "من أعطاني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني". وقوله ﷺ من رواية علقمة بن وائل عن أبيه: "اسمعوا واطيعوا" الحديث. وقوله ﷺ من رواية أبي أمامة في حجة الوداع وهو على الجذعاء ناقته، ورجلاه في الركاب يتطاول ليسمع الناس قائلا: "ألا تسمعون" ويطوِّل بها صوته، ثم قال: "اعبدوا ربكم، وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدو زكاة أموالكم، وأطيعوا أولي الأمر منكم، تدخلوا جنة ربكم" وأمثال هذا. ماذا تراه يفيد فيهم؟ فلعمري إنه لا يفيد فيهم شيئا إلا الذين أقامهم الله بعد نبيه لنصرة كتابه ودينه فهم ناصروا ذلك ومقيموه بمثل تلك //378 البطشات فأشد:

الله يرفع بالسلطان معضلة ... عن ديننا رحمة منه ودنيانا
لولا الأئمة لم تؤمن لنا سبل ... وصار أضعفنا نهبا لأقوانا

تنبيه: قد شهر عند العامة والخاصة أن طاعة الله ورسوله على مراتب: طاعة العامة، وطاعة الخاصة، وطاعة خاصة الخاصة، وكذلك طاعة السلطان المقرونة بطاعتهما في حكم كتابه، ومنهاج أنبيائه ورسله.

طاعة العامة: وهي مجرد الاستسلام والانقياد والامتثال في الأمر والنهي.

---

1 كلمة غير مفهومة تبدو مثل "لابروه" أو "لدبروه. ولم نعثر على أصل الحديث المذكور، فليحرر.

2 (الخبث سبعون جزءا، للبربر تسعة وستون جزءا وللجن والإنس جزء واحد) "المعجم الكبير"(299/17). (وهو ضعيف)

وطاعة الخاصة: بالزيادة على ذلك من جعل الدعاء له والابتهال والتضرع إلى الله في صلاحه وفلاحه ونجاحه، وعزه ونصره وتأييده وتوفيقه، ليتم به صلاح الإسلام وأهله، كما هو ظاهر مذهب الفضيل بن عياض المار آنفا.

وأما طاعة خاصة الخاصة: فمن جعله الله منهم فقد أدرك إكسير السعادة في دنياه و آخرته، ذلك بأن يجتمع همه واهتمامه، ولا يبقى له هَم ولا اهتمام بصلاح أو إصلاح أَمْر مَّا من شاقِّ مالٍ وولد وأهل سوى ما يرضيه 379// ويرتضيه، ويكون ذلك بالظاهر والباطن، بالقلب والقالب، وأكثر ما يتفق ذلك ويتيسر للوزراء والأعوان الذين قربوا واصطفوا لإعانته، وغالبهم إنما هو من الخاصة، لا من خاصة الخاصة، وذلك (1) الغالب بداية، ثم لا يزال في الترقي إن وُفِّق إلى النهاية، ومن أبلغ ما رأيت فيما يبتدئ به بدايته قول القائل:

إذا صبحت الملوك فالبس   من المزايا أعز ملبس

وادخل إذا ما دخلت أعمى   واخرج إذا ما خرجت أخرس

اللهم بفضلك وكرمك، وجاه نبيك ورسولك وحبيبك، أتمم لنا نور قلوبنا وإيماننا بكمال محبتك ومحبة رسلك ومحبتهم، حتى لا يكون في إيماننا ثلمة، إذ لا يتم الإيمان إلا بمحبة من أَمرتَ بحبته، والصلاة والسلام على الصفوة المصطفى من بني عدنان.

هذا آخر التقييد الذي اكتُفِي به عن شرح قضية فتح بربر بني مكيلد والفتوحات التي قبلها.

ولما وجه لهذا السلطان استحسنه جدا، وظهر أن الرحمن جعل في قلبه بسببه ودا، واستظرفه غاية وفرح به أقصى نهاية، وأمر 380// بتعداد نسخ منه مزخرفة بالذهب، على ما أخبرني به رئيس طلبته المعدين للاستنساخ، ثم أجزل الجائزة عليه من دراهم وقمح، ثم أصدر أمره الشريف بإثر ذلك بتأليف هذا التاريخ على يد أكبر وزرائه وأعلمهم، شيخِه الفقيه العرفاني العلامة أبي الحسن السيد علي بن الحاج مُحَّد المسفيوي.

ولفظ الكتاب الموجه في شأن ذلك هو هذا:

الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا مُحَّد وآله وصحبه

محبنا الأرضى الفقيه العالم العلامة، الحبر الفهامة، السيد مُحَّد بن إبراهيم السباعي، أمنك الله والسلام عليك ورحمه الله عن خير مولانا أيده الله ونصره، وبعد، فالكراسة التي كنت وجهتها لحضرة سيدنا العالية بالله المتضمنة لبعض مآثره السنية، في توجهه لفتح القبائل البربرية، قد استحسنها سيدنا أعزه الله غاية الاستحسان، لاشتمالها على ما هو الواقع من غير زيادة ولا نقصان، وكونك ارتكبت فيها مطية الإيجاز، وسلكت مسلك الأدباء أهل المحبة والامتياز، ودعا لك أدام الله

---

1 في الخطوط "ولذلك".

محلاه بما نرجو من الله قبوله، وأمرك أن تشرع في تأليف مصنف يكون محتويا على //381 جميع سيرته، وتتبع فيه الوقائع الصادرة في ظعنه وإقامته من أول خلافته، ولا تتعرض فيه لوضع أحد ولا تنقيصه بما ليس فيه، وتقتصر على ما هو الأليق بالمقام، وتجتنب ما كان خارجا عن سياق الانسجام، وإن توقفت على بعض التآليف المجعولة في مثل ذلك لتستعين بها على تتبع ما ذكر واستقصائه فأعلمنا لتُوَجَّه لك، إذ قد يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر، وعجل بذلك ولابد ولابد، وعلى المحبة والسلام.

في 9 جمادى الثانية تمام 1306 علي المسفيوي وفقه الله.

فصل في ذكر ما تلا هذا الفتح الجسيم الفخيم، ذا الفتح المبين العظيم من الفتوحات

فأول ما تلاه بإثره، وزاد في إشاعته ونشره، مما وسع به السلطان دائرة الملك وأعماله، تدويخه جميع ما بين فاس والبحر الشمالي، من أقطار الجبال المعروفة بقبائل اجبالة، فهو فتح لم يُسبق إليه، ومن كثرت جبالها واتساع قبائلها أحجم الأقدمون الأولون عن الإقدام عليه، فجعلته همته هو من المستصغرات لديه، وذلك أنه لما رجع من أكبر الفتوحات، فَتْحِ //382 بربر بني مجيلد على الوصف الذي تقدم، رجع لمكناسة الزيتون قرب عيد الأضحى، آخر عام خمسة وثلاثمائة وألف، فلم يمكث إلا نحو ثلاثة أيام ثم نهض منها لفاس المحروسة، فاستقر بها مدة وهمته الوثَّابة عامرة بتشفيع فتح بربر بني مكيلد بمثله، ومحاولة حذو النعل بنعله من غير ميل للراحة والسكون، ولا له إلى الاستراحة ركون، فثارت منه إلى تدويخ تلك الجبال، إذ هو لما تقدمه أقرب مثال، فلم يكن بأسرع من أمره بتخييم جيشه بقنطرة واد سبو، فتسابقت الجيوش إليها وبحواليها قباتَهُم وأخبيتَهُم نصبوا، فخرج بإثرهم كالليث الهصور، وألويته أمامه وعليه المضل المنشور.

وليث هصور ما تغشى حظيرة بسطوة إلا أنعم العض والعقرا

فلما لحق الجيش بقنطرة سبو طوى قبابه، ونصب أعلامه، وسبقه للناس الرعب خلفه وأمامه، يجر بحر خميس، على ترتيب نفيس، وفيه يقول الكاتب:

ثلاثٌ له تَصطاد بالرُّعب دائما أسودَ الشر في كل غابٍ وغَيضَة
جيوشٌ له يقتادُها حُسن رأيِه وحزمُ صحيح دائما مع هِمة

383//

فلم يزل الجيش سائرا في تلك البطاح، وراياته تخفق فيها الرياح، إلى أن خيم بين قبائل الحياينة، فبات هناك وأصبح ناهضا إلى أن حط الرحال بوادي ورغة حذاء صنهاجة مديونة، فأقام هنالك مدة من نحو عشرة أيام يسير فيها فِكر

التدبير ونظره، وفي تلك الإقامة وجه على ولد خاله الحاج المعطي بن العربي الجامعي فأُتِي به، وعقد له راية التقديم على سرية وجهت لقبائل الريف، حتى قضى الغرض الذي وجه له فرجع، وبإثر رجوعه استُخلِف عن أخيه شقيقه مُحَمَّد الصغير المنصوب لوزارة الحرب، لما جعل له من أمر العسكر كله، فهو أميره وقائده وحاكمه وكبيره، وفيه من الطيش وخفة العقل ما ينافي ذلك المقام، ولكن في حقيقة النظر المحيطُ بذلك إنما هو نظر الإمام.

ثم أزمع السلطان الشخوص وأجمع أمره ناهضا آمًّا من وادي ورغة ومديونة تطوان، مارا على بني زروال والأخماس والقبائل الجبلية المختصة باسم جبالة، مسيرا فيها فكره ونظره السديد، ومحيطها بنظر التمهيد، يرحل ويقيم، وعليه فيها يدور كأس النعيم، إلى أن وصل ثغر الشاون، 384// فأدر فيها بصره، وأحاط بها نظره، يجدد فيها من الرأي ما احتاج للتجديد، بالإشارة وحسن التمهيد، ثم التفت قاصدا تطوان كذلك، سالكا في نظر الثغور أحسن المسالك، فلما وصل ثغر تطوان واختبره، وأعاره نظره، جاوزه لمعظم الثغور هناك وهو طنجة، فلما أشرفت عليه جيوشه، تلقاه من فيها من الناس، بل وسائر الأجناس زيادة على المسلمين من أجناس النصارى واليهود الذين بها، فأُقيم مهرجان عظيم من الضجيج بالترحيب، وولاويل النساء ورعود البارود أمر عجيب، ولما وصلها وساس أمورها الظاهرية والمخفية وجدد تدبير ما احتاج منها للتدبير، جدد عنها المسير، فودع أهلها راجعا منها لأصيلة، ومن أصيلة إلى مدينة القصر حتى نظره، وتفقد أمره، ثم ثنى عنان نظره، وسديد تدبيره، إلى مشاهدة العرائش بنظر كالتي قبلها، ومنها نصب أعلامه، وسياستُه وتدبيرُه أمامَه، راجعا على طريق الغرب، مارا على بلد بني احسن إلى سيدي قاسم إلى مدينة مكناس فأقام فيها مدة لاستراحة جيوشه، وأما هو فسبحان الذي جعل راحته فيما فيه غاية تعب غيره 385//

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام

وفي أثناء استقراره أقام الوزير السيد مُحَمَّد بن أحمد الصنهاجي وليمة لتزوج ولده الطالب العربي، وفي مدة هذه الإقامة وأثنائها توفي أمين الأمناء ورئيسهم، القاعدة العظمى الذي عليه المدار في معظم الأمور، وإليه مرجع مهمات تدبير خراج الملك وعن أمره في جميعها الإيراد والصدور، الأمير السيد مُحَمَّد التازي المُوخَى يُعرف (1) توفي في غرة رمضان من تلك السنة، وكان لتشييعه لرمسه ودفنه مشهد عظيم، وجمع حفيل جسيم، ودفن بالزاوية الصقلية من فاس. وفي يوم دَفنه دخل لحضرة فاس أخوه الأمين الأنصح الكيس الأفلح، ذو التدبير الحسن والراي الأنجح، والخلق الأفسح، السيد عبد السلام التازي، فأُقيم مقامه، لِما عُلم من خلوص تلك الشنشنة الأخزمية، وخالص صفاء تلك السريرة، وكونهما فرسي رهان في حسن السيرة، فكل منهما في جانب ما أسند إليهما وغيره من مُهمات أمور الملك على غاية ما ينبغي من النصيحة، من حسن التدبير وصالح السياسة، والآراء الصحيحة، على 386// ما بلغنا من طريق التواتر مع متانة الدين، وصلاح القصد والاقتصاد المتين، إلا أن الذي بلغنا أن الأمين السيد عبد السلام أوسع صدرا وأكثر صبرا من أخيه، وفاقه في

---

1 كذا في المخطوط وفي الإتحاف لابن زيدان أيضا ج5 ص435 مصرحا هناك بالنقل من هذا البستان.

سعة الخلق وحسن الخليقة، وأكثر منه تحملا وألين طبيعة وعريكة، هذا ما نقل إلينا بالتواتر الذي هو أعلى مراتب الشهادة، وإلا فالعُبيد صاحب هذا التقييد ما رآهما قط ولا رأياه، بل ولا عرفهما ولا عرفاه إلا بالسماع نعم

فالناس أكيس من أن يحمدوا رجلا   من غير أن يجدوا له أثر (1) إحسان

فصل في عقد راية ظعن آخر لمراكش وأحوازها وهي (...) (2) عشر.

ثم بعد تمام هذه الأمور وإحكامها أزمع السلطان بجيشه الشخوص من فاس لمكناسة، فقام بها مدة يدبر أمور الظعن لمراكش من كيفيته وكيفية المرور على قبائل البربر وتمهيدها، ثم ظعن منها قاصدا قصده، تدبيره في ضميره وحده، يقود جيوشه، رابطا جأشه، لا يتوقف في أحكام التدبير، على مؤازرة رفيق ولا وزير، ووزيره إذ ذاك السيد مُحَمَّد بن أحمد الصنهاجي، وهو أحد الوزراء الثلاثة الذين عليهم مدار الوزارة، الحاجب الأعظم، الأقرب إليه الأفخم، السيد أحمد بن الحاجب //387 الوزير الأكبر الأفخم السيد موسى بن أحمد رحمه الله، والفقيه العلامة الوزير شيخه السيد علي المسفيوي، وكان قَدَّم الأمر لنجله وخليفته إذ ذاك مولاي مُحَمَّد بالنهوض من مراكش بجيشه متوجها لملاقاته فامتثل، ولما نهض بجيوشه من مكناسة أخذ بالطريق المارة على زمور الشلح، فالتقى الجيشان، جيشُ السلطان وجيشُ ولده مولاي مُحَمَّد الذي كان توجه قبلُ من مراكش لملاقاة والده، فالتقيا قرب سيدي علال البحراوي، وعند ذلك أمر السلطان ولده بالرجوع بجيشه لرباط الفتح فرجع ولحق به في إثره، وأقام الكل عيد الأضحى من تلك السنة بالرباط. وبعد الفراغ من شؤون العيد المعتاد، أمر ولدَه بالتقدم أمامه قاصدا مراكش على السير الذي اعتاده، أخذا بطريق بربر زعير وتادلا، تجديدا لما قدمه من التمهيد وكرره وأعاده، إلى أن حل محل كرسي ملكه بمراكش، ولما استوطنها واستقر به النوى وتكامل عليه وفود الوفود، من جميع الآفاق من كم وكيف معهود، أصدر الأمر للجميع من عمالٍ وغيرهم ممن ورد معه ووفد عليه بإدامة المكث لحضور وليمة كبيرة عظيمة شهيدة يريد صنعها لولده مولاي مُحَمَّد، فأقام له تلك الوليمة، الفخيمة الجسيمة، التي لم يُرَ لها قبلُ مثال، ولا نُسج لما يحاكيها على منوال، //388 ما لم تكن وليمة المأمون على بوران ابنة الحسن بن سهل التي تقدم تشبيهها بأول وليمة أقيمت لهذا السلطان، وفي التنزل لما تقدم من المشبه والمشبه به، ما يغني عن تتبع وصف هذه، فقد طبقت شهرتها الآفاق، وما لِوصفِها وبديع رصفها من فواق، فدخل تحت طويل ذيلها، وسعة أطنابها، تزوج عود من الأشراف، نالوا من ذلك بغيتهم من سنة التزوج والعفاف، ثم قُيدت نعمة ذلك، وشُكر الله على إسباغ ما هنالك، بإقامة سنة أخرى عامة، بأن أصدر الأمر لكل من لم يختتن من الصبيان وأريد اختتانه أن يحضر للختان مع

---

1 كُتب فوق هذه الكلمة بخط صغير "كذا". على ان المعروف هو "آثار".

2 كتب على هامش المخطوط "بياض بالأصل".

الشرفاء، فصار الناس من الحاضرة والبادية يتواردون لذلك بصبيانهم، وكل صبي اختتن يكسى ويعطى الصلة، وأُمِر الحجامون باستيعاب واستقصاء كل درب وحومة وحارة لختن صبيان سكان ما ذكر، فنفد في ذلك أموال، وكتان له بال، وذلك كله من أول جمادى الثانية، ثم امتد ذلك في سنة ثمان وثلاثمائة وألف.

استدراك: وفي أثناء هذه الرجعة، الطويلة في النجعة، جنح السلطان في مسيره على حيال أرض آيت وِرًّا وشواهق بلد آيت سخمان، زيادة في أخذ ثأر قضية غدرهم المارة، إلى أن خيم بإغرم العلاَم (1)، وضيق //389 بهم وأخذ بمخانقهم، وقع بهم العسكر عند الأخذ في الالتحام، وجرعهم كؤوس الحِمام، وأبدا فيهم وأعاد، حتى ندموا غاية على غيهم المعتاد، ثم لما أطل عيد الموسم النبوي، اختار إقامة ليلة المولد النورانية بمراكش، على أحسن حال، وأتم وجوه الكمال، فثنى أعنته، ووجه لذلك همته، فطوى تلك البيد، حتى حل بمراكش بيومين قبل العيد، فأفجأنا قدومه بعد أن كان الظن القوي أنه يقيم العيد هنالك، فلم نشعر إلا وقد نزل بنا نزول الغيث، من غير توان ولا ريث، وكان قدومه حقيقة مصحوبا بنزول الغيث، فَعَلِم مقيد هذا التأليف على مقتضى جاري العادة أن طلبة الديوان وغيرهم ينشئون قصائد في امتداح الجناب النبوي والجناب السلطاني، فتعين عليه بمقتضى العادات محاذاتهم في ذلك الميدان، وإن لم أكن معدودا من أهل ذلك الشأن، فاقتحم عن عجل إنشاء قصيدة دالية من بحر الطويل فرحا بقدوم السلطان وترحيبا، ولم يبق من الزمان قبل الليلة ما تأخذ فيه من البلاغة والتنقيح نصيبا، ولما جُمِعت أبياتها وُجِّهت للسلطان، فقابلها بعين الرضا والاستحسان، فأمر بإنشادها عقب ختم الأمداح النبوية، فلما اختتمت الأمداح النبوية، أراد //390 منشدها إنشادها فأشار إليه السلطان حتى يختم بها المجلس عقب قصائد الغير، فأُنشدت قصيدة الوزير الصنهاجي، وقصيدة الفقيه المؤرخ السيد أحمد بن الحاج السلماني، قصيدة بن المواز، ولجميعها من الليونة حظ، ثم نظر السلطان إلى الذي بيده هذه القصيدة فأنشدها، ولما ختم إنشادها سمع بعض العلماء الحاضرين في تلك الليلة أمام السلطان، قال: "تلقَّف ما صنعوا".. تلقَّف ما صنعوا".. ثم كرر ذلك، مشيرا إلى أنها ابتلعتها وأظهرت ليونتها، وافترق المجلس كله على استحسانها لمطابقتها للحال الذي هو نوع من البلاغة، ونصها:

أخلاَّي إن السرور تجددا ... وأربى على ما كان قِدْما ومَعهَدا
وأصبح ثغر الدهر يبسم ضاحكا ... وكَفَّ يد النوى على ما تعودا
وأبدا سرورا لا يُقاس قليله ... بموج ولو طَما وطَمَّ وأزبَدا
فلله در ذا الزمان فكم بدا ... لنا فيه من أفراح تصحَب أَسعُدا
لقد تُبْتَ يا زمان مما جنيتَه ... وأسعدت بالمنى وأكمدت حُسَّدا

---

1 في المخطوط "بغُرم العلام" والصواب ما أثبتناه. وإغرم العلام أو إغرم نلعلام، قرية مغربية تبعد حوالي 31كم، عن مدينة بني ملال.

فأصلحت ما اجترحت من بعد ما اقتضى حُشاشَتَنا الشوقُ الغريم وعَربَد

تَقَضَّى لُباناتِ القُلوب وما حَوت لواعجُ شَوق كالحريق توقدا

فهاجت شجوننا وطال انتظارنا لشمس الهدى لما نأى وتباعدا

391//

فأصبحتَ مُسعِدا بكل رجائنا وأصلحتَ مأمولا بلغتَ به المدى

لنا جُمعت فيك المسرة كلها وذا الشهر منك كان للخير مَحتِدا

فلله من شهر قديما وحادثا حوى كل رحمة طريفا وتالدا

فما رحمة إلا وفيه قد أُنشِأت ومطلع بدرا للنبوة قد بدا

وشُق لذاك البدرِ بدرٌ وقلبُه ليزداد إسرارا ونورا على الهدى

هو البدر إلا أنه في مسيره بأفلاك عِز لا يُفارق أسعُدا

هو الشمس للإسلام ما تركت لنا سيادته فوق البسيطة سيدا

فشمس ولكن تحت أطنابها ظلها حنيفية الإسلام صونا من الردى

بشرى لقطر قد أنارَ هلالُه فآنقه الغيثُ الهطيل فأنجدا

لمراكش الغراء نعيمها وعاودها غيث مثالاً له احتذا

فبشَّر غيثُها بقرب مجيئه براعة الاستهلال عقدا مبرّدا

فإنك لم تنزل سوى لتُقَبِّل أمام يديه الأرض يا غيث قد خَدَى (1)

فذا الشهر ينبوع لكل فضيلة وكلٌّ من الخيرات فيه تجددا

ولادة خير الخلق فيه وأتبعَت بعثته فيه وهجرة أحمدا

وفيه لطَيبته الحلول الذي به تكامل نظم الدين وانتكَس العِدا

392//

فيا ليلة الميلاد حُق لك الوفا بفخر وشهرة وضوء توقدا

وإنشاء أمداح النبوة ما سرى بأفق السما بدرٌ بليلك ما بدا

بدا فيك نور كان من قبل آدم يسبح تسبيحا للأملاك مقتدى

1خَدَى البعيرُ والفَرَسُ خدْياً وخَدَياناً: أَسْرَع، وزَجَّ بِقوائِمِهِ، أَو هو ضَرْبٌ من سَيْرِهِما، أَو هو عَدْوُ الحِمارِ ما بَين آرِيِّهِ ومُتَمَرَّغِهِ.

لك الفخر كل الفخر من كل وجهة   على ليلة القدر التي نالت المدا
فلولاك ما كانت ولا كان ذكرها   بنورك قد صارت لنا متعبدا
أمَا إن نور النور زانك نبغَة   لقد نبغ الشفيع فيك وقد هدا
فأعطاه مِن أسمائِه جَدَّ جَدُّه   رؤوفا رحيما يا لذَا وقد أكَّدا
فقال على خلق عظيم إلاهُنا   فماذا عسى المخلوق يبلغ مُحمَدا
أمِين عفيف صادق ومصدِّق   وسماه طه ثم يس أحمدا
مُحَّد حاشرا وماحٍ وعاقِبا   وجاء من الألقاب يا نبي الهدى
سراجٌ منيرٌ هادٍ شاهدُ رحمةٍ   رسول حبيب جا المزَّمل في النِّدا
حننتُ حنان الجدع والضب والظبا   إليه فليت الكل قاسمني نِدَا
حسَرت (1) شِقاق الجذع شوقا بصوته   أصبرا وذاك الصوت قد فَلق الكَبْدا
فلا تعجبن حيث الوحوش تعلقت   بذيل على غير المكارم ما ارتدا
فإن جميع الرسل والخلق جملة   به عَلِقوا في الحشر رعبا من الردى

393//

ولآدم يسرى الفخر إذ قال أحمد   أنا سيد الأولاد حقا وأجودا
فشد لواء الحمد والخلق تحته   ومقام مقام الحمد فاستوجب الحمدا
هو العدل كل العدل كنا بعدله   شهودَ الورى في الحشر أحسَنَهم رفِدا
لذاك رجوه في القيامة شافعا   فَلانَ لها والناس خَضعَى وسُجَّدا
فقام بشكر الله حتى تفطَّرت   له قدم ليتني بسطت لها الخَدا
وليتني غبار النعل من لي بخطة   أشارك فيها طيبة الطِّيب والشذا
شَذَى شَذوه الإمام بشكر ربه   وقام بأعباء الخلافة مُجهِدا
إمام همام مولانا الحسن الذي   أنار منار الدين فتحا مجددا
أطاح بصالح الصفات إمامُنا   أمام العلا والدين والعلم والهدى
إمام له وصف يسر صديقه   ولكن فيه كل ما تكره العدا
لأن الثريا هي نَعلُه تحت رِجلِه   وهمته لا ترضى الأفْق مقعدا

---

1 كتبت في المخطوط بفتحة على السين، ومعناها انكشفَت وظهرت، أما حسِر بكسر السين فمعناها حزن وأسف.

ولو علمت زُهرُ النجوم علوَّها لخرت جميعا نحو ذا الوجهِ سُجَّدا
خبير بتدبير الأمور ومن يرى سوى ما يراهُ ضلَّ وما اهتدى
يعاني الفتوح دون إيثار راحة فأوجب ذا له الثناء المخلَّدا
ضِبابُ الكُدا من البغات برابرا فلم تحمهم كُدى ونالهم الوَدَى ([1])

394//

وجوز أجبالا كأن صخورها على وجَنات النجم نفسي له الفِدا
إذا حمي الوطيس في حندس الوغى ترى من ثبات الجيش ما قد تعودا
فها هو لا يشكو مكابدة النوى ولا يتجنى من مُكابدة العدا
فإن جاء نظمي قاصرا عن صفاته فعذري لمن كان مثلي ومن كان أبلدا
فهبني لسان الدهر والدهر مُفلِق أتُحصى هِباتُ الله لم أُحصِها عَدًّا
فسيحٌ مجالُ المدحِ فيه لو أنه يناهزه العد أو يقبل العَدَّا
غني بفضل الله عنا وإنما نَزِين بُحور الشعر من ذكره جِدّا
أخا العلم إن الشمس بادٍ ضياؤها وما كنت لو لم أختبِر لأشهدا
وحسبي إذن له الدعاء بنصره يُنصرُ دينُنا لدى كُلِّ منتدى
أيا علم الدين الذي جود طبعه وراحته قد أخجل البحر مُزبِدا
لئن مَحَلت ([2]) أرض بمُلكك إنني لأرجو لها من غيث راحتك الجِدَا

395//

فلازلت ذا ملك جديد مؤزر تدين لك الدنيا والأخرى على الهدى
ولازالت الأيام طولا على الورى وما الطول إلا طول عمرك سيدا
فبالمصطفى الحب يا ربنا أطل للإسلام عمره ودافِع به العِدا
حجابا جعلته بفضلك دونهم فلا تكشف الحجاب ولتَقِنا الردى
أراح نفوسَنا بإتعاب نفسِه فزده من التمكين ما كان أحمدا

---

1 الوَدَى: الهَلاك

2 مَحَلَ البَلَدُ: انْقَطَعَ عَنْهُ الْمَطَرُ فَيَبِسَتْ أَرْضُهُ.

لِتُبقِيَنا في ظله ربَّنا وصُن به الدين والإسلام صونا مؤبدا
وأبقِه (1) في ظل العناية ينتهي إليه جمالٌ من كمالك يُبتَدا
بجاه حبيب خاتم الرسل مصطفى وآل وصحبه بقاء مُؤبدا

انتهى

//396 وأجزل السلطان جائزتها.

فأقام على كرسي ملكه بمراكش نحوا من ثمانية أشهر يبدي ويعيد، ونظره في أمور الرعية برا وبحرا دائما في المزيد، وبدأ قراءة البخاري على العادة، في شهورها المعتادة، إلى ختمه أمام ليلة القدر ليلة السابع والعشرين من رمضان.

---

1 فوق هذه الكلمة خط وعلى الهامش إشارة إلى خطئها وأن صوابها "ولازِلتَ"، غير أن تصحيحها يستوجب تعويض "إليه" ب "إليك".

فصل في ذكر عقد راية الظعن لفاس وأحوازه وهو (...) (1) عشر من الإظعان

هذا ولما أقام موسم العيد، عيد الفطر، وتفرغ من شؤونه وتوابعه، أخذ في التَّهَيُّئِ للظعن للغرب وقبائله والقبائل التي دونه، فكأن راحته في كثرته، وكثرةِ تفقد أحوال رعيته، وكان عند الأخذ في التَّهَيُّئِ لهذا الظعن شمَّر عبد الله البوكيلي صاحب حسبة مراكش عن ساقي مكرِهِ وساعدي مكائِده، في إذاية مقيد هذا التأليف، لما ظهر له من نفسه من الجبرية والكبرية، لما نال من تعظيم جاهه وكثرة ماله وطول مدة ولايته، وما نقم عليه شيئا غير أنه أَلِف الانقطاع عنه وعن أمثاله، لا يتملق لهم، ولا غرابة في صدور ذلك من مثله، فما هو بأول من نسي أول حاله واغتر بما آل إليه ظانا عدم زوال ما أطغاه من جاهه وماله، ومِن حِكم الشعر المقول فيه، إن من الشعر لحكمة:

لا تنكر الظلم مِمن دام في عَمَل　　　فإن طول مَداهُ فيه أطغاه (2)

//397 وقد استعان في ذلك برجل أخرق أجلف، (3) يقال له الفلاَّق، نصَّبته قدرة الله الذي لا يُسأل عما يفعل للقضاء بمراكش من جملة قضاتها، فبلغا مجهودَهما، وبالغا في ذلك بزخارف الوَشْي والافتراء على السلطان بالأباطيل في جانب الموشى به، وأكثرا في ذلك بما يطول ذكره، ولما توسما من السلطان أيده الله أنه اتهمهما في ذلك واستبعده واستغربه، ولكن لكثرة إيراده وموارده كاد أن يقع منه الموقع، مع ما تقدم من إقباله على المؤلف وقبوله لما ألف وأنشأ، وسرورِهِ بذلك وأمرِهِ بهذا التاريخ، فعندما توسَّما أن السلطان اتهمهما، استعانا بمن لا موافقةَ بين ظاهره وباطنه، بل بينهما بون بعيد، وتباين شديد، فالظاهر مموّه، والباطن مشوّه، محشو بالغِل والحسد ولو بدون سبب، وهو الطالب أحمد بن سودة، ولا غرابة فبذلك أخبر الصادق المصدق ﷺ كما في حديث ابن عباس مرفوعا قال: "احذروا صفر الوجوه، فإنه

---

1 كتب على هامش المخطوط "بياض بالأصل".

2 كتب فوق كلمة "عمل" بخط رقيق "ولاية"، كما كُتِب فوق كلمة "مداه" "مدته". وعلى الهامش مانصه: البيت من القصيدة المشهورة للقاضي أبي عبد الله المالقي المسماة بأنجم السياسة، ومطلعها:

يا أيها الملك الباهِي مُحيَّاه　　　أنت الذي تألف الأظعانُ مَغْناهُ

إلى أن قال: لا تُنكر ....

وبعده:

واعزل على الفور من أسخَطْتَ حالتَه　　　ومُهمَلا وَلِّ تُرضِيه وتَرضاه

إلى آخرها.

3 الأجلف: الموصوف بالحمق وغلظ الطبع.

إن لم يكن من عِلة أو سقم فإنه من غِلٍّ في قلوبهم للمسلمين" أخرجه //398 الديلمي في مسنده، وله بلا سند عن أنس مرفوعا: "إذا رأيتم الرجل أصفر الوجه من غير ضر ولا عبادة فذلك من غش الإسلام في قلبه" اهـ وهذا، نسأل الله السلامة والعافية في الدين والدنيا، وصف الطالب أحمد بن سودة، أصفر الوجه بلا مرض ولا عبادة، ظاهره السلامة وباطنه على غاية الفساد، وقد تقدم شرح بعض سيرته في جانب الملك بإغرائه أهل الطيش في قضية أهل فاس، وتقدم إيضاح حلم السلطان عنه وعن حزبه، فكيف يُستغرب منه ذلك في جانب الضعفاء أمثال هذا المقيِّد. وقد نُصب بعد ذلك لقضاء مكناس، وكونه كبير طلبة سرد صحيح البخاري فدسَّاه شاهدا للسلطان، فأيد جميع ما اختلقاه وافترياه، فوقع من السلطان الموقع، وما هي بأول نميمة أفسدت القلوب وعكست الظنون، وقلبت المظنون، فساعد السلطانُ الفلاَّقَ في سجن الموشَى به فسُجِن، وظهر الغضب في وجه السلطان، ونال الوشاة مرادهم، وعن قريب تراجع السلطان أيده الله، وعلم ما صنعوا فتدارك خيبة رجائهم، والرجاء في الله أن يكافئ كل واحد من الذين أوغروا صدر السلطان //399 بمحض الافتراء بسوء صنعه، وأن يأخذ لي منهم الثأر بأكثر من ذلك وأفظعه وأشنعه، فقد كدروا ما كان صفا من السلطان، وقد رجع الصفاء والحمد لله ونالوا خزي الكذب وذله.

رجعٌ، فظعن للغرب من الحضرة المراكشية في غرة ذي القعدة في التاسع منه من تلك السنة، على طريق تادلا، وترك مقيد هذا التاريخ مسجونا، وفيها أي في بلد تادلا أمر بتسريحه، ثم منها على قبائل زعير مجدِّدا تمهيد تلك النواحي، إلى أن حط رحال الاستراحة برباط الفتح. فلما أخذ الجيش بالمقام هناك قدرا من الراحة وإزالة التَّفَث، وتعويض ما نفد من الزاد وتقليل الشَّعَث، عبر الجيش وقلبه الوادي الحاجز بين عدوتي الرباط وسلا قاصدا مكناسة الزيتون، آخذا لها الطريق المارة على زمور الشلح، فتلقته هدية الدولة النجليزية، من جملتها الفيل الذي ما تقدم فيما نحفظه لملوكنا المتقدمين أنه دخل بأيديهم، ولا دخل مغربهم على تلك الهيئة وتلك الصورة مما كُسِي به وَحُلِّي، وذلك على هيئة عجيبة استُدل بها على نهاية //400 ضخامة هذا الملك، أبقاه الله مصونا خلفا عن سلف، وما قيل إنه جيء به في بعض القرون السالفة لبعض الملوك، إن صح لم يَنقل أحدٌ فيما رأينا أنه على تلك الهيئة. وتمثُّلُ الفيلِ بين يديه بتلك الصورة العجيبة كان في آخر مرحله من بلاد السهول ودخوله لبلد زمور، فحصل للجيش كله ولسائر القبائل هناك أعرابا وبرابر عجب عظيم جليل برؤية ذلك الفيل، ووقع في رؤيته ازدحام عظيم، فبعدما تلقى قبائل زمور للسلطان إظهارا للطاعة بعدد كثير، تضاعف ذلك منهم حتى النساء والصبيان، حتى اجتمع منهم وسط جيش السلطان جم غفير، وظهر في ذلك اليوم زيادة ربط جأش السلطان وتزايد حلمه وعفوه، إذ لو أراد ذلك اليوم مقابلة زمور بما استوجبوه من الفتك بهم لتمكن منهم كل التمكن، لكن من طبع الأسود عدم الرضى بشبه الاختلاس، ولا تأكل الجيفة ولا يطيب لها إلا ما تسطو عليه بإظهار الوثوب والافتراس، فصحب الفيلَ معه في بقية الطريق والناس في غاية الازدياد في التزاحم على رؤيته، إلى أن حل محله بمدينة مكناس، نعم قبل دخوله لها //401 بعدما قاربها حتى بدت صوامع مساجدها وأدخل جل الجيش أثقالهم لها، نكَّب السلطان دخولها ومال بقصده لآيت صَغروشَن، بعد أن أمر بأكل بني مطير الساكنين بسايس عقوبة لهم على ما

صدر منهم من ذميم أفعالهم، فانتُهبوا ونُهب من جملة ما لديهم مَحَلٌّ هناك اتخذه الوزير الصنهاجي، مسمى في عرف الناس بالعزيب، أحدثه بعد الوزارة، فيه حيوان كثير، قيل اجتمع له فيه من الماشية بين ضأن ومعز وخيل وبقر وجمال نحو ست عشر مائة، وفيه مخازن الحبوب والتبن شيء كثير، فنُهب ذلك كله، فوقع في قلوب بعض الناس أن ذلك مقدمة لقرب انقضاء وزارته فكان كذلك، فسبحان من لا يطلع على غيبه سواه، إلا من أظهر له بعض ما أخفاه.

ثم قصد آيت صغروشن على طريق الحاجب، فأحاط بهم الجيش من غالب الجهات، ونزل عليهم وخاطبهم السلطان في إحضارهم الفاسدين من بني مطير الذين دخلوا عندهم وإخراج متاعهم الذي عندهم فامتنعوا، فقدم لهم الإنذار والإعذار، فلما لم يُفِد فيهم ذلك أمر بنهبهم فانتهبوا نهبا ذريعا، وسلك بسلب ما لديهم مسلكا شنيعا، ولكنهم جنوا على أنفسهم بأنفسهم، فقطعت منهم رؤوس //402 وضاقت بهم الأرض ومنهم النفوس، وأخذ منهم جمع من المساجين، وذاقوا بعض مرارة بطشة السلاطين، فانحشد نساؤهم من صبيانهم للجيش جلهم عراة، فأخبرني من أثق بخبره عند قدومي لدى السلطان المظفر تلك الأيام بمكناس بسبب مكيدة البوكيلي وحزبه وجنايته المتقدمة، أن شبل السلطان خالص سلسلة الذهب الإبريز، مولاي عبد العزيز، لما عاين أولئك الصبيان والنساء على تلك الحالة، وهو إذ ذاك صبي لم يراهق، أخذته الرقة والشفقة والرحمة والرأفة التي هي مغروزة ومركوزة في جبلته، وسالم فطرته، حتى بكى بكاء كثيرا، ولما أخبرني بذلك وأنا قرب باب مكناس عند مقام مولانا عبد الله بن أحمد، أخبرته بما سبق لقلبي وانسطع فيه أن ذلك الشريف، لِمَا طبعه الله عليه من أول نشأته، هو وارث سر تلك السلسلة المصطفوية، والشجرة العلوية، وأنه طُبِع على الرحمة والشفقة ليرحم الله به ويجبر به صدع سفينتهم إذا انصدعت، وأنه ظرف للسر والحلم الذي ورد فيه ما يُغبَط به صاحبُه، ولو لم يكن ورد فيه إلا قوله ﷺ لزيد الخير: "ما وصف لي أحد فيه الجاهلية فرأيته في الإسلام إلا رأيته بدون تلك الصفة إلا أنت فإنك فوق ما قيل، إن فيك لخصْلَتين //403 يحبهما الله ورسوله، الأناة والحلم" وفي رواية "الحياء والحلم"، فقال: الحمد لله الذي جبلني على ما يحب اللهُ ورسولُه اهـ لاسيما وفيه مما يزيد غبطة غير ذلك من الكتاب والسنة والآثار وحكم الأمة، وناهيك أنه من أوصاف الحق سبحانه التي يحب من اتصف بها، وهذا الشريف على صغر سنه ظهر أن الحلم من طبيعته، ولوالده مولانا السلطان فيه من المحبة مزيد اختصاص، وفي الزيادة دائما في ذلك دون انتقاص، لِمَا لاح عليه من لوامع السعادة، التي هي في كل طور في الارتقاء والزيادة، فالله يكلؤه ويحفظه، وعين العناية دائما تلحظه.

وبعد الفراغ من قضية آيت صغروشن في آخر صفر وصدرٍ من ربيع النبوي، أخذ في الانتقال من مكناس لمحروسة فاس، فأدركه مقيد هذا التأليف آخر يوم من أيام إقامته بمكناس، بسبب الإذاية المتقدمة من أولئك الناس، وفي ذلك اليوم وجه جملة وافره من أولئك المساجين، مساجين بني مطير وغيرهم، مع جيش أهل الحوز وعمالهم، رأسهم نجلُه الذكي الأنجب مولاي العباس، فمنهم من سجن بمراكش ومنهم من سجن بغيرها من المدن كرُودانة، ثم نهض //404 في الثامن من ربيع الأول لفاس ودخلها في العاشر منه، وأقام بها ليلة المولد أيَّ إقامة، فوقع من الاهتبال والاحتفال، جهدٌ ما يخطر بالبال، وكان به إذ ذاك بعضُ أَلَمٍ تَجَلَّد معه حتى أتم إقامتها بحضور مقيده، وأنشأ لها قصيدة رائية جامعة في ذلك المعنى مانعة، فاستمر بمحل كرسيه بفاس، ووفد عليه من الوفود في ذلك العيد ما ليس بمعهود من كثرة الوافدين، سيما من جميع البرابر،

فظهرت ضخامة الملك لكل أحد، وتصدى لتنفيذ الأوامر وتنجيز الأمور على كثرتها فوق المعتاد، ولم يشغله ذلك عن أمور أخر كبيرة كثيرة، منها مهرجان بناء عظيم، أمورُه كلها عظيمة، ومن رآه استعظم أمره فوق ما يوصف، وهو البناء الذي يسبق عليه الداخل من باب السَّاكْمة لفاس العليا على يمين الداخل، المسمى بالفابْرِكَة، لصنع آله الحرب، زيادة على بناءات أخر تدل على نهاية سعة صدر السلطان وتعالي همته، وتدل على صدق ما وُصف به- كما تقدم- من أنه لا يشغله كبار الأمور عن تفقد صغارها، ومن أدله ذلك أن دواوين الكُتاب التي في كل واحد منها رئيس له //405 كَتَبَةٌ عِدَّة، نحو السِتة مواضع، منها ما كُتَّابه تبلغ الستين، ومنها ما تبلغ العشرين ففوق، ومنها ما دون ذلك، في شغل شاغل مما يصدر لهم عن نظره ورأيه وأمره، وهو أيده الله كأنه خالي الذهن سالي البال، فارغ من جميع الأشغال، يظن الرائي أنه لا يتنقل من حال إلى حال، وقد شاهدنا أيام مُقامنا عنده تلك الأيام بفاس من ذلك ما يستغرب، ويقضي منه كل ناظر العجب, فاستقر تلك المدة بفاس على ذلك، واستمرت الأحوال كذلك.

وبعد ذلك بنحو ثلاثة أشهر توفي الوزير الصنهاجي رحمه الله لمرض اعتراه ولم يطل به، توفي في الرابع عشر من جمادى الثانية سنة تسع وثلاث عشرة مائة، وولى الوزارة مكانه الحاج المعطي بن العربي الجامعي، وأقيم مقام الوزير المتوفى، فجرت الأمور على منهاجها، وارتقت في أدراجها.

فلم يكن إلا أن رُفِع للسلطان بعد ذلك خبر محصِّله أن رجلا من قبائل اجبالة من قبيلة أنجرة (1) بين سبتة وطنجة يلقب بأحمام، (2) ذُكر أنه طالبٌ أستاذ يقرأ قراءة السبع، أثار فتنة بين المسلمين والنصارى بما سولت له نفسه، وبلَغَه //406 فهمه، أنه مصلحة لنكاية النصارى وإنالة الضرر لهم، وهو جاهل ما وراء ذلك وعاقبته، فاجتمع عليه من رعاع

---

1 - في المخطوط "نَجرة". وقبيلة أنجرة من أكبر قبائل جبالة ومن أكثرهم حفاظا على الثقافة الأندلسية، وأول قبائل جبالة والمغرب التي تستقبلك أراضيها بعد مضيق جبل طارق، تصل مساحتها إلى 680 كيلومتر مربع، وهي بهذا الرقم تكون واحدة من أكبر قبائل جبالة مساحة بعد بني زروال والأخماس.

2 - في المخطوط "باحمام" وكذلك كتب فيما يأتي قريبا بهمزة في أوله "أحمام". والمذكور هو زعيم أنجرة عبد السلام الحمام، كان رئيس عصابة للسلب والنهب "لا يحل ببلدة إلا بعصبية شاكي السلاح متأهبين لإيقاد الفتن". وقد تمكن في غضون 1892م من اعتقال مستوطن فرنسي قرب طنجة، مما خلق حالة من الذعر وسط الجالية الأوربية، وأتاح الفرصة أمام القوى الأوربية الإرسال سفن حربية إلى مرسى المدينة. أما عن التشجيع الذي لقيه من السفير البريطاني "سميث" فتؤكده إحدى رسائل المولى الحسن إلى الطريس (1891/09/13)، وجاء فيها: (فقد بلغ علمنا الشريف أن الفاسد الحمام الأنجري ورد عند باشدور النجليز لداره بعد رجوعه من حضرتنا الشريفة وبقي عنده يومين وأمده بعدد من العدة والقرطوش وغيرهما ووجه ذلك إليهم في مركب لهم بجزيرة قنقوس بأنجرة و أنزل ذلك هناك وصار يحرضه على الهجوم على دور النصارى الخارجة عن البلد وسيلة للكلام والخوض و اشتد الإتصال بينهما).اه وانظر كذلك كتاب الاستيطان والحماية لمصطفى بوشعراء ج2 ص566

الناس وجهالتهم شرذمة، فتعصب لهم وسعى في إيقاد نار الفتنة التي كانت كامنة، وقطع للنصارى آله الإخبار بسرعة المسمات بِتِلِغْراف، (1) واشتغل بما ظهر له من نكايتهم التي لم يعد لها شيئا غير ما حضر من فاسد الرأي، إلى رفعت به الشكاية للسلطان، فتثبَّت السلطان حتى تحقق فاسد سعيه، وعند ذلك أمر عامل طنجة بنصب الشبكة لاقتناصه فنصبها واقتنصه كما أُمِر، وأُعلِم السلطان بذلك فأمر أيده الله بتوجيهه مصفدا لحاضرة مراكش زجرا له وردعا لأمثاله، فوجه كذلك، وتوجه به نفر من أعوان المخزن إلى أن وصلوا بلد هشتوكة من قبائل دكالة فأظهر لهم شدة المرض وتحيل وتمَكَّد، (2) حتى تفلت منهم ليلا وهرب راجعا لمحله إلى أن حل به، فأوقد نار الفتنة أشد اشتعالا من الأولى، وعند ذلك اهتم السلطان بشأنه حذرا من اتساع الخرق على الراقع، إن لم تنحسم منه مادة طيشه الواقع، فوجه لأجله من العسكر عددا، وأتبعه سرية من 407// الجيش مددا، ومع ذلك قام لمقابلتهم بمن وافقه من أمثاله الذين لا يدرون للأمور عواقب، فأخذ الموجهون له في التضييق به وبمن معه من كل جانب، فاستعصى عليهم لمنعة أرضهم وصعوبة جبالهم، وبقي الأمر كذلك مدة حتى توجهت له همة السلطان فاقتنصه أي اقتناص، فأيقن أن لا مناص، ولا وجه باق للخلاص، فوُجِّه لمراكش بعدما توجه السلطان المظفر بجيوشه للقطر الفيلالي، فرجع السلطان له بعضَ خدامه من الاودابة وغيرهم مأمورين بالحزم والتحفظ لئلا يتفلَّت بوجه أو يعترض لتخليصه أهل حزبه، فأخذوا بالحزم والعزم وتحيلوا واحتالوا حتى أوصلوه لحاضرة مراكش وأودعوه بسجن مصباح بها موثقا بالحديد، ولم يزل إلى وقت التأليف آلِفاً بِه كَرهاً، وكم لها من نظير يشهد لصدق ما قدمناه من قوة حلم السلطان، حيث لم يزد على سجنه مع كثرة ما تقدم من طيشه وإفساده، وقد قابلنا فيما تقدم بين حلمه وحلم المأمون الذي تضرب به الأمثال في قضية العكُّوك فظهر بها بينهما الفرق الكثير، وكذلك يقابل بقضية الرشيد مع يحيى بن عبد الله المحض 408// بن الحسن المثنى بن الحسن السبط، لما هرب يحيى إلى الديلم ثم أتى به الرشيد وأمر بقتله، ألقي في بركة فيها سباع قد جُوِّعَت فأمسكت عن قتله وأكله، ولاذت بجنابه وهابت الذنو منه، فبني عليه ركن بالجص والحجارة وهو حي. نقله السمهودي عن مروج الذهب للمسعودي، انظره. ثم نقل غير ذلك في شأنه، ونقل تحليفه للذي وشى به بقوله له: قل برئتُ من حول الله وقوته ولجأت إلى حولي وقوتي إن كنتُ كاذبا، فتلعثم الزبيري الواشي فزجره الرشيد فحلف، فما أتم يمينه حتى اضطرب وسقط لحينه، فأخذوا برجله وهَلَك، انظر تمامه اهـ.

ولما وَجَّه السلطان من يأتي بالرجل الملقب بأحمام استمر، على وجهته بجيوشه التي نصب للقطر الفيلالي وما حوله، وجعلها ثمانية كما سيأتي بيان ذلك وتفصيله إن شاء الله مستوفى.

---

1 كتب في النص الأصلي "بالسلك" وصحح في الهامش "بتلغراف".

2 على هامش المخطوط: "أي عمل المكائد".

الباب الثامن الذي هو الجيش الثماني ذو الفتح الرباني المتميز فيه بالسبع المثاني

هذا الجيش الثماني ذو الفتح الرباني هو سادس التوجهات //409 العظام، ذوات الفتوحات الكبار الجسام، التي استعظمها ونكص عنها من تقدم من ملوك الإسلام، واستصغرها هذا الإمام، فابتكرها وأقدم عليها أي إقدام، وهي أمهات فتوحاته وتمهيداته الجسام، المنتجة المزايا الكبار الفخام، وذلك مما كان لا يخطر في بال العالم بحسب ما ألفوا وشاهدوا وسمعوا معنعنا ومسلسلا عمن قبلهم، أن مثلها في هذا المصر (1) لا يقصد من ملك ولا يرام.

أما الخمسة قبله فقد تقدم بيانها، التي منها:

الأولى الواقعة بعد تمهيد جمهور الرعية مما بين مراكش وحوزها وفاس وأحوازها، وهي الكبيرة القدر العظيمة الشأن والخطر، حسب ما تقدم بيانه، وهي التي ابتكر النهوض إليها من مراكش إلى وجدة وانفرد برأي التوجه إليها وحده، ومر بفاس ولم يُقم بها إلا كتَحِلَّة القَسَم نحو السِّتة الأيام، كان (2) له بتلك الأقاليم التي يؤم سابق قدم.

ثم الثانية من التوجهات وهي التي تليها، وهي فيما يرى الناس فيها من المخاطر وشدة الأمر تضاهيها، وهي ذات الاستقصا، التي هي الأولى لسوس //410 الأقصى.

ثم الثالثة له التي بلغ فتحها وتمهيدها إلى الساقية الحمراء من بلاد الصحراء.

ثم الرابعة ذات الترقي، التي هي أعظم من ذلك وأكبر، لكونها فخيمة الأمر، شديدة الخطر جليلة الظفر، أظهر فيها نتيجة عظيمة جسيمة، وكان عند من تقدم من جمهور الملوك من حيث الإنتاج عقيمة، أحجم عنها عظماؤهم ذوو القوة والمدد، ووفور العُدد والعَدد، كما تقدم.

ثم الخامسة ذات الجبال التي كانت تستغرب ولا تستقرب.

ثم هذه السادسة صاحبة الترجمة ذات الفتح الأعظم، ومقدمة المقصد الأهم، وهو فتح إن شاء الله يُعِز الإسلام، ويكون غرة في جبين الدهر عند سائر الأنام، طبق أمر فتحها ما بين أرض والسَّماء، وضُرِبت أطناب عزه على مناكب الجوزاء، وتسارع بسببه أهل الآفاق الشاسعة، والأقطار المتباعدة، للدخول في الطاعة أفواجا أفواجا، وأشرق بذلك الفتح المبين، والظفر المكين، المصحوب بالتأييد المتين، وجهُ الأرض ضياء وابتهاجا، ولا شيء أقرب للنزوع به إليها من غزوة تبوك، وذلك من وجوه، منها عظم المشقة، ومنها بعد الشقة، //411 إذ بين المدينة وتبوك من جهة الشام إحدى عشرة مرحلة في أول القرن الأول في السنة التاسعة من الهجرة، وهذه كان المسير إليها في رابع عشر ذي الحجة متم عشرة من أول هذا القرن الرابع عشر بعد الألف، اللازم في حيز أوله وقوع التجديد، وكون هذا من أماراته وآثاره فأمر لازم وليس بعيد، ومنها مطلق شدة أمر النفقة، ومنها كثرة جيش الإسلام كما ذكر بعض من حققه. ذكر بعض العلماء أن النبي ﷺ خرج

---

1 - في المخطوط "العصر" بالعين بدل الميم، وهو تصحيف.

2 - كذا في المخطوطن ولعلها "كأَنَّ".

لتبوك في سبعين ألفا بين فارس وراجل من الأنصار والمهاجرين وسائر القبائل، إلى غير ذلك من الوجوه، وإلى ذلك أشار مقيده وفقه الله بقوله في قطعة أنشأها فرحا وسرورا، وانشراحا وحبورا، بمقفل السلطان منها لمراكش منصور الأعلام، محكِما نظمَ عِقد الإسلام، نازعا فيها إلى فرح أهل مدينة الرسول ﷺ بطلعته عليهم، حيث تلقوه متناشيدين "طلع البدر علينا من ثنيات الوداع.." الأبيات الثلاثة، "أهذي تبوك أم ذات الرقاع" كما ستُذكَر القطعة إن شاء الله في محلها. ووجه زيادة ذات الرقاع //412 أن الأصح في سبب تسميتها بذلك أبو موسى الأشعري كما في صحيح البخاري من قوله: "فكنا نلف على أرجلنا الخرق، فسميت ذات الرقاع لما كنا نعصِّب من الخرق على أرجلنا"اه

وقد اقتحم مولانا المنصور بالله من الأسفار في أزمنة البرد والحر شيئا كثيرا، ما يُرَى فيها قط مستعملا جوربا ولا خفا لأجل ذلك إلا في هذه، فقد تَجورَب وتجورب وزراؤه وعظماء أتباعه، ومن هذا الوجه أَخَذَت شبها من ذات الرقاع. ومدة ما بين نهوضه لها وحلوله محل كرسي ملكه بمراكش بعد الظفر بمراده ستة أشهر تنقص خمسة أيام أو ستة، لأنه زاده الله ظفرا وتأييدا، وزاد به ملة الإسلام سعدا سعيدا، نهض لها من حاضرة فاس كما تقدم رابع ذي الحجة، وفي ثامن جمادى الثانية حطت ركابه ببساتين مراكش قرب صلاة المغرب، ودخل لدار الملك منها صبيحة تلك الليلة في الساعة الثامنة من النهار، فليُنظَر بفضل الله العظيم وتأييده العميم جُمِع له هذه المدة فيما بين فتح وتمهيد ودخول في الطاعة والبيعة من قريب وبعيد رغبة ورهبة في مدة قليلة أكثرُ من ستين قبيلة، أليس //413 هذا التجديد؟، ومن يجهل قدر هذا التأييد؟، دانت له به البلاد والعباد، ودخل في طاعته كل صعب الانقياد، فما رجع حتى أنشده لسان الدنيا:

ملكتم أقاليم البلاد فأذعنت لكم رغبة أو رهبة عظماؤها

فشفعه لسان الحال والمقال من الناس خصوصا وعموما ببيت من معناه وهو:

حللت محلا يقصر الطرف دونه ويعجز عنه الطيف أن يتجشَّما

تنبيه: قد وقع من عجيب الاتفاق، وحصول المرجو والحمد لله على غاية الوفاق، أن العبيد مقيد هذا لما وجه ما جمع من هذا البستان (1) للحضرة العلية بالله، حضرة مولانا السلطان بفاس في رجب عام عشرة وثلاثمائة وألف وسيدنا إذ ذاك ممتلئ الجوانح لهذا الفتح العظيم من التدبير والعزم لأجله على المسير، أجرى الله على اللسان والقلم أن رقم على الورقة المكنون فيها ذلك التقييد من محفوظاته ما نصه:

أرى النصر معقودا برايتك الصفرا فسر وافتح الدنيا فأنت بها أحرى

1 وهو ما قد يفسر وجود نسخة من هذا الكتاب مبتورة الآخر بخط المؤلف، لأن الكتاب لم يكتمل إلا بعد وفاة السلطان رحمه الله.

414//

يمينك فيها اليمن واليُسرى في اليسرى فبشرى لمن يرجو الندى منهما بشرى

(1) فكان الأمر بعزة الله ونصره لعبده وما منحه من فضله ويُمنه، ورِفْلِها (2) كما جرى به القلم، وثبت لمولانا عند الله من صِدق القدم، فوافق ذلك الواقعَ، وما لفضل الله من مانع، حتى أنشده الدهر طوعا أو كرها:

نفذ القضاء بما أردتَ كأنه لك كلما أزمعت شيئا أزمعا

وأطاعك الدهر العصي كأنه عبد إذا ناديت لبى مسرعا

أكلتْ مفاخرُك المفاخرَ وانثَنَت عن شأوهِنَّ مَطِي وَصْفِي ظُلَّعا

ولما وقع هذا الاتفاق، وحصل هذا الوفاق، تقوى رجائي في أن الله سيُتبع هذا الفتح بفتح إلهي أكبر منه وأعظم، ولا شك أنه عند هذا الإمام الأعظم هو المقصود الأهم، وذلك وفق ما كان جرى به القلم بقدر الله في تقييد صغير الجرم في رحلتي لزيارة سيادته. وحاصله أخبرني مخبر له غاية الخبرة والاختبار، بما استولى عليه الأكابر من تلك الأقطار، كالتي وراء وجدة، بأن كهانهم تواترت عنهم المقالات التي يصرحون بها للنصارى الذين هناك، وهي قولهم 415// إذا تكامل نسب سلطان الغرب مولاي الحسن كمل مراده فيكم وخافوه، وكلام هذا معناه.

وهذا مشتمل على بشارتين غير خافيتين: الفتح وطول العمر، وليس هذا من تصديق كاهن، إنما هو ناظِر (4) إلى التباشير التي كانت تصدر من جِنّهم ومن أجواف أصنامهم ببعثته ﷺ.

هذا وليعلم الواقف عليه، المعير له نظره ويديه، أن سبب هذا الإسهاب الواقع في مقدمة هذا الباب هو الإحجام عن الإقدام والاقتحام للدخول في الكلام على عظيم هذا الفتح، وما أرى من عجزي له عن الشرح، لما اختص به من كل شأن عظيم كبير، وما منح الله فيه من المواهب اللدنية، والخصائص الربانية، والإصابة في حسن التدبير، "هي المواهب لم أشدد لها زيم". لقد ألجمتني كثرة محاسنه وعجائبه حتى لم أدْرِ بما أبدأ به وأقدم عليه من غرائبه، ومع هذا ليست تحضرني عبارة أرضاها للإفصاح عن علو شأنه، وما وجه إليه صاحبُه من حُسن الآراء، وجودة التدبير أمام ووراء، لأنَّ جلالة شأن مُدبره وتفرُّدَه فيه بالغايات في إبداع المحاسن في الأوائل والأواخر، وجمعَه 416// في ذلك لأشتات المفاخر، تنخفض هِمَّة قولي عن بلوغ أدنى فضائله ومعاليه، وجُهْدُ وصفي يقصر عن أيسر فواضله ومساعيه، لكن ما لا يُدرَك كله لا يُترَك كله،

---

1 على هامش المخطوط ما نصه: وأبطل والحمد لله، يقينُ سيدنا في مولاه، قولَ من سمعنا أنه وقال له: لا خير لك في هذا السفر، وقد اجتمع له فيه كل خير كما يأتي بيانه مفصلا اهـ مؤلفه.

2 رفَلَ رَفْلاً، ورُفولاً، ورَفَلانًا، فهو رافل، وهي رافلة: جَرَّ ذَيَلَهُ وتَبختر في سيره.

3 ظَلَعَ الرَّجُلُ :عرج، غمز في مشيه (يُطلق على الإنسان والحيوان).

4 نَاظِر: جاءت هنا بمعنى مُقارِب. كقولهم: نَاظَرَ سُكَّانُ البِلاَدِ كَذَا مِنَ العَدَدِ، أي قارَبَه.

إذ هو سادس الفتوح العظام، التي كأنها في فم الدنيا ابتسام، وهذا الفتح أعظمها باتفاق، وأكبرها على الإطلاق، إذ لم يتقدم له نظير فيما علمنا وسمعنا في هذا القرن الذي مضى ولا في الذي قبله ولا في الذي قبل ذلك، ويعترف بهذا من سبر ما هنالك.

وحاصله أنه لما تم في باطن السلطان تدبير أمره، ورجع من الغيبة فيه سديد ونظره وفكره، بعدما مدَّت أيدي أياديه في جميع الآفاق، سيما الأفق الذي هو صوب قصده على سبيل العموم والخصوص والإطلاق، أزمع الشخوص عن محل كرسي ملكه بالحضرة الفاسية، ذات الأسرار المستمرة الواسعة الفاشية، في رابع عشر ذي الحجة متم سنة العشر سنين بعد الألف وثلاثمائة من الهجرة النبوية، فنهض منها بعساكره وجنوده، وراياته وبنوده، فتبعته المواكب والمضارب، والنجائب والجنائب، والكتائب والجنود، وضُربت خلفه الطبول ونشرت على رأسه الرايات والبنود، فدرأ //417 بتلك الجنود في نحور البيد بجياد الخيل وما عليها من الأبطال، وما حولها من كماة الرجال، إلى أن خيم الجيش يوم الظعن بعين السمار (1) كي يتلاحق الجيش وآخر النهار، فاتخذ تلك المرحلة لتلاحق الخيل كالمضمار، فصار إليها ثلاث ساعات مگانية (2)، فبات بها وظعن منها صبيحة اليوم الثاني، حتى خيم الجيش بعد مسيرة ساعتين وثلاثين دقيقة في مدينة صفرو، متيمنا بما هنالك من أولياء الله الصالحين كما هو دأبه وهجيراه من كونه لا تشغله مهمات الأمور ولا تنسيه سطوته، وإن بلغت ما بلغت، التماس الخير من عباد الله المفلحين الأحياء والميتين، وليتكامل الجيش بعد أخذ أهبته هنالك، ويحيط به نظر تدبره بعد ذلك، واقتضت سياسته التي هي أرق من النسيم السَّحَري، وأحسن من الوشي التستري، التي أذعن لها أهل المغرب والمشرق، وظهر فيها كالشمس الطالعة والضياء المشرق، التخييمَ بجيشه بذلك الموضع أياما عدة، وأرحل جيش رأيه ونظره كما تقدم، يمهد أمامه قبل ذلك بمدة، لأنه من أقوى ما جعله للأمر عُدة، فقد اتخذه جليسا وسميرا، وقدَّمه //418 وزيرا، معينا ومشيرا، يوجهه إلى كل مهم فيصلا وأميرا، فلا تُقدِم جيوشه وعساكره الحبيسة على أفق من الآفاق إلا وجيش فكره ونظره يقدمها، ويمهد أمامها، حتى استوى به على الآفاق من غير سيف ولا دم مهراق تعففا منه على الدماء، ولتضلعه بمعرفة كلام الحكماء إذ يقولون: "الرأي سيف العقل"، ولَمَّا كان أمضى السيوف ما بُولغ في إرهاف حَدِّه وأُجِيد صقلُه، كان أنجحَ الآراء ما كثُر امتحانه وأُطيلَ تأمُّله، ومنها: "أفضل الرأي ما أجادت الفِكرة نَقده، وأحكَمت الرؤية عقدَه" اهـ فصار بذلك حيثما وجه نظره وأتبعه جنده وعسكره، اقتنص الرعب منه كل قلب وفؤاد، وكلُّ مَن أَمَّه ببعض وجهتِه يُسلب النومَ ولذة السُّهاد، لعلمه أن لا محيص ولا مناص من أن ينال فيه المراد، لما رأوا وسمعوا من متانة الرأي والتدبير وإحكام الاقتناص مما ليس قبلُ بمعتاد، يُسلبون الهُجوع، ويسير إلى قلوبهم الهلوع، وإنه لجدير أن يُنشد فيه:

---

1 في المخطوط "عين المسمار"، والمعروف حاليا عين السمار، أو عين اسمار، فلعل "المسمار" هو أصل الكلمة ما لم يكن تصحيفا. وعين السمار هو دُوَّار يقع بجماعة أغبالو أقرار، إقليم صفرو، جهة فاس مكناس في المملكة المغربية.

2 بكاف معقودة، جريا على المعهود في اللسان المغربي الدارج من تسمية جهاز التوقيت "بالماگنة".

قد استقصيتَ من سَلب فرد لهم من السَّلب الهُجوعا

419//

إذا لم تُسِر جيشا إليهم أسرت إلى قلوبهم الهُلُوعا
رضوا بك كالرضى بالشيب قهرا وقد وخط النواصي والفروعا
لو استبدلت ذهنك من حسام قَدَدتَ به المغَافِر والدروعا
لو استفرغت جهدك في قتال أتيت به على الدنيا جميعا
سموت بهمة تسموه فتسمو فما تُلفى بمرتبة قنوعا

أنشد الله القوي العزيز، كل من يقف على هذا من ذوي الإنصاف والتمييز، هل يعلم مِن أحد في عصره وفي الأعصر التي قبله يستحق هذا كاستحقاقه إياه، وهل يعلم الآن من يطرد فيه هذا البيت الأخير كاطراده فيه، إذ لا يزال في سمو الهمة ولا يلفى قانعا بمرتبة ارتقاها، ولعمري فيما أراني الله لولا شفقته على الناس من طول السفر، لو شاء أن تبلغ من السودان أقصى ما بلغه جيش مولاي أحمد الذهبي لبلغه بدون قتال، فإن جيش الذهبي ما بلغه إلا بعد اقتحامات عظيمة، والتحامات هائلة جسيمة، ولو شاء صاحب هذا البستان لدوخ تلك الأرضين وما دونها بلا قتال أصلا، غير أن الفائد الآن في ذلك قليل، //420 والعائد منه ليس بجليل، وقد يدرك بالاستقراء بدون امتراء كل من فتح الله بصيرته وعلم أن نور النبي ﷺ ليس له حد معتاد، ولا ينقطع بل لا يزال في الازدياد، وأنه جائزُ السريان في أمته، خصوصا صالحي أهل بيته، أن قد لاح سر نُصِرتُ بالرعب مسيرة شهر، وبذلك السر صار يسعى أمام هذا الإمام النصر، فافهم الدليل واعرف له المجمل بفهمٍ سليم غير عليل.

وحيث تكامل بظاهر صفرو الجيش الذي هو بعزة الله منصور، وعليه من علامات السعادة والنصر وأمارات الظفر لواء منشور، ومقدمته تأييد الله ورعايته وعزه، وجناحاه الحفظ والظفر، وقلبه النصر، ولب قلبه لواء الدين المتين، المعقود بيد السلطان صاحب هذا البستان العقد المكين، أقام هناك بضعة أيام متواضعا لله، متأدبا في زيارته لأولياء الله، آخذا في عرض الجيوش والعساكر، واعتماده إنما هو على المولى الناصر، ليس له اعتماد في المقام والمسير إلا عليه، كما وفقه في ذلك لعجيب التدبير، ومنحه في الابتداء والأثناء والانتهاء غاية من التيسير، حتى صار //421 يُنشده لسانه كل من بذلك خبير:

رأيك ما تنقضي عجائبه كالبحر حدث عنه ولا حرج

وأخبر أدام الله تأييده، بعدما تم له الغرض بالوصول، وحصَل من الظفر والفتح غاية القصد المأمول، أن الأهم لديه بذلك المسمى الذي إليه مَطلب القصدِ والرُّجعى، إذ هو بيت القصيد، ونهاية المقصد المصيد، أمران كما أوضح بعد ذلك

بكتاب شريف، بهي الطلعة بالنور المنيف، نوَّر ذلك الكتاب ما كان بالأغبَاب (1) داجِيا، وحَسُن مشافِهِا عن كل أحد ومناجِيا، واسترد إلى القلوب نشاطها، وإلى الصدور انشراحها وانبساطها، وإلى الوجوه بهاءها، وأجرى في صفحات الوجنات ماءها، وعند شدة الظمأ يعذب الماء، وعند مشقة السهر وشُقَّة السفر يطيب الإغفاء.

أحد الأمرين، الذي هو من جملة ما ينبغي أن تُشد إليه الرحلة بدون مين، ومن أفضل ما تُستعمل فيه المطي والقدم، ما طال تشوُّفه له من زيارة سلفه الصالح ذوي الفضل والكرم، كيف لا وهم صفوة إبريز السلسلة النبوية، وطيب فرع الشجرة //422 المصطفوية، وهم مذ كانوا، مع كونهم في عقد الشرف، هم يتيمة الوسط، ما تغير نسبهم ولا اختلط، وزادوا أن كانوا علماء عاملين، وأولياء صالحين، وجوههم للصباحة، وألسنتهم للفصاحة، وأيديهم للسماحة، وعقولهم للرجاحة.

وسيف الدولة مولانا السلطان، صاحب هذا البستان، نتيجه عملهم الصالح، وثمرت غرسهم الناجح، فهو ياقوتة قلادتهم، الزائد في معنى سيادتهم، التي هي من نور آل البيت السمعاني، وشرفه الصمداني، فهو منهم كعينهم الباصرة، ويدهم الناصرة، إليه انتهت رياستهم، وبه تلألأت أنوار سيادتهم، في شرق الأرض وغربها، وشمالها وجنوبها. وفي الحكم القديمة المتواترة، الصحيحة المنتشرة، قولهم: "إن أَبرَّ الملوك من تم به سعي سلفه، وأعَقَّهُم من انقطع سعيهم عنده". اهـ

هذا وقد أبرد غلته، ونال بغيته، بما كان طال اهتمامه به من جمع الفروع والأصول، واغتنم بناجح سعيه لذة الوصول، فأينعت الأغصان، وظهر العمل بحديث "حب الوطن من الإيمان"، فَبَلَّ الرَّحِمَ بِبِلالِها (2)، من الخَلَف، ونال السعادة بزيارة السلف، خصوصا //423 الطود الأكبر والعلَمَ المنِيف، أبا الحسن مولانا عليا الشريف.

وقال مولانا المؤيد بالله في كتابه المارِّ آنفا: حتى يجتمع الفرع بالأصول ويغتنم لذة المشاهدة والوصول.. الخ، وعليه فنقول: كل ذلك والحمد لله حصل، والرحِمَ قد وَصل، وبذلك غرس للدولة بل للملة شجرة مباركة متزايدة النَّماء، أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أُكلها كل حين بإذن ربها.

ومن السر العجيب في ذلك الغريب الاتفاق، الذي يُشاهد فيه سر الله باتفاق، أن القطر الفيلالي بورك ابتداء بالحسن، وبورك الآن بالحسن، وذلك أن سبب وضع السر فيه وإثمار نخيله واجتماع كلمة أهله، مجيء أول هؤلاء الشرفاء له وهو مولاي الحسن الشريف من الينبوع لَمَّا طلبه أهل هذا القطر الفيلالي لأبيه، في قضية شهيرة، وكانت نخيلهم لا تثمر، فاستشاره والده ففوض النظر في ذلك إليه، ومن جملة ما اختبره به قوله له: ما تفعله بمن أحسن إليك؟ فقال: أكافئه على إحسانه، ثم قال له: ومن أساء إليك، فقال له أحسن إليه حتى يغلب إحساني إساءته، وهذا الخلق الحسن //424 مما اتفق فيه مولاي الحسن الأول ومولاي الحسن هذا. وهذا من تمام عجيب الاتفاق. فأمره بالتوجه مع الراغبين، فلما

---

1 كذا في المخطوط.

2 أي وصلها بصلتها. والبِلال بمعنى البلل وهو النداوة ، وأطلق ذلك على الصلة كما أطلق اليبس على القطيعة، لأن النداوة من شأنها تجميع ما يحصل فيها وتأليفه، بخلاف اليبس فمن شأنه التفريق.

حل بذلك القطر وهو أول من حل به من تلك العصابة النبوية، أثمر النخيل، وبسط الله فيها كل خير جزيل، وحصل لأهلها الائتلاف الجميل، ثم تسلسلت فيها تلك السلسلة لا قطعها الله.

وأما الطود الشامخ، ذو النور والفضل الباذخ، مولانا علي الشريف، فقد نال ملكي الدنيا والآخرة بزهده في ملك الدنيا تفرغا لملك الآخرة.

ثم شفع الله سر مولانا الحسن الشريف بسر من مثله، جاء على شاكلته وشكله، صاحبُه اسمُه كاسِمِه، وكأنه ما جاء إلا لإحياء رسمه، فهو جدير بأن يُفَيِّضَ الله ببركته من ذلك القطر عُبابَه، حيث وطئت قدم الملك بن الملوك الولي سليل الأولياء ترابَه.

وثاني الأمرين إعادة النظر في أهالي الآفاق التي كان فَتحَ من قبائل البربر، كقبائل آيت يَفْلْمَان ومن زاد عليها من حواليها لما تعاطوا من كل سبب، استوجبوا به النكال والأدب. وهذا الذي ذكر هو درجة القصد 425// الأولى من مراقي همته، إلا أن همته لا تتناهى في السمو، ولا تتقاصر في زيادة الترقي والعلو، فَعَيْنُ بصيرتها ناظرة لما وراء ذلك، غير مقتصرة على ما هنالك، كما سيتبين إن شاء الله، ولِما تقدم مما هو من مطرداته.

سموتَ بهمة تسموا فتسموا   فما تُلفى بمرتبة قنوعا

وقد أخبر في شريف كتابه، وسني خطابه، أنه كان نظر إلى تلك القبائل بعين الاستئلاف وعدم التنفير، كي لا يحصل لهم من أنفسهم وازع ونكير، إجراءً على ما جبله الله سبحانه عليه من الرأفة والإشفاق، والتجاوز عن موجب الإمئاق (1) إلى قوله أيده الله: "فتعين حينئذ مقابلتهم بالجد والاجتهاد، وإرهاقهم بما يقمعهم عن سلوك مسالك البغي والعناد" اهـ مع أنه أعلم بقول الحكماء: ترك نكير الصغائر مدعاة للكبائر، فإن أول نشوز المرأة كلمة سومحت بها، وأول حَرَنِ الدابة حَيدَة سُومحت عليها. لكن حلمه ورأفته وشفقته فأمْرٌ أشهر عند الخاص والعام، من الشمس الضَّاحية، في السماء الصَّاحِية، وقد بينا من ذلك في صدر هذا 426// الكتاب، ما تحار فيه الألباب، ويقصر عن وصفه الخطاب، وأنه أحق بقول القائل منه حيث قال: "لو علم الناس ما لنا من اللذة في العفو لتقربوا إلينا بالجرائم"، فليُنظر هناك. وما حمل تلك القبائل ومن سلك مسلكهم من غيرهم ممن ذكر من ارتكاب الجرائم سوى جهلِهم بكون هذا السلطان، صاحب هذا البستان، أحق من ينشد فيه:

قل للألى ساسوا الورى وتقدموا   قدما هلمَّ شاهدوا المتأخرا
تجدوه أوسع في السياسة منكم   صدرا وأحمد في العواقب مصدرا
إن كان رأي شاوروه أحنافا   أو كان بأس نازلوا عنترا

---

1 وفي الحديث "ما لم تضمروا الإمئاق" يعني الغيظ والبكاء مما يلزمكم من الصدقة، وقيل أراد به الغدر والنكث، ومؤق العين طرفها مما يلي الأنف، والجمع آماق وأمئاق. (من مختار الصحاح).

ومن المعلوم كون المشبه قد يكون أقوى من المشبه به فلا انتقاص في التشبيه.
وعند ذلك التخييم بمدينة صفرو أخذ يجهز جيوشه المتجهة على مقتضى ما جهزه وشيعه من جند أفكاره، وتدبيرات آرائه وإنظاره، قبل أن يأخذ في أظعانه وأسفاره.

تساوى له سر المعاني وجهرها ومعضِلها باد لديه مفصل

ومن الحكم قولهم: "من غرس العلم اجتنى النباهة، ومن غرس الفكرة اجتنى الحكمة" اهـ
ولما بعث سراياه إلى حيث وجَّه قبلها 427// آراءه، أنجح عمله وتم أمَله.

لم يَدَع بالذكاء والذهن شيئا في ضمير الغيوب إلا أثاره
لا ولا موضعا من الأرض إلا كان بالرأي مدركا أقطاره
زاده الله بسطة وكفاه خوفه من زمانه وحذاره

هذا ولما أحاط بالتضييق بهم سديد فكره، وحديد نظره، أخذ يردف ذلك بالجيوش لينزلها من شاسع بلادهم في مضائقها، للأخذ لها بمخانقها، أخبر أدام الله عليه أمداده، ونصر جيشه وكثر أعداده، أنه أعمل الفكر وأجال النظر فيما هو أقرب لحصول التضييق بهم، وتُجنى به ثمرة الظفر لجموعهم، فأنتج النظر مَخنَقهم الأعظم، وركنهم الأهم، الذي النزول به عندهم أمر مُدلَهِمٌّ، لأنه الذي يستندون عليه، ويأوون في الحادثات المهمات إليه، وهو مأمنهم الأنيس، إنما هو المحل المسمى بغريس، ومن هذا وشبهه يتيقن أنه زاد الله في معناه، لِتزدادَ توسعة رعاياه، أضافَ إلى ما جمع من علم العلماء، ما اجتمع له من حكم الحكماء، التي منها قول القائل، من الحكماء الأوائل: "إذا طلبت عدوك بالقوة فلا تَقدمنَّ 428// عليه حتى تعلم ضعفه عنك، وإذا طلبته بالمكيدة فلا يعظمن أمره عندك ولو كان عظيما".
فكان أولَ من انتخَبَ للأمر بالنهوض والتوجه لذلك الموضع نجلُه وشبله الحيي السخي، الذي جُبل على ما اجتمع فيه مما افترق في غيره، مما هو من مفاخر الملوك، ومحاسن أبناء الملوك، من كثرة الحياء، وشدة السخاء، وناهيك بهما من خصلتين عند الله عظمتين، ولو لم يكن إلا قوله ﷺ: "دعه فإن الحياء لا يأتي إلا بخير"، وما قيل: "إن الله يأخذ بيد السخي حيثما عثر"، وقولهم: "كُلُّ عيبٍ الكَرَمُ يغطيه"، وقصد تصحيفه من قال: "كل عِنب الكرم يُعطيه"، لكان كافيا. وهو مولانا مُحَّد الذي قدَّمنا بالوقوف مع ما لا يتخلف من القواعد، ومع القرائن والضابط ومحكم العوائد، حسبما تقدم في خلافة سيدنا المؤيد بالله، عند الكلام والتعرض لذكر الوليمة العظيمة الفخيمة، أنه لابد أن ينجب (1)، فليراجع ذلك ثمة. ومن يقيم له وزنا حالة الصبا بميزان كهول الملوك أغرب ولم ينصفه.

1 كذا تبدو في المخطوط.

وقد أُمِر بالنهوض فنهض في عاشر ذي الحجة الحرام متم عشر سنين بعد ثلاثمائة وألف بجيوش 429// الرعية والحوزية من عرب وعجم، أعلامها عن يمينه وشماله وخلف وأمام، وراياته تخفق فيها الرياح، وعليها أمارات السعادة والنجاح، في مرورها وارتفاعها كأنها قطع السحاب، رؤيتها مغنية عن غيرها في تحصيل الإرهاب، يتخلل بذلك الجيش من خيل ورجال، ما بين الحوز وسوس من الجبال، وذلك من بين جبال إيمِي نْتانوت حتى نزل على سهل سوس من مَسْك الأوطان، وهو الجبل المشرف على وادي سوس المسمى عندهم، أي ذلك الجبل، بالبربرية أَمْسَكْ رُوضْ، والمخايل كلها موذنة بالسعادة، وظهور اليمن والتيسير ببركة السلطان في الزيادة، فتلقته قبائل سوس بالفرح والطاعة، قدر الاستطاعة، فازداد الجيش نشاطا، وقوة وانبساطا، بما أفرغت عليهم قبائل سوس من تكاثر الخيرات، وأنواع المسرات. فتوجه الجيش لمدينة رودانة، حيث رقص السعد وهز معاطفَه وأردانَه (1)، وخيم بها أياما وهو في غاية الخصب، حتى اجتمعت لديه قبائل سوس الأقصى، وليس منها من تقاعس واستعصى، فنهض حينئذ وتقدم يقدمها يجر بحر خميس 430// يؤم المحل الذي أمر بحلوله المسمى بغريس، وما مر على قبيلة وقطر من تلك الآفاق كلها إلى غريس إلا أذعنت ولبَّت، وفرحت واطمأنت. وقد انحشد إليه زيادة في التقوية قبائلُ آيت عَطَّا الحوزية، فصار بالجميع حتى نزل حيث صدر له الأمر الشريف، وجميع من مر عليه سميع مطيع. وكان السلطان أيده الله اتبع ذلك على حسب ما كان دبر قبلُ بتوجيه خديمَه الأنصح الحاج مسعود الراشدي (2)، خدَّمه على جيش آخر من السبعيات المتيمن فيها بالسبع المثاني، المستخرجة من الجيش الثماني، معظم ذلك الجيش آيت عطا الغربية، ونهايك بتدبيرٍ أدخلَهم في غاية الطاعة والخدمة، فَيَالَهُ من تدبير ويالها من مزية، لم يحتج فيها لتكلف بل لمجرد التوجه والنية، وصفاء السريرة مع الله وحسن الطوية. وصدر له الأمر الشريف بالنزول بهم تتميما للتدبير بالموضع المسمى بقصر السوق، ولما توجه له ونزل به خامر الجزع أهل العصيان والفسوق، هذا كله ينشده لسان حاله، وعنوان زمانه، أي لمولانا السلطان.

431//

ولقد تخوفك العدو بجهده   لو كان يقدر أن يرد مُقدَّرا

إن أنت لم تبعث إليه ضُمرا   جُردا بعثت إليه كيدا مضمرا

ولما تم ذلك الغرض، واستقصي تدبير تقديره المفترض، رجع لتتميم ما كان دبَّر، ولهز سيف فكره الذي كان شهَّر، فأنهض ابن مُحَمَّد الشريف، ذا التؤدة وحسن السمت والثبات، الذي يكسر الوَثبات، الشريفَ العَقولَ اللبيب، الكتومَ للأسرار النصوحَ الأديب، الذي ألحقَه السلطان قديما لِصدقِه رِداءَ اختصاصه، وأكرمه باتخاده من أوليائه ونصحائه، أبا

---

1 الرُّدن: مقدّم كمّ القميص، وقيل: هو أَسفله، وقيل: هو الكمّ كله والجمع أَرْدانٌ وأَرْدِنَة.

2 هو أول قائد يعينه الحسن الأول على مدينة تيزنيت وذلك عام 1883م.

عبد الله سيدي مُحَمَّد ابن الشريف المنيف، العالم العلامة العفيف، مولاي مُحَمَّد الأمراني، وجهزه وقدمه على سرية من جمهور عسكره، وشفعه بجند آخر تقوية لإرهابه وتيسير ظفره، من قبائل ذوي منيع، ومن كان في جوارهم من قبائل الشرگ (1) تتميما للتأسيس وحسن الصنيع، وأمره أن يعسكر ويخيم بهم بالموضع المسمى بوذنيب.

ثم رجع زاده الله من حسن التأييد على التأبيد، لاستفراغ وعاء ضميره، مما كان جَيَّش وجمع فيه من حسن تدبيره، فأمر بإنهاض مُحَمَّد وصنو //432 أبيه الشريف، ذي المنصب العالي والقدر المنيف، الذي كان من أول أمره عند السلطان أحد الأفاضل المشار إليهم، وفرد الأماثل المعتمد في الأمور عليهم، مولاي الأمين بن مولانا المقدس بالله سيدنا ومولانا عبد الرحمن بن هشام، مع تهيئة أمره وشد أزره بسرية من العسكر وافرة، وحملة من القبائل فاخرة، منهم قبائل آيت يوسي وبني سادن وقبائل الاحياينة وأعراب سايس، فنهض بهم وهو لأمرهم ضابط وسائس حتى حل بهم في المحل الذي أمر بتخييمهم فيه، وهو المعروف بالخوضات (2).

ثم ثنى عنان سياسته وعطف بجواد همته، على تنفيذ ما كان اجتمع في فسيح صدره من نتائج فكره، فاستخرج من ذلك أن أمر بتجهيز سرية أخرى، بين الكبرى والصغرى، حشد فيها من قبائل بني مكيلد، وجعل رئيسها ومقدمها وقائدها ابن عمه الشريف الأرضى، الأنجد المرتضى، سليل الأشراف المهتدين، مولاي الطيب بن زين العابدين، وأمره بالمسير، حتى يخيم بالموضع المسمى بأنزگمير، من بلد آيت عياش، ثم لا يبرح منه إلا بأمر خاص، فنادى حال كل سرية // 433 على من صبحته أو بيتته "لا مناص لا مناص"، ولله همة دبرت هذا وما منح الله لصاحبها من مواهب الاختصاص، وما خصه به من سني المناقب والرأي البصير بالعواقب.

ثم زاد، زاده الله من عزة الملك وبسطة العلم، وفضل الحكمة وفصل الخطاب وإصابة الحكم، أن سَدَّس تلك الجيوش والسرايا، ليكمل نيل الغرض وحصول المزايا، ببعث جيش آخر جمهورُه وتاجُه ورِتاجُه قبائلُ سجلماسة، التي لم تزل ولا تزال منغمسة، في فيض الفضل ولكل خير متطاولة ومماسة، جعل رئيسها وإمامها الذي أسلم إليه عنانها وزمامها الشريف السالك، إلى الخيرات دائما أحسن المسالك، ابن عمه مولاي عبد المالك، المعروف بابن زَيزُون. ثم أمره أن لا يكون لخيله وركابه إناخة ولا لرجاله انحطاط، مع التعالي في الأمر وسمو الهمة وعدم الانحطاط، إلا بالبلد المسماة بوطاط. ثم قدح زناد الرأي السديد المحمود، الذي لو اقتدح بالنبع لأورى وسعده في طالع السعود، فأورى له وأراه ما رأى أن سبّع تلك السرايا والجنود بالجيش السابع الذي عقد رايته لابن عمه //434 الشريف، ذي النسب الباذخ الشهير، سيدي مُحَمَّد بن مولاي الكبير، فتقدمه وعليه ظلة من بركة السلطان، من كتاب الأمن والأمان، جامعا له الجيش من قبائل آيت وِرَّا وآيت سخمان.

---

1 الشرگ: بكاف معقودة، أو قبائل شراگة بمعنى سكان شرق المغرب، وكانت تتكون في غالبيتها من قبائل عربية (لاسيما قبائل أشجع وبني عامر ورِياح...) إلى جانب أقلية من قبائل البربر.

2 الخوضات: كذا تبدو في المخطوط، ولم نتمكن من ضبطها.

انظر إلى هذا التقسيم العجيب، والتصنيع الغريب، المتيمن فيه بالسبع المثاني، الذي لم يسبق بمماثل ولا ثاني، كأنه نصره الله وأعانه قصد ما ذكره الأئمة الأفاضل، والسلف المقتدى بهم الأماثل، مما في السبعيات من السر، وما يُسندون من ذلك لأهل الفضل من ذوي الآثار، والاقتداء بالنبي المختار، فللسبعيات فضل كثير، وسر كبير شهير، يستعمل عددها في الرُّقَى والاستخارات وبعض الأذكار، وإنه لإلهام من الله وتأييد وتوفيق، أنتجه العلم وذكاء العقل وحدة الفهم المركب على التحقيق.

سئل الحرث بن أسد البصري الزاهد المشهور الجامع بين علمي الظاهر والباطن، وكان معاصرا للجنيد ولأحمد بن حنبل رضي الله عن الجميع، عن العقل ما هو؟ فقال: نور الغريزة مع التجارب، يزيد ويتقوى بالعِلم والحِلم اه وقد اجتمعت هذه الثلاثة لهذا //435 الإمام، إلى غاية الكمال ونهاية التمام.

ولما كمل هذا الترتيب على هذا النمط العجيب الغريب، كيف لا وقد نظمه في سلك هذا الأسلوب إمام اختص بقريحة وقادة وبصيرة نفاذة، والبديهة المعجزة والبديعة (1) المطرزة، والفضل الذي ما سمع في الأوائل ولا طمع فيه الأواخر، فلو أدركه الأوائل لتعلقوا بغباره أو جَروا في مضماره، فهو كالشريعة المحمدية التي نَسخت الشرائع، ورَسخَت بها الصنائع، فيخترع مخبآت الأفكار، ويفترع من عويصات الأمور ومخدرات المسائل الأبكار، ويطلع الأنوار، ويبدع الأزهار والأسرار، ضابط للملك بآرائه، رابط للسلك بَلآَلِئه (2)

فمن كان أعشى جاهلا   فإن أمير المؤمنين خبير

ولا يجهل هذا إلا جاهل غبي، أو ملحد منكر غير حيي، إذ قد أعطي من التأييد والتوفيق، ما بدهائه يليق،

بصير بأعقاب الأمور كأنما   يرى بصواب الظن ما هو
عليم بأخبار الخطوب بِظَنه   كأن له في اليوم عينا على

//436 قد جمع الله سبحانه له بين التوفيق وإصابة الآراء وشدة الحزم والحلم ونور البصيرة وأيّ نور، حتى كأنه يشاهد غيب الأمور، ومسدد في كل الأفعال، مصيب في جميع الأقوال (3)، قام له ذلك مقام المدافعة بأبطال الرجال.

كأن آراءه والحزم يتبعها   تريد كل خفي وهو إعلان

---

1 كلمة البديعة كتبت في المخطوط "البدبعة". والانتقال من الوصف بالنكرة إلى الوصف بالمعرفة تركناه كما هو في المخطوط للأمانة.

2 كُتِبَت في المخطوط "بلئَاله"، وهي جمع لؤلؤة.

3 قال الإمام مالك رحمه الله: "كل يؤخذ من قوله ويرد، إلا صاحب هذا القبر"، أي الرسول ﷺ.

ما غاب عن عينه فالقلب		يكلؤه وإن تَنَم عينه فالقلبُ

ولما تم تقسيم جيش الفتح الرباني، المتيمن فيه بالسبعيات والسبع المثاني، وأخذت مراكزها السرايا، وتبسم ثغر النصر عن شنب الثنايا، وبشرت الاستخارة وحُسن الشارة، بما أغنى عن الاستشارة، علم أيده الله، لحسن ظنه بالله، أن السعادة فوضت إليه مقاليدها، وأنجزت به الأيام للأنام مواعيدها، وعند ذلك نهض من مدينة صفرو بعزة الله وطوله، معتمدا على تأييده وقوته وحوله، نهوض معتز بالله الذي هو به قوي الجناح، جاعلا نصب عينيه لاعتماده عليه الظفر والنجاح، بعدما أقام هناك أياما (....) (1) فأناخ يوم النهوض منها بالخيل والركاب 437// بالموضع المسمى بعيون (الاصناف) (2) من بلد آيت يوسي.

ثم نهض من تلك الدار، وقد استوى لدى صميم عزمه السهول والأوعار، دَارِئاً بجيشه السعيد الميمون الناصية والغرة في نحور تلك الجبال والسهول، لا ينثني له عزم ولا لصارم همته نُبُو ولا فلول. ومن حكم الحكماء التي غلبته طبيعته على العض عليها بالنواجد قولهم: "ما أحرى المَلُول، بأن يُحرَم المأمول". إلى أن خيم منها بالموضع المسمى بِتَكْنَانَايْتْ، ومنه نهض إلى الموضع المسمى بتَغْرُوتْ (3)، ثم نهض منه إلى الموضع المسمى بُولمال (4)، ولما نهض منه حط رحل جيشه بالمحل المعروف عندهم بالانجيل (5) ومنه رحل فحط رحيله بالمحل المسمى تِجّام، ثم لما رحل منه الجيش حتى نزل بسَهْب الرّوَا، ثم نصبت الأعلام عند الرحيل منه وسار الجيش حتى نزل بالموضع المسمى بولعجول، منه نصب أعلامه أيضا وراح، إلى أن وصل بوحَفص ففيه نزل واستراح، وهو في كل نهوض ورحيل إنما يمشي الهويناء، إذ هو بذلك مُمهِّد لا يمشي إلا بنظر التمهيد، إذ من جملة المقصد الأهم توطين 438// أمر تلك الرعايا، على وجه يكمل به الاطمئنان وتتم به المزايا، ولذلك اتخذ المهل، ملاحظا فيه ما جرى به المثل، الذي هو قولهم: "الرشف أنفع"، يضرب لترك العجلة، ومعناه أنه أقطع للعطش، واستعمل ذلك التمهل بجيشه، لقوه ثباته وربط جأشه، يقول له إعلان تؤدته وإعلاء همته:

على مهل ففي الأحوال ريث		أتخشى أن تضام وأنت ليث

---

1 بياض بالمخطوط، ولم يُشِر الناسخ إلى وجوده في الأصل كعادته.

2 تقرأ هنا "الاصناب" وفي موضع لاحق الاصناف بدون نقطة، لذلك رجحنا أن يكون الحرف الأخير هو الفاء لا القاف الذي يُرسم غالبا في آخر الكلمة بدون نقطة. غير أننا لم نتمكن من ضبط هذه الكلمة.

3 في المخطوط "تغزوت" بالزاي، وكتبت كذلك في موضع لاحق من المخطوط، لكن المعروف حاليا هو "تغروت" بالراء.

4 هو ما يعرف حاليا باسم "بولمان".

5 كذا في المخطوط، وهي أنجيل: قرية تنتمي لإقليم بولمان جنوبي فاس.

وبالجملة، فجملة مراحل هذا الجيش السعيد، على ما اقتضت سياسة التطلع والاختبار والتتميم للفتح والتمهيد، وذلك من باب محروسة فاس إلى الينبوع الثاني من ينبوعي الأشراف، من غير تردد ولا خلاف، وهو القصر الفيلالي، حتى أوردَ جيشه العِراك بموضع المعَارَكَة على طريق أوفوس إحدى وثلاثون مرحلة، أكثرها سيرا هذه المرحلة الأخيرة، خيم فيها ببلدة المعاركة، سار فيها الجيش سِت ساعات مكَانية، وأخرى سار فيها خمس ساعات، والباقي كله دون ذلك، فمنه الساعة الواحدة ومنه الاثنتان إلى أربع، كما سيبين إن شاء الله مفصلا مرحلة مرحلة //439 وجملة ما في ذلك المسير كله من الساعات ثلاث وتسعون وثُلثُ ساعة وثلاث دقائق. وبهذا تبين تساوي المسافتين، بدون تخمين ولا مين، أعني المسافة التي بين فاس ومراكش، والمسافه التي بين فاس وتافيلالت، إذ أخبرني الطود الراسي، السيد الكبير الفاسي، رحمه الله، خبر تحقيق، أنه حقق ما بين فاس ومراكش على جهة الضبط والتدقيق، فألفاها سير اثنين وثمانين ساعة بالسير الوسط، لا بالبطيء ولا بالقَحْص (1) والشطط، كما أخبرني من اختبر، وكرر في ذلك السفر، أن قدر ذلك ما بين تافيلالت وتونس (2)، وما بين تافيلالت وفِجيج، وما بين تافيلالت وبين إقليم اتوات (3) لعله يزيد عليها بمسافة يوم واحد، وقريب من ذلك ما بين تافيلالت ووادي نون بأقصى سوس الأقصى.

فبان بهذا أنه صار وسط المملكة الذي هو قطب الدائرة، ونقطتها النائرة، التي صارت أقطار المملكة بها دائرة، هو هذا الصقع الفلالي الذي هو مركز الأشراف وينبوع الشرف، إذ هو الأرض التي ما طابت أولا إلا ببركة مولانا الحسن الشريف، جد هؤلاء الأشراف وكل من بعده منهم //450 ([4]) من جملة حسناته، إذ الولد حسنة من حسنات أبيه.

ثم تجدد طيبها وتَضَوَّعَ مِسك ختامها وفاح، وكمل ابتهاج أرجائها وتم لأهلها الفلاح والنجاح، حيث سَمِيُّهُ وسَلِيلُه، بَرَّكَ فيها ومشت في أرجائها أقدامُه ورحيله، وهو مولانا الحسن المنصور المؤيد بالله، المرجو من فضل مولانا أن تكون بركتُه فيها على أثر بركة جده ﷺ، حيث مشى وبرَّكَ في حائط جابر بن عبد الله، وما ذلك على الله عزيز، إذ تأييده بالله القوي العزيز، الذي بسط له يد الملك على جميع تلك الآفاق، التي ذكرنا أنها دائرة بقطبها الفيلالي على سبيل العموم والشمول والإطلاق، من غير إعمال سيف ولا دم مهراق. فقد امتد فيها والحمد لله ملكه، وعم وانتشر، ولم يبتكر الملوك قبله من ذلك ما ابتكر، بل ولا قريب منه. كيف وقد زاد على مركز الملك المعهود لهم المؤتلف، خلفا عن سلف، منذ قرون نحوا من تسعة أعشاره، كلها عمَّها استيلاء يده، وبلوغ سطوته وآثاره. فتمهدت له كلها بعد طول الإياس منها لغيره كل التمهيد، وهذا من جملة الدلائل والبراهين //451 التي أوجبت عين اليقين، أن هذا من نتائج سر التجديد.

---

1 - قَحَصَ، كمنع: مَرَّ مرّاً سريعاً، وسَبَقَنِي قَحْصاً، أي: عَدْواً. انظر القاموس المحيط ص626 طبعة الرسالة.

2 كذا في المخطوط.

3 توات: إقليم يقع في بالجنوب الغربي من الصحراء الجزائرية.

4 كتب الناسخ 450 عوض 440 خطأً ثم تسلسل الترقيم

بيان ذلك على التقريب والتحقيق، مع ملاحظة النصوص والقواعد وما يُنظر إليه فيها من التوفيق، أن التجديد منه ما يكون ظاهريا ومنه ما يكون باطنيا، ومنه ما تظهر نتائجه للعموم، وتناله الفهوم، ومنه ما سره مكتوم، لا يظهر إلا لخصوص الخصوص، وأما كونه يكون عند ابتداء القرون فقد تواترت به النصوص.

وهذا الإمام، الذي ألقت إليه خلافه الله في أرضه الزمام، فإلقاؤُها الرسن إليه وقع في حيز إبان التجديد، من غير خلف ولا ترديد، وطاوعته بحسن الانقياد وكمال التمهيد، حتى فيما كان يُجزم أنه لا يدرك من كل إقليم وقطر صعب أو بعيد، وأصحبه الله بفضله في ذلك كله السلامة والسعادة واجتماع قلوب الأمة على الاستسلام والمحبة، وكل ذلك مع الإذعان لهذا المعنى في الزيادة، مع ما ظهر في الرعية في ملكه من الهدنة والسكينة والأمن والأمان، مما قل نظيره فيما تقدم من الزمان، مما اعترف به الراؤون أنه لم يكن فيما رأوا معهودا، وقد تجدد فيه من التنافس في العلم أكثر مما //452 كان قبله موجودا، وقل جدا ما كان شائعا من اللصوص والسرقة، وذوي الطغيان والفسقة، وكثر جدا أمن السبل على الإطلاق ورُوعيت سطوتُه وحرمتُه في جميع الآفاق، وظهرت زيادات كثيرة لم تكن معهودة باتفاق، إلا ما كان قديما مما يكون في الغالب المشهور، وذلك مما يقع في النهج الذي بين أعراب بني احسن وبربر زمور. ولا يبعد أن يفهم من أمر ذلك مع الاستناد لبعض القرائن أن الإمام المؤيد لما شاهد من الله ما تتابع عليه من الفتوح، وأمارات التيسير والسعادة تلوح، وعلم أن الكمال الكلي في الدنيا نادر التمام، وأهل التوفيق يخشون عند تمامه النقصان وعدم الدوام، ترك تلك الثلمة الزمورية لتكون هي الحظ من النقصان، حتى لا يترتب نقصان غير ما تكون، كالحرز والتميمة من العين وغيرها، وكثير من العلماء والصالحين كابن أبي زيد صاحب الرسالة إذا قيل لهم في دفع مصيبة مشاهدة يقولون لا نريد أن لا يكون لنا نصيب من مصائب الدنيا سواها فتكونَ حظًّا، إذ هي أخف من غيرها. ويَعضد هذا الفهم //453 أمران:

أحدهما كون هذا السلطان تمكن منهم لدى مروره بأرضهم قبل هذا التاريخ بنحو سنتين كل التمكن وأعرض عنهم، مع أنه اقتحم فتوحات لا يعد شأن زمور بالنسبة إليها شيئا.

ثاني الأمرين ما سلف لوالده وجده المقدسين بالله من كونهما كانا لا يبالغان في الإقدام على شدة الوطأة عليهم، ولعل ذلك لأمر مَّا، وربما هناك سر آخر يجب كتمه، ولا يكثر الاعتراض إلا ممن قل فهمه. اهـ

وهناك أيضا من مآثر التجديد سر عجيب خصه الله به لمن فطن، ولم يكن ضيق العَطَن (1)، هو أن كل من لم يقدُر هذا الإمام قدرَه، أو أسَرَّ بغضه وأضمره، لا يطول أمره سالما حتى يأخذه الله أخذ عزيز مقتدر، ويصاب بالخزي والوبال المستمر، فإن توجهَت وجهة همته له فلا يبطئ حتى يستاصله، وإن نزَّه نفسَه عن التوجه له ولله وَكَّله، كفاه في الحين شأنَه وأمْرَه. وهذا مشاهد للعيان، فما بعد دليل المعاينة من تبيان.

وأما أمر الدجاجيل فله في إطفاء شَرَرهم وإخماد نارهم شيء عجيب لم يتقدم لملك سواه، وقد قررنا ذلك في غير هذا بما لا يَختَلف //454 في صحته والزيادة عليه اثنان، وكذلك مهما توجهت همته لمُدلَهِمَّات النصارى ومكائدهم العظام إلا

1 فلانٌ واسِعُ العَطَنِ: واسِعُ الصَّبر والحيلة عند الشدائد، سَخِيٌّ كثيرُ المالِ.

وكانت تبارك الله كعصى موسى لسحر بني إسرائيل، تلقف ما صنعوا وما كادوا، ولينظر العاقل، وما بالعهد من قِدم هذه القضية الواقعة حين كَتْب هذا، لَمَّا كان السلطان نائبا، ومع ذلك في أقطار شاسعة، وأهاليها بالنسبة لجيوش السلطان على أضعاف مضاعفة، ولم يطأ أرضَهم سلطان قبله منذ زمان، وكل قطر على حدته تهابه صناديد الملوك، وهو فيما بينهم يعالج فتحهم، اشتعلت نار الجنس الصبليُوني مع أهل الريف وجميع من له اهتمام بأمر المسلمين، بلغت قلوبهم حناجرهم خوفا وإشفاقا، سيما والسلطان الذي يرجى سده لتلك الثلمة متوغل في تلك الأقطار، وعلى حالة بلغ الناس من الإشفاق على جيشه بالنظر إليها، سيما والحالة تلك، شيء كثير، وقد قيل: "المشفق بسوء الظن مولَع"، فسرى سر همته حتى كان مُمِدا لأهل الريف، وأظهرهم الله مع كونهم شرذمة قليلة على الكافر، حتى كُبِت كبتا //455 كبيرا، واكتسب ذلا كثيرا، وتيقنت أجناس الكفر أن النجدة لا تفارق الإسلام، وذلك كله نعده من أسرار همة هذا الإمام، وكم لها من نظير فهي كغيرها.

ولما توطن السلطان محل كرسيه بمراكش، وجه همته لإطفاء ذلك وهدنته فتهدن في الحين كأنه لم يكن، اجتمعت عليه همتُه وسياستُه فاكتنفتاه فاضمحل، مع كونه اقشعرت منه الجلود وبلغت القلوب الحناجر.

اللهم اني أعيذه وأعيذ همته وأعيذ سياسته بكلماتك التامة، من شر كل هامَّة، ومن كل عين لامَّة.

وإذا تمهد هذا، فهل للتجديد من محمل يُحمل عليه سوى هذا وبعضِه، فاحفظ أيها المؤمن العاقل دينك بمعرفة هذا والمحبة وتسليمه لئلا تقع في مَهَوَّة الحرمان وفي بغضه، وتضيع ما أوجب الله عليك من أمره وفرضه (1).

رَجْع، ولما تخلل كما ينبغي وأحسن ما ينبغي بتلك المراحل وإقامتها القبائل اليوسية، كما خلل نظره في مصالحها الظاهرة المعنوية والحسية، فمن جملة ما أنتجه نظر المصلحة الذي سَيَّر فيهم أن أَعفَى //456 من كان متوليا عليهم، لِما ظهر من عجزه عن التصرف في أعمالهم، وولى مكانه من اقتضت المصلحة توليته عليهم، ولُوحِظ للأول المُعفَى سابقُ خِدمتِهِ وسالفُ مَزيتِهِ فلم يُسَمْ بمكروه.

ولما طلع الجيش طلوع بدر التمام، على الموضع المسمى بِجَام، تلقاه جيش عم سيدنا وصنو أبيه مولاي الأمين، فوجده في ضبط وحزم متين، وعلى أحسن انتظام، فخيم الجيش وأرخى الأطناب، على ضرب من التمهل والإسهاب، بين سهب الروا ودار السلطان، حتى يسكن روع تلك القبائل وتطمئن بالأمان، وقد انطوى في ذلك التطلعُ والاستكشافُ عن أحوال قبائل آيت يَفَلمان، لاستبدال الخبر بالعيان، وقد أخذ الجيش السعيد في مروره إذ ذاك بطرف القبائل المكيلدية، ليتضح هل أمورها بعد سابق الفتح نَضجة أم نَيَّة، فلم تتوانَ تلك القبائل أن أسرعت مذعنة وقابلت بواجب الطاعة، فوق الاستطاعة، سالكين بتقديم هداياهم طريق الهداية والطاعة، فاستبان منهم تمام النجح، وتم فيهم إظهار أثر ما تقدم قبلُ من الفتح، وبان لهم ما في ذلك //457 من النجاح، ومِن أجله تسارعوا لسلوك طريق الفلاح، وغَيرُ خافٍ أن من

1 الذي هو حب آل البيت بنص القرآن.

جملة آثار الفتح الذي كان سبق في أرضهم وقبائلهم، ما سرى رعبُه فيمَن عَداهُم من تلك القبائل الباقية من جيرانهم وأحوازهم.

ولما زَمْزَمَ الجيش المحفوظ، الذي بعين عناية الله وعزه ملحوظ، على الكيفية السابقة من النظر والتدبير، حتى تَوطَّن بالموضع المسمى انزگمير، بقبائل آيت عياش، شاهد قبائلُ آيت يفلمان ما شاهدوا من الزحف لساحتهم والانحياش، خامَر مواطنهم من الرَّهَب والاستيحاش، ما كادوا به من الحيرة وعدم الاهتداء أن يكونوا كالفَراش، وذلك لما دهمتهم جنود الله المنصورة بالله من كل ناحية، وأفجأتهم فجأه لم يعهدوها هم وآباؤهم في الأعصر الماضية، ورأوا سطوة الله التي أذعنت لها كل القبائل التي كانت طاغية، وخضعت لها كل الفرق الباغية، فمن أجل ما ألبسه الله من سر سطوته أذعنت كلها وخضعت، وذهِلت منهم كل مرضعة عما أرضعت، فتنادوا مصبحين النَّجا النَّجا، أن اغدوا على طاعة //458 أمير المؤمنين، عسى أن تكونوا من الناجين، فانطلقوا من كل حدب ينسلون، ومن كل شعب يسرعون ويتسللون، حتى فجع جلُّ الناس من شدة فزعهم، وما رأوه من قوة هرعهم وإسراعهم، حتى كأنَّ الرعب الذي حصل لهم ومن أجله هرعوا، سرى في الرائين حتى كادوا أن يفزعوا، وحيث وصلوا قرب السلطان صاروا يتساقطون عليه تساقط الفَراش، وأحدقوا به كأنهم على وجه الآرض جراد منتشر على فِراش، فتعجب لذلك كل راء وسامع، مما عليه السلطان من الثبات وربط الجأش، كيف لا وهم قطر من أعظم الأقطار، أهله كلهم وجيرانهم كانوا بربرا من البغاث (1) الكبار، وداست أرضَهم جيوشُ السلطان فجال على صورة الفتح عنوة، فلم يَرُع الجيشَ غير أن تخللوه فزعا وتجاوزوه هرعا كأن لهم أجنحة، والطامة كونهم كلهم حاملي الأسلحة، وأحدقوا بالسلطان واستبدوا به وحالوا بينه وبين الجيش وكل إنسان، حتى إن الجواد الذي السلطان على صهوته ارتعَب وارتهَب، ووقف من شدة دهشته فصار لا يرجع وراء ولا يتقدم أمام لما غشيه من كثرة //459 الناس وشدة الازدحام، ولولا زجر السلطان له باللجام والركاب لأهوى إلى الأرض بالركَب، ولم يبق لجيش السلطان ولا لدائرته مدافعةٌ عنه ولا قُربٌ إليه، لِما تجمع من جيوشهم حواليه، وخلفه وبين يديه، فكادوا من رغبتهم للتبرك به يقتتلون على التمسح بفرسه وبثيابه، ولم تبق حيلة لدائرة السلطان على مدافعتهم بوجه ما، ومن أخذ منهم في ضربهم يشير له السلطان بالكف عن ذلك، وكلُّ ما خامر بواطنَ أولئك البربر من الجزع والفزع أولا، والشوق لزيارته ثانيا، وحصل للدائرة والجيش من الخوف والحذر على السلطان، تجلى في السلطان ضدُّه من قوة القلب وربط الجأش بدون استنكار لذلك ولا إيحاش، ولقد تعجب الناظرون من ذلك كل العجب، بل أُخبِرت عن جملة من الناس، من جملتهم المخبِر، فاض عليهم من البكاء رقة ورحمة ما لا يكيف، لما أُلهِم إليه ذلك الجم الغفير الذي كأنه جراد منتشر، من التطارح الكثير على الموطن الذي شعشع لهم فيه النور وسر الله المتعالي الكبير. ولا غرابة، فكثيرا ما ألهم اللهُ الحيوانَ الغير الناطق //460 لمثل ذلك، كما فعل الأسد مع سفينة مولى رسول الله ﷺ ومع كثير من أولياء الله منهم أبو يعزى وغيره، والذئب

---

1 البُغاث: أَخْلاطُ الناسِ.

الذي دل الراعي على رسول الله ﷺ والجمل والظبي والضب وغير ذلك. وذلك التوفيق الذي قادهم إلى السلطان هو الذي قاد إليه كثيرا من أهل الآفاق العديدة، والأقطار المتباعدة البعيدة، ممن لم يصلهم لبعدهم وإنما وصلتهم رسله، كقبائل قطر فجيج، وقبائل القطر التواتي، وقبائل قطر ذو منيع، والقطر الفيلالي الذي طاب لحلوله به، كحلول جده الأكبر، وسَمِيِّهِ الأشهر، مولانا الحسن الشريف، وكلهم لولا مراعاة الأدب لتطارحوا وتساقطوا عليه مثل ذلك، فجاؤوه مطيعين، منقادين مهطعين، فرحين متواضعين.

انظر واعتبر في هذا الفرق واقدُر سر الله قدرَه، فرق من يُعمِل كلَّ سلاح وكُلَّ صارم لعله ينال القليل من مثل هذا الفتوح، ومن استغنى عن ذلك كله بصارم همته والنصرُ أمامَه مسيرةَ شهر يلوح، ولا غرابة فإن (1) فضل الله يؤته من يشاء، وبعنايته واختصاصه تنفعل له الأشياء، كما لا غرابة حيث فتح 461// الله البصيرة لجميع من ذكر حتى كشف لهم الغطاء وشاهدوا من سر الله ما كان عن غيرهم مغطى، فرأوا مِلِكا ملأ العين بهاء، والأسماع ثناء، والصدور هيبة، والقلوب محبة، ذو رأفة شاملة، وأحوال فاضلة، وسيرة عادلة، وحزم أخافَ قلوبَ المريبين في أجسامها، وسيوفُه في أغمادِها، ورمى المريبين بين السباع الضارية والأفاعي الحادلة (2)، فالأشباح رِقٌّ لسيفه وحزمه، والأرواح رق لِسَيْبِه (3) وحلمه. فكان إرهاق جنود الله لهم من كل ناحية، حتى صاحت بهم الصوائح في كل ضاحية، وإحداقها بهم إحداق الهالة بالقمر، والأكمام بالزهر، كما ذكر مِنَّة من الله بهم وأيّ مِنَّة، ورحمة ونعمة وأي نعمة، وحق لهم أن يقرعوا سن الندم، على ما فرط منهم وتقدم، إذ كل من فاته خير يندم، لكن لَمَّا كان الإسلام يَجُبُّ ما قبله، كذلك خالص التوبة يمحو ما سلف ويبلغ به التائب أمله، وهاهم قد بلغوا أقصى الأمل، حيث وردوا على الركاب العالي بالله كما في المثل: "جاؤوا بقضهم وقضيضهم" أي جاؤوا جميعا واردين على الركاب العالي بالله ناكسي الرؤوس، 462// مسلمين الأموال والنفوس، مبدين كل عذر على طريق الإصغاء له وقبوله جاري، مما أوجب مراعاة العاجز منهم والشيخ والذراري.

ولما وردوا طامعين في الاستظلال بالظل الوريف، ظل الجناب الشريف، قبل عذرهم وسكَّن روعهم، بعدما كانوا باتوا بليلة ابن المنذر (4)، وهي ليلة تنادي هل من مذكر.

---

1 في المخطوط "بان"، ولعل ما أثبتناه هو الأصل.

2 تحادَل في مشيته: تمايل. على أن هذه اللفظة ولفظة "رمى" قبلها غير مكتوبتين بشكل جيد، فاجتهدنا في إثباتهما بما هو أقرب رسما ومعنى.

3 سيَّبه: تركه، أطلقه، خلاّه يذهب حيث شاء

4 مثل لمن بات في شدة وكرب.

تنبيه: كان رجاء ابن حيوة عند عبد الملك بن مروان فذكر عنده رجل بسوء فقال عبد الملك: والله لئن أمكنني الله منه لأفعلن به ولأصنعن، فلما أمكنه الله منه هم بإيقاع الفعل به، فقام إليه رجاء بن حيوة المذكور وقال له: يا أمير المؤمنين، قد صنع لك الله ما أحببت، فاصنع ما يحب الله من العفو، فعفى عنه وأحسن إليه اهـ.

فليُتأمل الفرق بين العفوين، وبُعد مسافة الخُلف بين الحلمين، فهذه خصلة أحصيت لهذا الملك عبد الملك بن مروان بسبب وعظ وإرشاد.

ولهذا الإمام من أمثالها، بل وأعظم منها، ما لا يحيط به نطاق العد ولا يكاد، فمن عفا عن هفواتهم وزلاتهم كثير لا يحصى، ولا ينحصر ولا يستقصى، من غير وعظ واعظ ولا شفاعة 463// شافع، بل واعظه من جِبلته ونفسه، من غير احتياج لأن يكون من جنسه، وقد بينا جملة من ذلك في صدر هذا التاريخ مما لا شك فيه ولا مين، وفي المثل "تبين الصبح لذي عينين"، فاليراجع ثمة. وإن أقرب شيء للشبه بعفوه ما قاله المأمون: "لو علم الناس ما لنا من اللذه في العفو لتقربوا إلينا بالجرائم" اهـ. وقد استُوفِي هذا المعنى فيما تقدم من هذا التاريخ أيضا فلينظر ثمة.

قال مقيّدُه عفا الله عنه: فليعلم الواقف على هذا أن من جملة ما يحمل هذا السلطان المؤيد على الحلم والعفو أمرين: أحدهما ماله من اللذة فيهما. ثانيهما أن له في العفو سوقا قائمة شهيرة نافقة كره فسادها وكسادها.

ولما قابل قبائل آيت يَفْلمان بما هو مستول عليه من جبلته، وغريزي طبيعته كما ذكر، وقبلوا جميع الشروط والتزموها تفصيلا وإجمالا، وتعظيما وإجلالا، ورجعوا ملتزمين بما وظف عليهم من الأموال تطهيرا لهم بأن يُؤدوها، معلنين بالفرح، متباشرين بالأمن من سبب الوقوع في الترح، من غير إخراج سيفه من غمده، ولا تخلَّفت عادته التي هي إخلاف 464// وعيده وإنجاز وعده، ولما أبلعهم ريقهم وعكفوا على مواطنهم في أمن ونشاط، عطف الجيش عنانه للتخييم بأعز أماكنهم وهو المحل المسمى بوطاط، وفطرة السلطان التي فطره الله عليها من الحلم والعفو والسامحة تنشده:

فسامح ولا تستوف حقك كله — وأبقِ فلم يستقص قط كريم
ولا تغْلُ في شيءٍ من الأمر — كلا طَرَفي قصد الأمور ذميم

فلما عفا وأطلعه الله على أخبارهم، ونشر له مطوي أسرارهم، طفق يوظف على كل فريق منهم قدر واجبه، بحيث يطهره من بعض الحقوق ولا يُجحِف به، فألزم فريق آيت زدگ من المال مائة ألف ريال، وأوجب على فريق آيت مرغاد مثل ذلك المعتاد وهو مائة ألف ريال أيضا، وعلى فريق آيت اِحديدُّو وعلى آيت صَغروشَّن ستين ألف ريال، وألزم أعراب الصَّبَّاح مائة ألف ريال، وعلى آيت عيسى خمسين ألف ريال، تمكينا في الجميع للدخول في الطاعة وتبيينا لأثر الفتح.

فلا تقل لي بماذا نِلت جيدها — فما يقال لفضل الله ذا بكم

465//

فهذه خمسمائة ألف ريال وأربعون ألف ريال بضميمة الثلاثين ألف ريال التي وظفت على عاقلة آيت القصابي، فأي ملك فتحت له أبواب هذا الفتح، وأي ملك وطَّأت له القدرة لهذه الوطأة بمجرد توطين الهمة الفعالة، فلم ينلها أحد قبله لا بالسيف ولا بهمة، فسماع هذه الفتوحات التي طبق جميع الأرض ذكرها، ووجب على المسلمين شكرها، شاع في سائر الآفاق وذاع، وشنف الأسماع، ففتح من الأقاليم الكثيرة ما تكلف الوصول إليه، وكذا ما لم يصله بلواء الدين المتين المعقود بيديه. فمن الحكم: الدين والملك توامان، ففي ارتفاع أحدهما ارتفاع الآخر، لأن الدين أساس والملك حارس، وما لا أُسَّ له فمهدوم، وما لا حارس له فضائع اهـ.

ولما التزمت تلك القبائل جميع ذلك المال، على وجه الحلول والنقد دون الآجال، وجه للقبائل الشاسعة من يستوفي منها ذلك فيما بين نقد وخيل وبغال، فصدق عليهم جاري المثل "جاء بما صاتَ وصَمَت" أي بالمال الكثير الناطق والصامت.

وفي أثناء ذلك لما انتشر الفتح وطلع كوكب النصر //466 واستبان، جاءت بهداياها وفود قبائل زيان، وأدوا جميع ما وجب عليهم في أقرب زمان، وأسرعوا لذلك لما رأوا من سرعة الاستيلاء على غيرهم من القبائل التي بعضها أشد منهم قوة وأكثر عددا وعُدة.

فما أحجم الأعداء عنه تقية   عليه ولكن لم يروا فيه مطمعا
له راحتان الحتف والجود فيهما   أبى الله إلا أن يضر وينفعا

وما النصر إلا من عند الله، ولا غرابة في سريان ما في الآباء في الأبناء من فضل الله، فكان جده ﷺ منصورا بالرعب مسيرة شهر، وثابت أن ما كان معجزة للأنبياء قد يكون كرامة للأولياء استمدادا من النور النبوي.

هذا ولما دفع آيت ازدگ من الموظف عليهم ما دفعوا، وبالأمان عليهم اطمأنوا ولمأمنهم رجعوا، نهض الجيش السعيد، المصحوب بالنصر والتأييد، للموضع المسمى بُوكمَّان لقربه من القصابي، والقصابي كانت في القديم إلى عهد هذا الملك المظفر مولانا الحسن كالشامة الغريبة بين تلك الأقطار، لأنها وحدها هي المركز الذي ينسب للمخزن من بين تلك القبائل كلها، وهذا أمر على غاية الاشتهار، فكانت بينهم كاليتيم الغريب، وانتظم الآن //467 في عقدها، وانخرط في سلك عهدها، جميع تلك القبائل، وناهيك به من نظم عجيب زالت به (1) غربتها، واتصلت بجميعها ألفاتها، واقتضى حينئذ نظر السياسة أن وِليَ عَمالتَها على الضابط الجاري، وصيفُ الدار العلية بالله القائد العربي بن حمو البخاري. ووظف عليهم من المال ثلاثين ألف ريال، تطهيرا لهم وزجرا لما ارتكبوه قبلُ مما أوجب عليهم النكال.

1 في المخطوط "بها".

ولما كانت قبيلة أهل طوطوا رواس (1)، كثيرا ما تسعى في اجتراح البأس، وهم أمة قائمة ذات قلوب قاسية، وفهوم قصية، ونفوس عصية، وكانوا قبل تسببوا في قتل العامل الطالب مُحَمَّد اليوسي، فأمر السلطان المؤيد بالله ولده القائد عمر بالانتصار، والأخذ منهم بالثأر، فشمر عن ساعده، وساقِ جِده، وشهر من سلاحه ما شهر، فأحدق بهم بإخوانه وخَوَلِه (2) تَعَفُّفاً من السلطان عن الدِّماء، فلم يكن ببركة همة السلطان بأقرب من أن أتى بشرذمة منهم مسجونين، وبالأغلال مصفدين، للحضرة العلية بالله.

فنهض السلطان المظفر حينئذ يجر عرمرم الجيش متخللا به آيت ازدگ، والحالة أن أهلها من شدة الرعب حكموا //468 على أنفسهم أنهم لذلك الجيش، طُعمة عيش، وعند ذلك أسرع للحضرة الشريفة وانساب، من صنوف الخلق من بربر وأعراب، ما ليس له عد ولا حساب، حيث نهض وخيم بالموضع المسمى (گرس) (3). فمن جملة من أسرع مطيعا مهطعا، متواضعا متذللا خاضعا، قبائل آيت مرغاد، وقبائل آيت حديدو، وفِرق أولاد خاوة، (4) وأجناس أعراب الصبَّاح، وجملة وافرة من أعراب أهل مدغرة، أشراف وغيرهم، وكذلك أهل سجلماسة أشرافا وأعيانا، وتبعهم كل الجيران على ذلك أنصارا وأعوانا، جاؤوا مُذْعابِّين، (5) ومسرعين متتابعين، وعند ذلك بدا للكل من سر الله المودع في هذا السلطان الظاهر في حاله وأحواله، المغني عن إنشاده بمقاله، أنَّ حاله يقول، وليس سواه يستحق هذا المقول:

ملكنا أقاليم البلاد فأذعنت لنا رغبة ورهبة عظماؤها

وأن يقول:

حللنا محلا يقصر الطرف دونه ويعجز عنه الطيف أن يتجشما

كيف لا وقد وطأ فاتحا أقاليم لم توطأ قبله، فأذعن له أهلها جملة، وحل أرضين وأماكن ما سامها ولا طمع فيها من الملوك من تقدمه.

ثم جدد للنهوض الاستعداد، مواليا حمد الله وشكره على //469 ما أولاه من الإعزاز والإسعاد، فتوجه بقوه الله وعزه لبلاد آيت مرغاد، حتى دوخ تلك البلاد، مستوى لديه منها القاع والنجاد، والسهل والأوطاد، فما برح إلى أن خيبت الجيوش بالموضع المسمى بسِمگات (6) مستقصيا ما تبقى بذمم القبائل من الموظفات، فظهر من آيت حديدو فيما

---

1 كذا في الخطوط، ولم نتمكن من ضبطها.
2 الخَوَلُ : عطيّة الله من النِّعَم والعبيد والإماءِ وغيرهم من الأتباع والحشم.
3 كذا تبدو، لم نتمكن من ضبطها.
4 أولاد الخاوة: هي إحدى مشيخات المملكة المغربية، تتبع جغرافيا لإقليم سيدي بنور وإداريًا لأولاد عمران.
5 قال الأَصمعي: رأَيتُ القومَ مُذْعابِّينَ، كأَنهم عُرْف ضِبْعانٍ، ومُثْعابِّين، بمعناه، وهو أَن يَتْلُوَ بعضُهم بعضاً.
6 سِمگات: وتكتب أيضا سمكت: قبيلة في شمال المغرب تنتمي لإقليم أزيلال.

التزموا به الرجوع القهقرى، أو شبه نبذهم لما عقدوا ورا، فحُذروا وأُنذروا ولم ينفع فيهم إنذار ولا تحذير، ولا نصح ولا نكير، فلما لم يقلعوا، كأنهم ما رأوا ولا سمعوا، وجه لهم من سطوة همته ما اقتنص به منهم شرذمة من الرجال مساجين، نحوا من المائة والثلاثين، ولما ثقفوا بالأغلال والسلاسل انقلب الباقي من عصبيتهم وحميتهم خاسئين خائبين، ورجعوا مستشفعين متذللين، سائلين أن يسرح لهم ستة من أعنيائهم ليعينوهم على استيفاء ما التزموا به ويبقى من عداهم رهنا فيه، فغلب على السلطان مركوز جبلته، ومالك طبيعته، الذي هو العفو والرأفة، فساعدهم واطرد أن يقال له:

غدروا لديك فخاطروا بنفوسهم وأمرت سيفك فيهم أن يخطُرا

470//

عجبوا لحلمك أن تحول سطوة وزلال خلقك كيف عاد مكدرا

لا تعجبه من رقة وقساوة فالنار تقدح من قصب أخضرا

ويُورَدُ هنا نثر إبراهيم الصولي (2) البديع الوجيز حيث قال: أما بعد فإن لأمير المؤمنين أناة، فإن لم تُغنِ عقَّب بعدها وعيدا، فإن لم يغن أغنت عزائمه والسلام اهـ وهذا الكلام مع وجازته في غاية الإبداع، ومع ذلك فإنه ينشأ منه بيت شعر له وهو:

أناة فإن لم تغن عقب بعدها وعيداً فإن لم يغن أغنت عزائمه

وقال المتنبي:

وإذا المكارم والصوارم والقَنا وبنات أَعوَجَ (3) كل شيء يُجمعُ

وقد كان مقيد هذا تاريخ قال في قصيدة في هذا السلطان:

ويرى بعين الرأي غَيبَ أموره ذو عزمة لخطوب دَهرٍ أَنكَدِ

---

1 خَطَرَ الرُّمْحُ، يخطُرُ: اِهْتَزَّ.

2 في المخطوط "الموصلي" وهو تصحيف، فهو إبراهيم بن العباس بن مُحَّد بن صول تكين الصولي الشاعر. انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ج1 ص44

3 قال الجوهري: أعوج اسم فرس كان لبني هلال تنسب إليه الأعوجيات وبنات أعوج، قال أبو عبيدة: كان أعوج لكندة، فأخذته بنو سليم في بعض أيامهم فصار إلى بني هلال، وليس في العرب فحل أشهر ولا أكثر نسلا منه، وقال الأصمعي في كتاب الفرس: أعوج كان لبني آكل المرار ثم صار لبني هلال بن عامر.

والشاهد فيه "عزمة"، الموافق لقول الصولي (1) "أغنت عزائمه". ولقد أغنت بفضل الله والحمد لله همته وعزائمه ومكارمه عن إعمال الصوارم وجميع آلات القتال، بل رزق من النصر بالرعب ما استرق به أفئدة الرجال، وأطار به من العدا قلوب الأبطال، وفتح بحد عزمه من الأقاليم //471 والأقطار ما وصله وما لم يصله، واستوى عنده في ذلك السهول والجبال، فتبسمت البلاد كلها في وجهه، وقد أذهب بؤسها، واستبشرت بحلوله فيها، وأطلقت عبوسها.

ضحك الزمان وكان يدعى عابسا   لما فتحت بحد عزمك نصره

ولكن ذلك كله قليل في حق الهمم العالية، والنفوس الزكية.

من كان بالهمم العوالي خاطبا   أضحت له بِيض الحصون عرائسا

ولما تم بالنزول بسمگات الغرض، أزمع الجيش الشخوص منها ونهض، فأناخ ركابه بالموضع المسمى بتَدَغَسْت، (2) وهي وسط بلاد آيت مرغاد الذي به يتحصنون، ومأمنهم الذي به يتعززون، وإليه عند إرادة التمنع يأوون، وهو مأوى رئيس فتنتهم، وحمية أهل جاهليتهم، الذي كان سعيه الفساد وعليه متمادي، علي بن يحيى المرغادي. ولما رأى ما رأى من نصر الله بجنده، وعنايته بعبده، انطوى على دَغَل نيته، وفساد طوِيَّته، فسدد إليه سهامَ التوجه وصوارم الهمة كما قد تتوجه لأمثاله من أشكاله، حتى حصل في القبضة قنيصا، وأصبح لا يجد له محيصا، فوُجِّه لمراكش //472 وأودع فيها بسجن مصباح إطفاء لنار سعيه، وسعي أمثاله، لتهنأ تلك الأمة بذهاب فساد أمثاله أدراج الرياح.

ولما كمل هذا التمهيد، وتم نجاحه بالنظر السديد، والرأي المبارك السعيد، نهض الجيش بأمر الإمام، إذ الأهم من المقصدين أمام، فوجه همته ونظره لبلدة مدغرة، أحد مواضع الأسرار والخيرات وذوي الفضل والخيرة، فاغتُنمت زيارة من بها من الأولياء والفضلاء، والأقطاب والأوتاد والبدلاء، وحَيِيَت تلك البلدة بتجديد اكتساب جمالها، وبُلَّت رَحِمُ أهلها لبَلالِها، بإنعام السلطان المظفر على ذوي رحمه من الشرفاء، الأغنياء منهم والضعفاء، فأكرم الجميع بخمسين ألف مثقال، ولما رأى فرحهم برؤيته، وسرورهم بمنحته، وابتهاجهم وحبورهم بطلعته، وابتهالهم بالدعاء له وللمسلمين ولأنجاله وذريته، زادهم ضعفها، وبمثلها شفعها، فصار الجميع مائة ألف مثقال، عدد ما بالريال الكبير عشرون ألف ريال. فلما رأوا من تلك العطية ما رأوا، واكتسبوا بعد علم اليقين عين اليقين أن ذلك من جملة محاسن أيامه وما يؤرَّخ عنها، بل هي الحسنة التي //473 لا توازى، بل هي اليد البيضاء التي لا تجازى، فمدوا أكف الضراعة إلى الله بالدعاء، وإلى قِبلة الداعي رافعين أبصارهم وهي السماء، تقبل الله عمله بقبولٍ صالح وأثبتَه، وأدام سلطان ملك هذا الملك الناصر للدين وثبَّته، وأخذ عدوَّه قائلا أو بَيَّتَه، وأرغم أنفه بسيفه أو كبتَه، ونحن قائلون آمين آمين يا رب العالمين.

---

1 في المخطوط "الموصلي" وهو تصحيف كما سبقت الإشارة.

2 ضبطنا شكل الكلمة كما ورد في المخطوط.

وهذا دعاء لا يرد لأنه صلاح لأصناف البرية شامل

هذا وقد تولى تفرقتها عليهم، بعدما توجه بها إليهم، النجل الصالح، والشبل الناجح، فلذة كبده العزيز، فرع سلسلة الذهب الإبريز، من خصه الله عند والده بالتمييز والتبريز، سيدي مولاي عبد العزيز.

ملوك وأبناء الملوك وسادة تفلق عنها بيضة الطائر الصقر

متى تلق منهم ناشئا في شبابه تجده على آثار والده يجري

ذا مباركا عليا، نَجيبا سَريا، برا زكيا تقيا، وهو وإخوته ذرية كريمة بعضها من بعض، وبيت شريف في السماء والأرض.
وحيث مد أولئك //474 الأشراف أكف الضراعة للكبير المتعال، أن يبلغ سيدنا السلطان وأنجاله والمسلمين غاية الصلاح والإمال، فإنا نُشَفِّع دعاءهم بدعاء شامل للسلطان ونجله، ذلك بمضمن هذا البيت:

وبقيتَ حتى تستضيء برأيه وترى الكهول الشيب من أولاده

وحيث تمت الغنيمة بالزيارة، ورجع نجل الملك بأربح تجارة، نهض السلطان بجيشه السعيد، مع من وفد عليه من الجيوش الكثيرةِ العديد، التي تَسارعُ دُخولِها في التبعية حادثٌ جديد، كجيش آيت مرغاد، وجيش آيت ازدگ، وجموع آيت وَفْلَّة، إخوانهم وحميتهم، وضُم إلى ذلك جيش كبير وجم غفير من آيت عَطًّا، ومثل ذلك من قبائل بني مكيلد، إلى أن خيم الجميع حيث وصل وراح، وبالمعاركة (1) أناخ واستراح.
ولعمري إن هذا لهو النصر من الله المتين، والفتح المبين، والتجديد للدين، الذي لا مِراء فيه ولا امتراء، بيِّنٌ الصبحُ لذي عينين.
هذه الجيوش التي منذ خُلقت خلفا عن سلف وهي نافرة، وفيما بينها متنافرة، تقودها وطأة سر الله مع شدة المشقة، في بُعد الشُّقة، مع ما انضاف لذلك من إنفاق الأموال وبذلها وبذل النفوس، //475 وهي مع ذلك على غاية الخوف نهاية الطاعة حتى انقلب الجميع محبة.
وبالجملة يقصر اللسان عن الإفصاح بتقرير هذا السر الإلهي. اللهم إني أعيذه بكلماتك التامة، من شر كل هامة، ومن كل عين لامة. اللهم زده من إسباغ نعمك، وإفاضة سِرك، وإسبال سترك. اللهم إنك تعلم أن هذا دعاء عام لأمة نبيك فأجبه بجاهه عندك يا حي يا قيوم، يا ذا الجلال والإكرام، يا أرحم الراحمين، يا أرحم الراحمين، يا أرحم الراحمين.
ولما نزل بالمعاركة ورأى من أثر السلف، ما يسر الخلف، ازداد بذلك استدلالا على فخامة أمرهم، وضخامة قدرهم، إذ الآثار تدل على الأقدار، وآثارنا تدل علينا، كيف وهم من هم جمعوا إلى النسبة كل خصلة حسنة.

---

1 المعاركة: أحد قصور تافيلالت في منطقة ما قبل الصحراء من الأطلس المغربي الكبير، في منتصف وادي زيز.

فلم يَخلُ من إحسانهم لفظ مخبِر ولم يخل من تفضيلهم بطن دفتر

فرحم الله وقدس أرواح السلف، وجمع بركتهم فيمن زارهم من الخلف، لتعُم إذاً، (1) والخلف الزائر ملك فتاح للأرضيين ماهر، ولو خاطبته مقامات أسلافه لأنشدت فيه:

476//

أمير العلا إن العوالي كواسب علاك في الدنيا وفي جنة الخلد

يمر عليك الحول سيفك في الطلا وطرفك ما بين الشكيمة واللبد

ويمضي عليك الدهر فعلك للعلا وقولك للتقوى وكفك للرفد

ثم نهض من بلد المعاركة إلى الأرض الطيبة المباركة التي هي موطن الأسلاف وينبوع الأشراف، التي هي بالنسبة لغيرها من مواطنهم خاصَّةُ الخاصة، المعروفة المشهورة بسجلماسة، فأسرع لتلقيه وزيارته من فيها من القبائل، ولم ينتظر من شدة الفرح به والشوق لرؤيته الأوائلُ الأواخرَ (2)، من أشراف وعرب وأعراب وبربر، لِما هجم على الجميع من السرور بهذه المزية العظيمة التي ابتكر، ولم يدع الرجال والنساء والأطفال من إظهار السرور والنشاط ونهاية الفرح والانبساط وصفا يقدرون عليه إلا أظهروه أمامه وبين يديه، حتى إن منهم من أبكاه شدة الفرح، وفي مثله قيل:

طفح السرور علي حتى إنه من فرط ما قد سرني أبكاني

وبجمله قد نال منهم الفرح غايته، والدعاء منهم له ولأنجاله نهايته

لو يستطيع الناس من إجلاله اتخذوا له حُر الخُدود نعالا

477//

كيف لا وقد زارهم إمام مجدد فاتح ومانح، وقلبه لكل خير وقربة منفتح ومنشرح، استرق قلبَه الاهتمامُ بأمر الإسلام، وأهم شيء لديه بعد أداء حقوق الله الاعتناء بالذب عنهم وغاية القيام بذلك والاهتمام، جمع همته في المدافعة عنهم وجمع كلمتهم على التمام، بنفس لا تضيق بنازلة ذرعا، ولا تُصغي للوشاة سمعا، وبحلم لا يرفع الغضب إليه رأسا، وحزم لا تخاف الإنابة معه بأسا، فمن لم يتخذ محبتَه وطاعتَه والدعاءَ له شطرَ دينه فليس له نصيب في الإسلام، إذ صِدقُ الدعاء له من الاهتمام بأمر المسلمين، ومن لم يهتم بأمور المسلمين فليس من المسلمين.

---

1 كذا في المخطوط، لكن بدون تنوين.

2 في المخطوط "الأوائل والأواخر"

هذا وقد كنت قلت في قصيدة لذلك الجناب:

إمام يحب الله فهو يحبه فقل لصعاب الأمر بالدين تَنقَد

ومنها:

صفوح عن الإجرام حتى كأنه من العفو لم يعرف جريمة معتدي

ومنها:

يُفرِّج عنه الشكَّ صدقُ عزيمة ولب يفوق الناس طرا فيُقصد

ومنها:

وعينٌ محيطٌ بالبرية لحظُها سواء لديه قربها مع الأبعد
يدبر شرقَ الأرضِ والغربَ كَفُّه كأنْ زُوِيت له وراثة عن جدِّ
يَدِق عن الأفهام ما هو صانع فنترك ما يُخفي ونأخذ ما يُبدي

478// ومن قصيدة مولوية وجهتها لحضرته وهو قرب سجلماسة في هذا الفتح مما أجراه الله على لساني من الحق الواقع:

ويرى بعين الرأي غيب أموره ذو عزمة لخطوب دهر أنكد
وسع البراري والبحار تدبرا وأجاد كل بديعة بتعهد
وإذا المكارم والصوارم والقنا طلبت خيرا لا سواه تقصد

ومنها:

نكبات دهرك واختلاط تخشى سديد الرأي منه
إقدامُه آراءُه وسيوفُه تنفي مصائب ذا الزمان
يسعين في حركاته وسكونه للدفع عن حرمات دين مُحَمَّد

ومن لا يحب من هذه أوصافُه، ولا تُرفع بالدعاء كفوفُه، إنه لمن شر البرية، ومن المارقين في الدين مروق السهم من الرمية.

رَجعٌ: ومن جملة من تلقى ركبه واغتنم قربه، أشراف أعمامه وإخوانه وأبناء أعمامه وغيرهم من الأشراف، وأنشد لسان حاله نيابة عن مقاله لهم وللأولياء من الأسلاف:

أتيناكم من بُعد أرض نزوركم وكم منزل بكر لنا وعوان

نُسائلكم هل من قِرى ... بِمِلْءِ جُفون لا بملء جِفان

//479 ولما بلغ مناه، ونال من المقصد منتهاه، وقيل له كما في المثل: أمرعتَ فانزل، أي أصبت حاجتك فانزل وحل مواطن الأسلاف. ومَحلُّ مواطئ أقدام من سلف رآها أرضا أريضة أنيقة، بكل خير خليقة، ذات مياه نابعة، وأشجار كارعة (1)، وثمار يانعة، بهجة الناظرين، وخصب الساكنين والمستوطنين، فآوى من ذلك إلى الدار البيضاء، بيد بيضاء، فاتفق حصول المناسبة التامة، حل بأرض أسلافه وله في جميع الخصال والمزايا العظام اليد البيضاء، ونزل بالدار البيضاء، وكان حلوله بها في السابع والعشرين من ربيع الثاني، وأناخ بها الركاب وحط بها الرحال واستراح، وبعد الاستراحه توجه لتحصيل جملة الأرباح، من زيارات مقامات أسلافه الصالحين.

وحيث استراح، وتفسخ كل كَمِيٍّ (2) من السلاح، واستقر بهم المنزل وتم النجاح، توجهوا لزيارة أولئك الأولياء العظام، والتبرك بتلك المشاهد الفخام، متضرعين إلى الله عندهم بما يشاهد فيهم من نور المصطفى عليه الصلاة والسلام، سائلين ما يرضي الله ورسوله من تمام حسن السيرة في نظم شمل الإسلام، //480 إذ ذاك أعظم ما به الاهتمام، لاسيما حالةُ التوجه من الامام، بين يدي منبع الأولياء الذي هو بدر التمام، سَمِي هذا الإمام الجَدُّ الأكبر، والغوثُ الأشهر، مولانا الحسنُ الشريف الأكبر، الذي بسر الله وبركته صلح نخيل ذلك القطر وأثمر، حسبما تقدم ذكره واشتهر، وقد تبرك هذا الإمام بآثار الأقدام مستحضر القول القائل (3):

ففي دار الحديث لطيف معنى ... أصلي في جوانبها وآوي
لعلي أن أمس بحُر وجهي ... مكانا مسه قدما النواوي

وسنة التبرك بهذا معهودة.

---

1 كَرَعت النَّخلَةُ وغيرُها: كانت على الماءِ ولم يفارق أَصلَها الماءُ.

2 الكَمِيُّ : لابسُ السِّلاَح.

3 هو التقي السبكي، كان شيخ الدار الأشرفية وكان يمرغ خديه على المكان الذي كان يضع النووي عليه قدميه وينشد:

ففي دار الحديث لطيف معنى ... أصلي في جوانبها وآوي
لعلي أن أمس بحُر وجهي ... مكانا مسه قدما النواوي
وفي دار الحديث لطيف معنى ... على بسط لها أصبو وآوى
عسى أنى أمس بحُر وجهي ... مكانا مسه قدم النواوي

ولما حصلت البغية على وفق المراد، وظهر أن ترادف الخيرات في الازدياد، والرحم اتصلت، وبالخير وصلت، أخذ النظرُ فيما هو ظاهر من أثر عملهم يجول، وينظر ما خلفوا من الرباع والأصول، تلذذا بالنظر إليها في فخامتها الدالة على علو هممهم، وكونِها من بقية عملهم، وذلك مما يثير الترحم عليهم والدعاء لهم والاتعاظ بهم.

وبعد ذلك عطفت الهمة عنان رَكبها نحو استتمام وصلهم، واستكمال رضاهم بتمام صلة رحمهم، عملا بحديث "من وصلها وصلته"، وفي المثل " مَتَّ إلينا بثدي غير أقطع" //481 أي توسل بقرابة قريبة، فأنعم على خلفهم من أبناء مُحَمَّد الأشراف، بخمسين من الآلاف، ثم ضعَّفها لهم بمثلها خمسين ألف مثقال، ومجموع ذلك عشرون ألف ريال، فوجه بها نجليه الأنجلين البارَّين، من يكون بهما إن شاء الله كأسلافهما يستنزل الغيث، مولاي عبد العزيز ومولاي بلغيث، فالله يطيل بقاءهما مَحسُودي النجابة، وأن لا يخلي دعوتي لهما من الاستجابة، لتقسيط ذلك عليهم بواسطة كبرائهم وأعيانهم، بروضة الطود العلم الشامخ المنيف، أبي الحسن سيدنا ومولانا علي الشريف، فمد الحاضرون يد الضراعة لرب العالمين، متوسلين بجاه سيد المرسلين وبذريته الطاهرين، في حفظ السلطان وزيادة تأييده، وبلوغ أمله في نظم شمل المسلمين وصلاح أولاده، ممتثلين حديثي من أسدى إليكم معروفا، وشكر الواسطة (1)، واقتفوا أثر القائلين شكر الله سبحانه بالتعظيم، وشكر الملوك بالدعاء، ثم شكر الأصحاب بحسن الجزاء. وقالوا: "الشكر ترجمان النية، ولسان الطوية، وشاهد الإخلاص، وعنوان الاختصاص". وقالوا: الشكر نسيم النعم، وهو السبب إلى الزيادة، وطريق السعادة، //482 نعم قال مقيده غفر الله له: كان من حق شرفاء مدغرة وهؤلاء الأشراف، ذرية الأعمام والأسلاف، أن ينشدوا بلسان واحد على سبيل الاعتراف، وطريق الإنصاف، حيث أنعم أولا وضاعف ثانيا ثم أفاض على الخاصة ثالثا ما نصه:

أفَضْت لنا بالجود حتى نعشْتَنا وأعطيتنا حتى حسبناك تلعب
فأنت الندى وابن الندى وأبو حليف الندى ما للندى عنك

ثم يشفعون البيتين كما ضعف لهم الإنعامين، بلسان واحدا أيضا بقولهم:

كل الندى إلا نداك تكلف لم نرض غيرك كائنا من كانا
أصلحتنا بالبر بل أفسدتنا وتركتنا نتسخط الإحسانا

أي كل إحسان لغيرك نستقله ونتسخطه إذ لا نراه إحسانا بالنسبة لإحسانك.

ثم زاد أيده الله لأقارب القرابة كأبناء الأعمام، ما اقتضاه قرب الرحم واتصالها من زيادة الإكرام، وإسباغ الإنعام، من خيل وبغال وأسلحة، وكسوة وصلة مصلحة، وذلك بمخاطبة جبلة السخاء وشنشنة الحياء على عادتهما معه، فقالتا له: "أتبع

---

1 أي حديث (.....ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه) وحديث (مَن لا يشكرُ النَّاسَ لا يشكرُ اللهَ).

الفرسَ لجامَها والناقة زمامها والدلو //483 رشاها"، وهو مثل يضرب للأمر باستكمال المعروف وإتمام الصنع، وهذا منه.

ولما بل الرحم ببلالها، بإكرام رجالها ونسائها وأطفالها، وزيارة السلف من أوليائها الكرام، واستراح بجوارهم زيادة في التمتع بآثارهم ثمانية عشر من الأيام، نصب ألويته وأعلامه، وانتصب جيشه السعيد خلفه وأمامه.

وإذا سخر الإله أناسا　　　لسعيد فإنهم سعداء

متوجها لمحل كرسي ملكه بالحضرة المراكشية، ذات الحلل للموشية، والخيرات الفاشية اهـ.

هذا وقد تقدمت الإشارة لأربعة أمور: زيارة أمير المؤمنين أسلافه الطاهرين المطهرين، ولِقصيدتَيْ مقيد هذا التاريخ، إحداهما في أثناء هذا الفتح، والثانية في الفرح بقفوله منه، ولتعداد مراحله ذهابا وإيابا مرحلة المرحلة.

أما زيارة مولانا أمير المؤمنين على ما بلغنا بعد الاستقصاء، لما نهض من قرب الدار البيضاء من قصور تافيلالت في سادس جمادى الأولى سنة أحد عشر وثلاثمائة وألف، زار الأولياء المذكورين بعدُ على ذلك الترتيب، نفعنا الله ببركتهم جميعا، أولهم //484 سيدي بوزكري، ذُكر أنه من أجداد سيدي بوزكري الذي بمكناسة الزيتون. ثم سيدي بلغيث بن مولانا علي الشريف، ثم مولاي الحاج الوليد، ثم مولاي علي بن مولانا إسماعيل، ثم مولاي أحمد الذهبي بن مولاي إسماعيل، ثم ضريح للشرفاء المنصورين مولاي عبد الواحد بن مولاي محرز، مولاي الشريف بن علي والد مولاي إسماعيل السلطان دفين مكناسة، ثم ضرحا ذُكر أن صاحبه من ذرية سيدنا بلال، ثم مولاي الشيخ بن إسماعيل، [ثم] روضة مقابر تسمى بروضة رجال أخنوس بها ضريح سيدي علي بن طاهر، ثم أبو الحسن مولانا علي الشريف، وبإزائه داخل قبته مولاي الحبيب بن زين العابدين، وخارجها مولاي عبد الواحد بن محرز، ثم مولاي الصديق ثم مولاي الحسن الشريف الصغير والد مولاي علي الشريف، وبإزائه سيدي عبد العزيز، بإزائه سيدي مُحَّد المغراوي، ثم سيدي مُحَّد والد مولاي الحسن الصغير المذكور، ثم والده مولاي الحسن الشريف، أصل الشرفاء الذي جاء من الينبوع وبه طابت تافيلالت كما تقدم، سَمِي مولانا الحسن بن مُحَّد المنصور، الإمام الذي فاحت به الآن أرجاؤها وكمل طيبها، وحسنت //485 به الأيام، طابت بذاك وفاح ختام مسكها بهذا، فهو ثالث الحَسَنين وإحدى الحُسَنَيين، ثم المرابط سيدي الحاج بو ابراهيم الذي جاء بمولاي الحسن الشريف من الينبوع، وهو بقبة خاصة ملتصقة بقبته، ثم سيدي موسى أخو سيدي الغازي الآتي ذكره، ثم سيدي الغازي أبو القاسم بن مُحَّد بن عمرو الشريف الإدريسي، أمه لالة مريم الشبانية، وهو شيخ سيدي مَحمد بن ناصر، ثم ابن أخيه بجنبه عن يمينه سيدي مُحَّد العزَّام، وعن يساره ابن اخته سيدي أحمد.

ولما رجع غدا (1) ذلك اليوم إلى قرب مرحلة الدار البيضاء المذكورة، جدد النية لزيارة من يذكر بعدُ، سيدي الحاج بن عبد الكريم بن يوسف، ويُمْنَتَه سيدي أحمد بن زروق بن يوسف أيضا، ثم سيدي الغازي بن العربي من ذريته أيضا اهـ. وهناك قبة بها سيدي مُحَّد وأبو سيدي عمر بن سعيد العباسي، وسيدي مُحَّد المذكور والد الفقيهين العالِمِ الفاضلِ الجليلِ

1 كذا في المخطوط

السيد المطيع وأخيه الفقيه القاضي السيد السعيد المراكشي رحمهما الله، وهناك سيدي بوعلي العباسي شيخ مولاي علي الشريف، وسيدي عبد المالك العباسي، وهؤلاء الأربعة بزاوية القاضي سيدي مُحَّد بن الحسن من 486// أولاد مولى علي سيدي بلقاسم البغدادي قرب الدار البيضاء اهـ

وقد آن ذكر القصيدة التي وجه مقيده لحضرة مولانا الإمام بقرب موطن أسلافه لما أطلت ليلة المولد النبوي، لارتباط الأسباب بمسبباتها، وذكرها في موضعها أليق وهي هذه:

بشرى بنصر الدين دين مُحَّد   وبليلة الأنوار ليلة مولد

منها معالم للهدى ومصابح   تجلو الدجى من نورها المتصاعد

بشرى بها (...) (1) تُحيًا لنا   مثل التي يوم الميلاد بها بُدي

إن رُمتَ وصف فضيلة خُصت بها   أعيت خصائصها فصاحة منجدي

ماذا عسى تأتي به من فضلها   وجميع سر الكون فيها قد ابتدي

فالعَجزُ عن وصفٍ لها هو وصفُها   إذ كيف يُحصى ماء بَحر مُزبد

لا غرو إذ ما جاء في مدح ليلة   للقدر ونسبتُها فمنها تَحتَذي (2)

إن جاء في الذكر الحكيم سَناؤُها   فسناؤها من هذه هو مُبتَدِي

وتشرفت بوجود أحمد قبلها   سِر الوجود ومُرشدٌ للمهتدي

إن فاقت ألفا من شهور فهذه   فاقت جميع الدهر عند مؤيد

شرف الظروف بما حَوَت وما احتوى   ليل على المِظروف مثل مُحَّد

487//

فاقدر إذا مقدار ليلة مولد   واحكم لها بتفضل وتفرد

عن كل ليلة في الزمان جميعه   فتكن بذاك على السلوك الأقصد

وإذا وزنتَ بذاك قدر كليهما   تعلم تقدمها بدون مُفنِّد

وعلى قصورك عن وفاء مديحها   يأتي إذا لك شاهدٌ غيرُ مفرد

ووجوب مدحك للذي تُحيى به   يأتي دليل قاطع لم يُصطد

1 كلمات غير واضحة.

2 كذا في المخطوط بالذال المعجمة، والمعنى أن ليلة القدر ما كانت لتكون لولا ليلة المولد، لأن الدنيا خُلقت أصلا لأجله ﷺ، فليلة القدر كمن يطلب جِذوَة (أي شعلة) من النار ليستضيء بها.

من أين لي مدح يقاوم بعض ما ... يأتي ويُبدي من مكارم تُشهد
لولاه ما طلعت أهلة سؤدد ... فينا ولو طلعت (...) (1)
جاءت به الدنيا كما شاءت العلا ... ورث الخلافة سيدا عن سيد
من لم يَرِد عَليَاه لم يَرد العلا ... من لم يلذ بجنابه لم يهتد
ملك تحلى ملكه بِحُلى النُّهى ... إنسان عين الملك فيه بأَوحَد
ويرى بعين الرأي غيب أموره ... ذو عزمة لخطوب دهر أنكد
وسع البراري والبحار تدبرا ... وأجاد كل بديعة بتعهد
وإذا المكارم والصوارم والقنا ... طلبت خيرا لا سواه تقصد
همم له تعلو على همم الورى ... بل لا تقاس بهمة في منتدي
قد أحرزت علياء كل فضيلة ... همم له في كل خطب أسود

488//

وأعادت وجه الدين أبيض ناضرا ... طلعت على البيضاء في كل مقصد
فَذُرى النجوم تسنَّمت أنَّى تَضِق ... ذرعا بحادثة وخطب مُلْبَد
نكبات دهرك واختلاط خطوبه ... سديد الرأي منه فتفتدي
إقدامُه آراؤُه وسيوفه ... تنفي مصائبَ هذا الزمان الأنكد
يسعين في حركاته وسكونه ... للدفع عن حرماة دين مُحَمَّد
سعيا جسيما لا يقاس بغيره ... ما زال يتلى كالحديث الأحمدي
يا أيها الملك المظفر إن في ... جندٍ لك التأييدَ فأبشر واسعَدِ
يا سيد الحسن الذي أحيَى به ... مولاهُ دارسَ دينِه بِتَجَدد
قلَّدتَ جِيدَ الدهرِ سِلك محاسن ... وسوار كل المجدِ من حُلل اليَد
كم من يد لك في المكارم والعلا ... تتلى على الأيام في كل مشهد
طرزتَ للعلياء ثوبا مجددا ... حطت بربعك رحلَها كي تسعد
ضحك الزمان وكان يدعى عابسا ... لمَّا فَتحت بسَيف عَزم مُغمَد
لمَّا البلاد بحد عزمك فُتِّحت ... لله عزم كالدليل المرشد

---

1 بياض في المخطوط، ولم يشر الناسخ إلى وجوده في الأصل كعادته.

في كل أرض تضربون قبابكم ضاءت بكم أرجاؤها فلتسعد

يهناكم المجدُ الغزيزُ ونَيْلُكم ما لم ينله قبلكم من واحد

489//

وليهنكم فضل المديح لجدكم بحَفيل ناد للسميع ومنشِد

غبط الزمان كله ناديكم نادى المديح لجدكم فليحمد

سَعِد السّراتُ الحاضرون كأنجم وزرا وأشراف وسائر حُفَّد

من كاتب مع خادم لعلاكم مثل البدور لشمسكم في مشهد

عندي أيا مالك الملوك مقالة وَطِّئْ لها سَمعا كريما نَسعَد

مراكش الحمرا تحن إليكم والله كالثكلى تحن لوالِد

بلد بها شوق عظيم بحبكم ولأهلها شوق الثَّكالى الفُقَّد

شاقوا لنظرة عين منك ونظرة لمحياكم تُحيِي نفوس المُهَّد

ما زالت تمدحكم وتنشر فضلكم حتى تفر وصُقعُها بتودد

لا ذكر في الأفواه غيرك إنما كل المجالس بالدعاء السرمدي

بلد صحبتَ بها الشبيبة والصبا ولبستَ تاج الملك فيها بسؤدد

إذا تمثل في الضمير رأيتَها من حبكم ملأى كخَود (1) أغيَد

وعليها أثواب الشباب تَرفلا تزهو بكم مع شوقها المتوقد

ترجو الإمام أدام ربي فضله وكساه عزا سابغا لا ينفذ

فسؤالها تَصغَى إليه بتكرُّم وإجابةٍ لا زال مجدُك يُنجِد

490//

نلت المكارم كلها وتجمعت كل الأماني إن سألتهم تَشهَد

أَبْ سالما والسعدُ مُقتبِل لكم يا كعبته العَلْيا وهَضبة سؤدد

طرزتُ ديباج القصيد بذكركم فأتى كأن راقته حُلَّة عسجد

شرفت قصائدنا بمدحك في الورى لا أنها زادتكم في مَصعَد

إذ لا يُزاد في مقام قد علا فوق الثريا وقد علا فوق فرقد

---

1 على هامش المخطوط: الخَود الحسنة الخَلْق الشابة، أو الناعمة. الجمع خَوْدات وخُود اهـ

لِغناكم بِحُلاكُم عن مدحها … لكن نُزين شِعرنا في مورد

وآتيكَها مثل العروس زففتُها … سكرى تجر ذيولها بتمهد

متطلبا عطف التجاوز والرضى … من فضلك حلمكم العزيز الأحمد

فابسط بفضلك عذر وافدة … العلا وابسط لها وجه الكريم الأجود

لازلت تبقى للمحامد جامعا … ومهنئا في ظل عيش أرغد

والسعد ينشر فوق رأسك راية … تبقى مع العليا بعز مُؤبَّد

بالمصطفى خير الورى وبصحبه … والآل ثم تابعيهم ومقتد

صلى عليه الله ما سَر سامِعا … بُشرى بنصر الدين ديني مُحَّمد

ذكر مراحل سيدنا الإمام //491 أمير المؤمنين في هذا التوجه العظيم، والفتح المبين الجسيم، على سبيل التجريد، لكون القصد بها تأسيس التمهيد، ولذلك كان أكثرها أقصرها سيرا، وقد تقدم خلال هذا التقييد بيان ذلك على وجه من الاختصار مفيد.

من فاس لعين السمار	3 ساعات	00 دقيقة
ومنها لمدينة صفرو	ساعتان	30 دقيقة
ومنها إلى عيون الاصناف (1)	3 ساعات	00 دقيقة
ومنها إلى تكَننايْت	ساعتان	30 دقيقة
ومنها إلى تغروت (2)	3 ساعات	00 دقيقة
ومنها إلى بُولمال	ساعتان	30 دقيقة
ومنه إلى الانجيل	4 ساعات	15 دقيقة
ومنه إلى تِجام	ساعتان	15 دقيقة
ومنه إلى سهب الروا	4 ساعات	00 دقيقة
ومنه إلى بولعجول	ساعتان	45 دقيقة
ومنه إلى بوحَفص	1 ساعة	30 دقيقة

//492

ومنه إلى بوزكير آيت عياش	ساعتان	25 دقيقة
ومنه إلى وطاط آيت ازدگ	3 ساعات	38 دقيقة
ومنه إلى بوگمان	3 ساعات	00 دقيقة
ومنه إلى بوعياش بعين الدُّون (3)	ساعتان	00 دقيقة
ومنه إلى فم افتيس (4)	ساعتان	00 دقيقة
ومنه إلى أنزَل	5 ساعات	00 دقيقة

1 الاصناف هنا كتبت بفاء لا نقطة لها، وقد كتبت في موضع سابق بحرف الباء في آخرها، لذلك يبدو أنها فاء. ولم نتمكن من ضبطها، فلتحرر.

2 في المخطوط "تغزوت" بالزاي، وقد سبقت الإشارة إلى أنها تغروت بالراء.

3 كذا تبدو، ولم نتمكن من ضبطها.

4 كذا تبدو مع صعوبة قراءتها.

ومنه إلى تيليشت تصلاحت (1)	ساعتان	35 دقيقة
ومنها إلى گرس	3 ساعات	00 دقيقة
ومنه إلى الريش دار العيد بواد زيز (2)	1 ساعة	00 دقيقة
ومنه إلى تمگدرت	4 ساعات	30 دقيقة
ومنه إلى اگدَم	3 ساعات	40 دقائق
ومنه لسمگات	3 ساعات	40 دقيقة
ومنها لتگنَنَت	4 ساعات	40 دقيقة
ومنها لتدغست	1 ساعة	25 دقيقة
ومنها لمغة (كذا) قرب اگدمان حدود بين آيت مرغاد وآيت ازدگ	1 ساعة	40 دقيقة

493//

ومنها لتاردة (3) بلد آيت ازدگ	3 ساعات	40 دقيقة
ومنها لقصر السوق (4) بلد آيت ازدگ فيها	3 ساعات	40 دقائق
ملاقاة فيها التقى جيش السلطان والحوزية مع نجله مولاي مُحمد.	--	--
ومنه إلى امَسك بلد آيت ازدگ وآخر مدغرة	3 ساعات	40 دقيقة
ومنه إلى ظهر (...) (5) منه بلد آيت عطا	1 ساعة	40 دقيقة
سكان واد الرتب (كذا)	--	--

1 على المخطوط "تَلجت تصالحت" وقد أثبتنا ما هو معروف حاليا، وبين تيليشت وتصلاحت بضع كيلومترات قليلة حسب ما يبدو على خريطة شبكة الانترنت.

2 كُتِبت في المخطوط هكذا "ومنه إلى الرايش دار العبد بوادزير". أما الريش فهي بالأمازيغية "أريش" أي درع صخري أو ركامات من الأحجار، ولعل هذا اللفظ الأمازيغي هو السبب في كتابتها "الرايش" تبعا لمنطوق اللسان، إذ لو كانت عربية الأصل بمعنى الريش لكتبت بدون ألف. وأما "دار العيد" فقد وردت في موضع آخر على المخطوط واضحة عند قوله "...نزل على قبائل تادلا وخيم بدار العِيد المعروفة هنالك" مع كسرة تحت العين. وأما "بوادزير" فقد رجحنا كونها "بواد زيز" لمرور ذلك الوادي ببلدة الريش. والله أعلم.

3 - استقبلت قبائل آيت ازدك موكب السلطان مولاى الحسن الأول الوافد من جهة تاردة يوم 30 اكتوبر 1893م، أواخر ربيع الثاني 1311هـ.

4 - قصر السوق سابقا هو مدينة الرشيدية حاليا.

5 - كلمة غير واضحة، تبدو مثل "الجرا".

ومنه إلى المعاركة على طريق أوفوس	6 ساعات	00 دقيقة

مراحل التوجه من الدار البيضاء

من الدار البيضاء لتافيلالت إلى مراكش منها إلى قصر حنابُّو (1) بلاد الأعراب	3 ساعات	30 دقيقة
منه إلى فرقة بلد الاعراب	3 ساعات	10 دقائق
منها إلى توروك (2) بلد آيت عطا	3 ساعات	30 دقيقة
منها إلى الخربات	00 ساعات (كذا)	00 دقيقة (كذا)
منها إلى كركور مولاي سليمان	ساعتان	45 دقيقة
منه إلى تَمَلُّوسْتْ	5 ساعات	5 دقائق

494//

منها إلى (...) (3) بِاگرسِيف	5 ساعات	15 دقيقة
منه إلى آيت يحيى بعد وادي مگونة	ساعتان	30 دقيقة
منها إلى إمسِيسِي بقصر البور (4)	3 ساعات	30 دقيقة
منه إلى اسكورة بكونة الحدَّادة	3 ساعات	40 دقيقة
منها إلى آيت بودلال	4 ساعات	40 دقيقة
منها إلى تِفُلتُوت	--	--
منها إلى إيميني	--	--
منها إلى تلولت	--	--
منه إلى اداغ (5)	--	--
منه إلى زرقطن (6)	--	--

1 حنابو: هو دُوَّار يقع بجماعة عرب صباح اغريس، إقليم الرشيدية، جهة درعة تافيلالت.

2 في المخطوط "ترگ". وتوروك بلدة تقع بالجنوب الشرقي للمغرب جهة درعة تافيلالت أو مكناس تافيلالت - قديما في الطريق الوطنية رقم 702 الرابطة بين أرفود وتينجداد، يحدها شمالا الجبال المطلة على تخوم مدينة الراشدية وشرقا الجارة فزنة المحادية للجرف وجنوبا الجبال القريبة من امسيسي وغربا ملاعب (أو قصر ملاعب).

3 كلمة غير واضحة.

4 إمسِيسِي(M'SSICI) وهي جماعة قروية تابعة لإقليم تنغير ضمن جهة درعة تافيلالت بالمغرب. وقصر البور هو دُوَّار يقع بجماعة فركلة العليا، إقليم الرشيدية، جهة درعة.

5 في المخطوط "اذَغْ". واداغ هو دُوَّار يقع بجماعة زرقطن، إقليم الحوز، جهة مراكش.

6 في المخطوط زربطن، ولعلها "زرقطن".

منه إلى سيدي رحال	--	--
منه إلى حانوت البقال ببساتين مراكش اهـ.	--	--

خيم مولانا الإمام الفتَّاح، الذي هو لكل فضل وضَّاح، وللمزايا رحال، ببلد ولي الله سيدي رحَّال، ظهر يوم الجمعة سادس جمادى الثانية، وقام بها يوم السبت ويوم الأحد، فمولانا رَحَّال، حل ضيفا عند سيدي رحال، فوصف المبالغة وافق الاسم الخالص //495 فتوافقا.

ويوم الاثنين توجه في الساعة الثامنة من أول النهار لمراكش، فلم تُحط الرحال إلى بساتين مراكش بحانوت البقال [إلا] (1) بعيد الغروب، فاستراح نحو الساعتين بأثناء الطريق، صلى الظهر والعصر وزاره ولي الله سيدي عبد الله بن ساسي، ودخل دار الملك في الساعة الثامنة يوم الثلاثاء، وزار السبعة الرجال صبيحة الثلاثاء، أدام الله به حفظ الإسلام، آمين.

الحمد لله، لما حل سيدنا ومولانا، ونعمة الله في أولانا، أمير صاحب هذا التاريخ، بزاوية سيدي رحال، طارت بنا أجنحة الفرح والشوق لرؤيته وزيارته، كما أسرع لذلك جمهور الناس بهداياهم، والعُبَيْدُ جرى على المنهاج القديم فيما يهديه جنسه للملوك، فاختار هدية فائقة رائقة، تكون عند الملك نافقة، وبقدره لائقة، فلم أجد إلا العلم الذي شَغَفَهُ حُباًّ، والحكمة التي لم يزل بها صبا، وفي الحديث: إذا أراد الله بأمة خيرا جعل العلم في ملوكها، أو جعل الملك في علمائها، أو كما قال ﷺ. (2) وهي هذه، محاكيا بها فرح أهل مدينة الرسول ﷺ لما طلع عليهم //496 من ثنية الوداع فتلقوه متناشدين: "طلع البدر علينا" الأبيات الثلاثة، مصرحا بآخر كل بيت منها، فقلت من بحر الوافر:

أيا بدرٌ طلعتَ على الأنام	طلوع الجد من ذات الوداع
طلعتَ علينا من أعلى الثنايا	فكم راج لطلعتكم وداع
طلعت على العوالي والمعالي	ومنها علينا بالأمر المطاع
طلعت بكل خير مستدام	أدام الله ضوءك في الطلاع
ودام سطوع نوركم علينا	ونيلكم الأماني في رتاع
بطلعتكم لنا راع الفؤاد	وأفرخ رَوعُنا بعد ارتياع
لقد أبعدت شقة ذي الفتوح	وقد أبدعتَ أعجب الابتداع

1 إضافة يقتضيها السياق.

2 لعله ليس بحديث نبوي، فقد عزاه الماوردي لبعض السلف في أدب الدنيا والدين ص41 قائلا: وَقَالَ بَعْضُ عُلَمَاءِ السَّلَفِ: إذَا أَرَادَ اللَّهُ بِالنَّاسِ خَيْرًا جَعَلَ الْعِلْمَ فِي مُلُوكِهِمْ، وَالْمُلْكَ فِي عُلَمَائِهِمْ.اهـ

لئن رمنا لها شبها نقول   أهاذي تبوك أم ذات الرقاع
مَشقَّتها وشُقتها سواء   وإن خصالها ملء السماع
بخيل الله خيلِك والمهارة   صدعت بما أمِرت بلا نزاع
تبارك الإله على إمام   له باع فليس بمستطاع
زَماعِ في الشدائد والصعاب   فليس سواه يوصف بالشجاع
إمام شارع وشريع (2) حقا   كفيل بالعجائب في اختراع

497//

أمير المؤمنين أبا علي   أيا حسن تعاليت في الطباع
طباع ليس يشبهها طباع   فسيح الذرع في طول الذراع
فأنت لعمري طلاع الثنايا   وأنجد وللخيرات ساع
حسام الملك أنت وبالإله   تصون في الشدائد والدفاع
تفيض كما يفيض النيل جودا   وتقدم فوق إقدام السباع
إذا نزلت بنا كبرى الرزايا   فأعلى عُلا نهايتها تُراع
لواء الدين في يديك نصبا   به الظفر المؤيد في نَجاع (3)

هذا وقد تقدم أن هذا السلطان المؤيد المظفر، الشجاع المقدام الغضنفر، حل حلوله الغيث، المرجو نزوله بعد الريث، بحاضرة مراكش محل كرسيه، لَمَّا رجع من تمهيد القصر الفيلالي وما وراءه وما دونه، صبيحة يوم الثلاثاء عاشر جمادى الثانية سنة إحدى عشرة وثلاثمائة وألف، فقام بها خمسة أشهر، والحال أن دائرة الملك قد اتسعت كثيرا، وانتشرت أموره انتشارا كبيرا، واجتمعت كلمة الإسلام، وتم لسِلكِه النِّظام، فتصدى بعد حلوله واستراحته لتدبير //498 أموره العظام، ولاح على ظاهره ما يشعر بأن الباطن عُمر بما يتلو الكمال والتمام، ومن ذلك أنه خالف في هذه المدة وحدها العادةَ، من عدم جمع الطلبة لقراءته فيها صحيح البخاري على الكيفية المعتادة، نعم بلغني عن الثقة أنه انفرد لسرده في وقته المعلوم وحده، يتلو به بعد صلاة كل صبح ورده، وذلك أنه حيثما تفرغ من أوراده بعد صلاة الصبح يتصدى لقراءته كل يوم حتى ختمه.

1سبق للمؤلف شرح معنى هذا البيت.

2شريع : شجاع.

3 كذا في المخطوط، ولم نعثر عليها في المعاجم. فإن كان من نَجَعَ الشيءُ : نَفَعَ وظَهَرَ أثُره، فالمصدر نجع ونجوع.

ومن جملة ما ظهر منه لمن تنبه له تغيير حاله وأحواله، وهشاشة قلبه وشغل باله، وكأنَّ الشاغل حينئذ للبال، ما عُهد مما يتلو الكمال، واستحضار ما أبكى سيدنا عمر، كما جاء صحيح الأثر، لما نزل على النبي ﷺ بعرفة يوم الجمعة (اليوم أكملت لكم دينكم) الآية، فعلم أنها ناعية.

وقولي: ولاح على ظاهره ما يُشعِر بأن الباطن عمر بما يتلو الكمال والتمام، له أدلة عدة، لا تحتاج العقول في إدراكها للحِدة، والدلائل إذا تكاثرت يقوي بعضها بعضا.

فمن أول الإدلة جنوحُه لإخفائه العمل الخاتم، كإخفائه التعبدَ بقراءة صحيح البخاري على خلاف المعتاد. ومنها هيجان الدموع عليه يوم 499// عيد الفطر الموالي لختمه في هذه المرة، فقد أخبرني الثقة أنه لما رجع من المصلى ومشهد العيد ودخل لداره، انفرد في محل للبكاء الكثير بكاءَ مُوَدِّعٍ للدنيا مقبل على الآخرة، يرجو ربه، يخاف كسبه، وقيل إنه صرح بما ملأ سمعَه في ذلك المشهد مما لم يسمعه غيره.

ومنها توجُّه إقبالِه، بجميع نظره ولبه وباله، على خليفته من بعده، وقد عقد له موكبا لزيارة أولياء الله الصالحين كمولانا إبراهيم بن أحمد وغيره، وصحبه معه بالخصوص في زيارته هو للسبعة الرجال وغيرهم من أولياء مراكش.

ومنها كَفُّه لمن ربما تُخشى منازعته له من بعده من إخوانه وهو مولاي محمد، (1) لكونه تقدم له ارتضاع ثدي الخلافة واشتهر بها اشتهارا كبيرا، فأوقعه في محل لا يتعداه مظهرا زجره وتأديبه، كأنه جانٍ جنايةً عظيمة استوجب بها ذلك، مع أنه ما فعل الأقل مما يفعل أبناء الملوك، غايةُ ما ارتكب فيما ظهر لنا خصلتان دالتان على أنه ناشئ نشأة الملوك العظام، واقتفى سبيل أبنائهم الكرام، وأنه كريم الطرفين، وذلك أنه أفرط في الكرم والحياء، وناهيك بهما من خصلتي الخير 500// فهما خصلتان يحبهما الله ورسوله، وقد تقدم بيان ذلك بما يكفي، فأوقفه أبوه السلطان كأنه يريد بإيقافِه قطعَ منازعته لأخيه في الخلافة العظمى، وذلك هو السر فيما قوبل به وفعل من إيقافه بمحل خاص، والله أعلم.

ومن أوضح الأدلة، أنه لما عقد لولده الخليفة مولانا عبد العزيز لواء الخلافة، نصب له ذلك كانتصابه للملوك من غير فارق، وأخرج معه للتشييع جميعَ كبراء الدولة وأعيانهم، من علماء ورؤساء وغيرهم، حتى شَيَّعوه على هيئة مَلِك من جميع ما عُهد للملوك.

ومنها ما نُقل أنه لما خرج موكبه وراياته وألويته، صعد والده السلطان لبعض الأماكن المشرفة على ذلك من قصر الملك وأخذ يقول لمن معه من أهل الدار: انظروا الملِك، انظروا السلطان.

ومنها أنه لما شيع موكبه العظيم بجميع دائرة الملك، خرج هو منفردا للحمى المسمى بأكدال وحده ليس معه إلا نفر قليل من صغار الحشم، كأنه انسلخ لولده مولاي عبد العزيز عن الخلافة، وهي من جملة براعة الاستهلال وبراعة الاختتام.

---

1 مولاي مَحَمَّد (فتحا) هو الابن البكر للسلطان الحسن الأول.

ومنها أنه لما ماتت حليلة والده، أم أخويه مولاي إسماعيل ومولاي بلغيث، يوم زيارة 501// السلطان زيارة الوداع مع أولياء الحضرة المراكشية، وخرج لتشييعها راجلا مع بُعد المسير، وشاهدها ما قلنا من [أن] (1) انتقال حاله وأحواله ظاهر على الأسارير، فترجل كل الناس تبعا له، مع طول المسافة بين دار الملك ومحل الدفن، ظهر منه في الرقة والهشاشة وجموح العينين أمر عجيب، سيما صبيحة زيارة القبر في اليوم الأول والثالث، وزيارة سلفه الملوك وتوديعهم، فقد غلب عليه من تبدُّل حاله وسيلان دموعه ما ليس بمعروف منه قط، وكل من تفَطَّن لذلك تعجب منه غاية.

ومن جملة ما قيل ونُقل أنه سارر بعد خاصة أهله أنه في المشهدين، مَشهَدِ العيدِ ومشهد هذه الجنازة، لا يسمع فيها إلا النداء برحمته ونصر ولده مولاي عبد العزيز، وذُكِرت أمور أخر تدل على ذلك، من دخوله بعض أماكن سلفه المتقدمين التي ما فتحها قبلُ قط، إلى غير ذلك.

ولزيارة خالص سلسلة الذهب الإبريز، مولانا عبد العزيز، لمولانا إبراهيم بن أحمد المتقدمة حكاية، وذلك أن السلطان عقد له لتلك الراية موكبا عظيما جليلا، وجمعا لصيانته حفيلا، من خدم وحظايا، وجعل مُهِمَّ شأنِه 502// وأمرِه لمن له به مزيد اختصاص، كاد أن يكون تربى في حجره، حتى إنه إنما يدعوه ويناديه بلفظ الأبوة وهو الشريف الفقيه واسطة السياسة النبوية، ويانع غصن الشجرة المصطفوية، من اتخذه السلطان في مهماته معينا ومشيرا، وفي غالب أوقاته مستشارا وسميرا، لما له من الدراية الصائبة، والنفس السامية، كأنَّه عينُه الباصرة، ويدُه الناصرة، إذا وُجه لأمر مغلق كان له أنجحَ مفتاح، وظفر فيه بالفوز والنجاح، لما له به من الأدب الجزل، والمنطق الفصل، جمع إلى حسن التؤدة السمتَ الحسن، والخلق المستحسن، والعقل التام النوراني، الفقيه الشريف سيدي مُحمد الأمراني، فهو الذي اطمأنت نفس السلطان به حتى استودعه في حجره، وجعل له جميع أمره، فقام بحفظ الأمانة، ولم يَأْلُ جهدا في الصيانة، إلا أن الشريف المصون مع صغر سنه روح ضَيغَم في جسم بشر، نفسه تواقة لتعاطي آله الحرب بدون حذر، ولا خشية ضرر، فلما لم يجد من أجل شدة الصيانة إلى ذلك سبيلا، دس إلى بعض العبيد والخدم أن يكون له إلى مُراده دليلا، ولم يزل هو والمدسوس له في محاولة التنصل، 503// يريد إلى ذلك التوصل، حتى حُطَّت رحال الزيارة بفناء المزور، والشريف لا يشاهد منه إلا الحال المستحسن المشكور.

حدثني بعض الأشراف القاطنين بحرم مولاي إبراهيم أنهم شاهدوا من ثباته ونجدته وعقله وحسن سيرته في ذلك ما تُخشى عليه منه عين عيون، لما رأوا من إتباع الناس له العيون، سيما وفي الصحيح أن العين حق والسحر حق، وأنها قد أصابته هناك سريعا بلطف، فطفق الناس يُتبِعونه ألحاظهم، أطلقوا في استحسان أحواله ألفاظهم، ومن ذلك أنه قام يتوضأ في موضع خالٍ، فإذا بمطل يطل عليه من كوة، فاستفهم عن حاله فأخبره أنه مسجون هناك، فأرسل الشريف المصون مولانا عبد العزيز لمن سجنه ليسرحه، فقيل له غائب، فأرسل لخليفته فاختفى بالمفتاح، فعمد إلى القفل بحسن ثبات وتمام تؤدة فكسره وسرح المسجون، وخاطبه خطابا لذيذا من جملته: ما سخرتي حيث سرحتك؟، فأجابه: بكل ما أراد سيدنا، فقال

1 إضافة يقتضيها السياق.

له على سبيل البسط والاستئناس: السخرة بيضات، فأسرع الرجل للإتيان بذلك على غاية الفرح، وإزالة الترح، والناس يتعجبون //504 من إحاطة الحسن بجميع أحواله، فلم يكن بأسرع من عين عيون، وذلك أنه أشار لمن دس له أن يأتي له بالبارود عند اشتغال حافظيه وصائنيه بالتغذي، وأسرع هو بالقيام إلى أين يريد، فأشار إلى أنه يريد الوضوء أو سببه، فاستر عن أعينهم، فأتاه العبد بالبارود في الحين ففرقعه فتفرقعه على وجهه، فصاح بالمدعو بالله وهو الشريف المذكور، ففزع ذلك الشريف فزعا لم يفزعه قط، فالتهب وجهه بشرر البارود، وكان من قدر الله وغريب الاتفاق أن والده السلطان خرج صبيحة ذلك الوقت لزياره جموع طلبة العلم في نزهة سلطانهم، وحيث فرغ من زيارتهم تقدم للدخول لبستان المنارة المعلوم، فدخله ومشى في زواياه ثم رجع، وكنا نتشائم من دخول السلطان لذلك البستان لواقعة تقدمت شفقة عليه، لما في المثل السائر "إن المشفق بسوء الظن مولع"، والواقعة ما كان طرأ عليه من الألم الهائل كما تقدم بيانه. فرجع مولانا عبد العزيز وموكبه من تلك الزيارة وعلى وجهه أثر الالتهاب، قد كشط منه بعض الإهاب، فلما نظر والده السلطان تغير لذلك وأخذته أريحية الحنانة //506 ([1]) والشفقة، وغضب على بعض الخدم، وربما جُلد من جُلد وأُقصي من أُقصي، لولا الشريف سيدي مُحَّد الأمراني تقدم له بالتسلية والتهنئة وتهدين المصيبة. فلما سكن الغضب وتسلى، لأن هجوم الأوجال، مما يزعزع أقدام الرجال، أنشأ مقيد هذا التأليف أبياتا قليلة في تهنئة السلطان بسلامة فلذ كبده، الذي هو أحب ولده، مما قدر، ومشيرا فيها إلى أن تشاؤمنا بذلك الموضع مستحضر في قلوبنا شفقة على روح الإسلام الذي هو السلطان، وأنه قد صحبه اللطف والحمد لله، فلما رُفعت الأبيات إليه، والحالة أنه قد تراجع وسكن ما لديه، قال لبعض وزرائه وشيخه الفقيه العلامة السيد علي المسفيوي: أحضر لنا فلانا مُنشئ هذه الأبيات، وقل له يعد نظرا، فمثل هذه الواقعة الدالة على محبة آلات الحرب المشعرة بالشجاعة والنجدة، لا تحسن فيها التهنئة للسلامة من مباشرتها لأولاد الملوك، أنما ذلك لو سقط عن حائط أو في هوة أو عن بغلة أو نحو ذلك، وكلاما هذا معناه، وأشار بتغيير الأسلوب في ذلك، وأمر بالرجوع إلى منحى آخر مخالفا لما هنالك، فصرفت في الحين عنان القلم لقطعة //507 مشيرا فيها إلى ما كان خفي عن بعض الناس من نجدته، وكونه روح غضنفر في جسم بشر، وكونه على غاية الانحياش، إلى الاقتداء بالله في ثبات الجأش، وأنه من أبناء الملوك الذين يجرون على آثارهم، ومشيرا إلى كيفية الواقعة، وأنه لم يعبأ بها لما عليه من النجدة، وأنه قد ظهر ذلك كله لمن كان خفي عنه، ونصها:

لقد برح الخفا وما كان من خفا ... ولكن إذا انخفى على جاهل غمر
فهذي معان بَيَّنت كل نجدة ... وآثارها تغنيه عن كل ما خُبر
فكل يرى طوق الشجاعة والندى ... ولكن كلهم إلى طبعه يجري
فشبل إمامنا وقرة عينه ... يعالي النجوم الساريات إلى الفجر

---

1 كتب الناسخ 506 عوض 505 خطأ ثم تسلسل الترقيم

فيعشو إلى نار الوغى شغفا بها ويغشى وُفودها جهارا وفي سر
فعبد العزيز ذاك شبل إمامنا يعانق سؤددا كما قيل في شعر
ملوك وأبناء الملوك وسادة تفلق عنها بيضة الطائر الصقر
متى تر فيهم ناشئا في شبابه تجده على آثار والده يجري
ألست ترى لما الإمام له ارتضى زيارة أهل الله في السر والجهر
وكان رأى في جسمه روح ضيغم وهمته تسمو إلى هامة النسر

ص 508

أقام له من يرتضيه يكُفُّه عن الطبع لكن ليس للطبع من قسر
فموكِبُه إذ زار شاقت نفوسُهم لنحو الغِذا وشاق نفسا لما يدري
فليس سوى البارود والخيل مهمته وآلة حرب في المسرة واليسر
تعاطى من البارود إذ ذاك غفلة من المرتضى لكفه دون ما ذُعر
فطار شراره على وجهه ولم يبال كأنما تعطر بالعطر
فلله يا عبد العزيز أبوكم ولله همة معانقةُ البدر
أيا ابن الكرام الغر من آل هاشم وآل هشام ذي الشجاعة والبر
لك المجد موروثا ومكتسبا لكم وليس لغيركم مَنال لِذا الفخر
ورثت من الآباء قوة جأشهم فلا عجب لمن يراك لها تجري
فجنَّت لك العلياء في كل لحظة وأنت صغير السن في كبر القدر
فلولا احتقار الأسد شبهتكم بها فكيف بذا وأنت في محتِد حر
فلم أر أمثال الملوك تشابها أصولا مع الفروع وأشبالها الغر
نتائج آباء كرام غضاريف كرام بنين ماجدين ذوي بر

انتهت

ثم رُفعت في الحين بإثر ذلك للسلطان ولما تأملها وقع عليها بخطه //509 يده: أحسنتَ ووافقت، وحُمت وأجَدت، وبالغ فيما يدل على استحسانها، وأجزل جائزتها، وكتب الفقيه العلامة الوزير السيد علي المسفيوي في الجواب ألفاظ السلطان قائلا: ووقع سيدنا أعزه الله عليها بخط يده ما نصه: أحسنت الخ الألفاظ واستحسنها.

وكان خروج نجل سيدنا ومولانا عبد العزيز لتلك الزيارة، زيارة مولانا إبراهيم بن أحمد ورجال آيت امغار (...) (1) عام أحد عشر وثلاثمائة وألف، وكان السلطان المؤيد المظفر مولانا الحسن قدسه الله في أعلى الجنان، أمر بضرب السرادقات والسياج خارج الباب الأحمر من المنشية غرة شوال عام أحد عشر وثلاثمائة وألف، وزار مولانا عبد الله بن احسين وزار السبعة الرجال وغيرهم من الأولياء بحاضرة مراكش هو ونجله خليفته مولانا عبد العزيز يوم الأربعاء ثالث ذي القعدة من تلك السنة، وبعد فراغه من الزيارة في آخر ذلك اليوم ماتت أم أخويه مولاي إسماعيل ومولاي بلغيث، وكانت من أعظم من يعتمد عليه من قواعد البيت، ووقع اعتناء كثير ومحفِل كبير بجنازتها وتتابع 510// ذلك ثلاثة أيام بعد يوم الدفن، وقد ظهر لسائر من نظر السلطان في تلك الزيارة انتقالُ حاله وتبدل أحواله، وما عليه من الرقة والسكينة مما كشف الغيب بعد ذلك أن هذه الزيارة كانت زيارة وداع.

وقد خرج من مراكش مولانا عبد العزيز برسم الخلافة حادي عشر ذي القعدة متوجها للغرب بعساكره وجنوده وراياته وبنوده (2)، فتبعته المضارب والمواكب والنجائب والجنائب، وعليه من وقار الملك وظلال السكينة كأنه تظله السحائب، مجتازا طريق القطر الدكالي، ونهض بإثره والده السلطان الأعظم الإمام الإفخم يوم الإثنين خامس عشر ذي القعدة، آخذا ذات اليمين، مجتازا على قبائل السراغنة وقبائل تادلا، وخرجنا لتوديعه مرحلة بعد مرحلة إلى أن خيمت جيوشه بقرية تملاَّلت ضحى يوم الاربعاء، بدون إقامة قبلها، ولما صلى العصر من يوم الأربعاء جال في صهوة جواده من غير إيذان بذلك، قاصدا زيارة ولي الله سيدي رحال البودالي، فأسرع خاصة الناس للركوب ومتابعته، فبلغوا مقامه قرب العشاء الأخيرة، فباتوا وظلوا مقيمين هناك اليوم الخميس، وأُحمِي للسلطان 511// الديماس، (3) وباتوا هناك الليلة الثانية، ويوم الجمعة رجع لجيشه قرب الزوال، ونهض بجيوشه من تملاَّلت يوم السبت، ووقع في ابتداء مسير ذلك اليوم منازعة بين فلاحي تملالت وبعض قبيلة البرابش من الرحامنة أولاد سيدي رحال العسولي على بعض الأرض التي بينهم، أفضى ذلك إلى القبض في تلك الساعة على المهدي الزبيري، وإلى إيقاد النار في أماكن بعض الساكنين هناك. واستمر مقيد هذا مصاحبا للجيش السلطاني إلى الموضع المسمى بالدشرة آخر بلاد السراغنة، والجيش السلطاني كل يوم يزداد كثرة وعظمة وزيادةَ أبهةٍ وفخامة، من رآه كل يوم يتضاعف في مرآه ونظره، ويزداد هيبة في بصره وفكره، يعلم يقينا أن الملك بلغ غاية الضخامة، فقد اتسع أمره وعظم قدره. ومن تخييم الجيش بدار الدشرة رجع مقيد هذا، وسبب زيادة المسير إلى هناك مع كوني توادعت مع مولانا السلطان حين التخييم بزاوية سيدي عبد الله بن ساسي سؤالي إياه تنفيذ دار بحومة القصور من مراكش كانت في الأصل ملكا للفقيه العلامة الدراكة شيخ الجماعة بمراكش في وقته 512// الفقيه السيد محمَّد بن الطاهر المراكشي دفين البقيع، فتناقلتها الأملاك من بعده إلى أن صارت للجناب العالي. وآخر من أنعم عليه مولانا السلطان

1 بياض بالمخطوط، ولم يشر الناسخ إلى وجوده في الأصل كعادته.

2 البَنْدُ : العَلَمُ الكبير.

3 الديماس: السرب المظلم وكُلُّ مَكانٍ عَميقٍ تَحْتَ الأَرْضِ.

سيدنا الحسن بسكناها بعض طلبة الغرب يقال له السيد الطيب بن عمير الشرگي، فلما أذن له بالرحيل لوطنه طلبتها وحصل لي الوعد بها.

وسبحان الله العظيم كم من مسألة تسال على يد مولانا إدريس الأكبر بزرهون فتقضى على يدي ولده مولانا إدريس بن إدريس، وهذا المقيد لهذا التقييد ممن وقع له ذلك مع مولانا إدريس وابنه غير مرة، وذلك كفلق الصبح في الوضوح، فقضى الله بقضاء مسألتي هذه بعد سؤالها للسلطان سيدنا ومولانا الحسن على يد ولده السلطان المحفوظ بعناية الله سيدنا ومولانا عبد العزيز، وقد ذكرتني ذلك، وحصل لي بعض الشبه بما هنالك، من كون كل منهما انعقدت له بيعة الملك ورايته في صغر سنه، ومن كون كل منهما قام بطام شؤونه خادمُه الأقرب إليه منذ نشأ، وقدرة الله صالحة لكل شيء في كل زمان لا يعجزها شيء، ولكل زمان رجال في كل دهر وأوان.

ولما رجعنا من تشييعه فلم يكن بأسرع 513// من هجوم المصيبة العظمى، وداهية الدُّويهية الدهماء، التي هي بعض صُروف الدهر التي تنقُض مبرَما وتُبرم منقوضا، فلا تنفك صروفه عن حلو ومر ويسر وعسر. شعر:

وليست بما تهوى النفوس صروفها (1) ولا حذر المحتال في صرفها يجدي

وقيل:

إن الليالي في الزمان مراحل تطوى وتنشر دونها الأعمار

فقصارهن مع الهموم طويلة وطوالهن مع السرور قصار

فدُعيت إلى رحمه الله وروحه وريحانه روح مولانا سلطان السلاطين، الذي كَلَّت في جانب عقله عقول سائر الناس، من جميع الأجناس، ووقفت دون شأو فهمه الأفهام، وعن حلمه الأحلام، فلبت وفي رحمة الله استقرت، وذلك آخر يوم الأربعاء فاتح ذي الحجة أو ثانيه خاتم سنة أحد عشر عاما وثلاثمائة وألف.

فكانت مدة خلافته العظمى بعد تقديس والده سيدي مُحَّد إحدى وعشرين سنة وأربعة أشهر وثلاثة عشر يوما، فنزلت بالناس مصيبة وأي مصيبة، وما أدراك ما المصيبة، فيا عظمها مصيبة حلت بالناس، عند هجوم ذلك البأس، ولقد ظهر صدق قول الحكماء: "كل شيء يبدو صغيرا ثم 514// يعظم إلا المصائب فإنها تبدو عظيمة ثم تصغر" اهـ

فهذه المصيبة مع انتهائها في العظم بجلالة المصاب، وتدويخها عقول ذوي الألباب، من جميع من حضر هجومها، أقام الله لها ولمعالجتها فردا واحدا تلقاها بصدر رحب، وفؤاد ثابت لم يذهله رعب ولا رهب، وهو الحاجب الأرشد، الفقيه الثبت الأنجد، ذو السعي الأحمد، والرأي السديد الأسد، السيد أحمد بن الوزير السيد موسى بن أحمد، أعجوبة دهره وأحدوثة عصره

وما الناس إلا واحدٌ بقبيلة يُعَدُّ وألفٌ لا تعد بواحد

1 في المخطوط: وليس لما تهوى النفوس صُروفُه ...الخ. والتصحيح من زهر الأكم ج2 ص309

وقيل:

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

أي أن الله تعالى قادر على أن يجمع في واحد ما في الناس من معاني الفضل والكمال، قال تعالى (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله) ولما ساق البخاري هذه الآيه قال القسطلاني: أي جامعا للخصال المحمودة، ثم استشهد بقول ابن هانئ: وليس على الله بمستنكر... البيت. وكان هذا الوزير مستحضرا شدة اطِّراد قول القائل:

ورثناهن عن آباء صدق ونورثها إذا متنا بنينا

//515 في هذا السلطان المقدس مولانا الحسن، لأنه ورث الخلافة ومكارمها عن آباء صدق، وأورثَها أحقَّ بها وأهلها من بنيه، فعاجل تلك المصيبة الكبيرة بما يصيرها صغيرة بعد أن كانت كبيرة، فانتضى صارمَ عقلِه، وأيقظ ثابتَ فؤاده، وتحمل لها ربط جأشه لرد عقول ذوي العقول، وتثبته حيث اعتراها من شدة المصيبة غايه الذهول، لأن هجوم الأوجال مما يزلزل أقدام الرجال، سيما والموضع الذي هجمت في هذه المصيبة كانت قبائله في القديم لا تخشى هجوم الملوك، بل ويَصعُب على الملوك في طُرقها السُّلوك، ما عدا هذا الإمام الذي تخشاه أسود الثرى أن يذيقها كأس الحمام، فشد هذا الحاجب السيد أحمد إزار الحزم بحبل الثبات واليقين، وشمر عن ساعد الجد بحسن العهد ومراعاة الواجب وحفظ المسلمين، والمدح له مدح في الحقيقة للملك الذي هو من جواهر عقده ولآلئ نظمه، إذ الملك يزهو بوزراءه، سيما من برز في خدمتهم، وبرع بحسن تدبيره وآرائه. ومن براعة تدبيره ورأيه أنه لم يفجأهم بنعيه، ولم يخبرهم بموته، حتى استووا على جدد السلامة، فنعاه لهم حينئذ، ومع ذلك //516 ذهِل من ذهِل على ما تقدم فبادر إلى الإعلان ببيعة شبله، وأكرَمِ نجله، صفة الصفوة الخالصة من الذهب الإبريز، سيدِنا ومولانا عبد العزيز، الجامع بين حاشيتي العز المؤيد والشرف العتيد، من أشرقت البلاد بنور طلعته، التي هي في ظلمة الدهر مصباح وعز مطالعته، التي فيها لصدور ذوي الشَّنا شجىً (1)، ولزند الآمال اقتداح (2)، السلطان ابن السلطان سيدنا ومولانا الحسن، ابن السلطان مولانا وسيدنا مُحَمَّد، ابن السلطان سيدنا ومولانا عبد الرحمن، ابن مولانا هشام، فإن بني هشام أعلام الآنام وملوك الإسلام.

نجوم سماء كلما انقض كوكب بدا كوكب تأوي إليه كواكبه
أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دجى الليل حتى نظم الجَزْعَ (3) ثاقبه

1 شنَأَ يَشنَأ، شنئًا وشَنَآنًا الرجلَ: كرهه وأبغضه. - الشَّجى: الحزن.

2 في المخطوط "اقتراح" وهو تصحيف.

3 الجَزْعُ : ضربٌ من العَقيق يُعْرفُ بخُطُوطٍ متوازية مستديرة مختلفة الأَلوان، والحجر في جملته بِلَوْن الظُّفْر.

فتبعه، أي تبع الحاجبَ المذكور، جميعُ من يعتبر كونه من أهل الحل والعقد، من دائرة السلطان، ثم الجيش كله من رئيس ومرؤوس، وتراجعت الأرواح والنفوس، ونقل إلينا ذلك بحضرة مراكش عشية يوم الجمعة، فأسرع أهلها كذلك، لنحو ذلك، فاجتمعنا بعد غروب الشمس لأجل مصيبتنا بغروب شمسنا، فاجتمع العلماء والأشراف من أقارب 517// السلطان وغيرهم وأعيان البلد، وعُقدت البيعة على العزم كما عقدها أولئك، وكتبها مقيد هذا بيده وناولها للأشراف لوضع أسمائهم عليها أولا. فمنهم مولاي الطاهر بن مولاي عبد الرحمن، ومولاي بلغيث، ومولاي المامون، والشريف الفقيه القاضي مولاي المصطفى بن عبد القادر، ومولاي الشريف نقيب الشرفاء العلويين، كما وضع ذلك غيرهم كثيرا، ولم يأل الشريف القاضي مولاي مصطفى جهدا إذ ذاك في العزم وشدة الحزم في ذلك، فلما استوعبنا من ضمه المجلس قام وقمنا معه ودخل لدار الشرفاء، كمولاي العباس ومولاي مَحمد أخوي السلطان المنصور بالله، يُعزيهم ويُسليهم ويأخذ عليهم البيعة بلطافة حتى أخذناها على جميعهم، وفي صبيحة غد عدنا لباب الدار العالية بالله لأخذها على العموم بعد الخصوص، لما يجب على المسلمين كافة من وضعها موضعها، وإيقاعها موقعها. كيف لا والخلافة مقصورة على قريش، وفي صحيح البخاري عن معاوية: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن هذا الامر في قريش لا يعاديهم أحد إلا أكبه الله على وجهه".. الحديث. وفيه 518// عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: "الناس تبع لقريش في هذا الشأن، مسلمهم تبع لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم" اهـ قالوا أي لفضلهم على غيرهم. ويدل له حديث آخر: "قدموا قريشا ولا تقدموها". وفي البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: "لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان". اهـ ولمسلم: "ما بقي في الناس اثنان" اهـ وبهذا يعلم كل مسلم عاقل، له عقل يعقله عن التهور والخروج عن السنة، أن الذين بادروا وسبقوا إلى عقد هذه البيعة فازوا فوزا عظيما، ونالوا بالأخذ بالسنة حظا جسيما، يَقدُرهم كل مسلم قَدرَهم، ويعرف لهم فضلهم وفخرهم، لأن ملوكنا من خالص قريش ونخبة بني هاشم، وهم الذين يقال فيهم:

فأكرم فخر إن فخرت وعنصر   هم الغرة الزهراء من فرع هاشم

قد توارثوا مكارم الأخلاق، المؤسسة على طيب الأعراق.

وما يك من خير أَتَوه فإنما   توارثه آباء آبائهم قبلُ

أليس هم من ذروة قريش وهامتها من غير خلاف ولا التباس، صرح الكتاب والسنة بتطهيرهم وفضلهم على سائر الناس، فلذا وجب 519// تقدمهم وحرم التقدم أمامهم، قد علم عقلاء المسلمين كلهم كيف كان كرم قريش وسخاؤها، وكيف عقولها ودهاؤها، وكيف رأيها وذكاؤها، وكيف سياستها وتدبيرها، وكيف إيجازها ومجازها، وكيف رجاحة أحلامها إذا

(...) (1) الحليم، وحدة أذهانها إذا فلَّ الحديد، وكيف شماسة أخلاقها وصونها لأعراقها، كيف تطمح النفوس وتزيغ الأبصار والقلوب عن ملوك جدهم هاشم وأبوهم هاشم.

قوم أبوهم هشام حين تنسبهم طابوا وطاب من الأفلاذ ما ولدوا
لو كان يقعد فوق الشمس من كَرَمٍ قومٌ بفضلهم أو مجدهم قعدوا

أدام الله دولتهم سابغة الستر على الإسلام، دافعة عن بيضة الإسلام كبير الأعداء والظلام.

قوم أبى الله إلا أن يكون لهم مكارم الدين والدنيا إلى الأبد

وهم ساداتنا وموالينا سيدنا ومولانا عبد العزيز، ابن سيدنا ومولانا الحسن، ابن مولانا وسيدنا مُحَمَّد، ابن سيدنا ومولانا عبد الرحمن، ابن سيدنا ومولانا هشام، أفاض الله شآبيب رحمته على من سلف، وأطال حفظ وعز من خلف، آمين والحمد لله رب العالمين.

1 كلمة غير واضحة.

نص ما كتبه الناسخ في آخر المخطوط

الحمد لله المعين الغني الحميد، الموفق المبدئ المعيد، الميسر نقل هذا البستان المفيد، على يد ناسخه وناقله من أصله، الراجي فضل الله وغفران ذنبه الكثير المديد، عبيد ربه (محجن) (1) الفضيل السائل من مولاه أن يكون انتفاعه بفوائد العلم دائما في المزيد، وأن يجعل هذا له من الحسنات التي لا تنقطع ولا تبيد، وقد تم انتساخه عشيه يوم الخميس سادس عشر جمادى الثانية سنة إحدى وعشرين بعد الثلاث عشر مائة اه ويتلوه ما ذُيل به من الأحاديث النبوية وغيرها زيادة استدلال على من لم يراع حق الخالق في مخلوقاته من آل البيت وغيرهم من المسلمين، حسبما أشير إليه كلامه في أثناء هذا البستان، مما طغى به لسان قلمه، مبينا ما انطوى عليه قلبه وتُجريه عَذَبَة لسانه.اهـ

وهذا نص بطاقة المخطوط منقولا بحروفه من موقع مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود بالدار البيضاء

http://www.fondation.org.ma/web/affichage_numerics/3441/17

بداية المخطوط : الحمد لله الذي طبع من أحب على أحسن سيرة...أما بعد فقد أمرني من تجب طاعته...السلطان...الحسن بن ...مُحَّد بن...عبد الرحمان...فسميته البستان الجامع لكل نوع حسن وفنن مستحسن في عد بعض مآثر السلطان مولانا الحسن...

نهاية المخطوط : قوم أبى الله إلا أن يكون لهم ***مكارم الدين والدنيا إلى الأبد .

وهم سادتنا ومواليا سيدنا ومولانا عبد العزيز بن ...الحسن بن...مُحَّد بن...عبد الرحمن بن...هشام أفاض الله شآبيب رحمته على من سلف وأطال حفظ وعز من خلف آمين والحمد لله رب العالمين.

. في العنوان المثبت في خطبة الكتاب وردت كلمة . وفنن مستحسن . والفنن هو الغصن المستقيم من الشجرة، وهو بهذا جاء منسجما مع المركب اللفظي . البستان الجامع . إلا إن اللفظة الواردة في العنوان المثبت . فن . هي الأكثر استعمالا في المصادر لاسيما وأن ابن سودة في دليله أورد تلك الصيغة و كان قد اطلع على نسخة عليها خط المؤلف

. بخط مغاير للنسخةï كتب اسم الناسخ على أنه مُحَّد بن الفضيل، لكن تشابه الخط بين نصي هذا المجموع، وكتابة الناسخ لاسمه بخطه في المخطوط الثاني، رجحت لدينا وقوع خطأ في هذا النص الأول وأن اسمه هو كما أثبتناه

. نسخ أخرى : المكتبة الوطنية (الخزانة العامة سابقا) بالرباط : 1346د. الخزانة الحسنية بالرباط : 12432

---

1 كذا تبدو بنون في آخر الكلمة ونقطة في الأسفل تحت الجيم، مما يؤكد أنها "محجن" لا "مُحَّد" كما ورد في بطاقة المخطوط على موقع مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود بالدار البيضاء، والله أعلم.

. يسعى باحثان لتحقيق هذا الكتاب بقصد نيل دبلوم الدراسات العليا في شعبة التاريخ : الأول هو عبد الرزاق بنواحي وقد سجل بحثه بكلية الآداب يفاس ظهر المهراز تحت إشراف الأستاذين مُحَّد يخلف وأحمد العماري في ماي 1992 ، والثاني هو مُحَّد أمنصور وقد سجل بحثه بكلية الآداب بالرباط تحت إشراف الأستاذ مُحَّد أمين البزاز في يوليوز 1994

. هذه النسخة مبتورة الصفحة الأولى (بمقدار 9 أسطر) ، واعتمدنا فيما ذكرنا عن أولها على نسخة مصورة عنها بحوزة المؤسسة. ولعل البتر المذكور حادث عارض أصاب النسخة الأصلية بعد التصوير.

نوع الخط : مغربي دقيق

صورة حقيقية للسلطان الحسن الأول رحمه الله



صورة أخرى للسلطان الحسن الأول وعن يمينه الوزير الكبير أو الصدر الأعظم باحماد يستقبل إحدى السفارات الأجنبية بالمشور



S.M. Moulay El Hassan, grand-père de S.M. le Sultan du Maroc, ayant à sa droite le célèbre Grand Vizir Ba Ahmed. Il reçoit une ambassade européenne au Méchouar

موكب السلطان الحسن الأول، خلال زيارته لطنجة عام 1307هـ 1889م مارا بالسوق البراني بطنجة وبدرب الفحص منه

هذه الصورة جزء من العمل التاريخي رياض البهجة في أخبار طنجة لصاحبه الفقيه الحاج محمد السكيرج

